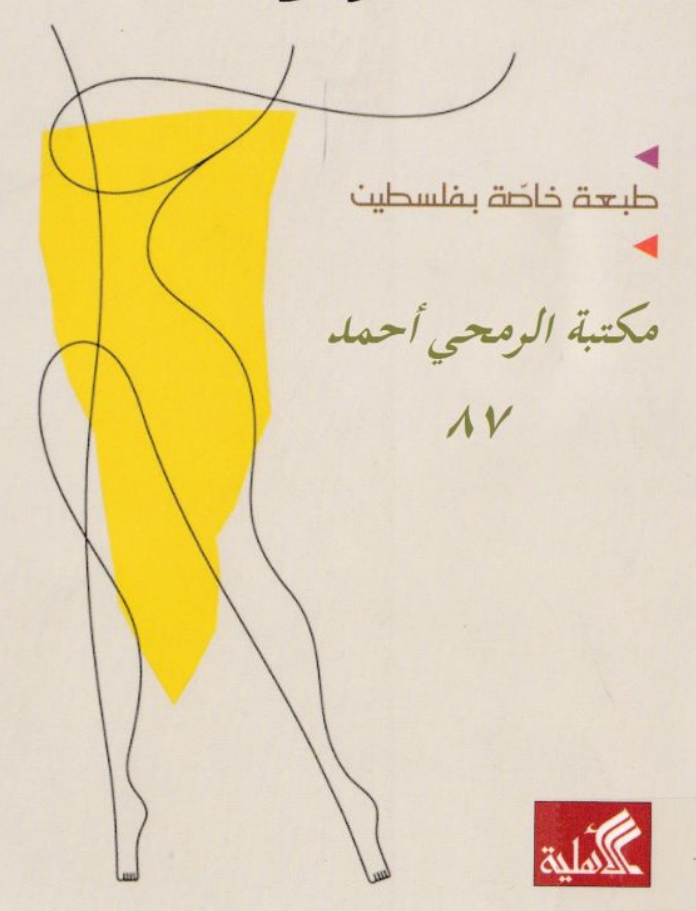
W A C I N Y L A R E D J

روايات

واسيني

نساء كازانوفا



طبعة خاصة بفلسطين

الأهلية

نساء كازانوڤا/ رواية عربيّة
واسيني الأعرج/ الجزائر
◆
الطبعة العربيّة الثالثة، فلسطين، 2017
الطبعة العربيّة الثانية، بيروت، 2017
الطبعة العربيّة الأولى، الجزائر، 2016

روايات

واسيني الأعرج

نساء كازانوفا

طبعة خاصّة بفلسطين



«كُلَّمَا كَانَ وَضْعِي الصِّحِّي جَيِّدًا، لاَ أَقُومُ بِأيِّ شَيْءٍ آخَر أبَدًا، سِوَى العَمَل لِدَرَجَةِ الإنْهَاكِ، وكُلّمَا خَانَني جسدي، عَلَيَّ أنْ أَعْمَلَ لأسْتَعِيدَ عَافِيَتِي[١]»

جياكومو كازانوڤا

«عندما نَكْتُبُ عَنِ النساء، عَلَيْنَا أنْ نَغْمِس الريشَةَ فِي قَوْسِ قُزَح، وَنَزْرَعَ سُطُورَها بِنُثَارِ أَجْنِحَةِ الفَرَاشَاتِ»[٢]

دوني ديدرو

(١) Je n'ai jamais dans ma vie fait autre chose que travailler pour me rendre malade, quand je jouissais de ma santé, et travailler pour regagner ma santé quand je l'avais perdue/ **Giacomo Casanova**.

(٢) Quand on écrit des femmes, il faut tremper sa plume dans l'arc-en-ciel et jeter sur sa ligne, la poussière des ailes de papillons/ Denis Diderot.

«حذارِ من الكَذِب على النِّساء. إنَّهنَّ يَملكنَ قُدرةً كبيرةً على تَحَسُّس الحقيقة، ومَلَكاتٍ أَعْظَم على التَّظاهُر بِعدمِ معرفتها».

شكسبير

«عِنْدَمَا يَحُلُّ الصَّمْتُ مَحَلَّ الحَقِيقَةِ، يُصْبِحُ الصَّمْتُ كَذِبًا»(١)

يوفتشينكو

---

(١) Lorsque la vérité est remplacée par le silence, le silence devient un mensonge/ **Yevgeny Yevtushenko.**

I

خُلْوَة لاغْرَانْد تِرَّاسْ(١)

كَازَانُوڤا لَمْ يَمُتْ

---

(١) La Grande terrasse.

١

رفع كابي رأسه قليلاً لا شيء تغيّر. دائمًا الدخان الأسود نفسه.

٢

ـ كازانوڤا مااات.   كازانوڤا مااات.   كازانوڤا مااات.

اختلط صوت كابي الجافّ بهدير الرياح العنيفة التي ارتفعت فجأة، لدرجة أن غطَّت سماء مَنَارة سيتي[1] بغبار أحمر عندما علت بقايا الصحف القديمة، والنباتات الميِّتة، وأوراق الأشجار التي التصقت بالأرض، وغبار المدينة الممزوج بالرمال الحمراء، أدرك كابي بحواسّ حيوان خائف، كم أنَّ الخريف حلّ بسرعة غير منتظرة، بعنفه ورياحه.

ركن درَّاجته الناريَّة جنب الحائط القديم. ثبَّت عجلتها الأماميَّة بالقفل الحديديّ القديم، الذي علا الصدأ أطرافه. أخذ من المقطورة الطويلة التي يجرّها وراءه، كومة الصحف اليوميَّة. وضعها على ذراعه اليسرى، محرِّرًا يده اليمنى كلّيًّا. رفع رأسه من جديد. تأمَّل بناية كازانوڤا العالية، *الدار الكبيرة* كما يسمِّيها جميع سكَّان منارة سيتي.

Manara City. (١)

مسحها بعينيه للحظات. توقَّف بنظره عند *خُلْوَة لاغراند تيراس*[١] فوق الطابق الرابع، التي تشكِّل طابقًا مستقلًّا، مفتوحًا على السماء، يكاد يكون منفصلاً عن بقيَّة الطوابق التحتيَّة لولا المصعد الخاصّ الذي ينطلق من وسط الدار، إلى لاغراند تيرَّاس مباشرة. كانت تتدلَّى من الخُلْوَة نبتات اللبلاب، تنزل من الأعلى، في شكل خيوط خضراء، حتى تكاد تلامسُ الأرْض ونوافِذ الطوابق التحتيَّة كلّها، بألوانها الكثيرة وزهراتها المتداخلة، مثل شُجيرات نوَّار الدفلى التي تملأ مدينة مَنَارة سِيتِي.

لا دخان أبيض ولا علم أخضر، في خُلْوَة لاغراند تيرَّاس. منذ أن دخل الإخوة الستَّة، بشير، عمر، مهدي، عليلو، يونس وهارون، في عزلة الخُلْوَة لتعيين خليفة كازانوڤا، وكلّ المارَّة ينتظرون علامة الدخان الأبيض التي تقول إنَّ الإخوة اتَّفقوا أخيرًا على من يرأس إمبراطوريَّة كازانوڤا الكبيرة والمتشعِّبة.

ثبَّتَ كابي الجرائد بشكل جيِّد على صدره، ثم انطلق وهو يصيح في شارع منارة سيتي الخلفيّ الذي احتلّه باعة الخضر والفواكه والبضائع المهرَّبة من الحدود، وما يصلهم من الصين وتايوان والفيليبين، وحتى سوريا، التي كان بعض المغامرين يصلون إلى عاصمتها، على الرَّغم من حرائق الحرب الأهليَّة التي نُسِيتْ في زَحْمَة الحروب الأخرى.

صاح كابي بصوته الرمليّ المكسور الذي يجرح الآذان:

ـ كازانوڤا مااات. كازانوڤا مااات. كازانوڤا مااات.

قبل أن يجد انسيابه الطفولي.

---

(١) من الفرنسيَّة La Grande Terrasse وتعني الشرفة الكبيرة.

صاح كابي مرَّة أخرى، بكلِّ قواه، وهو يقطع الطريق المؤدِّي إلى درب المقاهي الذي يكتظُّ منذ الفجر بالناس، وأنفاس العمَّال، وعرق العابرين وهم يصعدون نحو أعالي المدينة، باتِّجاه السوق الشعبيَّة، وسوق السمك الذي تتماهى فيه روائح الحوت الفاسد برائحة الأرجل التي لا يمسُّها الماء إلَّا قليلاً، والأحذية النتنة العتيقة.

ـ كازانوڤا مااات. مااات كازانوڤا كازانوڤا مااات.

ـ ههههه. شكون قال لك مات؟

التفت كابي نحو الصوت. عرفه من نبراته.

ـ ريزو. ملك المدينة الذي فشلت حتى الشرطة معه، مش الأفضل أن تنام.

ـ الآن يبدأ نومي يا كابي. هل نسيت؟ واش تقول جرائدك؟

ـ لا شيء. كما العادة. نبيع الهواء الفاسد بمقابل. خذ. سلِّم لي على بابا الطيِّب الحوّات.

سلَّمه نسخة من *الغاشي*. أخذها وهو يتمتم: *أدفع لك ثمنها في نهاية الشهر*. ثم واصل تدحرجه في الشارع شبه المُضاء. عندما وصل إلى عمود الكهرباء في الزاوية، قبل أن ينعطف شمالاً، وقف قليلاً فتحها بكلِّ عرضها تأمَّلها قليلاً، ثم رماها بكلِّ قواه، فبعثرتها الرياح التي كانت حدّتها قد زادت قليلاً

كلَّما اقترب من السوق، شعر كابي بالاختناق، فيخفّ صوته من تلقاء ذاته وتنتابه البحّة من جديد.

شمّ رائحة البحر والملح. شعر بالبرد يخترق جلده الجافّ. رأى من وراء زجاج مقهى *كافي بيرُّو ڤيردي*(١) وجهه الهادئ وهو يشرب

---

(١) أصل الكلمة إسباني Perro Verde وتعني الكلب الأخضر

قهوته البيضاء، وعلى مسافة شبر واحد، فنجان القهوة المُرَّة الصغير

عمّو خلدون، تمتم كابي. هو، هو، في مكانه اليوميّ، منذ أن تقاعد قبل سنوات. لم تتغيَّر عاداته أبدًا

انزلق كابي إلى العمق ليتفادى اللفحة الباردة القادمة من البحر في شكل سهم بارد.

استمرّ في نداءاته لبيع الجريدة.

ـ كازانوڤا مااات. كازانوڤا مااات. كازانوڤا مااات.

ـ لا عليك يا عكاشة. كازانوڤا لن يموت. سيدفننا كلّنا حتى قبل أن يرحل.

قال رجل كان منهمكًا في لعب *الروندا*(١) مع صديقه.

يجلس خلدون في الزاوية المطلَّة على الفراغ، في المكان نفسه منذ أن عرفه، بطقوسه وحركاته نفسها، وكأنَّ الزمن مثبَّت في نقطة بعينها أمامه كأس صغيرة من القهوة البيضاء، يتركها في منتصفها. تبقى أمامه ساعات حتى تبرد. يقرأ اليوميَّتين المحلِّيَّتين بالفرنسيَّة والعربيَّة، *الغاشي* و*La Populace*، قبل أن يختم جلسته برشفات متتالية من قهوته المُرَّة. ولا ينسحب من المكان إلَّا بعد منتصف النهار ليتغدّى، ويعود مساء إلى مكانه نفسه، يلعب الدومينو أو الشطرنج، مع أصدقائه الذين تُسمع أصواتهم من بعيد داخل المقهى وخارجه. وحده خلدون لا يتكلَّم إلَّا قليلاً يظلّ صامتًا، يتأمَّل الخارج الذي تملأه حركة البشر والحناطير وسيَّارات 4 x 4 الجديدة التي اجتاحت منارة سيتي.

---

(١) من الإسپانيَّة وهي لعبة الورق أو الشدَّة كما في بلدان المشرق.

وضع كابي أمام خلدون صحيفتي اليوم.

ـ أيّ جديد تحمله لنا نهار اليوم يا عكاشة؟

ـ لا جديد يا عمّو خلدون إلّا أخبار كازانوفا. شفتك من برّا. عرفت أنّك هنا تشرب قهوتك البيضاء، ماء ساخنًا مخلوطًا بماء الزهر، قبل القهوة المُرَّة التي تستمرّ معك ساعات طويلة حتى بعد قراءة اليوميَّتين.

ـ من سمّاك صوفة طايرة لم يخطئ. كيفها مباركة وليان؟

ـ ماما مباركة ببعض الخير تقاوم باستماتة وشجاعة. ليان مذعورة. قالت لي يمّا مباركة، في النهار تظلّ نورمال[١]، وفي الليل تهذي خوفًا، كلَّما تذكَّرت والدها الذي قُتل، لأنَّه كان عاشقًا وصديقًا لحسين فرجامي[٢] ومرافقًا له. لم يكن لا شيعيًّا، ولا سنّيًّا، ولا علويًّا كان مسيحيًّا لا أحد يعرف من قتله، كلّ الجهات متَّهمة، وكلّها بريئة. و ليان، نكاية في قَتَلة والدها، لا تسمع إلَّا لمعزوفات فرجامي. تعلَّمت الفارسيَّة سماعيًّا وتعزف بشكل ساحر على السنتور الفارسيّ، تمامًا كما علّمها والدها.

ـ الجهل قاهر يا عكاشة، والحياة في منارة سيتي ليست بسيطة. الإنسان يأتي، يولد ويكبر ويشيخ فيها، وهو لا يعرف أيّ جدوى لوجوده فيها! مدينة ناشفة.

ـ فكَّرنا أن نحتلّ زاوية صغيرة عند مدخل سوق المدينة، هي تغنّي فارسيّ، وأنا أغنّي دحمان الحراشي، لكنْ يبدو أنَّ الناس عندنا لم يتعوَّدوا على هذه الحرفة الحرَّة، كما قالت يمّا مباركة. *انتظروا*

---

(١) تعني عادي. من الكلمة الفرنسيَّة Normal.

(٢) واحد من أهمّ العازفين على السنتور الفارسيّ Hossein Farjami.

شوي يا ليان. الناس في منارة سيتي غير متعوِّدين على هذه الظاهرة. بعدها بأيّام، جرَّبنا الغناء في ميترو منارة سيتي. هي تحمل السنتور الذي اشتراه لها والدها تضعه في حجرها وأنا على البانجو نجلس على حافَّة الميترو نعزف ونغنِّي. يحلِّق حولها العابرون، يستمعون لها في انتظار الميترو الذي لا يتأخَّر أبدًا بعضهم من شدَّة إعجابه، يتركه يمضي في انتظار الميترو القادم. ويضعون في قبَّعتها الورديَّة الأوراق النقديَّة، وقطع العملة الوطنيَّة المفرغة من أيَّة قيمة، لكنَّها ضروريَّة للعيش. في إحدى المرَّات، أخذتنا الشرطة بتهمة الإخلال بالقانون واحتلال أمكنة بشكل غير قانونيّ، وتعطيل حركة الناس. طلبوا منها الإقامة القانونيَّة. لم تكن ليان تملك إلَّا جوازًا سوريًّا انتهت صلاحيَّته من شهور. استدعوا يمّا مباركة لتثبت أنَّها تعيش عندها، وأنَّها يتيمة الأبوين. من ذلك اليوم، خافت ليان من أن تُطرد. قال لها محافظ الشرطة، عمّي صالح، الذي يعبر يوميًّا أعماق منارة سيتي: *شوفي يا بنتي، أعرف أنَّ الوضع صعب، لكنْ رجاء لا تورِّطي نفسك في ما هو ممنوع.* قالت ببراءة طفل أعمى، يتكلَّم على سجيَّته: *يا عمِّي صالح ما سوِّيت شي مو منيح، بس كان بدِّي أفرح شويْ، وأفرِّح الناس معي. بدِّي بس أتذكَّر بابا، الله يرحمه، وجيب أربح شويَّة مصاري بكرامة مو أكثر. بحياتي ما مدِّيت إيدي لحدا* قال وهو يحكّ على رأسها، ويمسح دمعاتها التي امتزجت بالغبار الذي كان يغطِّي وجهها *المشكلة يا ابنتي ليست فيك. تجمّع الناس من حولك هو المشكل. العمى يا ابنتي عندما يصيب البشر يتذابحون. سنحاول أن نجد لك مكانًا بإذن الله يسهِّل عملك. الآن عودي مع ماما مباركة حتى نحلّ هذا المشكل.*

ـ ربِّي يشوف في حالها، تمتم خلدون بصعوبة. واش تشرب يا عكاشة؟

ـ كما العادة، *كافي كريم*[1] عَمّو خلدون. تعرفني، مثل الجرذ. لا خيار لي في هذا البرد، ماذا أفعل؟ من المخبزة إلى بيع الصحف، إلى السخرة وخدمة الناس، طوال النهار، مقابل ملِّيمات، خير من لا شيء. *كابي، خذ لي الخبز للكوشا*[2] *كابي شوف لي تاكسي كبيرة.* *كابي اشتر لي شويَّة خضر وفواكه.* *مرّ عليّ على الواحدة، رافقني عند الطبيب.* *كابي خذ لي هذا الطرد للبريد* ووو. وينتهي اليوم في الركض والجري. لولا توسّطك، ما وظّفني مدير مخابز كازانوڤا، في المخبزة. أنت تعرف له[3]، لهذا هو يحترمك حتى بعد أن تركته لالّة رقيَّة، روكينا واش يقدر يقول قدّامك يا عمّي خلدون؟ بحر! الله يبارك. يقولون إنَّك تشبه عالِمًا كبيرًا يسمُّونه: ابن خلدون.

ضحك خلدون حتى سال الدمع من عينيه:

ـ تعرف يا عكاشة، أنت طيِّب ولم يشوِّهك الضياع كثيرًا لو كان جاء هذا الرجل العظيم معنا اليوم، لوجدته تائهًا في الشوارع ليليًّا مثل ريزو الذي لا يملك إلّا تيهه. أو ربَّما يكون قد قُتِل.

ـ بكلِّ هذه الأهمِّيَّة؟

ـ شي مرَّة أحكي لك عنه.

أخذ خلدون الجريدة. تفحَّصها بسرعة.

ـ من الصباح وأنت تصرخ، كما البارح؟ كازانوڤا مات، كازانوڤا مات؟ والسيِّد ما يزال حيًّا يُرزق؟ من وين جيت بهذا الخرطي؟[4]

---

(١) قهوة بحليب.

(٢) المخبزة القديمة.

(٣) أنت تفهمه جيِّدًا

(٤) من أين جئتَ بهذا الكذب؟

قتلت الرجل قبل الوقت. حتى صحيفة *الغاشي* تقول فقط إنّه مريض، وأنت تكبِّرها وتقول إنَّه مات؟ كازانوفا ما يزال هنا، حيًّا يُرزق يا عكاشة، سيدفننا جميعًا قبل أن يغادر.

ـ لا يا عمِّي خلدون. هذه المرَّة انتهى كلّ شيء. لم يبقَ أمامه الوقت الكثير. أبناؤه صعدوا إلى خُلْوَة لاغراند تيرَّاس للتداول في الوضع واختيار خليفته.

ـ هههههه. ارحم هذا المسكين، وما تبيعش الجريدة على ظهره.

شرب كابي قهوته بالحليب. شعر بحرارتها تنزل في أعماقه الباردة. تأمَّل قليلاً الجرذ الكبير في الخارج الذي أطلّ برأسه من حفرة قنوات صرف المياه. أخرج رأسه أكثر من مرَّة، ثم عاد بسرعة خوفًا من كثرة الأرجل المتزاحمة التي كانت تذهب وتجيء. عاد ليتخفَّى ثانية. يعرف كابي جيِّدًا أنَّ الجوع سيقوده حتمًا إلى مغادرة ثقوب الأرض الكثيرة. وسيخرج بعد أن يملّ من قضم خيوط التليفون الجافَّة، والأوراق، والحجارة الكلسيَّة البيضاء، وكلّ ما تقوده الرياح نحو حفر المدينة. وستدوسه الأقدام الكثيرة نفسها التي لا تأبه بوجوده، في نهاية المطاف. سيُعثر عليه، ذات صباح، مرميًّا على حافَّة الشارع، ممسوحًا على الأرض، يتقاتل على بقاياه، الدود والذباب.

ـ أقلّ من الجرذان نحن في منارة سيتي، يا عمِّي خلدون. نكبر في الشارع وننتهي فيه. الجريدة ستُباع، لأنَّ الناس يحتاجون إلى كذب يوميّ يتغذّون به، في كلّ دقيقة، بل في كلّ ثانية، وإلَّا سيموتون قهرًا تعلَّمت منك هذا لا شغل لهم إلَّا المقاهي الرخيصة، والبطالة، والأسواق، والفراغ، وقراءة سخافات جريدة *الغاشي*[1]، و La

---

(١) تعني الشعب التابع، الذي لا يملك أيّ وعي. وPopulace بالفرنسيَّة تعني الشيء

populace التي أصبحت تختلق لهم القصص التي يريدون سماعها، أو الانغماس في قراءتها كلّ الجرائد الفرانكفونيَّة في هذه البلاد تبيع أكثر من العربيَّة، إلَّا جريدة *الغاشي*، لا أحد ينافسها ماذا يفعل سكَّان منارة سيتي غير هذا، أو الذهاب اليوميّ إلى المساجد والمقاهي، والأكثر جرأة منهم، يرتادون الحانات والمواخير السرِّيَّة التي انتشرت في منارة سيتي بكثرة؟

ـ الذي أطلق عليها اسم *الغاشي* ما أخطأ

ـ لا أعرف يا عمّي خلدون. أنا أبيع البؤس وأنسحب.

ـ كلمة *Populace* لفيلسوف ألمانيّ اسمه نيتشه.

ـ قلتَ لي هذا من قبل. أتذكَّر. الرجل اللي هبل على امرأة، وهبّلها معه.

ـ هههههه هذا اللي بقي في مخّك الصغير؟ أو صراخك الذي لا ينتهي: كازانوڤا مااااات. كازانوڤا مااااات.

ـ أنت أعرف منِّي بأهل منارة سيتي. كازانوڤا سيموت الليلة، لأنَّ الإمام زكريّا أرسل لكلِّ نسائه حتى يحضرن للوداع الأخير، وطلب المسامحة.

ـ عكاشة؟ خفّف شوي على الرجل، أنت تقتله قبل الوقت.

ـ كازانوڤا بدأ يتحلَّل وهو حيّ يا عمّي خلدون. فَقَد كلّ سلطته وقدراته الجسديَّة.

ـ من قال لك ذلك؟ روكينا، ابنة عمِّي، أعرفها جيِّدًا.

ـ روكينا؟ لم تقل لي شيئًا. رأيتها البارحة. قالت لي كما العادة:

= نفسه بشكل تهكُّمي كما استعملها الفيلسوف الألمانيّ نيتشه، وهي على العكس من كلمة شعب Peuple التي تعني وجود درجة عالية من الوعي والذكاء.

يا وجه الخير، أحتاجك غدًا طلبت منّي أن أحضر لها تاكسي اليوم، ذاهبة للحمّام.

ـ وسيّارتها؟ فورد ميستونغ؟

ـ لا أعرف، لكنّها كلّما ذهبت إلى حمّام، أنا من يأتيها بتاكسي. هي لا تدخل جناحها في الدار الكبيرة إلّا قليلاً، منذ أن اتّخذت قرارها بتركه. حتى يمّا مباركة قالت إنّها ستحضر الوداع الأخير، وإن لم يدعها إمام الفيستي[1] عند كازانوڤا واش يسمع منها يا عمّي خلدون. اغتصبها، وتريد أن تصفّي حسابها معه هي أيضًا أنا لا أفعل شيئًا سوى خدمة الناس، بعضهم يناديني *كابي ولد الخادم*. وحدك يا عمّي خلدون من يناديني باسمي الأصليّ، عكاشة. الناس لا يرحمون في منارة سيتي. *حوتْ يأكل حوتْ، واللي ما يقدرش على شقاه، يموت*.

ـ أنا نصحت روكينا بأن لا تعود لطاغية متخلّف، وأقسمت أنّه لن يرى وجهها ثانية. ولكنّها مزاجيّة جدًّا. كبرت، ولم تتغيّر إلّا قليلاً

ـ حابّة تتسامح معه فقط. ما فيها شي؟

ـ أنت بالذات لا يمكنك أن تقول مثل هذا الكلام. هل هناك في الأرض من يسامح مجرمًا وقاتلاً ومغتصبًا؟

ـ هذا اسمه الموت يا عمّي خلدون، فوق كلّ البشر يملك البلاد وناسها الحمد لله أنّه لحظة العدل الوحيدة التي يتساوى فيها البشر. لا فرق بين غنيّ وفقير، الصحيح والمعلول. أنت من سمّاها العدالة الباردة.

---

(١) الكذب.

ـ باردة لأنَّها لا تسمع إلَّا لنظامها

صمت خلدون للحظات كأنَّه يسترجع صورًا قديمة اجتاحته فجأة. شرب قليلاً من قهوته المُرَّة، التي بردت.

التفت من جديد نحو كابي.

ـ شوف يا عكاشة. رقيَّة مثل أختي، تربَّينا معًا، أعرفها وأعرف جرحها القديم. بسببها، عاديت عمّي لمَّا انصاع لطلب كازانوڤا بل غادرت البيت العائليّ الكبير، ولم أعد له إلَّا بعد وفاته. هي طيِّبة جدًّا، لكنَّها أيضًا عنيدة. وعندما تركب رأسها، لا قوَّة في الدنيا تُعيدها إلى جادَّة الصواب. كيف تسامحه وهو سرق مستقبلها وشبابها، بل حياتها كلّها؟ لا أعتقد أنَّها ستذهب. وإذا ذهبت، سيكون ذلك محسوبًا بدقَّة، ربَّما ستفعل ذلك من أجل ابنها يونس، الذي يُدير شؤون والده الماليَّة.

ـ على كلٍّ، كازانوڤا على أبواب الرحيل. انتهى كلّ شيء.

ـ من يصدِّق خبَّازًا في الليل، وفي الفجر بائع صحف يا عكاشة ههههه؟

ـ للموت رائحة يا عمّي خلدون. يجب أن تصدّقني، لأنَّ الذين يقرأون جريدة *الغاشي* يعرفون ذلك جيِّدًا أنت كنتَ أستاذًا جامعيًّا في قسميْ اللغات والترجمة، تعرف كلّ لغات العالم من العربيَّة إلى الفرنسيَّة والإيطاليَّة، إلى اليونانيَّة إلى اللاتينيَّة، إلى الإسپانيَّة والألمانيَّة، والفارسيَّة والعبريَّة والتركيَّة أيضًا لا أدري كيف فعلت لتتعلَّم كلّ هذه اللغات، لكنْ تنقصك لغة الشارع، لغة الغاشي، لأنَّك يا عمِّي خلدون غرقت في الكتب. أعرف أنَّك ستقول، الفلّوس[1] يعلِّم باباه النقب؟

---

(١) الصّوص.

ـ لا، أبدًا يا عكاشة. أبدًا. كلامك صحيح.

ـ ألم تقل لي إنَّ كلمة غاشي صائبة، لأنَّها هي التي فرَّق بها نيتشه بين الجماهير الحيَّة، والجماهير التبعيَّة التي لا شخصيَّة لها كتلة بشريَّة ثقيلة، عيونها ميِّتة وقلبها يضرب بالمقلوب؟ تصغي جيِّدًا للتحوُّلات، لتسير دائمًا في ركب المنتصر. أنا أحفظ كلّ كلمة تقولها لي يا عمِّي خلدون، حتى تلك التي لا أُجيدها.

ـ نعم. قلتُ إنَّ رهان الفلسفة بالنسبة لنيتشه هو قلب طاولة القيم[1] أن تصرخ دومًا كما لو أنَّ زرادشت هو من يصرخ: مع *الصباح الموالي، استوقفتني حقيقة جديدة فتعلَّمت القول: في أيّ شيء تهمَّني الساحة العامَّة والغاشي، ضجيج الغاشي وآذانه الطويلة[2]؟*

ـ لم أفهم جيِّدًا، لكن لا بأس.

ـ لا تفهم لو تريد وتفتح عينيك. ألم أقل لك إنَّ الإنسان جسر، حبل بين الإنسان الناقص والإنسان الخارق؟

ـ أعرف هذا لكنَّ فلسفتك صعبة على الشارع.

ـ اسمعني مليح. بين الناقص والخارق ثلاث مراحل يتخلَّص فيها الإنسان من قناعاته القديمة التي تلقّاها، ليبدع شيئًا جديدًا ***مرحلة الجمل***، التي يراكم فيها المعارف بلا تفكير. **مرحلة الأسد** التي يتمّ

---

(١) L'enjeu de la philosophie de Nietzsche est de renverser la table des valeurs

(٢) Mais le soir, des danseurs de corde et des cadavres étaient mes compagnons; et j'étais moi-même presque un cadavre. Mais, avec le nouveau matin, une nouvelle vérité vint vers moi: alors j'appris à dire: «Que m'importe la place publique et la populace, le bruit de la populace et les longues oreilles de la populace!».

فيها تدمير مجموع المعارف، التي كان يظنّها حقيقة مطلقة. ثم ***مرحلة الطفل***، المصاحبة للولادة من العدم. مرحلة الخلق الصافي للمعارف والأخلاق الجديدة. يتعامل بشكل حقيقيّ مع ما يظنُّه حقيقة. لا يتلقّى أيَّة أخلاق جاهزة لتطبيقها، ولكنَّه ينشئها هو بنفسه، وحيدًا وبلا مرجعيَّة، يصبح الإنسان بهذا خارقًا

ـ الإنسان الخارق؟ أينه يا عمّي خلدون؟ لا أرى إلَّا السرّاقين.

قبل أن يرفع خلدون رأسه، كان كابي قد قام من مكانه وذهب نحو الأصوات التي نادته. *كابي، كابي، الجرنال*؟، *ما ترقدش. الجرنال، وحدة غاشي ووحدة بوبيلاس*. غاب وسط الجموع الكثيرة التي كانت تتخاطف جريدة *الغاشي*.

القليل من سكَّان منارة سيتي يعرف أنّ مؤسَّسة *الغاشي* الإعلاميَّة يملكها رجل مال اسمه رشيد، لكنَّ الناس في منارة سيتي ينادونه ماريكان، بدأ في الترابادو والتهريب، قبل أن يبيِّض ماله في سلسلة فنادق *الهربة* *Escapade* التي بناها على الساحل، وكلّها هوت ستاندينغ، احتلَّت الألف كيلو على طول ساحل منارة سيتي. بدأ شريكًا مع كازانوڤا، لكنَّه سرعان ما انفصل عندما دبَّت بينهما الخلافات بسبب الولاءات واختلاف المجموعات. يقول العارفون إنَّ ابنه سامي، خرِّيج الإعلام والماركتنيغ من نيويورك، هو من كان وراء التحوُّلات العميقة التي حدثت في الجريدة. بعد دراسة الجدوى، غامر، وكان على يقين من نجاح مشروعه. استلم جريدة ثقيلة وميِّتة، بلغتها العربيَّة الفصحى التي لا يفهمها أحد، ووطنيَّتها الزائدة، فحوَّلها إلى تابلويد شعبيّ، بلغة هي بين الشارع واللغة المدرسيَّة، وقلَّل من عدد الصفحات، بورقٍ رخيص جدًّا، ثم غادر الموضوعات التحليليَّة الثقيلة المتخصِّصة التي كان يكتبها الجامعيُّون، وعوَّضها بموضوعات

صغيرة يوميَّة، عن الجرائم، وزنى المحارم والدين، والفضائح الاقتصاديَّة التي كانت تأتيه من جهات مأذونة من المجموعة؛ وخصَّص أربع صفحات، واحدة للفتاوي تحت عنوان: *واش يقولُ الصلَّاح ورجال البلاد*. والثانية كلام الشوّافة والأبراج تحت عنوان: *لالّكم*[1] *تكشف أسراركم*، وصفحتين للرياضة بالألوان؛ ثم أنزل سعرها. أنشأ بعدها شبكة توزيع خاصَّة، متخلّيًا عن توزيع الدولة الثقيل. ومرَّر للدعاية التليفزيونيَّة دعاية لها في أوقات الذروة، قبل نشرة الأخبار بقليل ومباراة الكلاسيكو والفريق الوطني: يوميَّة *الغاشي جريدتك وعينك وقلبك. صوت الذين لا صوت لهم. جريدة القاري واللي مش قاري*[2] بدأت الجريدة بسحب عشرين ألف نسخة، قبل نهاية السنة، كانت قد وصلت إلى المليون. الناس يختطفونها بسرعة، في الساعات الأولى من الصباح، في المقاهي وفي محطَّات القطارات والحافلات والمطارات. كانت في البداية جهويَّة، فأصبحت بسرعة وطنيَّة. انتهجت سياسة جديدة. مسَّت انشغالات الثلاث مقاطعات التي تتشكَّل منها منارة سيتي: المقاطعة الشرقيَّة، الوسطى والغربيَّة. القارئ يطّلع في الجريدة على الجزء الوطنيّ المشترك، وعلى الأخبار الجهويَّة الخاصَّة بالمقاطعة فقط، الأمر الذي رسَّخها محلّيًا ووطنيًا. بعدها بقليل، أنشأ النسخة الدوليَّة بثلاث لغات: العربيَّة والفرنسيَّة والإنجليزيَّة، وهذه لا تُباع إلَّا في النزل الفاخرة والمطارات، وتُقدَّم مجّانًا لركّاب الطائرات، في البزنس والدرجة الأولى.

ـ كازانوڤا مااااات. كازانوڤا مااااات، كازانوڤا مااااات.

وكلّما دخل كابي إلى زاوية، هجم عليه الناس بقوَّة، لشراء

---

(١) سيّدتكم.

(٢) جريدة المتعلّم وغير المتعلّم.

الجريدة. عندما وصل إلى سوق السمك، كانت كومة نسخ الجريدة التي يحملها في ذراعه، قد نفدت. أنَّبه بابا الطيِّب الحوَّات، صاحب مسمكة *الإيمان*، كيف لم يترك له نسخة.

ـ بهذه السرعة يا كابي؟ اللي وجد أحبابه، ينسى أصحابه؟ تعرف بأنِّي مريض بجريدة *الغاشي*.

ـ ما يكون إلَّا خاطرك بابا الطيّب.

ثم ركض نحو لَدِكَا La Déca، درَّاجته الناريَّة، واستخرج نسخته التي كان يضعها على صدره تفاديًا لرياح الفجر الخريفيّ القاسية. رتَّب أوراقها المبعثرة. نفضها ثم ركض بها نحو بابا الطيِّب الحوات.

ـ ها هي نسختك. والله ما نسيتك يا بابا الطيِّب. أنت في القلب دائمًا

ـ هكذا أحسّ بأنِّي أعني لك شيئًا، وبأنّك وليدي كابي تاع صحّ، مش كابي فالصو[١] ضاع منّي ريزو، لا أريدك أن تلحق به. قبل ما تروح، خذ هذا الماكرو[٢] راح يشطحك ويردحك ويقوّيك على أشهى امرأة. ههههه.

ضحك كابي، ثم أدخل السمكة في كيس بلاستيكيّ وخرج بها

قبل سنوات، كان كابي عندما يدخل المسمكة برفقة ريزو، يضع قطنًا في أنفه لتفادي روائح السمك الفاسد، حتى أصبح يعرف الأنواع من روائحها: الكروفيت، الساردين، الماكرو، دوراد، البولبا، لاتشا، ميرلون، روجي، كلب البحر، لونشوا الذي يكرهه، وغيرها. لكنَّه مع الوقت، أصبح كلّ شيء عاديًّا. يدخل ويخرج وكأنَّه في مكان عامّ، بلا رائحة.

---

(١) كابي المزيَّف.

(٢) نوع من أنواع السمك Maquereau.

تذكَّر كلمة ريزو يومها : *العادة تزيل عفن الأشياء وتجعلنا نألفها*

وضع كابي سمكة الماكرو الكبيرة في جراب درَّاجته الناريَّة، ثم اتّجه بها نحو يمّا مباركة، فهي تعرف كيف تسلخها، وتزيل جلدها الخشن، وحسكها، وكيف تحشوها بالرز والزنجبيل، والكمُّون، والزعفران البلديّ، وقشور الليمون، لكي تزيل روائحها الأصليَّة. ليان حاضرة دومًا للمساعدة، أصبحت تعرف كلّ أنواع البهارات، وأسماء الخضر والفواكه باللغة المحلِّيَّة. لا تخطئ في نطقها أبدًا بلكنتها الشرقيَّة اللطيفة الناعمة.

ضحك كابي وهو يركب درَّاجته.

بان له وجه ليان الصافي بكلِّ عنفوانه وطفولته، وعفويَّته، وهي تتعلَّم المقابلات اللغويَّة الوطنيَّة للكلمات السوريَّة المهمَّة. كثيرًا ما كانت تخلط بينها، محدثة مجازر لغويَّة تضحك كابي وماما مباركة، فيعاودون تلقينها

٣

كلّ العيون مصوَّبة نحو خُلْوَة لاغراند تيرَّاس، في أعالي بناية كازانوفا.

لا دخان أبيض. لا علم أخضر. ما تزال المدخنة البرونزيَّة تنفث دخانًا أسود للتذكير بأنَّ الإخوة الأربعة + اثنين، لم يتَّفقوا حتى اللحظة على خليفة كازانوفا، بعد غيبوبته الأخيرة التي طالت، والتي أقعدته وحوَّلته إلى رجل على حافَّة الموت. لقد أعطاه الله ما لم يعطه لغيره كما يقول الإمام زكريّا؛ مخبزة المدينة الكبيرة التي تموِّل كلّ المخابز الصغيرة بالخبز الآليّ، وخبز الحطب. المول الجديد، كارفور وفروعه، شركة طيران، وشركة سيَّارات فورد التي يعتبر وكيلها رقم واحد في منارة سيتي. الناس يعترفون له بشجاعته ووطنيَّته. فقد فرض على فورد مثلاً ليس فقط التسويق، ولكنْ أيضًا صناعة بعض قطع غيار سيَّاراتها في منارة سيتي، ممَّا وفّر مناصب عمل كثيرة في انتظار تصنيع نموذج وطنيّ مثلما هو الحال مع دول عديدة؛ مصنع الإسمنت المسلَّح والبناء الذي شيَّده استجابة للحاجة الوطنيَّة. بين يديه كلّ المشاريع

السكنيَّة الكبيرة ومنشآت منارة سيتي من أبراج وطرقات. مارينا منارة سيتي. المركز الإداريّ والحيّ الدبلوماسيّ، وفيه البناية العالية التي تحتوي على الكثير من الإدارات التي يؤجِّرها كازانوڤا للدولة. سوق الجملة الجديدة خارج المدينة. سلسلة فنادق *Nova Hotel* التي تنتشر عبر الساحل كلّه وجنوب البلاد من ثلاث إلى خمس نجوم، وهو ما أنهك سلسلة غريمه الهربة *Escapade*، إذ دفع بها الانحدار من خمس نجوم إلى ثلاث، إلى حافَّة الإفلاس. مصفاة تحلية المياه الكبيرة في منارة سيتي. مستشفى ابن سينا الذي يعالج في قسمه الرئاسيّ كلّ أعضاء الحكومة، بطاقمه الطبّيّ المحلّيّ والأجنبيّ، العالي التخصُّص والدقَّة. ويفتخر كازانوڤا بأنَّ المليارات التي كانت تنفقها الدولة لعلاج أعضاء الحكومة في الخارج تمَّ ادِّخارها في ظلِّ الأزمة الماليَّة التي تجتاح العالم. يراهن المستشفى على تخطِّي عتبة ٩٩٪ نسبة نجاح عمليّاته، والوصول إلى ١٠٠٪ بما يتعلَّق بِـ تلك الدقيقة الخاصَّة بأمراض القلب أو زرع الأعضاء. ابن سينا هو المستشفى الوحيد الذي لا يشكو من ندرة في الأعضاء التي يموّل بها حتى المستشفيات الأجنبيَّة الصديقة، في صيغ تبادليَّة. أكثر من هذا كلّه، فقد شيَّد كازانوڤا، في عاصمة منارة سيتي، القصر الأمبراطوريّ Le Palace Impérial، الذي تتجمَّع فيه مكاتب الرئاسة كلّها، ووزارات السيادة: الدفاع، والمخابرات، والخارجيَّة والداخليَّة والعدالة ونزل كبير بـ ١٠١ سرير، في عمق القصر، بملحقاته الرئاسيَّة وسويت الضيوف VIP الذين يزورون البلاد. كلّ هذا، يحتاج إلى خليفة حقيقيّ، وإلى رئيس مجلس إدارة قويّ، قادر على تسيير المكان بدقَّة، كما فعل كازانوڤا دائمًا

الهدوء التامّ يلفّ دار الكبيرة، التي تشبه القلعة. لم تبق من علامات غاودي التي أنجزها أحد تلامذته، إلَّا القليل. فقد غيَّرها

كازانوڤا بعد أن بدت له خشنة مع الزمن، وعوَّضها بالعمارة الإسلاميَّة على حساب العمارة الكتالونيَّة التي كان مهندس كازانوڤا المباشر معجبًا بها هو من اقترح عليه نموذج غاودي، في الشكل الخارجيّ. رافقه حتى برشلونة ليرى بعينيه البنايات التي كان غاودي من وراء إنجازها الطابق الأرضي، يحتوي على المصاعد الرئيسة والمطابخ الأساسيَّة، وديوانيَّة الضيافة المطلَّة على الحديقة، وبيوت الخدم، وساحة الراحة في وسط الدار، التي ترتفع عاليًا نحو قبَّة زجاجيَّة، تنفتح على السماء. الطوابق الأربعة عبارة عن أجنحة واسعة، كلّ واحد باسم. الأوَّل، جناح *زنُّوبيا*، سكنته لالّة كبيرة، لادام بلانش[١]، يغلب عليه اللون الأخضر؛ جناح *زرقاء اليمامة*، وسكنته زينا، لونه أزرق؛ جناح *شهرزاد* ولونه أحمر، أقامت به رقيَّة، روكينا؛ الرابع جناح *صافو* الموجود في الطابق الأخير، أقامت به ساراي زمنًا طويلاً قبل انفصالها عن كازانوڤا، بعد موت ابنها لونه بنفسجيّ هادئ. بينما بقيت مباركة في جناح *الزاوالية*[٢]، في الطابق الأرضيّ الذي كثيرًا ما كانت تلتقي فيه بالخدم الذين ظلّ الكثير منهم يعاملها كخادمة محظيَّة، لأنَّها كانت أمًّا لكبّول[٣] مات في المستشفى، مباشرة بعد ولادته. يردِّدون أنَّها أنجبته بشكل غير شرعيّ من كازانوڤا بعد حيلة انطلت عليه، اضطرّته إلى أن يتزوَّجها عرفيًّا قبل أن يطلِّقها كانت مباركة تقرأ ذلك كلّه في عيونهم. كلّ أخبار الخدم كانت تصلها من طريق مسيِّرة الطوابق، أميرة، التي كانت تعطف عليها كثيرًا خُلْوَة لاغراند تيرَّاس الواسعة لا تُحسب طابقًا، لأنَّها كانت متواصلة مع الطابق الرابع بمصعد داخليّ.

---

(١) من الفرنسيَّة.

(٢) الفقراء.

(٣) لقيط.

كانت مكانه المفضَّل في سهراته مع ساراي حينما يكون منتشيًا، بعد أن يشرب قرص الڤياغرا الأزرق الذي يُعيد له شبابه حتى الفجر؛ ثم يغفو على عطرها وعلى دغدغات نباتات اللبلاب التي تدخل أنفه ووجهه، وتلامس عينيه. يقال إنَّ ساراي هي من كان يسهر عليها ليلاً نهارًا حتى كبرت، وغطَّت الطابق كلِّيًا، وجزءًا علويًّا كبيرًا من البيت.

ليست المرَّة الأولى التي يدخل فيها كازانوڤا في حالة غيبوبة تامَّة ويستيقظ، سوى أنَّ هذه المرَّة كانت طويلة، إذ تجاوزت الشهرين. قبل خمس سنوات، إثر خلاف كبير نشب بينه وبين شريكه الأساسيّ في إنجاز المنشآت الفنِّيَّة الكبيرة كالجسور والطرقات والأبراج. لكنَّ الغيبوبة لم تدم إلَّا سبعة أيَّام، قام بعدها مصمِّمًا على الانتقام والدفع بخصمه إلى الإفلاس، وبيع حقوقه لشخص اتَّضح لاحقًا أنَّه لم يكن إلَّا قناعًا لكازانوڤا، ليموت شريكه بسكتة قلبيَّة، بعد أن كشف أنَّ المشتري لم يكن إلَّا عدوّه الأساسيّ، كازانوڤا في السنة الماضية، في عزّ الشتاء والمطر، شعر بآلام في الرأس، أُدخل على إثرها إلى أقرب مصحَّة قبل أن يُنقل إلى ابن سينا، ثم إلى المستشفى العسكريّ، ولم يستيقظ إلَّا بعد شهر وسبعة أيَّام وعشر ساعات وخمسين دقيقة، مثبَّتًا على كرسيّ كان يشعر به ملتصقًا في مؤخّرته كخازوق عليه تحمُّله. كان مثقلاً بالخوف من الضربة القاضية. وظلّ يسيِّر شؤون البيت على كرسيِّه. يزوره المتعاملون في بيته. وأحيانًا، عندما يكون في وضع جيِّد، يُنقل إلى المدينة في مكتبه. يتغامز عليه العابرون الذين يعرفونه. *كازانوڤا في كرّوسة. كازانوف مسكين.* مرَّة، سمع شحَّاذًا يقف عند باب الليموزين التي أنزلوه منها، قبل أن يصعد نحو مكتبه: *من طغى ينزل ومن سمن يهزل.* أراد حرَّاسه أن يضربوه، لكنَّ كازانوڤا أمرهم بإهماله. عرفه من ملامح وجهه التي شاخت بسرعة. الرجل

الذي اضطرّ إلى بيع خمسين هكتارًا زراعيَّة على حافَّة المدينة التي بنى عليها كازانوفا الحيّ الإداري الجديد، منذ أن اتَّخذت الدولة قرارًا بإخراج كلّ الإدارات ولواحقها من وسط المدينة.

هذه هي المرَّة الثالثة والأخطر. غيبوبته طالت كثيرًا، بين فتح عينيه ثم غيابه كليًّا أصبح لزامًا اتِّخاذ موقف لتعيين خليفة له من بين أبنائه الأربعة + اثنين. منذ أكثر من ستَّة أشهر وهو على هذه الحال. في الفترة الأخيرة، كان كلَّما رجع إلى وعيه، يردِّد على مسمع الإمام زكريَّا الذي ظلَّ بجانبه: *قل لنسائي أنَّ يأتين لأتسامح معهنّ.*

المارَّة يعطون قيمة خاصَّة لما يرونه. يقضون وقتًا طويلاً وهم يتأمَّلون خُلْوَة لاغراند تيرَّاس والنباتات التي تغطِّيها قبل أن تنزل ملتوية على كلّ شيء تصادفه في تمدُّدها، في انتظار أن يصعد من مدخنتها الفضِّيَّة دخان أبيض ليرفع العلم الأخضر، وهو دلالة على أنَّ الإخوة الستَّة، قد اتَّفقوا على الخليفة في النهاية. الرهان العائلي ورهان منارة سيتي كبير. الوحيد الذي ظلَّ يشكِّل خيطًا بين الخارج وما يدور بين الإخوة هو عليلو، آخر أبناء لادام بلانش، الأربعة. من حين لآخر، يطلّ من مِشربيَّة الخُلْوَة معلنًا بحركة كفِّه أن لا شيء اتَّضح بعد. فيصبح لون الدخان وراءه أكثر كثافة، وأكثر سوادًا

لا أحد يعرف ما كان يدور في لاغراند تِيرَّاس ولا طبيعة المعارك السرِّيَّة. الشيء الوحيد المؤكَّد هو أنَّ أمر الخلافة شديد الخطورة والاختلاف.

كلَّما طلّ عليلو من المشربيَّة، سأله الإمام زكريَّا *هل أفرج الله عن أمر الخلافة، يا عليّ؟* يردّ بكلمات بالكاد تُسمع، وهو يلتفت إلى المدخنة البرونزيَّة التي تقذف دخانًا شديد السواد، كأنَّهم يحرقون إطارات سيَّارات في إضراب شعبيّ لقطع الطرقات: *قريبًا يا سيِّدي*

الإمام زكريّا قريبًا بينما يهزّ الخادم مسعود رأسه حزنًا حينما يرى أن لا جديد بعد قد اتَّضح.

منذ قرابة الشهر، لا يرى سكَّان منارة سيتي إلَّا الدخان الأسود وهو يتصاعد في خطٍّ مستقيم من المدخنة البرونزيَّة، مرتفعًا نحو السماء العالية حيث يُرى من بعيد. حتى مستعملو الطريق السريع الذي يحيط بالمدينة في شكل حلقة ثعبانيَّة، يرونه أيضًا الإمام زكريًّا الذي أُخبر بالفكرة منذ بدء تنفيذها، هو من أشاعها في صلاة الجمعة التي أعقبت استعمال المدخنتين لأوَّل مرَّة في منارة سيتي. قبل الخطبة، دعا لعائلة الحاجّ لوط، المعروف شعبيًّا بكزانوفا، بالصلاح والفلاح: *أمدَّهم الله بالصحَّة والعافية، وجعلهم أحسن خلف لأحسن سلف. لقد كان والدهم، صاحب كفٍّ مثقوبة*[1]*، حبيب المساكين. وإن شاء الله سيُجمِعون على أكثرهم شبهًا بوالده. الدخان الأسود سيظلّ يصعد من المدخنة حتى يتَّفق الإخوة، فيحلّ محلّه الدخان الأبيض، كما في عادة الأوَّلين من عليَّة القوم والصحابة والخلفاء الراشدين الذين كانوا يعلنون عن الاتِّفاق بالأدخنة. لقد أعادت عائلة لوط لنا عادة الشورى الحميدة التي انقرضت من زمان.*

عليلو الذي سرَّب فكرة الدخان للإمام كان يعرف جيِّدًا أنَّ العادة قديمة، ولا علاقة لها بالطقس الإسلاميّ. المعروف لدى الجميع أنَّ الفاتيكان هم أوَّل من قام بذلك لإعلان اختلافهم على تعيين البابا، أو اتِّفاقهم بحسب لون الدخان. يجتمع الـ ١١٥ كاردينالاً في عزلة، تحت ظلّ لوحة السقف الكبيرة لمايكل أنجلو، في تقليد ورثته الكنيسة من القرون الوسطى. تُنصب مدخنتان، في أعلى الكنيسة، واحدة من

---

(١) مثل شعبيّ مغاربيّ، يُقال عن الذي لا يُعطي قيمة للمال. كل ما يربحه، يوزِّعه على الفقراء. مثقوبة، بمعنى سخيٌّ إلى أبعد الحدود.

البرونز، تنفث دخانًا أسود، وثانية من فضَّة ويصعد منها دخان أبيض. في كلِّ دورة انتخابيَّة على المترشِّح للبابويَّة أن يحصل فيها على ثلثي الأصوات، وعندما لا يتوافر الإجماع، تُحرق أوراق التصويت في كلّ دورة، يُضاف إليها بعض التبن أو مادَّة بلاستيكيَّة، حتى يكون الدخان شديد السواد. وكلَّما تَمّ الاتِّفاق على شخصيَّة البابا، تُحرق أوراق التصويت بلا إضافات، فينتج عن ذلك دخان أبيض.

لكنَّ الخُلْوَة يوم شيَّدها كازانوڤا لم يفكِّر في هذا أبدًا. قصَّتها لا تنفصل عن زوجته الأخيرة ساراي.

أشدّ ما كان كازانوڤا يكرهه هو أن تتحوَّل الخُلْوَة إلى مكان لغرض آخر، وتمحي ذاكرته التي أنشأها من رماد الأيَّام التي انصرمت بسرعة. كلَّما رأى البياض الذي غزا ناظريه، تأكَّد كم أنَّ الدنيا خادعة، وكم أنَّها تغرس قنابلها الموقوتة في الجسد في غفلة منه، قبل أن تفاجئه بالأمراض والشيخوخة وتَلَفِ بعض الأعضاء.

في وقت من الأوقات، وظَّف سيِّدة يسمِّيها مدام شانيل، اسمها الحقيقيّ شام. تهتمّ فقط بهندامه. كانت مرآته الحيَّة والناطقة. كانت هي وأميرة، القائمة بشؤون البيت، تشكِّلان حاسَّة المكان ونبضه. وعندما جاءت ساراي تغيَّر كلّ شيء. كلّ مقترحات مدام شانيل يمرّ عبرها كانت هي من محا شعيراته البيضاء التي اتَّسعت مساحاتها لكنَّه أُصيب بحالة من الذعَر الكبير الذي لم يستطع السيطرة عليه، عندما لاحظ أنَّ بعض شعره بدأ يتساقط بسرعة متواترة. يكره الصلع الذي يجعل من الرأس شبيهًا بالبصلة المقشَّرة المحشوَّة بالغباء. قادته ساراي، برفقة مدام شانيل، إلى مستشفى تجميل في اسطنبول، وهناك زرع شعرًا بعد شهر، امتلأت الأماكن الفارغة بشعر أقرب إلى الزغب النسويّ. وبعد نصف سنة، كانت البُصيلات التي استُؤْصلت من قفاه وغُرست في

صلعته، قد عشَّشت، فبدا أكثر شبابًا حتى من بعض أبنائه.

كانت ساراي هي سيِّدة المكان.

الخُلْوَة هي مكانها المفضَّل مع كازانوڤا الذي استقبلها فيه أوَّل مرَّة، عندما جاء بها من صحراء توّات. حتى إنَّه سمَّاه لاغراند تيرَّاس دو ساراي *La Grande Terrasse de Saray*. وعندما غادرت ساراي إلى أهلها، بعد وفاة ابنها، أو قتله، أصبح اسمه خُلْوَة لاغراند تيرَّاس فقط، ونزع عنه ما كان يحيل إليها.

هناك، حوَّلها من عذراء إلى امرأة وزوجة، كما يليق بسيِّدة سليلة ملوك الرمال، ممالك صحراء توّات الشاسعة. قالت له لن نفرش شيئًا في هذه الليلة. نادت الخادمة ميمونة. طلبت منها أن تفكّ معها خيوط هديَّتها الضخمة. كان كازانوڤا مندهشًا كطفل يتتبَّع حركة أياديهما. فكَّكتا كلّ الخيوط، ثم نزعتا الأغلفة التي كان ينام داخلها سجَّاد صحراويّ كبير قالت له، هذه هديَّتي لنا من نساء توَّات. لقد قضين وقتًا طويلاً في إنجازها. ثم بسطته بمساعدة ميمونة وكازانوڤا، في كلّ الصالة الزجاجيَّة المفتوحة على حديقة لاغراند تيرَّاس. بانت كلّ الموتيفات الملوَّنة والجميلة، المرسومة بدقَّة عالية على السجَّاد. عندما انتهت، أمرت ميمونة بالعودة إلى عملها، في الطابق الأرضيّ. تحسَّست صوف السجَّاد، ووبره، وخيوطه الناعمة المنسوجة بإحكام، كمن يتحسَّس جسدًا من حرير

ـ *هل يروق لك حبيبي؟ سيكون ذاكرتنا حتى آخر العمر.*

ـ *ننتفي ويبقى هو شاهدًا على قلبينا وجنون جسدينا*

ولأوَّل مرَّة، شعر بلذَّة غريبة. كانت الوحيدة التي عرفت كيف تستأصلها منه. قالت له في ذلك المساء الأوَّل الذي جمعها على قسَم

الوفاء، لا تكن متسرّعًا حبيبي، إطالة اللذّة هي الحبّ عينه. الحلزون وحده عرف السرّ، لنستفد منه، يلتصق بأنثاه أيّامًا متتالية تتعاقب فيها اللذّات الطويلة، المتوسّطة، القصيرة، مثل موجات تشبه الدوار الساحر، في حالة اتّصال وانفصال دائمين. لن أسكرك بالنبيذ، فهو أقلّ من شهد ما أملك، ولكنّي أحضرت لك تمرًا مخمّرًا، قطّرته خصّيصًا لهذه الليلة من نسغ النخيل: اللاّغمي.

كانت ساراي ليلتها مثل عالِم مَخْبريّ. تقيس كلّ شيء بالمعايير التي أحضرتها معها التفتت نحوه وهي تضحك. *المرأة التي لا تمتلك هذه المعايير لا تصلح زوجة.* رأى إشراق ابتسامتها على اللمبة الصفراء وانعكاس ضوء القمر، فبدت كأنّها تمثال من البرونز الحيّ. وضعت عجينة التمر المخلوطة بحليب النخل المجروح، في قطعة من الشاش الأبيض، وتركتها، تقطر في إناء، حتى كفّ السيلان وجفّ الشاش. ثم خفّفته بسائل قريب من ماء الزهر، مطعّم برائحة الينسون وبعض الأعشاب الصحراويّة، الزعتر والزنجبيل، والشّيح، والزعفران، وقشرة شجرة لارغن، وغيرها، ثم تركته يتخمّر ويقطر من جديد في شاش عيونه أضيق وأدقّ. سال في البداية بسرعة ولكن بمجرّد انغلاق عيون الشاش، بدأ يقطر ببطء مثل الشهد في خطّ متواتر بينما رشّت هي جسدها بعود النوّار بعد حمّام الأعشاب، التي كان يغلب عليها عطر البرتقال واللاڤاندا. وضعت فرعًا من السواك في فمها، فبدت شفتاها متّقدتين كجمرة. كحّلت، فاتّسعت عيناها كإلٰهة بابليّة. عطرها السرّيّ الذي جلبته معها من عمق صحراء توّات، يدخل عميقًا في الأنف، فتنتفض له عضلات الجسد وكلّ الحواسّ، بسرعة، في شكل رعشة. عندما اقتربت منه في ليلتهما الأولى، كان كازانوڤا قد بدأ يتلاشى. فجأة أصبحت ساراي فيه. أقرب إليه من خفقة قلب. عندما

انتهى التقطير، ملأت كأسًا صغيرة. استغرب لماذا لم تدعه على كأس شراب حقيقيَّة؟ وانحنت عليه قليلاً، كأنَّها سمعته: حبيبي *هذا* لا يحبّ *الشريك، يغار منه حتى الموت، لا يُشرَب إلَّا في كاس واحدة.* وضعت قطرات من شهد المحلول الذي حضَّرته في فمها، ثم قبّلته وخلطتها بريقهما بدت القبلة لزجة، تنزلق على الشفاه بنعومة ولذَّة. شعر في البداية بالدوار الخفيف، الذي تحوَّل بسرعة إلى حالة انتعاش بتكرار القطرات والقبل. انتابته بعدها حالة من الخدر الجميل. ثم دخل في دوَّامة دوار لذيذ بلانهاية. همهم وهو غارق في جسدها

ـ *ماذا فعلتِ بي يا مجنووونة؟ أريد أكثر من فمك.*

ـ *أمر حبيبي وسيِّدي ومولا ي.*

كانت ساراي هي الوحيدة من كان يوفِّر له هذه الراحة بعد يوم شديد الثقل والعمل. حتى عندما حاول كازانوڤا أن يكون عادلاً وينام مع كلّ زوجاته، مانحًا لكلٍّ واحدة حقَّها الشرعيّ، كثيرًا ما كانت المقارنات تأتيه مثل عاصفة. كان يتساءل أحيانًا في أعماقه إذا لم تكن ساراي شيطانًا كلَّما اقترب من إحداهنَّ، وقفت بينه وبينهنَّ. فيجد صعوبة في الانتصاب، تنتهي الليلة بالخذلان والخيبة، ويكبر الغضب المشوب بخوف أنَّه انتهى ولم يعد جسده يسعفه، بل إنَّه أصبح ينتقم منه. لكنَّه يستدرك بسرعة. *لماذا مع ساراي يمرّ كلّ شيء سهلاً؟ وحدها تعرف كيف توقظ الشهوات الدفينة.* حتى عندما كان يتعب مع ساراي، لا يشعر بالغضب، بل بسعادة فائضة. تنوِّمه على صدرها بكلِّ ثقله، تضع حلمتي نهديها النافرين المكسوِّين بعسل النخيل، في فمه، بالتتابع. ترضعه حليبًا عسليًّا كان يأتي من حواسِّها الدفينة، مع دندنة شهيَّة:

ننّي ميما ننّي/ أنا ولدت من عاصفة الريح/ رافقتني الريح، وعشقني الخوف حتى صار وليفي/ عاتبت قوافل العابرين لم لم تحملني

إليك قبل الموت؟/ في قلبي ما يمنحك الراحة من فزع الغابات/ امنحني بعضك، فلن أسألك عن كلّك. اترك ما تبقّى للندى، سيأتي فقط ليسأل عنك/ نَنّي ميما نَنّي.

مع الزمن، تغيَّرت عاداته وأصبح أكثر ارتباطًا بساراي. لا يرى لياليه من دونها

كلَّما حانت ليلتها، استعدَّ لها مثل محارب مقدام، لباسًا، وعطرًا، وحمَّامًا يتناول عسل التمر المخثَّر، نصف ساعة قبل شرب كأس اللاّغمي الذي تحضِّره بإتقان، من فمها لم يعد في حاجة إلى القرص الأزرق، ساراي لم تكن عاديَّة في هبل الحبّ. لا شيء يوحي أنَّها كانت صحراويَّة مغمضة العينين، لا تعرف شيئًا، كما ظنّ في البداية. صحراويَّة بالخطأ كما كان يقول لها كازانوڤا كلَّما تمدَّد بجانبها، وتأمَّل عينيها الساحرتين. سمرة لذيذة، عينان خضراوان، بشرة ناعمة كحرير اليابان القديم. هو يعرف سلفًا أنَّ ليالي ساراي تنتهي كلّها بخدر جميل، يستمرّ طوال الليل واليوم الموالي. حتى عندما أنجبت له شوشانة، أو شوشا كما تسمِّيها، أو سوسنة كما يسمِّيها، التي لم تعمِّر طويلاً، عرفت كيف تداوي جراحات الولادة في وقت قياسيّ، وجعلتها تلتئم، فبدت كأنَّها عذراء، كأنَّ بكارتها فُضّت في اللحظة. بلذَّتها وشدَّتها وعنفوانها السخيّ ذاته. قبل لحظة الرعشة، تشتهي دائمًا أن تنهي شهوتها وهي فوقه. تتأمَّله من وراء شعرها المنثور وهو يغيب في دوار اللذَّة وسحرها يحتضنها هو بكلّ قواه من خصرها لا تفصيل يفلت منه، لا نهديها الممتلئين، ولا سرَّتها الواسعة، ولا حرارتها الداخليَّة، ولا ساقيها المصقولتين، ولا جسدها في كلِّيَّته، من كعبيها الناعمتين حتى شعرها شديد السواد، لم تفعل فيه الشمس الرمليَّة أيّ شيء. يتأمَّلها في حالة سكر وهي تصعد وتنزل

تحت أضواء تتماهى فيها كلّ الألوان، في وتيرة تتقنها ساراي جيِّدًا على غير نسائه الأخريات.

في مرَّة من المرَّات، قال لها ساخرًا وهي في عزّ انتشائها دربّيهم على هذا الدوار العجيب الذي لا أعرف من أين أتيتِ به، ولا سرّه؟ ضحكت وهمست في أذنه: *لا تطلب منّي المستحيل يا سيِّدي. عاداتنا مقدَّسة، لا نمنحها إلَّا لبناتنا لن أفعل يا أميري وملكي وسلطاني. نم معهنّ كما تريد، اشتهيهنّ بجسدك، وعندما يخونك، ابقلبك، أو بالشكل الذي يرضيك، لكنْ ما أفعله معك هو لي ولنا أكبر جريمة تُرتكب في حقّ عاشقة أن ترى صورتها في أخرى. هذا ميراثي وسيظلّ لي. امنحْهُم اللذَّة التي يشتهون، لكنَّك ستحنّ إليّ في كلّ وقت. هذا رهان المرأة عندنا كلَّما تخلّى رجل عن امرأة، معناه أنَّها أخفقت في رهانها، أو أنَّ جنونها لم يكن كافيًا، أو ظلَّ مكبَّلاً كلَّما نمتَ مع إحدى نسائك، وجدتَني في وجهك. أحتلّك. لا أترك لك فسحة لتكون معهنّ، فوقك، تحتك، بجانبك، وفيك أيضًا مجنونة عليك، ولن تنفد منِّي أبدًا المرأة التي لا تمنح كلّ شيء بلا حساب، خاسرة في كلّ شيء. الحسابات مقتل الحبّ يا قائد هبلي.*

لهذا، كان حبّه لساراي من وراء كلّ الفتن والاختلافات مع نسائه. كانت الوحيدة التي اخترقت غلالة أحزانه الخفيَّة.

ـ يا سيِّدي ومولاي، من الأجدى أن تبقى على هذه الأرض، وأن لا تذهب بعيدًا لا أحد يطلب منك أن تكون نبيًّا كن عادلاً فقط وفق ما يمليه عليك قلبك. الباقي لست مطالبًا به.

ـ منذ أن دخلتِ إلى هذا البيت وهنّ يتقاتلن. لم أعد قادرًا على التحمُّل.

_ *خلّيهم. اللي ما رضت بالخبزة، ترضى بنصفها هذا هو الوقت. أنا دخلت عليهنّ، فغيّرت نظامهنّ الذي ظنّنه قد استقرّ نهائيًّا كما سطّرته كلّ واحدة في مخّها يكفيني أنّك اخترتني لأكون لك.*

ما حدث كان جدّيًّا وخطيرًا، في حياته الأسريَّة. فقد تمرَّدت عليه لالّة روكينا، ولالّة كبيرة بالدرجة الأولى، وامتدّ التمرُّد إلى اللواتي غادرن *الدار الكبيرة*، *زينا ومباركة*، وكلّ من كانت له صلة به، لضرب مصالحه. وقاطعتاه في الفراش. خوف مبطّن ظلّ معشّشًا فيه، ليس منهنّ، ولكن من محيطه كلّه. كلَّما استحضر ذلك، شعر بالبرد في ظهره. كان خائفًا من أن تفكّ الأواصر، ومعها تسقط المصالح. كان آباؤهنّ كلّهم شركاء كبارًا في مشاريعه الواسعة. انفصالهم عنه تعاطفًا مع بناتهم، معناه تهديمه، وتهديم أنفسهم. كانت روكينا الوحيدة التي استشارت قريبها خلدون، حول ما يجب فعله. لم يفدها كثيرًا في البداية، لكنَّها أعطته كلّ الحقّ لاحقًا في ما قاله. قال لها بلا تردُّد: *أتنسين بهذه السرعة؟ أحرقيه وارم بقاياه لجهنَّم، أو حتى للكلاب. الكلاب نفسها ستعافه. لقد سرق منك حياتك وحلمك ولحمك.* أجابته وهي خائفة: *ولدي، يا خلدون، لا أستطيع أن أيتّمه وأترك الوحوش والكواسر تأكله. تعبتُ على تربيته كثيرًا لقد أقسمت أن أنتقم به.* صرخ خلدون: *كازانوفا باعك ولم يعد معنيًّا بك. قلّي من أنانيَّتك وحاولي أن تقفي مع لالَّة كبيرة ضدَّه، على الأقلّ. ألستِ أنت من جرَّها وراءه؟ يجب أن لا يشعر بأنَّه سيّد كلّ شيء. سيخاف من الموقف الجماعيّ. وجود زينا ومباركة معكما، ولو من بعيد، يمكن أن يخيفه. لا تمنحنه فرصة أن يقوم من جديد.*

في النهاية، كانت روكينا على رأس التمرّد. لم تدّخر جهدًا في وضعه أمام خوفه بأن تتركاه وتعودا إلى أهاليهما زينا لم تكن معنيَّة

بالتمرُّد، لكن بعض أقاربها كانوا على علاقة معه في المصالح الحيويَّة. شعر كازانوڤا بالضيق الكبير. كلّ واحدة أغلقت على نفسها في جناحها بعد أن استحضرت جزءًا من أهلها وأقاربها وبدأت التلميحات تأتي تباعًا بغلق *قناتيْ الغفران والرياضة* اللتين كان يديرهما مع أخوال لالّة كبيرة، إضافة إلى بنك *الحلال الصادق*، بمختلف فروعه الإسلاميَّة في أندونيسيا ومصر ولبنان وأميركا وأوروبا. فقد كان البنك الأهمّ الذي كان المغتربون يضعون فيه أموالهم، لأنَّه بلا فوائد، وسهل في تعاملاته. الأدهى من هذا كلّه، هو أنَّ خال روكينا نفسها، كان صديقًا قريبًا من وزير الدولة ومجموعته، وبينهم مصالح كبيرة، ويتحكَّمون في الكثير من قنوات الاستيراد والتهرُّب الجبائيّ. يمكنه أن يقف ضدَّه في الميناء ويترك بضاعته معلَّقة فيخرِّب عليه كلّ شيء. رجل الأعمال، أصلان، زوج ليديا، أخت زينا، كان مسيطرًا كلِّيًا على سوق الإسمنت والحديد، وهو مورد كازانوڤا للخرسانة وموادّ البناء.

فكَّر كازانوڤا طويلاً ليالي متتالية. حتى إنَّه عندما رأى أمبراطوريَّته تتهاوى لم يتحمَّل حتى تخيُّلها كذلك. بعض المقرَّبين منه يقولون إنّه، لأوَّل مرَّة في حياته، يشعر بأنَّ كلّ شيء يمكن أن يتحوَّل إلى غبار في ثانية واحدة. ولأوَّل مرَّة أيضًا، يجد نفسه محصورًا داخل دائرة مغلقة مثل فأر صغير. فكَّر طويلاً حتى أنهكته مختلف الصور القلقة التي تنتابه في لحظات اليأس. ورأى ممتلكاته تنهار كما في صورة برجيْ توين تاورز التي لم تغادر ذهنه أبدًا منذ أن رآها في اجتماع في مكتبه، مع متعامليه الفرنسيَّيْن، وهو لا يصدِّق ما كان يراه. كان ذلك بالنسبة له إيذانًا بأن لا شيء خارج التبعثر والانهيار الكلِّيّ.

وهو في تأمُّلاته وخوفه من انفراط كلّ شيء، رأى ساراي مندَّاةً بقطرات الماء، وهي تخرج من البحر، لباسها ملتصق بجسدها، يرسم

كلّ تفاصيلها الرشيقة، وهي تبحث عن صدره وتضع في فمه قطرة العسل. تغيَّر كلّ شيء في عينيه. لعن الشيطان الرجيم الذي أنزل على صدره حالة الضيق، وعاد ركضًا إلى البيت، فصعد كلّ الطوابق، لكنَّه اصطدم بأبواب الأجنحة تُسدّ في وجهه واحدًا واحدًا وعندما وصل إلى خُلوة لاغراند تيرَّاس، تمدَّد وأغمض عينيه قليلاً تأمَّل مع ساراي النجوم التي كانت تبدو قريبة من عينيه كلَّما كانت السماء صافية، تشعّ وكأنَّها فاكهة ضوئيَّة تحتاج فقط إلى من يقطفها. فجأة، وهي ترى شجنه يتوغَّل في عينيه، انتابت ساراي فكرة أنارت أمام كازانوفا الطريق: أن يفاتح الإمام زكريًا ويذهب برفقته نحو أهاليهنّ ويشكوهنّ ليصبحن في موقف دفاعيّ وليس هجوميًّا، قبل أن يفعلن هنّ ذلك، ويصبح الوضع خارج السيطرة.

ـ جرِّب. لن تخسر شيئًا. لكنْ خذ الإمام زكريًّا في يدك ولا تتركه، فهو يذلِّل كلّ الصعاب.

عندما أخبر الإمام زكريًّا، قال له: *عرق النساء دسّاس وخطير. والغيرة تعمي القلوب قبل الأبصار.* لا تشغل *بالك يا سيِّدي.* نحن في زمن *الردَّة للأسف، ولن يبقى على هذه الأرض إلَّا من يعرف* سرّ *الأسرار، وأنت مالك مفاتيحه. هذه فتنة الأتقياء والأوفياء إلى ربِّهم، لم ينجُ منها حتى النبيُّ الأكرم، فكيف بالبشر الضعفاء؟ أنت تعرف جيِّدًا* سورة *التحريم كم كانت قاسية، حتى على النبيِّ نفسه؟*

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِم تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ؟ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ؟ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(١)﴾(١)

يجب أن يخجلن من أنفسهنَّ. كيف تتمنَّع نساء تقيَّات، صائنات

(١) سورة التحريم، الآية ١

لفروجهنّ من رجل منحهنّ كلّ شيء، بما في ذلك فتح أبواب الجنَّة؟ فقد وفَّرتَ لهنَّ فرصة خدمتك.

ـ ماذا كنتُ سأفعل من دونك؟ كلّ درهم يذهب نحوك، هو أجر يُحسب لي.

ـ الله لا يحرمنا من بركاتك يا سيِّدي لوط.

طافا معًا بالعائلات، بعد أن قطعا مسافات كبيرة داخل المدينة وخارجها كان الإمام زكريًّا هو من يتكلَّم في كلّ مرّة، وكازانوڤا يهزّ رأسه بالموافقة فقط. ثم ينتهي الحديث بسجال طويل حول كيفيَّة تطوير الشراكة، وحال السوق الصعبة، وتجاوز مرحلة الانكماش التي كسرت كلّ المشاريع.

عندما عاد كازانوڤا إلى البيت، كان الليل قد غلّف المدينة، والإمام زكريًّا انسحب منتشيًا بانتصاره على نفاق النساء وشرّ وسواسهنّ في آذان أهاليهنّ، كما يحلو له أن يقول. صعد مباشرة إلى الخُلْوَة، وروى كلّ شيء لساراي، في أدقّ تفاصيله. مسكت يده، ثم تأمَّلت عينيه الصغيرتين. جلست عند رجليه وهي تغسلهما بالملح وماء الخزامى:

ـ الآن أنت مرتاح. أدَّيت واجب الزوج الخائف على العقد من الانفراط، فلن يلومك أحد.

أغمض عينيه، وترك نفسه يتماهى داخل ألوان الجنَّة وملمس حرير ساراي. سمعها تتمتم، أو خُيِّلَ له ذلك، بعد تعب يوم كامل من الدوران حول المدينة:

ـ أرأيت حبيبي؟ لا شيء تغيَّر، ما زلتُ هنا، بين ذراعيك، والأوضاع ليست إلَّا كما شاء لها أن تكون. خذني الآن، وارم بي حيث تشاء، فيك.

٤

منذ أن سمعوا خبر وفاته، وحركة الناس تزداد اتِّساعًا

هل مات؟

نعم، مات. لا أعداؤه من يقولون ذلك. كازانوڤا لم يمت! يريد فقط أن يتسامح مع نسائه كلّهنّ. يُقال إنَّ الإمام زكريًّا هو مَنْ نصحه عندما استفاق قليلاً من الغيبوبة قبل أن يغرق فيها من جديد. لا هذه من شهامة كازانوڤا لا يريد أن يحمل وزرهنَّ إلى قبره. كان عادلاً معهنّ، فأعطى لكلٍّ منهنَّ حقَّها يا رجل يكفي من التخريف والفستي[1] طاغية، لا يختلف عمَّن سرقوا هذه البلاد بأرضها وضرعها ونسائها واش من عدل؟ رجل يحبّ النساء كما اللي يحبّ الزلابيَّة وقلب اللوز، يأكل، ولمّا يشبع ينقّي أسنانه. الذين أسموه على ذلك المجنون كازانوڤا، لم يكونوا مخطئين، ما خلَّا ولا امرأة وجد طريقها سالكًا

---

(١) الكذب.

وتستمرّ الأحاديث الخافتة بلا توقُّف، تقطعها بعض التنهُّدات، أو بعض الضحكات المكتومة.

كان الناس يتجمَّعون، ويتكاثرون عند باب الدار الكبيرة، شيئًا فشيئًا. حتى الكراسي التي أخرجها مسعود من داخلِ البيت، ووضعها عند مدخل الدار، لم تعد كافية. الكثير من الناس ظلُّوا واقفين.

فجأة، توقَّفت تاكسي صفراء عند مدخل دار كازانوڤا بالضبط.

نزل منها أوَّلاً كابي الذي كان يجلس في الكرسيّ الأمامي، بجانب السائق. فتح الباب الخلفيّ. نزلت روكينا في كامل بهائها كان وجهها مزهرًا ومضاء كقمر، بعد أن استحمّت كالعرائس في الحمَّام التركيّ الذي ترتاده، كلَّما كان دور ليلتها مع كازانوڤا، أو بعد نهاية كلّ دورة شهريَّة. تسوَّكت، وتكحَّلت، ووضعت أحمر الشفاه الذي زادته أشعَّة الشمس المنعكسة عليه غواية، على العكس من النساء اللواتي كنَّ يأتين تباعًا إلى دار كازانوڤا

روكينا سخيَّة في السخرة مع كابي. تعطف عليه أكثر من الأخريات، لهذا هو يدين لها بكلِّ ما حصل له من خير، بل بحياته كلّها وبسرِّها الذي أقسم على المصحف الشريف أن لا يقوله لأحد، حتى لأمِّه الحقيقيَّة. كانت امرأةَ كازانوڤا المشتهاة. كانت الأصغر قبل أن تزيحها ساراي من طريقها السنّ لم يفعل فيها الشيء الكثير نزعت من على وجهها اللثام والحائك وهي ما تزال في السيَّارة. كأنَّها فعلت ذلك متعمِّدة، ولم تعر أيّ انتباه للذين كانوا يجلسون عند مدخل الدار. حتى السائق الذي لم يرها إلَّا ملثَّمة وهي في سيَّارته، بقي لحظات مشدوهًا بجمالها، ثم هزّ رأسه وهو يتمتم: *لا إله إلَّا الله. سبحان من خلق فسوّى*. نظر كابي إلى وجهه ينبِّهه أنَّه يغلق الطريق، وأنَّ السيَّارات التي تكاثرت وراءه، بدأت تزمِّر.

سحبت الحائك قليلاً إلى الأعلى فبان جزء من ساقها، وحذاؤها الأحمر. سبقها كابي، حاملاً حقيبتها البيضاء كأنَّها قادمة إلى عرس. حطَّها في الداخل قبل أن يعود بسرعة ليتفقَّد درَّاجته التي كانت في مكانها، مربوطة بالسلك المعدنيّ. سمع صوتها من داخل البيت. *كابي، تعال بسرعة قبل ما تروح*. ركض نحوها وضعت في كفِّه ورقة نقديَّة، دفنها في جيبه دون أن يتفحَّصها يعرف سلفًا أنَّها الورقة الأكبر.

روكينا لا تزور هذا البيت إلَّا مرَّتين في الأسبوع. يهمّها جدًّا أن يكبر ابنها في ظروف طبيعيَّة. جناحها في البناية مغلق في أغلب الأوقات. حاول أن يسترجعها بشكل نهائيّ، لكنَّها لم تقبل أبدًا قالت له آخر مرَّة: هو بيتي يا لوط، وأعود له في الوقت الذي أشاء. فكَّر أن يشكوها لابن عمّها من جديد، لكنَّه وجد في غيابها راحة كبيرة أيضًا.

شمّ كابي رائحة الموت في دار كازانوڤا. ضغط على درَّاجته الناريَّة، التي كان صوتها مزعجًا، كأنَّها رحى. مفخرة الصناعة الوطنيَّة. هي من النماذج القليلة المتبقِّية من مصنع الدرَّاجات الناريَّة الذي احترق في السبعينيَّات. الناس في منارة سيتي يسمُّونها زروديَّة، للونها الموحَّد الذي يشبه الجزرة.

قبل أن يغادر المكان، رأى كابي مباركة قادمة من بعيد. ركض نحوها أخذ السلَّة من يدها وأوصلها حتى مدخل البناية. قبل أن تدقّ، أخرجت ملفًّا من ثلاث أوراق، من سلَّتها ساعدها كابي. ورقة هي عقد زواجها الموثَّق بتوقيع القاضي وكازانوڤا بعد أن قبل بتسجيله تحت الضغوطات القانونيَّة والجمعويَّة الكثيرة؛ والزواج العرفيّ أو *الفاتحة* كما يُسمّى في الأوساط الاجتماعيَّة الفقيرة، بتوقيع الإمام زكريَّا؛ الثالثة عقد وفاة ابنتها زهرة الذي سُلِّم لها يوم مغادرتها مستشفى ابن سينا، جناح

النساء، قسم التوليد. تتذكَّر مباركة جيِّدًا كيف احتضنت زهرة، وضمَّتها إلى صدرها، لكنَّها لم تستطع أن تحبّها وكيف أنَّ الصبيَّة نفسها رفضت ثدييها، بسحب رأسها إلى الوراء. لم تشعر مباركة تجاهها بأيَّة أمومة. حاولت الليلة كلّها أن تُرضعها، دون أن تفلح. حتى جاءها كازانوڤا برفقة الممرِّضة شافية التي كانت تتأهَّب للسفر إلى فرنسا لإنهاء دروسها. في الصباح الموالي، أخبرتها الممرِّضة نفسها والطبيب الذي أشرف على توليدها، بأنَّ زهرة ماتت بمرض جفاف الجسد والأوعية. يُصيب الأطفال عندما يرفضون الرضاعة في البداية. وعندما يُستفحل وضعهم، يموتون بعد أن تنشف كلّ أعضائهم، على الرَّغم من المصل الذي لا يمرّ في العروق. لم تصدِّق، وظلَّت تصرخ، *ليست ابنتي، زهرة لم تمت*. طوال الأيَّام التي مضت، ظلَّت تكرِّر بشكل هستيريّ أنَّ ابنتها الحقيقيَّة سُرِقت. بقيت قرابة السنتين، في بيت الخدم، قبل أن يجرَّها كازانوڤا نحو مستشفى الأمراض العقليَّة، بحجَّة الراحة، لأنَّها أُصيبت بصدمة فقدان ابنتها

ـ وعلاه هذه الأوراق يا يمّا مباركة؟

تساءل كابي.

ـ إذا الإمام زكريًا حلّ فمه عندي، بماذا أغلقه له؟ أعرف وساخته جيِّدًا.

ـ معك حقّ. لسانه طويل يا ميما

ـ زكريًا، إمام تايوان[1]، تاع المال والمصالح، من الأحسن له أن يحترم حرمة الموت، لو يحلّ فمه، سيسمع منِّي ما لم يسمعه أبدًا في حياته.

---

(١) إمام مغشوش.

ـ ربّي يعينك ميما مباركة.

الكثير من النسوة برفقة أطفالهنّ كانوا متجمّعين عند مدخل الدار، ينتظرون فتح الباب للدخول.

خرج الإمام زكريًا.

ـ يكثّر خيركم، وربّي يجعل كلّ خطواتكم حسنات. اليوم صعب، عودوا غدًا إن شاء الله، أو بعده. أخوكم وحبيبكم لوط متعب قليلاً، ولا يريد أن يرى أحدًا باستثناء زوجاته الشرعيّات. لأنّه يريد أن يتسامح معهنّ.

بمجرّد ما سمعت النساء كلمات الإمام، تفرّقن قبل أن ينسحبن نهائيًّا من مدخل الدار.

انزلقت مباركة بسرعة إلى الداخل. أوقفها الإمام زكريًا بيده الخشنة عند العتبة. نظرت إلى وجهه مليًّا تفحّصها كمن يرى وجها غريبًا

ـ ألم تعرفني يا شيخ زكريًا؟

ـ كيف لا أعرفك يا مباركة؟ عِشْرة وملح. كنت أنوي فقط أن أقول لك ما قلت للنساء اللواتي سبقنك.

ـ كيف؟

ـ الحاجّ لا يستقبل اليوم إلّا نساءه الشرعيّات.

ـ في نظرك من أكون؟ قحبة وجدها في الطريق؟ ألستُ زوجته؟

وضع رأسه بين يديه وهو يحاول أن يرى الرجال الجالسين المنهمكين في أحاديثهم.

ـ لا حول ولا قوّة إلّا بالله. هل عندك ما يثبت ذلك؟

ـ أنت من زوَّجنا شرعًا، لابدّ أنَّك تتذكَّرني يوم هدَّدته بفضحه ورميه في السجن إن لم يفعل؟ فأتى بك لكتابة الكتاب عرفيًّا قبل أن نرسِّم الزواج بضغط منِّي. وأنت من ستر اغتصابه لي. نحن في حالة موت أو قريبة منها، أدخل وإلَّا أصرخ؟ أنا أيضًا عندي واش أقول له. أسأله وأسامحه ويسامحني إذا أراد. من واجبي أن أخبره بما لا يعرف، فهل تحرمني من ذلك؟ أليست وصيَّته؟

ـ الدولة منعتنا من الاعتراف بالزواج العرفيّ.

ـ رسَّمته. ثم ألستَ أنت من باركه، وركضت لستره؟ انظر، أليس توقيعك؟

قرَّبت الورقة من أنفه وعينيه المفتوحتين عن آخرهما

ـ للضرورة أحكام. خفت من ربِّي.

ـ خفت من ربّك أم منه؟ كلمة واختصر: يا أدخل، يا أفضح كلّ شيء؟ كما ترى، عندي ما يثبت أنَّه زوجي شرعًا، ورُزقت منه بزهرة التي ماتت في المستشفى. اختر

وقبل أن يرفع رأسه، اهتزَّ الإمام زكريًّا متراجعًا إلى الوراء حتى كاد يسقط، كأنَّ يدًا سحبته من الخلف.

ـ تبيعون القرد وتضحكون على مشتريه. يكفي واش دار فيها النمرود ديالك. تدخل أو أقلب عليك الدنيا صراخًا؟

ـ اذكروا موتاكم بخير. اذكروا موتاكم بخير. أنا عبد مسيّر.

ردَّدها الإمام بيأس وخوف.

ـ ما دمت مسيّرًا، افتح الطريق. كازانوفا لم يمت، هو يحتضر فقط، وقد يعود من جديد كأنَّ شيئًا لم يكن. عاد في المرَّات الماضية، لماذا لا يعود غدًا أو بعد غد؟

ـ يا لالّة رقيَّة هذا غير شرعيّ، ومباركة طليقته ولا شأن لها بكنّ.

ـ وشرعيّ أن يغتصبها؟ وأنت باركت الاعتداء، وسكتّ على الشرّ؟ تتركها تدخل أم تريدني أن أصرخ.

وقبل أن يرفع رأسه، كانت روكينا قد سحبت مباركة نحوها إلى عمق الدار.

ـ على كلّ حال، أنا عبد مأمور. ساعديني يا رقيَّة على احترام مرضه وآلامه.

ـ وماذا أفعل الآن غير مساعدتك؟

في اللحظة الفاصلة بين التفاتة الإمام زكريًّا نحو يد روكينا التي سحبت مباركة وغلق الباب، كان بيرو ڤيردي[1]، كلب كازانوڤا، قد خرج مسرعًا بشكل مجنون باتِّجاه الفراغ، وهو الذي ظلَّ نائمًا بجوار سيِّده منذ مرضه ودخوله في الغيبوبة الأخيرة، قبل أن يتأكَّد من أنَّ رائحة الموت احتلَّت جسد كازانوڤا كلِّيًّا. تسلَّل من بين الأرجل بسرعة برقيَّة، كأنَّه كان مذعورًا من شيء شديد الخطورة، قبل أن يجد نفسه في الشارع الكبير، وجهًا لوجه مع شاحنة جمع القمامة الثقيلة، فلم يتفاداها، بل جرى نحوها بسرعة حتى اصطدم بها بعنف. حاول السائق أن يتفاداه بالفرملة السريعة، لكنَّه لم يستطع. الارتطام كان جافًّا ضربة واحدة كانت كافية لإنهاء حياة بيرو ڤيردي. التصقت العجلات بالأرضيَّة الإسمنتيَّة. تمدَّد بيرو ڤيردي قليلاً بكلِّ طوله كأنَّه يتمطَّط من شدَّة التكاسل في فراش وثير، ثم مدَّد قوائمه الطويلة قبل أن يستكين نهائيًّا أرخى رأسه إلى الوراء. ارتسم خطّ أحمر من الدم في

---

(١) من الإسپانيَّة Perro verde وتعني الكلب الأخضر.

فمه. ثم هدأ نهائيًا، كأنَّه انتحر، لأنَّ الطريقة التي خرج بها كانت عنيفة وسريعة، مع أنَّ بيرو ڤيردي لا يفعل ذلك أبدًا كلَّما غادر البيت، يتوقَّف أوَّلا مثل الإنسان على حافَّة الطريق. ينظر يمينًا ثم شمالاً، قبل أن يقطع نحو الجهة الأخرى. هذه المرَّة، خرج كأنَّه كان يبحث عن الموت. نزل سائق الشاحنة، على وجهه علامات الحيرة. اقترب منه. تمتم أحد الحاضرين موجِّهًا كلامه لسائق الشاحنة:

ـ سبحان الله، لقد رأيت المشهد كاملاً أنت حاولتَ تفاديه، لكنَّه ركض نحوك بشكل أعمى.

ـ الحمد لله جاءت سليمة. مجرَّد كلب لا أكثر

ـ ما أكثر كلاب منارة سيتي!

قال ريزو وهو ينظر إلى الناس الذين كانوا يحيطون بالسيَّارة التي أغلقت الطريق.

ردّ سائق الشاحنة:

ـ لا يا ريزو. فيه كلب عن كلب يفرق. أعرف ماذا كان يعني بيرو ڤيردي لكازانوڤا بلونه النادر ووفائه الكبير كان رفيقه. كأنَّه شمّ رائحة الموت في الدار، فلم يتحمَّلها الحيوانات تعرف ما لا نعرفه. رمى بنفسه في الفراغ مثل كائن لا يريد أن يعيش بعد سيِّده. خسارة. يُقال إنَّه سلوقيّ من سلالة أندلسيَّة نادرة، كان كازانوڤا قد اشتراه من سيِّدة إسپانيَّة لذكائه ولونه الغريب. أنا ذاهب مباشرة إلى منطقة فرز الزبالة، وإلَّا كنت رميته في طريقي.

ـ ارمه في الزبالة، مثله مثل سيِّده.

ـ ريزو أنت خارج المدار. حرام يُرمى في الزبالة. شوفو من يأخذه للوادي.

ثم ركب سيَّارته الثقيلة مع معاونه، وانسحبا من المكان.

بيرو ڤيردي ظلَّ جثَّة هامدة، في وضعيَّته بعد الصدمة. الدم ينزف من فمه.

ظلَّ الإمام زكريَّا فاغرًا فمه في المشهد. لم يفهم شيئًا. كيف لبيرو ڤيردي المعروف بسكينته وهدوئه، أن يخرج بتلك السرعة المجنونة وكأنَّه ميَّز بحاسَّة سمعه الدقيقة سيَّارة جمع القمامة، التي كثيرًا ما كان ينبح كلَّما مرّت، وهو داخل الدار. لا بدّ أن تكون هناك حكمة إلٰهيَّة، قالها للشباب الذين كانوا يقفون بالقرب منه ويحوطون بالكلب.

لاحظت روكينا دهشته من الباب الموارب.

ـ والله ريزو معه حقّ. كلب وانتهى تحت عجلات سيَّارة قمامة، كما تموت كلّ الكلاب التي تملأ مدينة منارة سيتي؟ وين وجه الغرابة؟

ـ فقط انتابني وجه سيِّدي لوط. مسكين. كم كان يحبّه!

ـ إذا كْلاَكْ[1] قلبك، روح شهّد له قبل خروج روحه، واش راك تستنّى؟ مش كلب سيِّدك؟

ضحك الناس عند الباب. قهقه ريزو عاليًا، متدرِّجًا في مكانه.

ـ الله ينصرك يا لالّة روكينا. تعيشي. تعيشي.

تقدَّم الإمام زكريَّا أكثر من بيرّو ڤيردي، وهو مثبِّت نظره في عينيه، كأنَّه يريد أن يفهم سرًّا غامضًا، أخذه الكلب معه.

ـ سبحان الله! من قال: وفيّ ككلب لم يخطئ. انتحر حتى لا يعيش بعد سيِّده.

---

(١) إذا أكلك قلبك. إذا أحزنك.

ـ الصدفة يا الحاجّ بن زكري.

ـ اسمي الإمام زكريًا وقيل يا وليدي راك سكران؟ رُحْ الله يفتح عليك بالخير.

ـ هو كلب كبقيَّة الكلاب يا الحاج. بن زكري. بيرو ڤيردي عنده طبيعة سيِّئة. يجري دائمًا وراء سيَّارة القمامة عندما يكون في الخارج. هذه المرَّة أكلها بيرو ڤيردي ليس أفضل من الكلاب الأخرى!

واصل الإمام زكريًّا تعليقه، وهو يحاول تفادي نظرة ريزو الذي انسحب من تلقاء نفسه، وهو يسحب نَفَسًا طويلاً من سيجارته الرقيقة التي ماتت بين أصبعيه، ويبخِّر وجه الإمام الذي انتابه سعال حادّ قبل أن يواصل حديثه.

ـ لا صدفة في الأقدار. كلّ شيء مسطَّر سلفًا لم يخرج طوال فترة مرض سيِّده. وعندما خرج، فعل ذلك ليموت. على الرَّغم من أنَّ الله حرَّم الانتحار بهذا الشكل البشع.

ـ حرَّمه على البشر وليس على الحيوانات.

ـ على المخلوقات كلِّها. بيرو ڤيردي كان أكبر من مجرَّد كلب.

ـ صحيح يا عمِّي زكريًّا واش أخبار كازانوڤا، سأل كابي؟

ـ لوط بين يديْ ربّه. كابي وليدي تعمل خيرًا ترضى عليه الملائكة والبشر، لو تتكرَّم برمي بيرو ڤيردي في الوادي، في طريقك، وأنت رايح لبيتك. لو تحفر له حفرة يكون أحسن. أنت تعرف حالة الأمراض. حتى الذئاب والغربان، عادت في الآونة الأخيرة إلى منارة سيتي، وهذا ليس علامة خير.

ـ الذئب لا يخاف من الذئب يا عمِّي زكريًّا

كان بيرو ڤيردي ثقيلاً، وكأنَّ وزنه تضاعف بعد موته. مع أنَّه سلوقيّ حيويّ وحركاته سريعة، كان شديد الرشاقة في شبابه. ساعده ثلاثة شبَّان في حمله، ثم وضعوه في مقطورة الدرَّاجة، التي يجرّها كابي عادة وراءه ، محمَّلة بصحف الصباح التي يستلمها فجرًا من مقر جريدة ***الغاشي ولا بوبيلاس*** اليوميَّتين والمجلَّات الأسبوعيَّة ***الجسم السليم*** الرياضيَّة، ***والفتاوي*** المجلَّة الدينيَّة، ***وبليزير Plaisirs*** بالفرنسيَّة والخاصَّة بالموضة، ***وأخبار الجريمة*** المهتمَّة بشكل فاضح بالجرائم اليوميَّة، وبزنا المحارم وجرائم الشرف ورحلة التائبين من المهرِّبين، والمغنِّيات، والفنَّانين، والكُتَّاب والعلماء.

وضع كابي على جثَّة بيرو ڤيردي الثقيلة غطاء البلاستيك الأزرق، الذي كثيرًا ما يغطِّي به الجرائد مع سقوط الأمطار. ظهر واضحًا لوغو الجريدة المرسوم عليه.

ثم انطلق نحو وادي الكبريت الذي يطوِّق منارة سيتي.

لم يُسمع إلَّا صوت الدرَّاجة الناريَّة وهي تشقّ صمت المكان بطنينها كأنَّها دبُّور خشن.

عندما التفت كابي وراءه في المنعطف، كان الناس ما يزالون يتجمَّعون عند مدخل الدار، بينما اصطفَّت سيَّارات الشرطة الزرقاء على الجهة اليمنى من الرصيف. يعرف جيِّدًا أنَّه منذ أن أُصيب كازانوڤا بالإغماءة الأخيرة، والسيَّارات الرسميَّة تأتي يوميًا تقف في المكان نفسه محدثة ضجيجًا كبيرًا، وحركةً غير عاديَّة في البيت وخارجه، وابتعادًا سريعًا للناس. ينزل صالح، محافظ شرطة منارة سيتي من سيَّارته المصفَّحة الخاصَّة، مرفقًا بشابَّين قويَّيْن يلبسان زيًّا مدنيًّا. يستقبله كبير الإخوة كازانوڤا، بشير، برفقة أخيه الأصغر، يونس، حتى ولو كانوا في عمق الاجتماع. يحكّ المحافظ على رأس يونس، ثم

يفرج عن ابتسامة مثقلة بمتاعب اليوم: سبحان *الله*، يونس صورة طبق *الأصل عن والده*. ثم يطمئنّ على كازانوڤا، ويسأل العائلة إذا كان كلّ شيء على ما يرام، وأنَّهم لا يحتاجون إلى أيّ شيء.

يشرب المحافظ قهوته التي تحضِّرها لالَّة كبيرة وتشربها معهم عادة، ثم يذهب بالضجيج نفسه الذي أتى به.

حينما تغيب السيَّارات الرسميَّة، تعود الدار الكبيرة إلى سكينتها

II

وَشْوَشَاتُ نِسَاءِ الدَّارِ

مَنْ يُوقِف العَدَّ العَكْسِيَّ؟

١

العدُّ العكسيُّ كان قد بدأ، ولا أحد يستطيع أن يوقفه.

كلّ شيء كان هادئًا في الصالة الأندلسيَّة الكبيرة بعد أن تمَّ تنظيفها وترتيبها.

رائحة المنظِّفات المعطَّرة برائحة الخُزامى تملأ المكان المفتوح على سماء كان برقها يرتعش من حين لآخر، محدثًا شقوقًا وشعلات فيها، راسمًا أشكالاً متعدِّدة على الحيطان، تنسحب بسرعة.

رفع عليلو رأسه بسعادة ظاهرة على وجهه، ثم تمتم:

ـ مممْ. ستمطر اليوم لا محالة.

ـ أكيد ستمطر، أردف مسعود وهو ينظر إلى فريق التنظيف الذين كانوا يجمعون أغراضهم، وعلى وجوههم الكثير من السعادة، لأنَّهم أتمُّوا عملهم في ظرف قياسيّ.

أضاف عليلو وهو ينظر إلى ساعته اليدويَّة:

ـ الآن انتهى كلّ شيء. ها هي مشيئته قد نُفِّذت كما أرادها هو من اختار هذه الصالة الأندلسيَّة للحديث مع نسائه. عزيزة عليه، لأنَّ

بها شيئًا يخصّه لا أحد يعرف ما هو، ولا سرّها يمكنكم الآن أن تأتوا به، ليرى ذلك بعينيه ويمنحنا بعض رضاه. نحن لم نقم إلَّا بما أراده سيِّد هذا البيت.

ـ لا نستطيع يا سيِّدي. حاليًّا، هو في المغسل، ننظِّفه ونعطِّره ويرتاح قليلاً، ثم نأتي به بعدها، وفق ما أمرتَ، في كامل راحته وقواه الذهنيَّة والجسديَّة.

قال مسعود وهو يمسح قطرات الماء من على وجهه.

لم يعلِّق عليلو، لكنَّه شعر بالراحة الكبيرة، لأنَّه انتهى من ثقل ظلَّ يضغط على صدره طوال اليوم، على الرَّغم من الاجتماعات الماراتونيَّة التي لا تنتهي بسبب تشبُّث بشير، الأخ الأكبر، بعامل السنّ في توزيع السلطات وليس الكفاءة، ورفضت الأغلبيَّة هذا المعيار، لأنَّها رأت فيه وسيلة لإخراجهم من إمكانيَّة خلافة والدهم.

لا يريد عليلو أن يخلف لوالده أمرًا، على الرَّغم من أنَّه عاش حزينًا منه وعليه. منذ سنوات طويلة، لم يعد يفكِّر في حادثة الخطوبة الفاشلة التي كلَّفته روكينا، أو كادت. يدرك جيِّدًا أكثر من غيره أنَّ السفينة بلا قائد لا يمكنها أن تتحرَّك، وإذا تحرَّكت تنتهي في أعماق البحار بسبب الخلافات التي يمكن أن تنشب بين الجميع، لهذا يحضر دائمًا، ويعطي أوامر ترتيب كلّ شيء، حتى لا يفاجئهم الموت. كازانوڤا لم يكن شخصًا عاديًّا بالنسبة لعليلو، بل كان كلّ شيء إلَّا أن يكون عاديًّا علاقاته واسعة وتمتدّ حتى ما وراء البحار، كما يكرِّر دومًا الإمام زكريًّا، كلَّما تعلَّق الأمر بمصاريف الجنازة وحيثيَّاتها *أبوكم كان نجمة عابرة للعالم والقارَّات والأجرام، ولم تكن له أرض واحدة. الموت حقّ. جنازته يجب أن تكون في قيمة وصيَّته، حتى ولو كلَّف ذلك مالاً كبيرًا.*

فجأة، رنّ تليفونه الخلويّ معطيًا إشارات حمراء.

عرف عليلو أنَّه وقت العودة إلى طاولة الاجتماعات.

ـ طيِّب. أنا ألتحق بالمجموعة. أنتم انهوا عملكم كما بدأتموه. عندما تأتون به إلى الصالة، أعطوني إشارة صغيرة. وربَّما مررت بسرعة لرؤية الترتيبات الأخيرة. هل السيِّدات وصلن؟

ـ كلّ زوجاته هنا يا سيِّدي في صالة VIP، قاعة الضيوف المميَّزين، لالَّة كبيرة، لالَّة زينا، لالَّة روكينا، حتى لالَّة مباركة على الرَّغم من أنَّها طليقته. لالَّة ساراي الوحيدة التي لم تحضر، يبدو أنَّ زوجها وأبناءها منعوها من ذلك. الله وحده يعلم الأسباب الخفيَّة. ابنها هارون، معكم في الاجتماع، ربَّما يعرف الأسباب الدقيقة.

ـ هارون لا يتكلَّم كثيرًا منهمك معنا في البحث عن الشكل الأمثل لاستثمار ثروة الوالد. طبيعيّ، لالَّة ساراي في رقبة رجل آخر، ومن حقِّها أن لا تأتي. مجتمعنا قاس ولا يرحم. هي مسألة وضع، والذي سيتفهّمه جيِّدًا، يجب فقط أن نشرح له. أمَّا مباركة، فحقُّها وهي زوجته في النهاية، وعاشت معه مرارة الفقدان، ولو في سنوات قليلة، ولكنَّها كانت كافية لأن تعاشره فيها، وتعرفه عميقًا، وتنجب منه، حتى ولو لم يعمّر المولود. توفّيت زهرة بعد يومين اثنين من ولادتها بسبب جفاف الجلد، لأنَّها رفضت أن تأخذ صدر أمّها بينهما أشياء كثيرة سيقولانها لبعضهما بعضًا من حقِّها أن تُسمِعه ما في قلبها هي أيضًا، ويسمعها ربَّما كان حضورها أكثر من ضروريّ، ليرتاحا نهائيًّا

ـ معك حقّ يا سيِّدي. بالنسبة لساراي، الإمام زكريَّا زارها في صحراء توَّات، كما تعرف، ومعه كلّ التفاصيل، أحسن منِّي. يمكنك أن تسأله أيضًا، ربَّما أعطاك من المعلومات ما يفيدك في مهمّتك النبيلة.

ـ التقينا، وعرفت منه تغيّبها عن الموعد وتعويضه برسالة صوتيّة. وحده الإمام المؤمَّن عليها ارجع للمغسل يا مسعود، ربَّما احتاجك والدي، أصبحت أنت والإمام الوحيدين القادرين على قراءة لغته من تمتمته وحركات شفتيه. الحاجة لكما في المغسل أكثر من ضرورة.

شعر عليلو بقطرات الماء ترتسم على يديه مثل الندى. رفع رأسه قليلاً مرَّة أخرى. رأى السماء المغيّمة قريبة أكثر من العادة. تنفَّس طويلاً شعر بأنَّ عاصفة قويَّة تتهيَّأ في الأفق. ستمطر *سوادًا ورعودًا حتمًا*، تمتم. ضغط على الزرّ، فانغلق السقف الزجاجيّ، حتى اشتبك بإحكام طرفا القطعتين، في السقف.

طلب المصعد الأساسي. ضغط على الزرّ. دخل. انغلق الباب وراءه.

صعد نحو خُلْوَة لاغراند تيرَّاس.

ساد صمت كلِّيّ داخل الصالة الأندلسيَّة الواسعة التي تظلّل مدخلها دالية عالية، جاء بها كازانوڤا من مسقط رأسه البعيد أكثر من ألف كيلومتر عن منارة سيتي، وعليها بركات سيدي منير، جدّه الأوَّل.

لم تكن الصالة الأندلسيَّة في الأصل بهذا الشكل، فقد أضاف عليها الكثير، بعد أن وسَّع الطابق الأرضيّ. محا جزءًا كبيرًا من الحديقة، ولم يحتفظ إلَّا بحديقة صالة VIP نزع كلّ الملحقات الفنِّيَّة التي أضافها مهندسه الخاصّ الذي استفاد من أشكال غاودي. كان كازانوڤا يحبّ هذه الأشكال، لكنْ مع الزمن، بدت له خشنة ومخيفة أحيانًا بظلالها الغريبة الشبيهة بحيوانات القرون الوسطى الخرافيَّة، لِغارغويّ(١) لا يشعر تجاهها بأيَّة عاطفة. قال لمهندسه الجديد،

---

(١) Les Gargouilles

يجب أن نمحو آثار الاستعمار، وننتج شيئًا جديدًا للأجيال، من تاريخهم وثقافتهم. أحتاج إلى صالة يرتاح فيها الناس لا محشرًا الضيوف يأتونني من الشرق والغرب وبلاد برّا، ولا يمكن *أن أستقبلهم في بيت ضيِّق. صورة الإنسان، بيته. لتكن محطَّتهم الأولى قبل الصعود إلى أعالي لاغراند تيرّاس*. لكنَّه أغرقها بالنقوش في كلّ مكان، وأثقل داخلها بالصينيّات التلمسانيَّة والفاسيَّة، والشلَّالات النحاسيَّة، والثريّات التي جاء بها من رحلاته إلى جاكرتا وبيجين وسيول وغيرها، لكنَّ الذائقة الآسيويَّة بدت نافرة مع نمط الصالة التي أصبحت خليطًا من الأشكال. الدار، كانت في الأصل عبارة عن ڤيلّا استعماريَّة في كلّ مكوِّناتها بناها معمِّر فرنسيّ، صاغها على ذوقه النورمنديّ الخشن قليلاً، لكنَّ الحديقة بالنسبة له شيء مقدَّس. كانت جنَّة من الأشجار النادرة. يقبل بكلِّ شيء إلَّا بالحديقة التي يشمّ ورودها، ويأكل منها كلّ ما يغرسه.

الحيطان التي كانت بيضاء فقدت كلّ ضوئها. أصبحت ورديَّة وصفراء، مغطَّاة بشكل شبه كلِّي، باللوحات القرآنيَّة وصور المصاحف المذهَّبة، والمنمنمات الفارسيَّة التي تظهر *سيِّدنا علي* وهو يخوض حربًا قتاليَّة دمويَّة ضدّ *رأس الغول* الذي كان يحمل رجله المقطوعة في يده، ويواصل حربه الضروس. ثم وهو جالس، في حجره الحسن والحسين. صور الشهداء والمجاهدين الذين شاركوا معه في الحرب الوطنيَّة التي أعقبها استقلال البلاد، وماتوا إمَّا في الأسلاك الكهربائيَّة أو غرقوا في وحل الحدود، ولم يصل منهم إلَّا القليل. على الأرضيَّة، يتمدَّد سجّاد كبير، يقول إنَّه إيراني، لكن لالّة كبيرة تقول غير ذلك. ذكّرته بأنَّه بدأ ينسى. هو عبارة عن سجَّاد صحراويّ، بموتيفات أمازيغيَّة، جاءت به لالَّة ساراي من توَّات، من *الأرض الجافَّة*، كما

كانت تسمِّيها عملاً بتسمية والدها، الذي كان كلَّما خرج للتجارة الجنوبيَّة، قال سنمرّ *على جبل النار ومن هناك نقطع بساط الأرض الجافَّة التي لا ينتهي امتدادها لدرجة الخوف*. كانت هديَّة زواجها من قبيلتها في توَّات. لقد قضت نساء المنطقة، زمنًا طويلاً في نسجها! سنتان ونصف السنة وهنّ يخترن الصوف الحرّ الذي لا تشوبه أيَّة شائبة، من الصوف الأسود أو الأصفر أو البنِّيّ، ويرتِّبن الألوان والأشكال بدقَّة هندسيَّة، وحدهنّ كنّ يعرفن سرّها. وضع كازانوڤا السجَّاد في البداية في الخُلْوَة. كانا يتمرَّغان عليه عاريين في لحظات النشوة، لكنَّه منذ أن وسَّع الطابق الأرضيّ اختار لها مهندسه الجديد، الذي أشرف على تأثيث الصالة، هذا المكان وهذه الموتيفات المتنوِّعة، ومنها سجَّاد توَّات. من تلك اللحظة، لم يستطع أحد نزعها التصقت بالأرضيَّة حتى أصبحت جزءًا منها حتى روكينا فشلت في فرض سلطانها بتبديلها بغيرها، عندما غادرت ساراي نهائيًّا كلَّما رأتها تذكَّرت أنَّها لامرأة جاءت من غيب الفراغ، وأزاحتها من مكانها كأثاث قديم فقد رونقه وصلاحيَّته. سرقت مكانها بعنف. هذا السجَّاد ناما عليه في ليلتهما الأولى في الخُلْوَة. قالت لها الخادمة ميمونة إنَّ سيِّدها لوط وسيِّدتها ساراي أمراها ببسطها في فضاء الخُلْوَة المطلّ على السماء. لم تستطع مقاومة ما حصل لاحقًا لم تستطع النوم أبدًا، وكأنَّ نارًا وُضعت في قلبها والدها، الذي انزعج إثر سماع الخبر، وأقسم أن يُريه ما لم يره في حياته، وأن يدمِّره. حمل التلفون وبدأ يصرخ بأعلى صوته، كيف يتجرَّأ على إهانة ابنته؟ ثم شيئًا فشيئًا بدأ يخفت ويحني رأسه، ويتمتم، *معك حقّ. شرع الله*. ثم التفت نحو ابنته وزوجته. *الأفضل أن تقبلي بهذا الحقّ. فهو لم يعتد عليك. الرجل ربِّي أعطاه، ويمارس حقَّه الشرعيّ. وإذا ما أعجبتك*

الحالة، اتركيه وتعالي، أنتِ وابنك. صرخت بكلِّ قواها لدرجة أن بدت كأنَّها لم تكن طبيعيَّة: *أيّ شرع يا بابا!! هذا جرح. تكذب النساء إذ تتحصَّنَّ وراء الشرع لإخفاء جرحهنَّ. أيَّة امرأة تعرف، في ساعة محدَّدة من الليل، ماذا يفعل الرجل الذي منحته كلّ شيء، مع المرأة المجاورة التي يصل أنينها وأنفاسها المتقطِّعة لحظات الذروة إلى أذنيها أو تتخيَّله. ينتفي الدين يا بابا، والحقّ والأعراف والقوانين لحظتها، ولا تبقى إلَّا الحقيقة المُرَّة: الإنسان. وتتعرّى الغيرة نهائيًّا مكشِّرة عن أسنان وأنياب ومخالب لا ترحم.* يحكّ الأب رأسه، وهو يلبس المانطو الأسود للذهاب إلى العمل: *خفِّفي من آلامك. هذه أنانيَّة.* ترتعش روكينا في مكانها كورقة في مهبّ الخوف: *أيَّة أنانيَّة يا بابا؟ تخيَّل للحظة واحدة أنَّ المرأة التي تحبّ، أمِّي. تخيَّلها فقط منقسمة على أربعة رجال غرباء، كلّ ليلة في حضن أحدهم. تنام مع رجل لا تعرفه، قريبًا من فراشك، بمعرفتك المسبقة وقبولك. كيف سيكون حالك؟ أعرف أنَّها تستعصي عليك حتى في الخيال. أربعة رجال وامرأة، ولا يلحقك الدور إلَّا في اليوم الرابع؟ قد يكون الأمر شديد الاستغراب حتى على الخيال! لكنَّه الحسّ البشريّ نفسه وحتى الحيوانيّ.* عندما عادت إلى جناحها، كانت مجروحة، ومصمِّمة على أن لا تترك ليلته الأولى مع ساراي تمرّ بسلام. تناولت مهدِّئات، وحاولت أن تنام، لكنَّها أخفقت كلِّيًا في ذلك. هي تعرف جيِّدًا أنَّها لا تحبّه، وتنتقم منه بخيانته مع ابنه، لكنَّها لم تتصوَّر أنَّه سيصغِّرها بهذا الحجم حتى يحوِّلها إلى لا شيء.

صمَّمت أن تتلصَّص عليه لتعرف صورتها الأخيرة عنده. عندما صمت كلّ شيء، صعدت إلى الخُلْوَة عبر أدراج النجدة. رأتها وهي غارقة فيه، من وراء الفجوة التي تمنحها شجرة اللبلاب المعرّشة في

الخُلْوَة، تحت القمر الذي انعكس واضحًا على الجسدين الفضِّيَّيْن، اللذين كلَّما تحرَّكا تلوَّنا بلون آخر غير الظلال. شعرت بمقدار اللذَّة التي كانت تحسّها. سمعت صوتها الناعم والحارّ بعد صرختها التي تشبه صرخة ألم. حبيبي. *أتألَّم. لقد اخترقت الحاجز. الدم يسيل، أشعر بحرارته. لا تتوقَّف. أشعر بك عميقًا واوووو. من علَّمك هذا الجنون؟ ومن منح جسدك هذه القوَّة؟* تذكَّرت كلّ كلماته التي سمعتها منه، بأنَّها زهرة عمره كبرت في حضنه وأثمرت بين يديه، وسيموت في حجرها. بينهما قرابة العشرين سنة، لكنَّ ذلك لم يكن مهمًّا، فهو في حاجة لامرأة تفتح الحياة أمامه، ويوم تنغلق يغمض عينيه على آخر إشراق في عينيها وملامحها الطفوليَّة. لالّة كبيرة التي كانت تعرفها جيِّدًا، هي من هدَّأها ليلتها بعد أن جاءتها إلى جناحها، فلم تجدها فتخيَّلت مكانها أنزلتها من هناك بهدوء وهي تبكي. استسلمت لها، تلك الليلة الجريحة، ونامت في حضنها مثل طفلة مع أمّ رحيمة، ولم تقاومها؛ ولم تسأل لالَّة كبيرة روكينا عن الأمر الذي قادها إلى الخُلْوَة. هي من حكى لها لاحقًا عن كلّ التفاصيل. كان ذلك جرحًا قاسيًا صعب عليها تحمّله. ولم تصمت إلَّا عندما قالت لها لالَّة كبيرة: روكينا حبيبتي، *هذا نظام الدنيا. هكذا وُجِدت، وعلينا أن نقبل بها ظالمة نعم، لكنَّها هذه هي. هل فكَّرتِ أنت في زينا يوم جئتِ بعدها؟ كانت مثلك في زهرة العمر، لكنَّك كنت سعيدة بليلتك التي وضعتك ملكة على كلّ شيء. لم تلتفتي صوب أيّ شخص، مع أنَّ الأصوات المبحوحة الحزينة التي كانت وراءك كانت كثيرة وبلا عدّ.* تمتمت روكينا ليلتها. لا، مش كيف كيف، *أنا جيت بعد أن يئس، وبرضى من زينا التي لم تكن مسؤولة، وظلّ مخّها صغيرًا وتحاسبه على الصغيرة والكبيرة، وأمّي تقول إنَّ الرجل ينفر من*

الملاحظات الكثيرة. أجابت لالّة كبيرة بصرامة: كيف كيف. *ما فعلته زينا تفعلينه أنت أيضًا* شوفي بقلبك وكلّ حواسّك وليس فقط بعينيك. *العيون تكذب أحيانًا* يوم جئتِ كنت منكسرة، *لأنَّك شعرت بأنَّ الرجل الذي أحببتِ، سُرق منك! واليوم ما الذي تغيَّر؟ كيف تغارين على رجل لم تحبِّيه أبدًا في حياتك؟ كيف تجمعين بين معادلة الحبّ والكراهية والغيرة؟ تريدين أن أضيف أكثر أم أصمت؟* نظرت روكينا إلى عينيها طويلاً، ثم تمتمت بيأس: *اصمتي*. مواجعي تكفيني.

خلت ساحة الصالة الموريسكيَّة كليًّا من ضجيج المنظِّفين، الذين احتلُّوا طوال الصبيحة المكان تحت إمرة مسعود الذي يعرف الدار جيِّدًا ولا يغفل عن الكبيرة والصغيرة. عندما صعد عليلو إلى الاجتماع بعد إشارة الموبايل الحمراء، دخلها للمرَّة الأخيرة، وهو لا يدري لماذا كلَّما فتح بابًا شمّ رائحة غريبة، تشبه تلك التي احتلَّت البيت يوم فقد ابنه البكر سالم، بسبب المخدَّرات، رائحة الموت التي هي مزيج من مياه المجاري والجيفة، والخمائر القديمة، ورائحة الحمَّامات والأدوية القديمة التي فسدت ولم تبق إلَّا عجائنها التي تطلق رائحة قبيحة بالخصوص في الأماكن المغلقة. حاول مسعود أن ينسى ذلك كلّه، بما فيه رائحة ابنه سالم الذي حينما حمله للمرَّة الأخيرة لكي يقلبه نحو الطرف الثاني، عرف بسبب تلك الرائحة الخاصَّة، أنَّ الموت قد نشب أظافره في جسده الهشّ نهائيًّا

مسح المكان عن قرب، للمرَّة الأخيرة، إذا لم يكن قد نسي شيئًا ما، أو غاب عنه. لا يريد أن يترك شيئًا للصدفة. وصل إلى سنّ يحسب فيها كلّ شيء بدقَّة.

تلمَّس السرير الطبِّي الجديد الذي سيتمدَّد عليه كازانوڤا، بحيث يكون مرتاحًا وهو يستمع إلى نسائه. قلب الإزار الأبيض في الزاوية،

ثم الأفرشة الصحّيَّة. لاحظ قطعة البلاستيك، التي تقي من تسرُّب البول والفضلات إلى عمق السرير تسرّبها معناه التخلُّص من المطرح كلّيًّا ثم توجَّه إلى طاولة الاستعجالات التي وضعت عليها قنّينة ماء إيفيان، وعلبة الأدوية الضروريَّة، إضافة إلى جهاز التنفُّس الاصطناعي الصغير الذي يحتلّ الزاوية الخلفيَّة بجوار قنِّينة الأوكسجين، ليس بعيدًا عن السرير، إذ يكفي سحب الماسورة، ووضع قناع التنفُّس على الوجه، ليتدفَّق الأوكسجين بنعومة. كلّ شيء كان متقن الترتيب. سيعرف كازانوفا عندما يستيقظ من غفوته، كما في المرَّات السالفة، ويعود إلى الحياة الطبيعيَّة منتصرًا على الموت الذي أصبح يملأ المكان، كم أنَّ سكَّان الدار كلّها لا يبحثون إلَّا عن راحته، وأنَّهم تعبوا كثيرًا من أجل إسعاده. تدحرجت الكلمات في أعماقه، وهو لا يدري إن كان صادقًا فيما أحسَّه أم لا

عندما انتهى من تدقيق التفاصيل، أغلق مسعود الصالة ووضع المفتاح في جيبه.

في اللحظة نفسها، سمع صوتًا مرتبكًا يأتي من المغسلة:

ـ عمّي مسعود، سيِّدي لوط جاهز

اتَّجه سريعًا نحو المغسلة.

٢

فجأة، توقَّف القرآن الذي كان يأتي من مكان قريب.

صمت يشبه الموت.

لا يُسمع إلَّا شخير متقطِّع يأتي من مكان لم يكن بعيدًا عن المكان الذي اجتمعن فيه، تقطعه من حين لآخر زقزقة العصافير الصغيرة، التي كانت تنتقل بسرعة كبيرة بين الشجرة والشجرة، والبِركة والبِركة.

جميعهنّ هنا. جالسات في سكينة للمرَّة الأولى بعد زمن طويل من الفرقة والتمزُّق، في غرفة الضيوف المميّزين VIP، المحاذية للصالة، من ناحية مدخل الحديقة التي احتفظ بها كازانوڤا، لأنَّها تُعطي راحة للجالس داخل الصالة. استقبل فيها ضيوفًا كثيرين بمن فيهم جوردن، الممثِّل السابق لشركة فورد في المنطقة المغاربيَّة، الذي توفي قبل سنتين، قبل أن ينقل كازانوڤا مكتبه إلى البرج الإداريّ الذي بناه في الحيّ الدبلوماسيّ، في عمق مدينة منارة سيتي، الذي تتقاسمه

معه العديد من الشركات الوطنيَّة والأجنبيَّة. جلب كازانوڤا للحديقة الكثير من الأشجار من قريته، ومن سفراته عبر العالم، كالدالية، وحب الملوك، والفراولة، والليمون والبرتقال والياسمين، والأشجار الاستوائيَّة والنخيل الصحراويّ. الحديقة تُعطي الانطباع بغابة بها كلّ العطور التي تتداخل في تشكيل مريح.

قاعة VIP صغيرة، لكنَّها شديدة الحميميَّة.

بدا كأنَّ الزمن غير موجود أو توقَّف نهائيًّا على سلسلة من الصور القديمة قبل أن يتجمَّد عندها كلّ شيء اختُزِل بقوَّة حتى انتفى واضمحلّ. كلّ واحدة من نسائه مرَّت ذات زمن من هنا، قبل أن تنسحب نهائيًّا أو جزئيًّا من الدار. تفاصيل كثيرة تغيب عنهنّ في علاقتهنّ بكازانوڤا، باستثناء لالَّة كبيرة التي بقيت معه حتى النهاية، ولم تغادره، حتى أصبح من الصعب تخيّل البيت من دونها هي البيت نفسه. كانت هي أوَّل من أخبر الجميع بدءًا من أبنائها الأربعة ثم أبنائه الآخرين، وانتهاء بنسائه والمتعاملين معه وأقاربه. أُصيب كازانوڤا في البداية، قبل نوبات الغيبوبة، بمرض غريب. بحساسيَّة جعلت جلده يتفتَّت مثل التراب، أو كتلة رمل فقدت ما كان يجمعها كلَّما حكّ جزءًا في جسده، انسلخت قطع كثيرة من جلده، الذي يحمرّ وينتفخ كأنَّه وُضع في عمق الماء الساخن. وتطوَّرت معه الحالة بتسارع، فتكوَّنت في الزوايا المجروحة، بسبب الحكَّة، بثور يسكنها الماء ودود صغير أبيض، يكاد لا يُرى. حتى الأطبَّاء لم يستطيعوا فعل الشيء الكثير سوى منحه أدوية الحساسيَّة المعهودة. مستشفى ابن سينا جاءه بالطبيب العالميّ الاسكتلنديّ المعروف روني ولاس، المتخصِّص في الحساسيَّة، لكنَّه لم يعمل أكثر من تحويله إلى حالة مخبريَّة، ولم يصل معه إلى أيَّة نتيجة تُذكر. آخر مرَّة، كما روت لالَّة كبيرة لمعارفه،

أُصيب بنوبة حكّ لم تنفع معها أيَّة وسيلة تهدئة. حتى مرهم بوتيرات الهيدروكورتيزون Butyrate d'Hydrocortisone، والزيوت المخفِّفة، لم تنفع. وبدأ يحكّ ويحكّ ويتلذَّذ ويتألَّم، حتى سلخ جلدته الخارجيَّة على مستوى ملتقى الفخذين. احمرَّت أعضاؤه حتى أصبح كأرنب مسلوخ. وظلّ يتقلَّب في مكانه إلى أن أُغمي عليه. كانت تلك الإغماءة الأولى التي لم يُعرف سرّها، التي تواترت بعدها إغماءات كثيرة قبل أن تتحوَّل إلى حالة غيبوبة شبه كلِّيَّة. خفَّفت الحقن التي اقترحها عليه روني ولاس من الألم. لكنَّها لم تمنع لا النوبات المتكرِّرة ولا الغيبوبة التي جعلته طريح الفراش نهائيًّا

كان الشخير يقوى ويخفت في رتابة مقلقة، تتلوَّن بالصمت المخيّم.

قالت روكينا وهي تحاول أن تخترق الظلال التي سكنت المكان

ـ الرجل لم يمت، ونحن في وضع كأنَّنا أصبحنا ثكالى فجأة، وقبل الأوان. حتى غيبوبته ليست خطيرة. حالته أفضل الآن. صحيح أنَّه فقد الكثير من حواسّه، لكنَّه ما يزال هنا ويفهم ما نقوله له، وإلَّا لماذا طلب حضورنا؟

ـ الأعمار بيد الله، عندما يأتي الموت، يأتي، لا يسبق دقيقة ولا يتأخَّر ثانية. ما يزال ببعض الخير، كما قلت، لكنّه لم يفقد قدراته كلَّها بعد هذه الغيبوبة التي تجاوزت الشهرين، ولا تشبه السابقات في طولها وعنفها

قالت لالَّة كبيرة وهي تُعيد الإزار الأبيض الذي سقط من على رأسها، إلى مكانه.

ـ على كلّ، سيأتي الإمام زكريَّا ويقول لنا ما يجب فعله. هو

مُؤتَمن على كلّ شيء يتعلّق بكازانوڤا دينيًّا، وهو من وكّله عند المحامي وعند الموثّق، ليقوم بكلٍّ ما كلّفه به بدون استشارة أحد.

أتمّت روكينا كلام لالّة كبيرة.

ـ في انتظار الإمام، هدروا[1] شوي. أنا أخاف من هذا الصمت المشبع بالموت. غريب، وكأنّنا في عيادة طبّيّة تنتظر كلّ واحدة منّا دورها للدخول عند الطبيب. رجل عشنا معه كلّ هذا العمر، نحمل له القبيحة والمليحة، سنقولها له لنريحه ونرتاح أيضًا الأكيد، كلّ واحدة حضّرت له ما في قلبها لتفرغه أمامه، وبعدها تغادر المكان وتتركه مع خالقه. لن نغيِّر شيئًا في كازانوڤا ولا في مصيره. كلّ ما خُطَّ له يسير الآن بخطّى حثيثة باتِّجاه ما، لا تستطيع الأذكى منّا تحييده عن مساره.

ـ ما حضّرت أيّ شيء، ولا في نيّتي تغيير أيّ مسار، نطقت زينا التي كانت منهمكة بالنظر إلى أشجار الحديقة التي كبرت وخلّجت حتى أغلقت ممرّات الحديقة بفروعها الممتدّة. ماذا سأقول له؟ إنّه أتعبني يوم جاء بروكينا إلى سريري؟ وقتل آخر شعلة نار كانت فيّ؟ فعلها وانتهى. كنت جميلة وفي دوار فنّي جميل، كان من الصعب عليه إدراك مداراته. منحته كلّ ما اشتهاه ليملكني، لكنّي كنت مملوكة لشيء آخر رأيت فيه حياتي كلّها، الأوپرا؟ لم يُدرك في يوم من الأيّام أنّ العلاقة تكبر، ليس بالأموال ولكن بتفهّم خيارات من نحبّ، حتى ولو بدت له مضيعة للوقت. أشعر كأنّي كرهته من ليلتنا الأولى التي نمنا فيها معًا، حتى قبل زواجنا، عندما سكر وبدأ يقلّد أدواري بسخرية في الأوپرا التي رآها وأُعجب بها، أو هكذا خُيِّل لي. اعتبرتها سخرية في غير مكانها وحينما نمنا معًا لأوّل مرّة، لم يعط لجسدينا فرصة التعارف والتآلف أكثر كلّها كانت علامات صنعت قراري. ماذا أقول له؟

---

(١) تحدّثنَ قليلاً

ومن أين أبدأ؟ لاَ أدْرِي لمَاذا الرجُل الثانِي، فِي بلادِنا تحَدِيدًا، يُعيدك دوْمًا إلى رجُلكِ الأوّل، ويؤنِّبُك ويعذِّبك، وكأنَّه كانَ عليْكِ أن تتَّخِذي كلّ الاحْتياطَات في حبّك، لأنّ رجلاً في قَائِمة الانتِظارِ سيأتيكِ بعد خمْس أو عشْر سنَوات، ويُقيمُ لكِ سِلسِلةً من المَحاكمات والمشَانق الأخْلاقيَّة، وعليكِ أن تبرِّري كلّ لحْظة عشتِها معَ غيْره، قبْلَ مجِيئِه، بينَما يغْلقُ هُو كلَّ أبْوابِ حَياته عَلى فَراغ وحدَه من يصنَعه، وإذا وَاربَهَا قلِيلاً، ستتَحوّل علاقَاتُه إلى سلْسِلة من الفُتوحاتِ، عليْكِ أن تقبلي بهَا بلا سُؤال. في هَذهِ الدنيا، خَطأ كَبيرٌ ارتُكِب في زمن ما، فِي الخُرافَات والقصَص والأديَان والدساتير، ما يَزالُ مسْتمرًّا حتى اللحظة، علَيْهِ أنْ يَزول أو يُغطّى بِدَمِ أُنْثى العِشْق الذي سالَ ظُلْمًا عبْرَ القُرُون. هلْ ألُومُه أمْ ألُومُ تِلكَ اللحَظَة التي صَنَعتْهُ، وجَاءتْ بِهِ إلَى سَرِيرِي؟

ـ هذا هو مجتمعنا، إدّ وإلّا خلّ[١]، لا خيار ثالث. الستر مليح يا زينا، ابنتي. احكي أسرارك معه وأنتِ أمامه، واتركيها بينك وبينه. نشر الغسيل أمام القاصي والداني لا يُفيد الحيّ، ولا يُرضي المريض.

ـ آش من سرّ يا لالّة كبيرة؟ أنتِ سيِّدة العارفات. أنتِ أختنا الكبيرة جميعًا، وتعرفين الصغيرة والكبيرة في هذا البيت، وتحمَّلتِ كلّ أمزجتنا البائسة التي لا يتحمَّلها حتى أهلنا. كم مرَّة انتقلتِ من البيت حتى بيتي عند الأهل واسترضيتني، حادثتِ أهلي، وحاولتِ إقناعهم لكي أعود له. كنتُ أعود من أجلك فقط، قبل أن أتعوَّد على نظام البيت ومالكه وحياته وأسراره. عرفت لاحقًا أنَّ كازانوڤا رجل يستهلك النساء، ولا يحبّهنّ. أنتِ قلتِ إنَّ طفولته كانت قاسية. والده إدريس القبطان، الذي كانت له أملاك واسعة في أطراف منارة سيتي. لا أحد

(١) خذه كما هو أو اتركه.

يعرف كيف استطاع الحفاظ عليها أمام الغطرسة الاستعماريَّة التي استولت على كلّ الأراضي الصالحة للزراعة، إلَّا أراضيه؟ وُجد مذبوحًا على صخرة، لا أحد يعرف السبب أو الجاني. كان كازانوفا هو الابن المفضَّل من بين كلّ إخوته. أمّه لم تبق أكثر من شهر بعد مقتل زوجها أُصيبت بانهيار نفسي مفاجئ. خرجت من البيت، ولم تعد أبدًا فجأة، وَجد نفسه وحيدًا بين إخوته، وهشًّا.

نظرت لالَّة كبيرة صوب الحديقة. كانت الأشجار السامقة تتمايل وتتقاطع، وتتداخل فروعها وأوراقها في رتابة، وكأنَّها كانت ترى شاشة طبيعيَّة واسعة وحيَّة، تتحرَّك فيها أشياء الحياة ببطء كبير مسحت على وجهها قليلاً شعرت بثقل جسدها الذي لم يعد يعنيها كثيرًا تنهَّدت للحظات.

ـ صُدف الحياة قاهرة. أحيانًا أتمنَّى من الله أن يخفِّف من ذاكرتي المثقلة بكلِّ شيء ولا شيء، تعبت أنا أيضًا من وظيفة الأخت الكبيرة والأمّ التي تحلّ كلّ مشكلات الدنيا وتنسى نفسها لا أحد ينتبه إلى قلبها المحروق، ولا إلى جسدها الذي ذبل بسرعة، حتى قبل أن تتخطَّيْن أنتنَّ عتبة هذه الدار التي أخذت من حياتي الكثير، وتركت لي نصف حياة قسّطتها على الأخريات من دون أن تترك لي الحدّ الأدنى.

ـ ربِّي يعطيك الخير والصبر لالّة كبيرة.

ـ أنا مثلكنّ يا زينا، لي ما أقوله أيضًا، لست صخرة دُفِعتْ من أعلى جبل نحو السفح، فاصطدمت في طريقها بكلِّ المعوقات والمنحدرات، قبل أن تستقرّ في الوادي، لا الناس ينتبهون لها، ولا الأمطار تحرِّكها يقولون دائمًا لالَّة كبيرة صبورة! لكنْ، لمْ يسألوا الحرائق التي تشتعل في داخلها مثل البراكين النائمة. الصبر يُدمِّر يا زينا ماذا يربح الصابرون في النهاية؟ لا شيء سوى أن يتحوَّلوا إلى

أحجار صوّان ميّتة، يتذكَّرها الناس في صباح الأعياد، لسنِّ سكاكينهم عليها بقيت هنا، لأنّي كنت دائمًا أقول لنفسي، لو غادرتُ المكان، سينهار البيت ويضيع كلّ شيء، وسيتحوّل أبناؤنا كلّهم إلى أعداء لبعضهم بعضًا، إلى الأبد. ينتسب كلّ واحد لأمّه فقط، وليس للوالد المشترك. عندما تتكلّمون تذكّروا قليلاً أنّي لست امرأة وجدها لوط في حطب الوديان، ولست صخرة مرميّة على قارعة الطريق. كائن حيّ يتألّم ويحزن ويخاف، لكنّه يتكتّم فقط. لهذا لا أتكلّم. خفّفوا عليه. قولوا اللّي في قلوبكم بينكم وبينه.

ـ عذرًا ميما كبيرة. ربّي يخلّيك لنا. أنا لم أقصد إيذاءك. كنت فقط أعبّر عمّا في قلبي، لأنّي، لا أتصوّرني في امتحان أو صراع بيني وبينه. لا حساب لي معه، أصفّيه. لكنّي أيضًا لست مضطرّة للكذب. هو يريد شيئًا لم يكن يراه وقتها، سأظهره له وأنسحب. ربّما لأنّ علاقاتنا مع كازانوڤا تختلف. جمعتنا حياة كان فيها الجميل والدّونيّ. الآن كلّ شيء تغيّر هو وجد طريقه، واختارت كلّ واحدة منّا ما يناسبها في حياتها

قالت زينا بشكل عفويّ، وهي تربت على كتف لالّة كبيرة التي ظلّت عيناها تعومان في فراغ أبيض.

نظرت النسوة إلى بعضهنّ بعضًا، لم يفهمن الشيء الكثير لأوّل مرّة تتجرّأ لالّة كبيرة، وتتكلّم بهذه اللغة المحمّلة والمشحونة بالأسرار. كانت دائمًا تؤثر الصمت على الكلام. فجأة، انتبهن إلى أنّ هذه الأخت الكبيرة، التي حوّلنها إلى مشجب لكلّ همومهنّ وأمزجتهنّ الطفوليّة، كانت في يوم ما امرأة شابّة مثلهنّ تمامًا، مليئة بالفرح والحياة والرغبات.

نزل الصمت مرّة أخرى. انزلقت زينا بعينيها إلى خارج صالة

VIP، لا شيء من وراء النافذة الزجاجيَّة الكبيرة، سوى قبر نور الصغير الذي يظهر بوضوح، وقد كُتب على شاهدته: *هنا تنام نور، حمامة سيِّدي لوط. لم تكن حمامة، كانت أكثر، امرأة.* القبر مُحاط بالنوار والنباتات التي كانت تغطِّيه كلِّيًا. كازانوڤا لا يعرف أنَّ نور ماتت بجرحها. جاءت لتبحث عنه، كما يقول مسعود، فقط لتموت بين ذراعيه، لأنَّه كان الأوحد في هذه المدينة الذي يفهم قلبها وحزنها

نقرات حبَّات المطر التي كانت تنزل على أوراق الأشجار الاستوائيَّة، كانت تحدث صوتًا ناعمًا ومتلاحقًا، مصحوبًا برعود وبرق مُعْمٍ للأبصار، وبشخير لا يتوقَّف، شاقّ وثقيل كان يخرج بصعوبة من صدره، وينظِّم حركة الصمت ويخترقها، كلَّما خفَّت الأمطار. يقوى ويخفت بانتظام. كان يأتي من الصالة الأندلسيَّة حيث سُجِّي جسد كازانوڤا، مثلما طلب من الإمام زكريَّا ومسعود وابنه الصغير يونس، الذي يحمل كلّ أسراره.

عاد الصمت من جديد، كأنَّهنَّ ينتظرن طارئًا يغيِّر كلّ شيء رأسًا على عقب. حتى روكينا التي بدت متحمِّسة للحديث، سرعان ما التزمت الصمت هي أيضًا سرحت في أمكنة وحدها من كان يعرفها لمع وجهها تحت النور، فأظهر كلّ الزوايا التي لامسها الماكياج السائل، فبدت كأنَّها ضيفة أتت لحضور عرس جيرانها.

دخل مسعود على نساء كازانوڤا يحمل في يده شلَّالاً نحاسيًّا قديمًا، مخلِّفًا وراءه رائحة البخور، وورق الزهر، وقشور الرمَّان المحروقة، والطيب، لكنَّ رائحة الموت التي احتلَّت كلّ زوايا البيت، بما في ذلك الأفرشة والأواني المحيطة، ظلَّت هي الأقوى. كان وجه مسعود الرماديّ بشكل غامق، غائبًا في شيء يشبه الخوف. به رائحة عالقة لا يغسلها لا الماء ولا الديتول المعطِّر الذي غسل به البيت كلّه،

والساحة، والصالة الأندلسيَّة قبل أن يفرشها من جديد.

مسح مسعود على وجهه في تقليد صحراويّ متوارث، قبل أن يتكلَّم. عادته التي تُظهر خجلاً دفينًا لم يتخلَّص منه طوال السنوات الطويلة التي قضاها في هذا البيت. تربّى مسعود في حضن العائلة، ولم يعمل في أيّ مكان آخر. فقد عاد به كازانوڤا من رحلته الأولى إلى الصحراء. كان يشتغل نادلاً في أحد مقاهي قاعدة حياة[1] أميركيَّة للنفط. حاسّته ونباهته أثارت جدًّا كازانوڤا عندما سأله كازانوڤا وهو في زيارة للقاعدة مع مدير شركة فورد، الذي لم يكن قد وقّع معه أيّ عقد يتفرَّد من خلاله بالشركة في منارة سيتي: *لماذا تريد ترك الجنوب والذهاب إلى الشمال؟* أجابه بلا تردُّد ولا تفكير *إنَّ المرض الأكبر سيكبر أكثر بهدوء هنا، على هذه الرمال الميِّتة، ولن يراه أحد وهو يتحوَّل إلى قنبلة تفجِّر كلّ هذا النسيج. الأميركان هم الوحيدون الذين يشغِّلون السكَّان الأصليِّين. كلّ عمّال الشركات الوطنيَّة للتنقيب وإنتاج النفط آتون من الشمال برفقة أهاليهم وموظَّفيهم أيضًا محكوم علينا نحن وأبناؤنا أن نظلّ في هذه الوضعيَّة الظالمة، مهما بذلنا من جهود استثنائيَّة خاصَّة*. رافقه يومها إلى مسجد المدينة لأداء صلاة الجمعة. في النهاية، طلب منه صراحة أن يأخذه معه ليعمل عنده في أيَّة وظيفة. فكَّر كازانوڤا طويلاً قبل أن يخبره بقبوله المبدئيّ، شرط أن لا يطلب منه سكنًا، أو أيَّة مزايا أخرى. ما تزال تلك الجملة التي غيّرت حياته، ترنّ في رأسه: *خذ أغراضك وتعال معي*. لم يتردَّد مسعود ولا ثانية واحدة. اختبره كازانوڤا على مدار سنة كاملة، قبل أن يسجِّله رسميًّا في البلديَّة بوصفه عاملاً من عمَّاله. واستخرج له بطاقة الضمان

(١) Base de vie

الاجتماعي. عمل في كلّ المهن قبل أن يجبره على تعلُّم قيادة السيَّارات، فسجَّله في مدرسة أحد أصدقائه حتى تحصّل على رخصة السياقة. وبفضل التسبيقات التي كان يمنحها له بانتظام، اكترى مسعود سكنًا في أعالي مدينة منارة سيتي القَديمة، في حيّ الشِّيرَا الشعبي حيث السكنات والأكواخ في متناول فقراء المدينة. كان سعيدًا أنَّ الله فتح عليه باب الخير قال: *هنا سيكبر أبنائي في الشمال، الخير والدراسة والمستقبل الجميل، أفضل من جنوب رمليّ قاتل*، قبل أن يكتشف، بعد سنوات، أنَّ أحد أبنائه كان قريبًا من إحدى شبكات تهريب المخدِّرات المسمّاة *كارتل* سلّام. كان يومًا أسود. يتذكَّر مسعود كلّ تفاصيله القاسية، على الرَّغم من ثقل السنوات التي مرَّت سريعة. لم يكن يعرف مكان محافظة الشرطة إلَّا يوم طُلِب منه أن يحضر بسرعة. فوجئ بابنه سالم مقيَّدًا مثل أيّ مجرم. ووجهه أزرق. سقط على الأرض ولم يستيقظ إلَّا بعد أسبوع، فاقدًا القدرة على الكلام التي لم يسترجعها إلَّا بعد فترة. عندما عاد إلى عمله محمَّلاً بكلِّ الوثائق التي تثبت مرضه، صرخ كازانوفا في وجهه بعنف: *أنت لم تعرف كيف تربِّي أبناءك، فكيف تربِّي نفسك على احترام من مدَّ لك يد العون. سالم راح للتهريب وسيأخذ تأبيدة أو ثلاثين سنة. أخوه آهار*[1] *التحق بخليَّة إرهابيَّة تنشط في المرتفعات الحاضنة لمنارة سيتي، وضفاف وادي الكبريت*. حتى ابنته لم تنفذ من المأساة التي مسَّت العائلة كلها تلّيت[2] التي زوَّجها مسعود من ابن عمّها آمولاس[3]، في أقصى الجنوب، كان مصيرها قاسيًا فقد مات زوجها في عمق البحر، وهو

---

(١) الأسد (في لغة الطوارق).

(٢) القمر (الطوارق).

(٣) الوجه الأصفر (الطوارق).

يحاول أن يقطعه مع مجموعة بعد شهر واحد من زفافه، وبعد أن فشل في الحصول على ڤيزا، إسپانيَّة، فرنسيَّة، بلجيكيَّة، هولّنديَّة، وكنديَّة. تلقَّى رفضًا قطعيًّا من كلّ القنصليَّات التي جرَّبها ترك آمولاس وراءه تلّيت مثقلة البطن. بكى مسعود كثيرًا عندما حاول تقبيل حذاء كازانوڤا ومنعه، لم يكن يملك شيئًا آخر إلَّا الانتحار. قال له: *لا يا مسعود. كازانوڤا لا يمكنه أن يقبل بهذا. ارتح أسبوعًا ثم عُدْ. رتِّب شأن بيتك، وسأتدبَّر أمرك*. بعد ثلاثة أيَّام فقط، أعاده كازانوڤا إلى عمله. عرف لاحقًا أنَّ ذلك تمّ بفضل لالَّة كبيرة وروكينا فظلّ ملازمًا له. يقوم بكلِّ الأدوار الضروريَّة، من سائق خاصّ حتى تكليفه بمشترياته. كان مسعود يتبع كازانوڤا كظلِّه. يحمل نعليه عندما يدخل مسجدًا للصلاة، وإذا قام ألبسهما له، إذا جلس، جعلهما في ذراعيه حتى يقوم. يحمل حقيبته كلَّما كان على موعد مع رئيس البلديَّة، أو الوالي، أو قائد الناحية العسكريَّة، أو محافظ الشرطة، أو في أحد مكاتب رجال الأعمال الذين يجوبون الأرض من الشمال إلى الجنوب، الذين كان يتعامل كازانوڤا معهم تجاريًّا. فهو أيضًا من يرتِّب فراشه، ووسادته، وعطره برفقة مدام شانيل، أو ميمونة، ويهتمّ حتى بلون أحذيته ونعليه بعد أن تركته أغلب نسائه. في الضيافات، كان مسعود هو من يسبق لتفقُّد المكان، وأوَّل من يكون حاضرًا بمجرَّد مغادرة كازانوڤا المكان. كلّ المتعاملين يعرفونه من سحنته الطويلة والمستقيمة، ورفاعة جسده، على الرَّغم من متاعب السنّ التي بدأت تزحف. يرافقه نحو السيَّارة. يفتح له الباب في الخلف، وينتظره حتى يركب، يغلق الباب، قبل أن يمتطي مقودها وينطلق به نحو الأمكنة التي يعرف مسعود جيِّدًا خرائطها. لم يغيِّر هندامه الخاصّ الذي يشبه هندام سوّاق السيَّارات الأميركيَّة الخاصَّة. فهو لم يسق في حياته إلَّا

سيَّارات فورد الأميركيَّة الأوتوماتيكيَّة، لأنَّ كازانوڤا كان يراها الأهمّ في العالم، لخفّتها وأناقتها، ولأنَّها التعبير الحيّ عن جبروت أمَّة صنعت نفسها بنفسها، بسرَّاقها وأخيارها، ومافيتها، وشذّاذ آفاقها. عندما رضي بعمله، بعثه كازانوڤا في دورة خاصَّة إلى أميركا، تعلَّم فيها ما معنى أن تكون سائقًا لشخصيَّة كبيرة، كما تعلَّم قليلاً الإنجليزيَّة. قال له كازانوڤا: *لا ينقصك إلَّا شيء واحد يا مسعود.* أجاب مسعود مثل طفل كشف سرّ اللعبة بسرعة: *أعرفه يا سيِّدي. وما هو؟* سأله كازانوڤا؟ *هذه تعلَّمتها في دورة السياقة في أميركا: السائق ليس درايڤر فقط يشبه الآخرين، لكنَّه أيضًا بادي غارد، على عاتقه حماية سيِّده.* قال كازانوڤا الذي كان يستعدّ للسفر: عندما تنزلني في المطار، مرّ مباشرة على المحافظ صالح، فهو ينتظرك. لم يفهم جيِّدًا، ولم يتجرَّأ على السؤال. تذكَّر ابنه أوَّل مرَّة، ثم أغمض عينيه، لكي لا يرى صورة سالم مكبَّلاً مثل أيّ سارق خطير أو قاتل. عندما مرّ على المحافظة، كان المحافظ قد رتَّب كلّ شيء. قالوا له ستقضي أسبوعًا هنا، تتعلَّم رمي الرصاص عن قرب وعن بعد، بالمسدَّس. *منارة سيتي في وضع صعب. القتلة والإرهابيُّون في كلّ مكان.* حماية *الآخرين ليست كلامًا، ولكنَّها عمل حقيقيّ وشاقّ، لأنَّها تقتضي استعدادًا دائمًا ليس للقتل فقط، ولكن أيضًا للموت.* تجاوز بسرعة برودة القطعة المعدنيَّة حينما وُضعت بين يديه للمرَّة الأولى. في اليوم الأوَّل خاف منها، لكنَّه سرعان ما تعوَّد عليها. بل أصبح يريدها، لأنَّها تُعطي ثقة كبيرة للإنسان. وقبل أن يُنهي الدورة، كان قد تآلف معها نهائيًّا

ظلّ مسعود واقفًا باستقامة، بلباسه الصحراويّ الإفريقيّ الملوَّن مثل سماء لحظة المغيب، حيث يتداخل كلّ شيء. لم يقل ولا كلمة. لم يستجب حتى لمزحة روكينا: عمِّي مسعود *راك اليوم مزرقط كما*

حلوة الزربوط. احذر من العابرين والعابرات بالخصوص، قد تخطئ إحداهنّ فيك وتأكلك،، ههههه.

انتظر باستقامة، في الزاوية اليسرى من الباب، حتى دخل الإمام زكريًّا ملفوفًا في برنس قديم. كان وجهه باردًا كحجرة يابسة. كلّ شيء فيه كان يشبه الموت.

ـ مسعود، جاهز؟

ـ جاهز يا شيخ زكريًّا

ـ ابدأ في عملك. استقبال المريض بابتسامة وعطر مريح، هو نصف الشفاء.

ـ هل أنت مؤمن بأنَّه سيعود إلى وضعه الطبيعيّ قريبًا؟

تساءلت روكينا في حيرة، وكأنَّها كانت تستفزّ الإمام زكريًّا

ـ الأعمار بيد خالقها، لكنّي لو لم أكن مؤمنًا في أعماقي بشيء من هذا، ما كنت هنا.

ـ ألا ننتظر وصول ساراي؟

ـ هذا ما كنتُ أنوي إعلامكنّ به. ساراي لن تصل. متزوِّجة وفي أقاصي الصحراء. وجودها معكنّ صعب جدًّا، بل مستحيل. أكَّدت لي أنَّها لن تأتي، ولكنّي أقنعتها أنا وابنها هارون الذي يرافق إخوته في البحث عن خليفة لوالدهم، ببعث شيء منها، بصوتها بعثتْ له تسجيلاً قالت فيه ما في قلبها، وتسامحت معه كما تقول هي، ووضعته في ظرف وأغلقته بإحكام، وطلبت منّي أن لا أفتحه إلَّا لحظة يأتي دورها في الوقوف أمام كازانوڤا، وأن يُعاد لها الشريط مع هارون. وافقتُ طبعًا، وأقسمت على القرآن الكريم أن يكون لها ما أرادته. وأتحمَّل أمام الله مسؤوليَّة وعدي الذي قطعته على نفسي أمامها

نظر من وراء النافذة، فرأى طيرًا صغيرًا يبحث عن عشّه، ثم ضفدعة تنظر إليه بعينين مدوَّرتين بارزتين. ثم انزاحت عيناه باتِّجاه قبر صغير لم يعرف أنَّه للحمامة نور، كُتب عليه: *هنا تنام نور، حمامة سيِّدي لوط. لم تكن حمامة، كانت أكثر، امرأة.* ثم استعاد وجه ساراي التي كانت رشيقة كغزالة، ولم تترك السنوات على جسدها أيّ خدش. يتذكّرها جيِّدًا عندما دخلت البيت، وعندما غادرته، على الرَّغم من محاولاته الكثيرة لكي تأتي معه، إكرامًا لأجمل أيَّامها مع كازانوڤا

أيقظته من غفوته لالَّة كبيرة، التي لفَّت الفوطة على رأسها من جديد:

ـ كيف عثرتَ على ساراي؟

ـ سيِّدي لوط ألحّ لدرجة البكاِء على مجيئها، ليودِّعها ويقول لها ما في قلبه، وكيف أنَّ السحرة دخلوا بينهما وكانوا سببًا في فراقهما ذهبت حتى صحراء توَّات الواسعة. أصولها من هناك. أهلها يشتغلون في التمور والنخيل، وتصنيع مشروب اللاغمي الكحوليّ والعائليّ. الأوَّل يُصدَّر والثاني يُحفظ وطنيًّا أوَّل مرَّة رآها كازانوڤا وهو يقايض أخاها لشراء قطعة النخيل الواقعة بين قطعتين كبيرتين له، شعر بأنَّها ستكون زوجته. منذ تلك اللحظة سكنته، ولم يستطع مقاومة وجهها

ـ لا أسأل عن هذا، أعرفه جيِّدًا كيف قبلتْ أن تبعث شيئًا من صوتها لكازانوڤا؟

ـ في البداية، رفضت. لكنْ، مع إصرار ابنها هارون، جعلها تلين قليلاً في النهاية، قالت لي: *مُرّ عليّ غدًا أعطيك رسالة، اقرأها عليه بصوتك، أو تسجيل صوتي أقول فيه كلّ ما في القلب.* لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

ـ إذن، ليس زواجها هو الذي منعها من الحضور.

ـ لا الزواج عنصر قالت عندما ألححت عليها *اعذرني، قلبي مليء بالرماد. لا أريد أصلاً أن أراه. منذ أن غادرت البيت، أقسمت أن لا ألتفت ورائي. حتى جاء ابن عمّي الذي تربّى معي في خيمة العائلة وطلب يدي. لم أفكّر فيه ثانية واحدة. اليوم لي حياة وأبناء وزوج، لا أريد أن أجرحهم، فهم لا يعرفون شيئًا عن قصّتي، ما عدا ابني هارون وأخي الأصغر الذي يحبّني، فأنا مثل أمّه، ربّيته في صغره. هارون أسررت له بكلّ شيء، وطلبت منه أن لا يحقد على والده. أبنائي الآخرون يعرفون فقط أنَّ أمّهم تزوّجت ومات زوجها الأوّل، وانتهى الأمر وتحوّلت من سكرتيرة أخي، إلى سكرتيرة لوط الخاصَّة. وكان تمرنا دقلة نور يسوّق عالميًّا. والمشروبان اللذان صنّعناهما مع شريك إيطاليّ، لاغمي نور، ولاغمي كول Lagmy Nor, Lagmy Cool. الأوَّل عبارة عن عصير، والثاني مخمّر وكحوليّ ويُستهلك بقوَّة في مناطق الجنوب، لا يتركان لي الوقت الكثير.* حاولت أن أقنعها بمرافقتي، لكنَّها رفضت. قالت لا يمكن. *كيف تتصوَّرني أجلس في القاعة نفسها مع الرجل الذي رماني إرضاء لجنون بعضهنّ، وقَبِل بِدَمٍ بارد بمقتل ابني يوسف ولم يحرِّك ساكنًا؟ لن أسامح كلّ من كانت له يد في قتله في عزّ العمر. قضيت وقتًا طويلاً وأنا أحاول أن أجعل جرح القلب يلتئم، لكنّي لم أستطع. لا أريد أن أفتحه من جديد. أعدك أن أفعل شيئًا من أجل هارون، فهو في النهاية ابنه. مُرَّ عليّ غدًا* امرأة قويَّة الشخصيَّة وشديدة الطيبة. حافظت على سجيَّتها الصحراويَّة. كانت لطيفة في استقبالي وتوديعي. وفت بوعدها، وسلَّمتني القرص المضغوط في طريق العودة.

شعرت النسوة، من طريقة روايته للأحداث، كأنَّ الإمام زكريًّا،

خبّأ أجزاء مهمَّة من القصَّة، ولم يقل كلّ ما كان يحمله في داخله. المؤكَّد أنَّه لم يفصح عن كلّ ما سمعه.

ساد الصمت، وكأنَّ كلّ واحدة منهنّ استعادت قصّتها مع ساراي.

ـ على كلّ حال، لم تكن ساراي طبيعيَّة. كانت نفسيَّتها مرتبكة جدًّا عصابيَّة وصعبة المزاج، وتشوف نفسها نجمة على الأرض، ويمكنها أن تقول أيّ شيء. إلٰهة تركيَّة[1] تأمر فقط، فينحني لها الناس مجموعات مجموعات. تحكي أيَّة خرافة سمعتها هنا أو هناك قبل أن تنسبها لنفسها، على الناس تصديقها، وإلَّا ستُعادي كلّ من يقول لها لا، باسطا يكفي تخريفًا.

أردفت روكينا، وهي تحاول أن تهرب بنظرها بعيدًا

لم ينتظر الإمام طويلاً، وكأنَّه كان يتحيّن فرصة ردّة فعلها

ـ رغم الجرح الذي في قلبها، فقد تعاونت معنا بحبّ يا روكينا طبعًا، هي لم تنس شيئًا ممَّا حدث لها قالت إنَّها تسامح كلّ شيء. كلّ شيء بلا استثناء إلَّا مَنْ حَرَمَها من يوسف. الغيرة هي التي أعمت قاتل ابنها تقول إنَّها تملك حقائق تجرِّم بعض من في هذا البيت. بمساعدة أخيها هغار، طالبت بفحص طبِّي جديد يحدِّد أسباب الموت. لم تفلح في البداية. لكنَّ إصرارها أوصلها إلى الطبيب الشرعيّ، الذي أخَّر دفن يوسف، حتى إجراء الفحص الذي يكشف عن أسباب الموت الحقيقيَّة. لم تقتنع في أيِّ يوم من الأيَّام بسبب الموت الرسميّ، الذي انتهى إلى خلاصة أنَّ الطفل مات بشكل طبيعيّ، حينما أُصيب بالسكتة التنفُّسيَّة التي تُصيب الكثيرين في نومهم. تقول إنَّ مدير المخبر الذي

(١) من الطوارق.

كان رجلاً مهنيًّا وطيِّبًا، وخارج الحسابات والخوف، قال إنَّ موت الطفل لم يكن طبيعيًّا. لقد تمَّت بفعل فاعل، وأنَّ الاختناق لم يكن عاديًّا، إذ إنَّ احتقانات الدم في العنق تُبيِّن أنَّ حزامًا، أو ربَّما قطعة قماش لُفَّتْ حول عنقه. لم تجد التحاليل أيَّة بصمات يدويَّة. نتيجة الفحص الجديد التي ترتَّب عنها تحويل الشابّ المخبريّ إلى الصحراء بسبب تلقِّي رشوة، كانت مخالفة لما قالته النتائج الرسميَّة. ركضنا بين الدوائر لفضح الحقيقة وتفجيرها ظللنا ندور في حلقة مفرغة. يد لوط كانت أكبر ممَّا كنَّا نتصوَّر. كيف تريدني أن أحضر؟ سأحرق البيت ومن فيه في حالة غضب. سأوقظ لوط حتى وهو تحت التراب، وأصرخ في وجهه: لماذا تستّرت على القاتل وأخفيتَ الجريمة؟ لا أدري إذا كانت ساراي في حالة طبيعيَّة وهي تتكلَّم، إذ انتابتها حالة اختناق كلِّيّ، انتهت بها إلى بكاء استمرّ طويلاً، قبل أن يحضنها هارون في صدره. كلامها كان شديد الخطورة. ربِّي يحفظنا من القوم الضالِّين.

نظرت زوجات لوط بدهشة كبيرة لما كان يحكيه الإمام زكريًّا، إلَّا روكينا، كأنَّها لم تكن معنيَّة بما كان يُحكى أمامها، فقد ظلَّت منهمكة بتنظيف أسنانها بالسواك الذي كان ينصحها به دائمًا لوط، حتى تحافظ على طيب فمها، فهو يزيل الروائح الكريهة ويحفظ اللثَّة. كانت في عالم آخر. منذ الصباح، اختارت أن تذهب إلى الحمَّام وتتزيَّن كما لم تفعل أبدًا

سعل الإمام من جديد، ليستعيد نباهتهنّ نحوه:

ـ قصَّة طويلة. كلّ نفس ذائقة الموت. ساراي مجروحة من موت ابنها يوسف، ويجب فهمها على كلٍّ، اللِّي فات فات. لنتَّقِ الله ونسهِّل مهمَّة الرجل حتى يلقى ربّه وهو مرتاح الخاطر. على كلّ،

سنسمع ما على الشريط، وأكون قد أدَّيت ما عليّ. لا أعرف فحواه حتى اللحظة. الظرف الذي معي يحوي على القرص المضغوط، وهو مغلق كما ترون. سأفتحه أمام سيِّدي لوط، بحضور خادمه الوفيّ مسعود، ليسمع بنفسه ما أرادت قوله له فقط. الآن نبدأ لنتركه يرتاح قليلاً من تبدأ الأولى؟

نظرت النسوة إلى بعضهنّ بعضًا، مرَّة أخرى، كأنَّهنّ أحسسن بذنب في لحظة من اللحظات. لم تخرج من أفواههنّ ولا كلمة واحدة، ما عدا لالَّة كبيرة، التي ظلَّت غارقة في حالة صمت كبير وثقيل، وحدها كانت تعرف ما فيه. منذ أن بدأ زكريًا حديثه وشروحه عن ساراي، وهي تتأمَّل وجهه، ملامحه، وحركة عينيه لإدراك ما يتخفَّى وراء كلّ كلمة كان يقولها.

ـ ليكن. سأبدأ أنا إذا أحببتم، ثم مباركة، ثم زينا، ثم رُقيَّة، ثم ساراي. أو صوتها

ـ لا قالت روكينا وهي تردّ على اقتراح لالَّة كبيرة بالرفض. أنا أختم معه. تأخُّري بعدكنّ لن يغيِّر في الأمر شيئًا ربَّما يمنحني وقتًا أكثر، عندي واش نقول له. قلبي مدوّد. يجب أن يستمع إلى إنسان بلحمه ودمه، لا إلى آلة باردة، لا أحد يعلم ما إذا كان المتكلِّم هو الشخص الحقيقيّ.

ـ ليكن. في هذا الترتيب شيء من العدل. لن نحوِّل شيئًا عاديًّا إلى مشكلة.

صمتن جميعًا، كأنّ مقترح لالَّة كبيرة حسم كلّ شيء.

ـ على بركة الله.

قال الإمام زكريًّا وهو يفرك يديه.

ثم التفت نحو مسعود الذي كان ما يزال منتصبًا عند الباب مثل تمثال في حديقة مهملة، لا أحد ينتبه له، باستقامته المعهودة، وطيبة قلبه، في يده الشلَّال والغسّال[١] النحاسيَّيْن، مستعدًّا لبدء عمله.

ـ توكَّل على الله يا مسعود. أخيرًا، أفرجها الله. اتَّفقنا على الترتيب. لالَّة كبيرة، مباركة، لالَّة زينا، لالَّة ساراي، وأخيرًا لالَّة رقيَّة التي اختارت أن تختم جلسة التسامح هذه. لا ضرر ولا ضرار، ما دامت لالَّة ساراي لن تحضر إلَّا بصوتها المسجَّل، لاستحالة حضورها جسديًّا

ـ بسم الله.

مرَّر عليهنَّ الشلَّال، فغسلن أيديهنَّ الواحدة تلو الأخرى، وهنَّ جالسات في أماكنهنَّ، بالصابون وماء الزهر، ومسحن أيديهنَّ بمنشفة تعبق برائحة البرتقال والليمون، الذي كان كازانوفا يحبِّه كثيرًا، ويمجِّده في كلّ جلساته العامَّة والخاصَّة.

ثم غسل الإمام أيضًا يديه، بالطريقة نفسها

عندما انتهى، غادر مسعود المكان، دافعًا بجسده إلى خارج الصالة الأندلسيَّة بصعوبة.

---

(١) الغسّال، إناء نحاسيّ مكوَّن من قطعتين: إناء فوقيّ يُقال له البقراج، فيه ماء دافئ، عادة يقدَّم للضيوف لغسل أياديهم استعدادًا للأكل؛ وإناء تحتيّ يُسمّى الشلَّال، يستقبل الماء المستعمل أثناء الغسيل.

٣

زادت نقرات المطر في الخارج، وارتفعت وتيرتها بسرعة. كسرت حالة الصمت التي ملأت المكان.

الشخير يصل متقطّعًا، من حين لآخر، من الصالة الأندلسيَّة.

وقف الإمام زكريَّا عند الباب، متأمّلاً الوجوه التي كانت تنتظر

ـ خلاص. انتهينا من كلّ الترتيبات كما أوصى عليها سيِّدي لوط. فهو يحبّ التفاصيل، ولا يريد أن يُهمل أيّ شيء. نفَّذنا بإخلاص كبير حتى الآن بالحرف الواحد وبلا أدنى خلل، وصيَّته، ما دامت هذه مشيئته. أشكركنّ، فقد كنتنّ نعم الزوجات المتفهّمات.

ـ إن شاء الله يتم كلّ شيء بسرعة، وبلا مشكلات جانبيَّة.

قالت روكينا وهي تنظر باتِّجاه الحديقة:

ـ هذا ما نريده جميعًا.

كان الإمام زكريَّا يتحرَّك بسرعة، وكأنَّه رئيس أوركسترا موسيقيَّة مشهورة. عيناه في عيون الجميع، لا يغيب عنهما أيّ تفصيل مهمّ.

ـ الآن، نشرع في وقائع التسامح كما اتَّفقنا ستدخلن عليه في سكينة وخشوع، كأنّكنَّ تقمن بعيادة مريض في أيَّامه الأخيرة، في حاجة ماسَّة إليكنّ. ليست تمثيليَّة، هذا أدنى شيء يمكن أن نقوم به تجاه شخص أعطانا كلّ شيء، هو اليوم بين الحياة والموت، في حاجة ماسَّة إلى أيَّة كلمة طيِّبة نقولها له. لا تجرحنه، الأعمار بيد خالقها، لكنْ إذا كان لا بدَّ من الموت، اتركنه يرحل مرتاحًا وراضيًا عنكنَّ. أظهرن له التسامح والمحبَّة مقابل ما منحه لكنَّ. اغفرن له أخطاءه، إذا وُجِدت. أخبرنه بأنَّكنَّ تنازلتنَّ عن حقوقكنَّ أمام الله، ولا تحاسبنه على شيء.

ـ طيِّب، ماذا نفعل هنا إذن ما دمت قد نُبت عنَّا جميعًا؟ خلاص اتركنا نعود إلى مشاغلنا، وقم أنت وحدك بما يجب القيام به، كما تمليه الأصول. في النهاية، ما المطلوب منَّا؟ أن نتحدّث لغتك وما أمليته علينا الآن؟ أن نكرِّر عليه الوصايا التي جئتنا بها، أم نفرغ له ما في قلوبنا؟ تركت بيتي وعملي وليان، ابنتي، لا لشيء إلَّا لأنِّي أريد أن أقول، ربَّما ما لا يريد سماعه. ما في قلبي يحرقني. اتركنا نقول ما جئنا من أجله.

انتفضت مباركة بغضب كبير. لم تستطع أن تكتم امتعاضها وغيظها ظلَّت صامتة طوال فترة جلوسها، لأنَّها كانت ترى في كلام الإمام عبثًا تريده أن يسمعها للمرَّة الأخيرة، مهما كلَّف ذلك من ثمن. لا يمكن أن يكون مآلها القاسي مجرَّد صدفة. فقد كان كازانوفا من وراء إعادة تشكيلها من كائن طبيعيّ، إلى هلام خطير، بلا شكل ولا اسم له. عندما حاولت أن تُعطي لهذا الهلام شكلاً، ابتلعها الشكل، واستعصى عليها الإنسان الذي في داخلها، أو بقاياه. تتساءل مباركة في أعماقها، كيف حشر *هذا المخلوق الكريه*، زكريًا، نفسه،

في حياتهنَّ الخاصَّة حتى أصبح وصيًا على الجميع؟ أيّ المسالك قطعها، وأيّ الحيل استعملها، ليصبح كلّ شيء في الدار الكبيرة؟ كان لا يُدعى إلى البيت إلّا لفكّ مشكلة دينيَّة، أو توقيع عقد بشهود، أو أيَّام الأعياد، وها هو يتحوَّل إلى كلّ شيء! لا شيء يمرّ من دون رضاه.

منذ موجة الإغماءات المتكرِّرة، جاء به كازانوڤا، كأنَّه مالك لمفاتيح الغيب. كلَّما استفاق من نوم طويل أو رأى كابوسًا، سأل عنه هو الأوَّل، ثم عن أبنائه وزوجاته. آخر مرَّة، عندما استفحل وضعه، ولم يعد قادرًا على العودة إلى المشي، إذ أصبح لا يتحرَّك إلّا على كرسيٍّ متحرّك، ناداه في منتصف الليل، وأبلغه قراره: *أن تكون حاضرًا في كلّ الأوقات، إذا لم أستطع أن أتشهَّد، كن بجانبي، وارفع سبّابتي، وشهِّد لي. لا أريد أن أعود إلى ربِّي مثقلاً بشيء لا أريده لا لنفسي ولا لغيري. سأوصي بهذا حتى يتركوا لك حرِّيَّة الحركة في الدار.* بسبب تدخُّلاته في نظام حياة الدار، فكَّرتْ زينا في وقت من الأوقات، في أن تطرده، لكنَّها خافت من تأزُّم الوضع أكثر. السيِّد محمَّل بالوصايا والحقائب المليئة التي لا توجد فيها إلّا الشهادات وتكليفات كازانوڤا، التي يخرجها عند الحاجة. تقزَّزت مباركة من شيء كان يشبه مسرحيَّة سخيفة. هي جاءت لتقول لكازانوڤا ما في قلبها، والإمام واجهها باشتراطات لم تكن من حقِّه. فحدَّد لها ما يجب قوله، والطريقة!!

تحسَّس الإمام زكريًا وجهه بكفّ يده، ماسحًا لحيته البيضاء:

ـ اسمعي يا سيِّدة مباركة، أنا لا أفرض نفسي على أحد. أنا هنا في مهمَّة. الربّ وحده يعلم ما تخفيه السرائر، والقلوب، وما تظهره. لو كنتُ مكانكنَّ لتصرَّفت بهذه الطريقة. على كلّ حال، بينكنَّ وبينه،

وبين الخالق العالم بكلِّ شيء. المهمّ. نبدأ وفق ما اتَّفقنا عليه. الرجل ينتظركنَّ، خفِّفن عليه من الانتظار ومن الكلام. ما فيه يكفيه. لقد منحكنَّ ما لا امرأة حلمت به في حياتها.

ساد الصمت مرَّة أخرى. طلَّ مسعود برأسه من الباب، مؤكِّدًا بإشارات يده، على أنَّ كلّ شيء جاهز

خفّ الشخير لدرجة أنَّه لم يعد يُسمع. من وراء النافذة المطلَّة على الحديقة، لمعت ألوان حبَّات الأمطار التي سحَّت خفيفة، على أوراق الأشجار الاستوائيَّة البلاستيكيَّة، تحت انعكاسات شمس باردة، خرجت بصعوبة من وراء الغيوم الثقيلة للحظات كما في عرس الذئب. الشمس الباردة، كما يسمِّيها سكَّان الشمال.

سأل الإمام زكريَّا مرَّة أخرى، وكأنَّه كان خائفًا من خديعة الوقت!

ـ وضعه الصحّي لا يتحمَّل الانتظار.

نظرت الزوجات إلى بعضهنَّ بعضًا، كلّ واحدة تنتظر من الثانية إشارة ما

ـ ندعو الله له التيسير وأن يفكّ كربته. كما اتَّفقنا، من العدل أن نبدأ بسيِّدة البيت الأولى التي كانت أولى زوجاته، لالَّة كبيرة، والتي حمت هذا البيت من التلف، وسترته أيضًا في هذا الخيار شيء من المنطق أيضًا

ـ خيار فيه قليل من الظلم، قالت زينا. لماذا لا نبدأ بأكثرنا تعرُّضًا لأذاه وضرره.

ـ يا لالَّة زينا، ألم نتَّفق دقائق؟ لسنا هنا للانتقام، أردفت لالَّة كبيرة. من التي لم تتضرَّر من لوط؟ نحن أيضًا لم نسهِّل عيشته،

وحوَّلناها أحيانًا إلى جحيم لا يُطاق، يهرب منه أيّ جبَّار. كيف نقيس درجة الضرر؟ هل لديك طريقة عادلة لفعل ذلك؟ هل نعرف بعضنا جيِّدًا، وما تخفيه كلّ واحدة عن الأخرى؟ نترك للبشر ما للبشر، وما لله لله. وحده يعرف كيف يفصل في الأشياء. نربح وقتًا كافيًا لرؤيته ربَّما للمرَّة الأخيرة، ونتسامح معه بالشكل الذي تريده كلّ واحدة منّا

ـ الأكثر أولادًا، لأنَّ لها ما تفضي به من صعوبات حياتيَّة؟

ـ في هذه الحالة أيضًا، ستكون لالَّة كبيرة هي المؤهَّلة لأن تكون الأولى.

قال الإمام بمزيد من اليقين، وكأنَّه فتح حنفيَّة أعقبتها سيول كثيرة.

ـ والتي سرق منها شبابها واشتراها من أهلها، ومنعها من عيش حياتها العاطفيَّة كما كلّ البشر؟

ـ والتي قتل ابنتها هو وزبانيَّته، وقيل لها إنَّها ماتت؟ قاطعتها مباركة. حرمني من زهرة، لن أسامحه لا في الدنيا ولا في الآخرة. حرقني في قلبي. لكنْ يجب أن يسمعني للمرَّة الأخيرة. لن أزور هذه الدار بعدها أبدًا شبعت.

ـ هذا شأنكنّ، قال الإمام.

ـ وماذا لو يموت بعد حديث لالَّة كبيرة أو مباركة؟ أريده أن يسمعني أنا أيضًا، وهو حيّ.

ـ الأعمار بيد خالقها يا لالَّة رقيَّة. يمكنه أن يموت الآن، ولن يسمع أيّ واحدة منكنّ. وقد يعود من غفوته وكأنَّ شيئًا لم يكن، ويعيش طويلاً، بعد أن يدفننا جميعًا، وتتحوَّل هذه اللحظة إلى مجرَّد اختبار للصدق! وللقدرة على التسامح لدى كلّ واحدة منّا! ثم إنَّ

الرجل هو من طلبكنَّ، وكان بإمكان لوط أن لا يفعل، كما ملايين الرجال في هذا الكون، ويترك ذلك للآخرة عندما يسأله الله عن كلّ شيء. القدرة على النسيان لا تكلِّف شيئًا.

ـ لا تكلِّف شيئًا يا لالَّة كبيرة، لكنَّها تقتل بالغصَّة.

ـ ما مات شخص بسبب تسامحه يا لالَّة رقيَّة. ما حصل حصل، يجب أن ننتهي من هذا الواجب بالشكل الأسلم، والأقلّ أذى، وتعود كلّ واحدة منَّا إلى حياتها الطبيعيَّة. لكلٍّ منّا ما تقوله، فلتقله وتمضي. القلوب مثقلة بما لم نستطع قوله في الوقت المناسب. القصص كثيرة، ربِّي وحده يعلم بثقلها وآلامها أنا أنتظر اللحظة التي أغادر فيها هذا المكان المليء برائحة الموت والعفن، وأعود إلى جناحي وأبقى هناك كما فعلت دائمًا، لم يعد شيء يهمّني سوى استمرار هذا البيت بأبنائنا أسهر على درء الأحقاد حتى يناديني الله إلى جواره.

وكأنَّ كلماتها مسّت الجميع في الصميم. مرَّة أخرى، صمتت كلّ زوجات كازانوڤا، وهنَّ يستمعن إلى لالَّة كبيرة التي قليلاً ما تتكلَّم. كأنَّها أخيرًا فُكّ لسانها انتظرت هذه اللحظة، لتخرج ما في قلبها

التفتت روكينا ومباركة في الوقت نفسه صوب الإمام زكريَّا

قالت روكينا موجِّهة كلامها للإمام:

ـ سنتَّفق. نحن نساؤه وليس أنت. نعرف جيِّدًا أنَّه هو من جاء بك، ولم تأت من تلقاء نفسك. اخرج قليلاً، وسنناديك عندما نتَّفق نهائيًّا على كلّ شيء. لست مضطرًّا للبقاء في بيت كلّه نساء، لهنَّ أسرارهنَّ الخاصَّة. أعطنا مهلة نتشاور فيها أعتقد أنَّ هذا لن ينقص من أمانتك لسيِّدك؟

أفرج الإمام زكريَّا عن ابتسامة صفراء لم تخْفِ حيرتها، ثم

تماسك. أجاب بصرامة مصطنعة:

ـ اسمعي يا لالَّة رقيَّة. أنت في عمر ابنتي. زمن أعوج، الفلّوس يعلِّم أباه النقب[1]؟ لا أحد يأمرني هنا غير سيِّدي لوط. لن أخرج من هنا هذا قراري. أنا مؤَمَّن على تنفيذ الوصيَّة حرفيًّا لا أريد أن ألقى ربِّي وعلى ظهري وزر وصيَّة لم أجد احترامها ثقل كبير لا أستطيع تحمُّله، لا هنا ولا هناك.

ثم أخرج ورقة من حقيبته، وشرع في قراءة بنودها عندما وصل إلى الجملة الأساسيَّة في وصيَّة الدفن، ضغط بقوَّة على الحروف والكلمات حتى تصل واضحة: *أوكِّلك شرعًا للإشراف على ما يلي:* ***أريد أن أتسامح مع زوجاتي اللواتي كنَّ لي بناء على شرع الله ودينه، وكنتُ لهنّ.*** *أريد أن أسمعهنَّ، ربَّما قصَّرت مع إحداهنَّ، أو قصَّرن معي، ويردْن منِّي المسامحة والعفو. أعتذر منها أو منهنَّ، أو يعتذرن لي إن قصَّرن في حقِّي. أريدهنَّ هنا من لالَّة كبيرة، سيِّدة الجميع، حتى أصغرهنَّ، طليقتي، ساراي.*

قالت روكينا بشكل جافّ، حتى قبل أن تنطق مباركة:

ـ حتى في موته، هو هو، ظالم. ومباركة لم تكن محسوبة في رأسه؟

أجاب زكريًّا، وهو يغمغم كلمات غير مفهومة:

ـ هي طليقته، لكنَّنا وجدنا لها حلًّا

ـ حتى ساراي طليقته؟ لماذا تُقبل هذه، وتُرفض تلك؟

ردَّت روكينا بحدَّة.

---

(١) مثل شعبي يُقال عندما يكون العالم يسير بالمقلوب. الصوص يعلِّم الدجاجة كيف تنقب الحبوب.

ـ ليس أنا من كتب الوصيَّة، ولكنَّه هو. سيِّد هذا البيت، لوط. واستمعتنَّ إلى الوصيَّة كما هي لا كما نريدها. على كلٍّ، قبلنا في النهاية بمباركة بما أنَّها كانت زوجته شرعًا، وأثبتت ذلك، وحتى الطلاق الذي تمّ، غير مثبَّت.

ـ مثل الزواج؟

ـ هناك وثيقة الشهود والفاتحة التي كنت أنت أهمّ موقِّعيها

ـ على كلّ حال، مباركة سجَّلت زواجها بموجب القانون الجديد الذي يحمي الزيجات الدينيَّة فقط، على أن يتمّ رفض هذا النوع من الزواج مستقبلاً، الذي لا يتمّ إلَّا بعد الزواج الرسميّ والقانونيّ. ولم يعد هناك أيّ إشكال، حتى لو رفض سيِّدي لوط الاعتراف بذلك، وهو على الكرسي. هل ثمَّة حقٌّ أكبر من هذا؟

بدأت الرياح العنيفة، في الخارج، تهزّ النوافذ ونباتات لاغراند تيرَّاس، على إيقاع قرآني عاد من جديد، لكنَّه بدا منخفضًا كأنَّه كان يأتي من وراء الجبل.

كنّ جالسات، كبيرة، زينا، روكينا، ومباركة، وظلّ ساراي الذي لم يغب عن العيون، بالخصوص بعد كلام الإمام زكريَّا الذي بدا كأنَّه احتفظ لنفسه ببعض ما سمعه منها كنّ مصطفّات كمن ينتظرن دورهنّ في عيادة، وجوههنّ متعبة.

رفع زكريَّا رأسه.

ـ ربِّي يشوف في حاله. على كلٍّ، ستلاحظن أنَّه لا يتكلَّم، لكنَّه يسمع جيِّدًا على الرَّغم من تأثير السكتة الدماغيَّة العنيفة. أنتنّ لن تسمعنه، لكنَّه يسمعكنّ. تسامحن معه. قلن له كلام خير باستثناء لالَّة كبيرة، أغلبكنّ قطعن معه من زمان. لقد فقد الكثير من وهجه، وأصبح مثل هيكل عظميّ. سبحان من يحيي العظام وهي رميم. ربَّما بمروركنّ

عليه، ستعدن له الحياة من جديد. الفرقة على خير، أفضل من فرقة الضغائن. أنا لا أفعل شيئًا سوى تنفيذ وصيَّة، سأسأل عنها يوم القيامة. هو من أوصاني كتابيًا كما رأيتنّ. قال لي وهو في قمَّة وعيه قبل أن يسجِّل ذلك عند موثّقه: *عند دنوّ الأجل، أو تعمّق إعاقتي، قل لنسائي في يوم واحد، وساعة واحدة، أن يأتين إليّ، ولنفترق بلا أحقاد. إنَّ الله لا يحبّ القوم الحاقدين. الحياة لا شيء، نسمة عطرة تأتي ثم تمضي آخذة في طريقها كلّ شيء، الغنيّ والفقير، القويّ والضعيف، الخيِّر والمجرم، المرأة والرجل، الصغير والكبير، الحيوان والنبات. لم تكن الأمور دائمًا على ما يرام معهنّ، لكنْ لم تكن مستحيلة*. حتى ساراي الطليقة، كدت أقنعها بالمجيء، عندما أسمعتها فحوى الوصيَّة. لانت قليلاً، بعدما أخرجت كلّ ما في قلبها.

هدأ الضجيج وردود الفعل.

نظرت زوجات كازانوڤا بدهشة كبيرة إلى وجه الإمام، فانسحبت كلّ واحدة نحو أعماقها، تفكِّر في ما يمكن أن تقوله لكازانوڤا بعد لحظات. إلَّا روكينا التي كأنَّها لم تكن معنيَّة بما كان يحدث أمامها فقد ظلَّت منهمكة بتنظيف أسنانها بالسواك الذي كان ينصحها به دائمًا عندما تزوَّجته، وتصالحت معه بعدما كرهته، حتى تحافظ على طيب فمها، فهو يزيل الروائح المفسدة للمحبَّة. كلّ شيء يبدأ من الفم وينتهي إليه. فقد تجمَّعت فيه كلّ الحواس، الذوق، الشمّ واللمس. منذ الصباح، اختارت أن تواجه اليوم بطريقتها الحمَّام والماكياج والبياض المعشَّق بالزهريّ، وقول ما في قلبها على الحزن الفارغ أن يخلي طريقه للحياة، كما كان يقول لها دائمًا، كلَّما شعر بها مكتئبة.

عاد الإمام من جديد بعد أن استجاب لإشارات مسعود. سألته لالَّة كبيرة:

ـ كيف هو الآن؟ أفضل؟

ـ كما كان في البداية، وضعه لم يتغيَّر. لا يتكلَّم، لكنَّه يعرف الناس. جاهز لاستقبالكنَّ. نبدأ بك لالَّة كبيرة. بينكما عشرة عمر وصلت إلى حافَّة الطلاق العديد من المرَّات، كما كان يقول لي دائمًا في لحظات خلوته وصفائه، لكنَّك قاومت السهولة. *لالّة كبيرة امرأة ونصف. قاومت تطرُّفي وعواصفي بالصبر والرحمة والمحبَّة.*

ـ لماذا لا تبدأ بإسماعه صوت آخر زوجاته، ساراي التي أعطاها كلّ شيء، وبنى شرفة لها باسمها، ربَّما أراحه ذلك أكثر من حضورنا المباشر. هذا يسهِّل عليه ثقل وجوهنا

ـ اتَّفقنا أن نبدأ بزوجته الأولى، وتأتي الأمور تباعًا ساراي كانت آخر زوجاته. الحمد لله لم تأتِ، ربَّما كان حضورها سيحدث فتنة في البيت، الله وحده يعرف عواقبها

ـ يبدو أنَّها لم تنس عادة أجدادها المليئين حقدًا وظلمًا وقسوة. ماذا كانوا في الأصل؟ حفنة من السرّاق النهَّابين الذين استولوا بالحديد والنار على أراضي غيرهم. لم يسلم منهم حتى الأنبياء، فلعنهم الله.

قالت روكينا وهي تبرد أظافرها، وتضع عليها بريقًا زهريًّا يشبه حلوى الأطفال، وتتأمَّل وجهها في مرآتها الصغيرة. امتعضت لالَّة كبيرة من ذلك، لكنَّها لم تبدِ أيّ ملاحظة حتى لا يتأزَّم الوضع أكثر، وينهار اللقاء من أساسه.

واصل الإمام زكريَّا ترتيباته، وكأنَّه لم يسمع شيئًا

فُتح الباب المفضي إلى الصالون الأندلسيّ، تسرَّبت رائحة الموت ممزوجة بالكافور والعطور القويَّة التي فشلت في إزالة بعض الروائح الكريهة الثقيلة. جاء شخير كازانوڤا ثقيلاً وواضحًا هذه المرَّة، كأنَّه

حشرجة إنسان في لحظة الموت.

ـ تفضَّلي لالّة كبيرة. ربِّي يعينك.

قامت لالَّة كبيرة من مكانها بتثاقل. لفَّت نفسها في فوطتها البيضاء، كما تعوَّدت أن تفعل كلَّما خرجت.

أغلقت وراءها باب قاعة VIP مشت في الممرِّ الزجاجيّ لتفادي المطر، حتى وجدت نفسها في فناء الدار الذي تعرفه جيِّدًا، لكنَّ شيئًا فيه بدا لها غريبًا

أوقفها مسعود عند الباب، كأنَّه مخرج يدرِّب الممثِّلين على مسرحيَّة جديدة. تركها مسمَّرة في مكانها، بينما توغَّل هو عميقًا داخل الصالة الأندلسيَّة. عدَّل قليلاً من رأس كازانوفا سحبه بهدوء إلى فوق. أزال الأغطية القريبة من رأسه، بحيث يصبح وجهه مكشوفًا ملامحه فقدت الكثير من بريقها كانت رماديَّة. عيناه مرشوقتان في الفراغ تبحثان عن شيء عزيز غاب فجأة. همس مسعود في أذنه، بعد أن أخذ يده واحتضنها في عمق كفِّه:

ـ سيِّدي لوط. لالّة كبيرة معك. زوجتك. تريد أن تتسامح معك كما أمرتَ. إن كنت تسمعني، حرِّك أيّ أصبع من أصابع يديك وحتى رجليك. أريد أن أتأكَّد من أنَّك تسمعني وتفهم ما أقوله لك.

لم يطل انتظاره كثيرًا حرَّك كازانوفا أصابع يديه ورجليه أيضًا، وعينيه.

فجأة، أشرق وجه مسعود. أشَّر للالَّة كبيرة بأن تتقدَّم. أخذها من يدها وأجلسها قبالته على الكرسيّ القديم.

ذكَّره مرَّة أخرى.

ـ لالّة كبيرة الآن تقابلك، فهل تراها؟ هل عرفتها؟

حرَّك مرَّة أخرى أصابع يديه ورجليه من دون أن يُطلب منه ذلك.

تلمَّس رأسه. شعر كأنَّ الحرارة التي انتابته قبل أن يُقاد إلى المغسل قد خفّت. حمَّام الليمون وقشور البرتقال يعطّر ويخفِّف من ثقل المرض، ويمنح الجسد رشاقة وحيويَّة جميلة.

اقترب مسعود أكثر من لالَّة كبيرة. سلَّم على رأسها. هو دائمًا يشعر بأمومتها الكبيرة على عكس الأخريات. نظراتهنَّ ليست طيِّبة، باستثناء روكينا التي لا يحبُّها الكثيرون في هذا البيت، لكنَّه يراها أحنَّهم، وتفعل كلّ شيء جميل بشكل سرِّيّ. عندما كانت في بيت كازانوڤا بشكل دائم، كانت توصيه بشراء اللحم والخضر والفواكه، وعندما يصل إلى البيت، وهو يظنّ أنَّها اشترتها لنفسها، تقول له: *اتركها في السيَّارة، خذها لأولادك*. كانت من وراء إرجاعه لعمله، على الرَّغم من غضب كازانوڤا، عندما قال لها *كيف أتعامل مع من يربّي الأفاعي*، أجابته بحدَّة، *ومن أدرانا أنَّ أولادنا لن يكونوا أفاعي متقاتلة؟ فقد ظلَّ وفيًّا لك، فلا تحرمه من عمر قضاه برفقتك، ربِّي ما يحبِّش الظلم. ليس هو من دفع بابنه سالم نحو كارتل سلَّام، أنت تعرف جيِّدًا من يقف وراء هذا الكارتل*. مسعود رجل مسكين.

اعتذر مسعود من لالَّة كبيرة بعينيه، ثم انسحب نحو غرفته التي تقع بمحاذاة الصالة.

فجأة، ساد صمت يشبه الموت. وجدت لالَّة كبيرة نفسها في فضاء غريب عليها، على الرَّغم من أنَّها تعرف كلّ شيء يمتّ بصلة لهذا المكان. حتى التفاصيل الصغيرة التي لا ينتبه لها الآخرون، تراها في أدقّ مظاهرها الآن، كلّ شيء يبدو غامضًا وسائلاً، من الصعب لملمته وجمعه. هذا السجَّاد التوّاتيّ، هذه الساحة، وهذه النافورة التي تحتلّ وسط الفضاء الذي تخترقه كلّ صباح شمس جميلة كلَّما ضغط

على الزرّ، فينفتح غطاء السقف الزجاجيّ آليًّا مفضيًا إلى سماء مدهشة في صفائها

شعرت بالمكان باردًا، وغريبًا قليلاً، وضيِّقًا، حتى بدا لها كأنَّه قبر قديم لقائد أندلسيّ.

كازانوڤا على بعد ذراع منها

لم تنزع العطورُ الحادَّة والماء المعطَّر رائحةَ الموت التي علقت به.

لا شيء سوى شخيره، وماء النافورة الذي بدا أكثر وضوحًا، وعيناه الغائمتان، ونظراته المثبَّتة في الفراغ كنظرة رجل مات على شيء كان يريد قوله، لكنَّ الموت لم يمهله.

III

مَجْمَعُ الأَسْرَارِ الخَبِيئَة

لَمْ تَكُنْ شَهْرَزَادُ غَبِيَّةً

ـ ١ ـ لالّة كْبِيرَة

أَكْفَانُ لاَ دَامْ بْلاَنْش[1]

La Dame blanche (١)

زاد شخير كازانوڤا، أصبح بين الحشرجة والصفير

وحيدًا كان، مفرغًا من كلّ شيء، أمام قدر أعمى، محاطًا ببياض الموت والأكفان التي كانت تنبت في كلّ جسده، وبأسلاك شائكة غير ظاهرة، جزء منها كان يتوغَّل عميقًا في لحمه.

كيف تغيَّر وجهه بهذه السرعة؟

تساءلت لالَّة كبيرة، وهي تتناول دواء الضغط، حتى قبل أن تنطق بأيّ كلمة. كيف أصبح الموت حقيقة تتحرَّك في كلّ أرجاء البيت. أينما التفتت أحسَّت بأنَّه يرقبها، يقتفي خطواتها يسير وراءها بشهوانيَّة متقصّدة وكأنَّه سيِّد المكان. *لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله. بسم الله الرحمٰن الرحيم*. ثم حاولت أن تطلق لسانها الذي ظلَّ للحظات مكبَّلاً، كأنَّه كان مربوطًا بخيط أو بسلاسل ثقيلة غير مرئيَّة، كانت تسمع صليلها ينزل ثقيلاً نحو أعماقها

كانت تراه يوميًا، يصبِّح عليها أو يمسِّي. لا يطلب منها الشيء

الكثير. ولم تعد تأبه كثيرًا بعلاقاته الكثيرة. الوجوه التي تأتي وتنطفئ بسرعة لم تعد تتابعها لم تره إلّا قليلاً، منذ دخوله في الغيبوبة الأخيرة، عندما تعقَّدت حاله، وأصبح تحت رقابة طبِّيَّة دائمة في مستشفى ابن سينا، بحيث كان يشرف عليه مختصُّون أتوا من خارج البلاد، قبل أن يأمر بإعادته إلى بيته.

فجأة، خرجت الكلمات هاربة من سواد الأعماق، مرتبكة!

من أين أبدأ يا سيِّدي ومولاي وزوجي، أشعر بالحزن والقلق الكبيرين، والخوف عليك.

تمتمتْ، وهي تحاول أن تستقيم في جلستها، وترتِّب غطاء رأسها الذي لا تنساه لحظة واحدة، وكأنَّها كانت تقف وجهًا لوجه أمام إنسان غريب، يترقَّب حركاتها لحظة بلحظة. شعرت كأنَّ شيئًا غريبًا في عينيه التائهتين في الفراغ، كأنَّهما تعرِّيانها. لم يبق الشيء الكثير فيه، على العكس منها، لم تفقد شيئًا كبيرًا من أنوثتها العميقة، على الرَّغم من أنَّ الزمن مسح الكثير من نورها ووهجها.

ـ ترى، هل عرفتني يا لوط، سيِّدي وحبيبي؟ هل هي لحظة امتحان شديدة القسوة؟

هل تصدِّقني إذا قلتُ لك، لا أجد كلماتي؟ ليس لي غنج نسائك الصغيرات، أكبر واحدة منهنّ في عمر أصغر أبنائك. لا أعرف كيف أتأوَّه، لأثبت لك ولو كذبًا، رجولتك التي بدأت تتخلّى عنك، بينما في أعماقي أسخر من عجزك. تركت كلّ هذا لهنّ. لم يعد جسدي يهمّني إلَّا بالقدر الذي يمنحني فرصة العيش بلا أمراض تثقله. أعرف أنِّي سأكون الخاسرة الكبرى لو جاريتهنَّ. لهذا، انفصلت عن كلّ شيء، إلَّا عن الدار الكبيرة، التي أشعر أنَّ بها شيئًا كبيرًا منِّي، لا

أعرف بدقَّة ما هو، لكنّي على يقين أنَّه موجود. ربَّما هو ما أبقاني هنا حتى اليوم.

لم يرمش. لم يحرِّك كازانوڤا عينيه ولا لحظة، بل ظلَّ مثبَّتًا في وجهها وعلى شفتيها، كدمية بليدة.

ـ هل أدركتَ أخيرًا من أكون يا سيِّدي؟

أنا أكثر من لَفَامْ بْلاَنْش[١]، حبيبي، كما كان يحلو لك أن تناديني، كما كان يفعل والدي، في لحظات ألقك التي انطفأت بشكل شبه كلّيّ. هكذا كنتَ تلعب معي، كلَّما لبستُ الأبيض انتشاء منِّي بشجاعتك، لأنَّك انتصرتَ على منافس كبير، في مزايدة أو مناقصة ضخمة، أو استعدتَ سوقًا سُرِقت منك، في عالم لم يكن رحيمًا عالم الذئاب المتوحِّشة والكواسر الدمويَّة. أليست هذه تسمياتك؟ أحسدك أحيانًا أنَّك بقيت حيًّا ومنظِّمًا لحياتك، حتى أصبح كلّ سكَّان منارة سيتي يتهامسون باسمي الجديد، لأنِّي لا ألبس غير البياض، ولا أنزعه لا في الأعراس ولا في المآتم. لأرضي انتصاراتك وفحولتك. لكنَّ السبب أعمق من هذا كلّه. أنت أيقظت شيئًا عميقًا ومتوغِّلاً بين شقوق الطفولة المبكرة. لا أحد يعرف سرّ هذا اللباس في العمق، ولا حتى أنت يا سيِّدي بعد كلّ هذه العِشرة، لأنِّي في الحقيقة لم أحصل على يوم واحد لي، أقول فيه ما يملأني. البشر ينسون أحيانًا أنَّ الأقرب جسدًا لهم قد يكون أبعدهم، لأنَّهم تعوَّدوا على وجوده في مكان يتكرَّر باستمرار. مقتل الحبّ العادة والتكرار. التكرار يجهز عليه، لأنَّه يحوِّله إلى واجب ميِّت. ولا مرَّة ناديتك باسمك، لوط. لا لأنَّ الاسم مخيف. كنت أحبّه وتعوَّدت عليه، لكنْ لأنِّي تعوَّدتُ على

(١) من الفرنسيَّة la Femme Blanche أي المرأة البيضاء.

نطق اسمك مشفوعًا بسيِّدي. وُلِدت مكسورة الجناح، لا نصير لي إلَّا ملاك صغير ظلَّ فيّ مستميتًا بيأس، في الدفاع عن طفولتي العميقة، لأنَّك لو نزعت قشور المرأة التي أنجبت لك أربعة ذكور أصحَّاء كما أردتهم، فلن تجد إلَّا تلك الطفلة الخائفة من كلّ شيء حتى من ظلِّها. كنت البنت السابعة في العائلة بعد أخويّ الكبيرين. سبع بنات أنسوها وجود ذكرين قبلها تحكي لي أمَّي التي كرهتني يوم وُلدت على أختي السادسة، أنَّها تمنَّت لي الموت يومها. حتى إنَّها رفضت أن تلدني في دلال المستشفى الحكوميّ تطيُّرًا، مخافة أن أكون بنتًا، فوضعتني في مكان بائس، على يد قابلة شديدة الخشونة، اختنق على يديها أطفال كثيرون. فجأة، وَجَدَتْني أمامها بصدفة الأقدار القلقة، أضحك وأبتسم، ولا أبكي إلَّا قليلاً وكلَّما نفرتني يد، كانت تنقلني من فراغ لتضعني في حضنها.

ربَّما أثقل عليك يا سيِّدي بحديثي. لكنْ عليك أن تعرف المرأة التي تقف اليوم أمامك، وسارت في ركبك كلّ هذه السنوات، ولم تسألها يومًا عمَّا بداخلها؟ عمَّا يؤلمها؟ وحتى عمَّا يجعلها سعيدة ومنشيَّة قليلاً في كون من الرماد؟

تقول أمّي عيْشة، بلا خجل من صراحتها، إنَّها كانت تغربل الدقيق وأنا في حجرها حتى يصبح وجهي أبيض. ولأنِّي لم أمت، أغرقتني في عمق كومة الدقيق حتى أختنق به، لكنَّ الحظّ لم يسعفها. حدث شيء هي نفسها لم تعرف سرّه. امتدَّت يد جاءت من الفراغ، إذ تقسم أن لا أحد كان معها وهي تغربل الدقيق، وضعتني في حجرها بدون ذرَّة دقيق على جسدي أو وجهي. وتقسم أنَّها عندما منحتني ثدييها، نظرتُ إليها بعينين مدوَّرتين، كأنِّي كنت أعاتبها. فجأة، بدأت تخاف منِّي وأهملت فكرة قتلي. أصبحت ترى فيَّ كائنًا غريبًا، نبتت له

أسنان قبل الأوان، وكان هذا دليل شؤم. وجدت حلًّا للتخلُّص منِّي. فكانت ترضعني عند جارتها التي كانت سعيدة أن أكبر برفقة ابنتها الوحيدة. تنوّمني ليلاً في مهد قديم، ملأته بالأغطية البيضاء، وألبسة أختي التي سبقتني. ماتت في شهرها الأوَّل، يوم بيوم. تحمّلني موتها، لأنِّي كنت مغروسة فيها وأريد الخروج من بطنها بسرعة، فلم أتح لأختي فرصة أن تكبر. في كلِّ صباح، تنتظر جدَّتي التي سمّتني، لتقول لها بوجه ثقيل وبارد، كيف هي كبيرة؟ كبيرة مش طبيعيَّة، أشعر كأنَّها ممسوسة!

حتى اسمي جاء ليتمِّم حالة الحظّ البائس. كبيرة ليست من الكبر، ولكن من الفضيحة. كان وجودي في هذه الدنيا، كبيرة من الكبائر. تأخذني جدَّتي بين ذراعيها، وهي تتمتم: شوفي يا ابنتي، إذا كنتِ آدميًا، مرحبًا بك في ترابك الذي جئت منه وإليه تعودين، وإذا لم تكوني كذلك، وكنتِ من سكَّان الجحيم، ليس هذا مكانك. عودي لذويك، تحت الأرض وبين البراكين، فهم أولى بك منّا بعد هذه الدعوات، ترضعني أمِّي، حتى أنام في حضنها، فتضعني في عمق المهد القديم. أحيانًا، كنتُ كلَّما شبعتُ، وبدأت ألعب بثديها، يسكن الرعب عينيْ أمِّي. تغمض عينيها لتحمّل الآلام، إذ تنتظر أن تنبت لي مخالب، تتوغَّل عميقًا في لحمها؛ أو تنظر لعينيَّ اللتين تنفتحان بهدوء، بغموض مخيف. أمِّي تقول، هي نفسها لا تعرف لماذا كلَّما اشترت لي لباسًا اختارته بلون أبيض؟

عندما فشلت كلّ محاولاتها الطبيعيَّة، فكَّرت في خنقي والانتهاء منِّي، كما تفعل الكثيرات، ثم تصرِّحن بأنَّ الملاك الذي رافقها يوم الولادة، تخلَّى عنها في النهاية، لأنَّه رأى فيها روحًا شرِّيرة. عندما بدأت العمليَّة ارتعبتْ، وهي ترى عينيَّ المفتوحتين عن آخرهما

تتأمّلانها، فخافت وتقيّأت كثيرًا، ومرضت، ونفرتني لأيّام حتى جفّ حليب ثدييها كانت تعطيني لجارتها، لترضعني مع ابنتها التي لم تعش طويلاً كان ثدياها مدرارين، وكانت تحبّني، بل اعتبرتني ابنتها تقول دائمًا *الله أخذ منّي حنان، وعوّضني بكبيرة*. موت حنان، أكّد لأمّي أنّي كنت روحًا شرّيرة. وأمّي هي من أشاع بين الجيران أنّي لم أكن طبيعيّة. وفي يوم قائظ، في عزّ الحرارة والعطش، جاءت بي المرأة إلى بيتنا، ورمتني في حجر أمّي وهي تندب: عيْشة، كنتِ *كما أختي*. شوفي، *ما نسمح لك* لا *عند ربّي*، ولا *عند العبد. لم تقولي لي إنّ ابنتك* مسكونة. هي *من امتصّ روح ابنتي*، حرمتني *منها، لتحلّ محلّها* تقول أمّي لا أدري من أخبرها بذلك، لكنَّ المرأة كانت على يقين بأنّي لم أكن عاديّة، وأنّي سبب موت ابنتها أنجبت أمّي بعدي ثلاثة صبيان ماتوا جميعًا الأوّل في الأسبوع الأوّل. الثاني عاش ثلاثة أشهر. الثالث نزل في شهره السابع، عاش ساعة ثم مات. أنجبت بعدها أخويَّ اللذين عاشا: توفيق وماجد. قالت أمي، كنت أعرف أنَّ توفيق وماجد سيعيشان، لأنَّ الثلاثة الذين ماتوا، محوا بقاياك المسكونة من رحمي، وسمومك. غادرت جارتنا المكان نهائيًّا، وسكنت في حيٍّ بعيد. في آخر محاولة لها، وضعتني أمّي داخل كفن من الحرير الأبيض لإغواء نازع الأرواح بالمرور، وأغلقته بإحكام من الجانبين، ثم وضعتني في غرفة تخزين المؤونة. عندما استيقظت، حبوت صوبها، فوجدتني بجانبها، أبحث عنها من ذلك اليوم، توقّفت عن محاولات قتلي.

بعد سنوات طويلة، عرفت أنَّ أمّي عيْشة كانت تعاني من عصاب خطير، ومن سكيزوفرينيا عميقة، انتهت بها بعد سنوات إلى الجنون والانتحار. لا يمكن أن يكون كلّ ما حدث حقيقة، وإلّا لكنت قد مِتُّ

في المحاولة الأولى. كانت تدخل في سلسلة من الخيالات، تسكنها عميقًا لدرجة أن تظنّها حقيقة، فتغرق فيها، وعندما تستيقظ تجدني في حجرها. الغريب، أنَّها عندما تخلَّت عن فكرة قتلي، كأنَّ ملاكًا رآني ورأف بي، أصبحت تتجنب الذكور. عندما كبرت قليلاً، ظلَّ والدي يلبسني الأبيض، لأنَّه هو اللون الذي فتَّحت عليه عيني. حتى سمَّاني عندما كبرت قليلاً، ساخرًا، لَدوموازيل بلانش[١]، وعندما تزوَّجت، تغيَّرت لَدوموازيل إلى لَدام[٢]، بفضلك.

ماذا يا لوط، لو عرفتَ أنَّك كنتَ تعاشر امرأة ليست من هذه الأرض؟ جنِّيَّة من العالم الآخر؟ أو ربَّما مخلوقة مسكونة، جاءت من تحت البراكين الخامدة، أو من دنيا أخرى منذ ملايين السنين؟

انفتحت عيناه على اتِّساعهما. بان بياضهما والصفرة التي اخترقتهما

ـ هل فهمتني يا سيِّدي؟ لا تكابر. ربَّما كنت أقرب لك من أمِّي. أكثر نسائك خوفًا عليك. كنت أعرف أنَّ ما حصل لك ذات مرَّة، سيعود لك. لم يكن سقوطك في ساحة الصالة الأندلسيَّة قبل سنوات عديدة، ليس بعيدًا عن النافورة، لمدَّة ربع ساعة، أمرًا عاديًّا. لأنِّي عندما سألت الطبيب، قال *إنَّ الوضعيَّة الحاليَّة التي هو فيها، ليست مقلقة، ولكنَّها مرشَّحة للمزيد من التعقُّد إذا لم يحذر ويخفِّف من انفعالاته*. كنتُ أحذِّرك، لكنْ منذ أن استلمتك نساء أخريات، لم يعد مهمًّا تدخُّلي. وبدأت أراني أتحوَّل إلى أمّ، أو أخت كبيرة.

ـ قل يا لوط إنَّك فهمتني وسمعتني. قلها بعينيك فقط، وامنحني

(١) La demoiselle Blanche

(٢) La Dame

فرصة أن أُفرغ لك ما في القلب.

رفَّت عينا كازانوڤا بغير انتظام، ثم توقَّفتا بشكل فجائيّ.

من ذلك اليوم، لبسني البياض في كلّ الأوقات، لم يكن أكثر من كفن حملته في داخلي. لا لون آخر لي إلَّا البياض، في المآتم، في الأعراس، وفي خرجات زيارة المقابر برفقتك ورفقة مباركة المرتبطة بقبر زهرة، في المواسم والأعياد. أدركتُ بسرعة أنَّ هناك زوايا بيضاء في حياة الإنسان، من الأفضل أن يحتفظ بها لنفسه، وتبقى له، وأن لا يخرجها حتى لا يرهق بها الآخرين. لم أخبِّئ عنك شيئًا إلَّا هذه الحادثة التي تشبه خرافة كان يمكن أن تنسف حياتنا كنتُ كأيَّة زوجة تحبّ زوجها وتحترمه وتخاف عليه، لم أخْفِ عنك شيئًا، لكنّي رحمتك من شطط، لم تكن في حاجة لحمله فوق ما كنت تحمله.

اليوم، لا أستطيع فعل الشيء الكثير ضدّ هذه الذاكرة الثقيلة يا لوط. هي كما هي. لم أضف لها شيئًا، لأنِّي في هذه اللحظة لست أمامك، ولكن أمام الله، وحده يعرف مزالقي وكذبي، أو حتى محاولاتي قبل أن تحدث.

اسمعني بقلبك، لأنّي أخاف أن تكون حواسّك الأخرى قد ماتت نهائيًا، أو شُلَّتْ. أعطيت وقتك كلّه للآخرين. أعطني جزءًا يسيرًا منه، لألعب معك لعبة الصدق التي كثيرًا ما يتفاداها الأزواج.

أهي ظلال الغيوم التي كانت تعبر سطح ساحة الصالة الأندلسيَّة أم شيء آخر؟

كان كازانوڤا يتلوَّن ويتغيَّر وجهه باستمرار، كلَّما سمع كلامًا يهزّه بعنف، داخليًّا فجأة، أصبح أصفر مثل قشرة ليمون. من حين لآخر، يرتعد جسده كأنَّ به نزلة برد، أو كأنَّ يدًا ثقيلة كانت تحرِّكه. يشخص

فجأة بعينيه في الفراغ. لا ترمشان قبل أن تنغلقا من جديد مثل عينيْ دمية، ثم تنفتحان لتظلّا على هذه الوضعيَّة للحظات، ثم تعاودان الحركة نفسها من البداية بشكل شبه آليّ. انتاب لالَّة كبيرة نوع من الإحساس الأموميّ الغريب. سبقتها دمعة لم تستطع إيقافها شعرت فجأة كأنَّه يريد أن يهمس لها بشيء خاصّ، لكنَّه لم يخرج من شفتيه. كلَّما بدا له أنَّه انتصر على الحشرجة العالقة بحنجرته، توقَّف واستسلم لدمعات كانت ترتسم تحت الإضاءة الخافتة.

ـ يا قلبي. تعرف أنِّي لا أستطيع حتى أن أقترب منك لأواسيك في عزلتك، هكذا قال الإمام في خطوطه الحمراء حتى نخفِّف عليك قدر المستطاع، ولا نوقظ شجنك الخفيَّ. أكتفي بالمكان الذي أنا فيه. على مسافة الموت والحياة.

أشعر بقلبك وهو ينبض يأسًا لا سلطان لك، ولا قوَّة لي. فقد كنت دائمًا المرأة الصبورة التي يحيِّيها الجميع على صبرها للحفاظ على بيتها بل النموذج الذي استطاع في عمق العواصف أن يحافظ عل أبنائك وأمبراطوريَّتك. في خفائهم، نساء ورجالاً، يتغامزون من سذاجتي. *كيف بقيتْ مع لوط كلّ هذا الوقت، وهو يخونها كلَّما سنحت له الفرصة*؟ الذي لا يعرفونه هو أنِّي أنا أيضًا كنت أعرف كلّ التفاصيل، وأعرف أكثر من هذا، أنَّها علاقات كانت تمهِّد لامرأة ستعبر عتبة هذا البيت وتستقرّ في فراش، ربَّيت وهمًا كبيرًا أنَّه لن يكون إلَّا لي وحدي! أعتقد أنَّه الوهم الجميل وشديد الغرابة، الذي أشترك فيه مع جميع نسائك. نبذل جهدًا استثنائيًّا للحفاظ عليه، ونحن الأعرف من غيرنا، أنَّه لا يغدو أن يكون مجرَّد وَهْمٍ لذيذ.

لكنَّ الصبر يدبِّر يا حبيبي لوط. يقتل ويفني، في صمت، لا أحد يراه إلَّا من يعانيه.

تمتمت وكأنَّها كانت تحادث نفسها اتركني أبكِ، ولو على هذه المسافة التي حدَّدها الإمام.

لا أدري، حبيبي، إذا كنت أخفِّف عليك أم أُثقل بحديث قد لا يبدو لك ضروريًّا ولكنْ، كلّ شيء مترابط بقوَّة. حياتي معك كانت سلسلة من الخيبات لم تشذّ عمَّا سطَّرته لي الأقدار المجنونة.

والدي الحاج إبراهيم، كبير وجهاء المدينة، سليل الحروب الكبيرة، الحرب العالميَّة الثانية بجانب الحلفاء، والحرب التحريريَّة. كان يثق بي أكثر من أخوي الكبيرين خالد وعادل، ومن بقيَّة إخوتي. كان يستشيرني في الصغيرة والكبيرة. وكلَّما تأزَّم وضع تجارته يقول لهم: *نادوا لي على لَدُموازيل بلانش بسرعة*. عرفت منه أنَّه في شبابه، كان يعيش في باريس على تهريب الأسلحة لثوَّار الجبهة الوطنيَّة، السرِّيِّين، في مواجهة النازيَّة. كان في شبكة المجموعة الأولى التي دافعت عن باريس، ودفعت الثمن غاليًا بفضل صفقاته السرِّيَّة الدقيقة مع تجَّار الأسلحة الأميركان، والروس، وجزائريِّي السواحل، والألمان أنفسهم، استطاع أن يُسهم في تحرير باريس. قلت له يومًا *ألم تغرُّك النازيَّة بنظامها القوميّ الساحر؟* أجاب بلا تردُّد: *أبدًا. على الرَّغم من أنَّ الكثير من قياديّينا كانوا يومها مع النازيَّة لبعدها القوميّ حتى ولو كان مجرَّد وهم، وبعد سقوطها اختفوا. عدوّ عدوِّي صديقي. كان من الصعب تفاديها إلَّا بالميل لجهة معادية لها في ظلّ دعاية النازيَّة المرعبة، وصلت إلى اعتبار هتلر حجّ إلى بيت الله، بعد اعتناقه الإسلام. طبعًا، سخافات وجدت لها سوقًا غبيَّة. ذهبت مقاومًا، عن قناعة. مصير الإنسان شديد التعقيد. بعد أحداث ٤٥ التي ذهب ضحيَّتها أكثر من ٤٥ ألف ضحيَّة في أقلّ من أسبوع، بينما خرجنا نحتفل بانتصار حقَّقناه على النازيَّة بدمنا انقلبت أنا ومجموعة من*

أصدقائي الشيوعيِّين الفرنسيِّين ضدَّ ما كان يحدث من جرائم. أخذونا لڤيتنام لخوض حرب لم تكن لنا هربت في عزّ معركة ديان بيان فو، لا جبنًا، ولكنْ لأنِّي لم أر في الڤيتنامي عدوًّا لي. كنت أعرف كلّ الطرقات الملتوية التي كنت فيها أتعامل عسكريًّا لتهريب الأسلحة، وتعرَّفت على معظم شبكات تهريب الأسلحة في المناطق الجبليَّة الحامية. عندما انتهت الحرب، سلَّمني الڤيتناميُّون رتبة عسكريَّة كبيرة، رفضتها قلت: أنا أدَّيت واجبي الإنسانيّ فقط. ساعدوني على تغيير تجارتي لأُعيل امرأة ڤيتناميَّة أحببتها، منحتني كلّ شيء، حبّها وقلبها وشجاعتها كنت قد جبت بلاد ڤيتنام واللاووس، والهند والسند والصين، وطريق الحرير والبهارات. وبدأت أتاجر في البهارات، وأقمشة الساري. مرساي كان زنجبار، فنقلت زوجتي إلى هناك. وبدأت أسوّق عالميًّا حايك المرمة وأقمصة ريدمان، والساري التلمسانيّ وخيط الذهب، والعشعاشيّ، الذي لم يبق منه اليوم الشيء الكثير. تجارتي دفعت ببعض العائلات التلمسانيَّة إلى العودة إلى الحرير الحرّ، والحرير الاصطناعيّ اللذين كنتُ آتي بهما من شرق آسيا، ومن الصين واليابان وزنجبار. قبل أن تندلع الثورة الوطنيَّة وأعود إلى مهنتي الأثيرة، وضعت خبرتي بين أصدقاء الحرب. يوم كان الناس يحتفلون باستقلال البلاد، وعائلتي تنتظر عودتي، ركبت أوّل طائرة إلى باريس، ومنها إلى زنجبار، محمَّلاً بشيء واحد: فرع ملقَّح من شجرة تين غرسها جدّي قبل زمن بعيد، في رأس الساحل المطلّ على البحر، ركضت نحو بيتي. دخلت. وجدت شابَّة. قدَّمت نفسي، ثم سألتها عن كِيًّا؟ قالت، كنت أنتظر عودتك يا سيِّدي، كما أوصتني عمَّتي كيًّا ماتت قبل يومين بالضبط، من وصولك. كانت في صحَّة جيِّدة. قتلها الحنين إليك يا سيِّدي. تقف على رأس البحر وتستنشق رائحة المكان

الذي كنتَ فيه ريثما تصلها وقادتني نحو قبرها كومة تراب صغيرة محاطة بعرس من الألوان والروائح الطيّبة. غرست عند رأسها شجرة التين التي رحلت بها طويلاً قبل أن أصل بها إلى زنجبار. طلبتُ من ريّا أن تأتي معي. قالت لا سأبقى هنا أهتمّ بقبر عمّتي، وأسهر على شجرة التين.

هذا هو والدي الذي التقيتَ به في لحظة تأزُّم، وافترقتما في لحظة موت، كنتَ أنت وراءها. هذا الرجل الذي لم تقتله حروب العصر مجتمعة، وظلّ وفيًّا لمُثُلٍ صنعها بنفسه لنفسه، قتلْتَه أنتَ. تستغرب؟ لا اسمعني حتى النهاية. أنا هنا لأقول لك ما ادّخرته كلّ هذا الزمن. أنت من أنهى رجلاً كان كلّ شيء بالنسبة لي، لدرجة الأسطورة، ولا شيء لدرجة التحوُّل إلى غيمة يصعب لمسها أو سجنها

فجأة، تلوّى كازانوڤا في مكانه كمن به مغص حادّ. عضّ على شفته السفلى حتى أدماها. زاد شخيره ثقلاً جرى نحوه مسعود بسرعة اندهشت لها لالَّة كبيرة، وكأنَّها لا تعرف استماتة مسعود في عمله. وضع كمَّامة الأوكسجين على فمه. ثم ناوله كأس ماء. ضغط على صدره قليلاً، وحرَّك الوسادة بلطف من تحت رأسه. تركه على تلك الوضعيَّة الحانية قليلاً حتى استكان. ثم رفع الوسادة قليلاً وضغط على زرّ السرير قليلاً، فارتفع عند الرأس ببعض السنتمترات. سأله:

ـ هل أنت بخير يا سيِّدي؟

هزّ كازانوڤا أصابع يديه براحة أكثر.

التفت مسعود نحو لالَّة كبيرة.

ـ واصلي يا سيِّدتي. وضعه أحسن الآن.

ـ يبدو أنَّه لم يتحمَّل كلامي. مع أنَّي لم أقل ما يؤذيه. حتى قصَّة المرحوم والدي تؤذيني أكثر ممَّا تؤذيه.

ـ لا عليك يا لالّة كبيرة. هو من طلب ذلك. عادي. طبيب العائلة، البروفسور غوردن الذي يعمل في مستشفى ابن سينا، أوصانا بتكثيف الأوكسجين عند الضرورة، شخيره دلالة على نقص الأوكسجين.

ثم التفت من جديد نحو كازانوڤا للمرَّة الأخيرة.

ـ سيِّدي أنت معي؟ هل تشعر بنفسك مرتاحًا؟ ارمش بعينيك فقط وأنا أفهمك.

رمش كازانوڤا مرَّتين، بالطريقة نفسها شعر به أفضل. حتى الصفرة التي علت وجهه، قبل قليل، زالت نهائيًّا

ـ هو أفضل يا لالَّة كبيرة. تفضَّلي.

ـ كنت أفكِّر، إذا فعل معي هكذا، أنا الأقلّ صداميَّة، فكيف سيكون وضعه مع الأخريات؟

ـ ما يكون إلَّا الخير يا سيِّدتي. فهو بين يديْ الله.

خرج مسعود بسرعة.

عدَّلت لالَّة كبيرة هي أيضًا من جلستها، من جديد.

ـ كما تراني، لم أتغيَّر. امرأة من ذاكرة ميِّتة، وسلسلة من الأكفان البيضاء.

الشراكة بينك وبين والدي لم تسر في مصلحة الاثنين، ولكنَّها ذهبت نحوك فقط. عرفت بذلك سنوات فيما بعد، عندما انهار كلّ شيء بين يديه. اشتغلتما معًا. كان والدي مثل صاروخ عابر للقارَّات، وكنتَ أنت سيِّد الحركة في الأسواق الداخليَّة. شبكة علاقاتك سهَّلت

تجارتكما في الحرير الصافي. كانت أمبراطوريَّة والدي تزن الكثير زواجي المبكر من ابن عمّي سفيان الذي لم يدم إلَّا قليلاً، قرَّبني من والدي أكثر كنت محاسبته مساعدته في كلّ شيء. يستشيرني قبل أن يذهب نحو إخوتي. لهذا عندما واجهتني، قلتَ لي ذات مرَّة في مكتب الشركة: *أنت سندنا الدائم ولا نريد أن تُسرَقي منّا* ظننتها جملة اعتراف بجهودي فقط، لكنْ يبدو أنَّك كنتَ قد فاتحت والدي في الأمر، بدون دراية منّي.

سألني عنك لأوَّل مرَّة، *هل نسيتِ جرح ابن عمّك سفيان وزواجك الأوَّل*؟ قلت له ما قالته شهرزاد لوالديها لتزويجها: *انتهى كلّ شيء يا بابا يحتاج إلى أمّ، وأنا لا أصلح لابن عمّي*. تشجَّع والدي أكثر وفاتحني بالزواج منك. ليست عادته. عنده قدر من الخجل. وسيط أمّي دائمًا. هذه المرَّة غيّر عادته. أجبته بابتسامة كان يحبُّها كثيرًا: *ما دام قد اختارني وهو يعرف كلّ شيء عنّي، ليكن، موافقة*. شهر بالتمام والكمال، عاد إليّ والدي. قال وهو غير قادر على تخبئة فرحه: *كلّ السعادة يا قلبي. أخضعت لوط لتجارب عديدة وخرج منها كبيرًا ووجدت فيه الابن الصالح والإنسان الطيِّب*. زواجي الأوَّل من ابن عمِّي سفيان لم يولِّد لي أيّ عائق. كان طيِّبًا، لكنَّه لم يكبر، وظلّ معلَّقًا بوالدته. ربَّما لم أحك لك عن التفاصيل. تزوَّجت رجلاً كنت أريد منه أولادًا، وليس شابًّا ينام بجانبي ويحكي لي عن أمهّ وحبِّها له. افترقنا بسرعة. كنتُ قاسية معه. جرحته ليلتها متعمِّدة عندما رفض أن يحرِّرني منه. شوف حبيبي سفيان، *أعطيتك مهلة سنة لترى طبيبًا، لكنَّك استمعت لأمِّك. أتركك معها، فهي تليق بك أحسن منِّي*.

طلَّقته بلا ندم. كان طيِّبًا وجميلاً مثل دمية. كلّ ذلك لم يزدني إلَّا إصرارًا على قبولك والزواج منك. لم يمرّ الأمر بسهولة. كان

لذلك الطلاق نتائج وخيمة غير مرئيَّة، لأنَّ عمِّي كان شريكًا لوالدي. الطلاق المبكر جعل عمِّي ينفصل عن والدي، وظلّ ينافسه في التجارة نفسها، لكنَّه لم يكن يملك حنكة والدي، ولا شبكة علاقاته المعقَّدة على مدى طول طريق الحرير. ذات يوم، وقف عمِّي عند الباب. طلب رؤية والدي. أدخله وكنتَ حاضرًا. طلب أن يبيع والدي كلّ شيء بالثمن الذي يريد، بشرط واحد، أن يوظِّف ابنه سفيان، زوجي السابق، ليطمئنّ على حياته، في منصب محترم. كان والدي رجلاً شهمًا. جعله نائبه الثاني بعدك، يطلعه تقريبًا على كلّ شيء. الصفقة كانت رابحة بالنسبة لعمِّي. عندما فتح أمامي الموضوع، لم أُبْدِ أيّ اعتراض. كنت أعرف جيِّدًا أنَّ سفيان طيِّب جدًّا، مشكلته الوحيدة أنَّه بلا شخصيَّة، وهو تحت وصاية أمِّه حتى جعلت منه طفلاً مخنَّثًا. في غياب والدي في طريق الحرير، كانت الشركة تُدار برجلين، هما أنتَ وسفيان. نقلت عملي مع والدي كلّه إلى بيتي، لتفادي أيّ حرج. وفقدت فجأة ضجيج مصنع خيط الحرير الذي كنت أساعده على تسييره. أكبرت فيك اتِّساع ذهنك يا لوط. كنتَ طيِّبًا ومتفهِّمًا من الصعب على رجل شرقيٍّ أن يرى زوجته، مع زوجها السابق.

نقطة ضعف والدي، الحاجّ إبراهيم، أنَّه كان يثق في شخص واحد في البيت بشكل أعمى، هي أنا. كلّ إخوتي هاجروا أصغرهم أنيس، سافر إلى اليابان، الله وحده يعلم مصيره اليوم. ولم تبق إلَّا البنات الستّ اللواتي سبقنني في الولادة. فجأة، أصبح ظهر والدي بلا حماية. لهذا أيضًا قَبِل بمقترح عمِّي. قال لي ذات مساء: *سفيان من لحمي ودمي، وابن أخي. بيني وبين أخي خلافات، لكنِّي لن أترك ابنه يضيع*. عرفت بعد سنوات طويلة، منذ تلك الحادثة التي وقّع فيها لك والدي على بياض بعد مرضه، وبعد صفقة بيع المصنع الكاذبة، أنَّ

شيئًا خطيرًا دخل في صلب علاقتكما. اتَّضح كلّ شيء بسرعة. فقد بعتَ بدورك المصنع لشخص مجهول، الذي لم يحتفظ به طويلاً، فباعه بدوره لشريك ألمانيّ، قبل أن يحترق نهائيًّا ويتحوَّل إلى كومة من الزنك والرماد، ويتلقَّى صاحبه تعويضًا ضخمًا من التأمينات، ويغادر البلاد نهائيًّا لا أريد أن أحزنك، لكنِّي شممت يومها رائحة نتنة من لعبة مدبَّرة، جعلت منك سيِّد منارة سيتي، في وقت وجيز بين يوم وليلة، أخذت من والدي أملاكه ونسبتها لنفسك.

اللعبة كانت كبيرة، مع أنَّ أحلام والدي كانت صادقة. كان يريد أن يتخلَّص، ذهنيًّا أيضًا، من تجارة الأسلحة. كان لا بدّ من شركة كبيرة وقويَّة، لمقاومة نسيج ألمانيا وحرير الصين. أدمجتما مصانع والدي للحرير، ومصانعك للأقمشة، وفتحتما أسواقًا وطنيَّة وعالميَّة، فرنسيَّة، وفي آسيا وأصبحتما تتحرَّكان مثل شخص واحد في كلّ شيء. وكان والدي قد أُصيب بالوهن الشديد بسبب أيَّام الحرب التي كانت ثقيلة على جسده. كنتَ تعرف أنَّ سرطان المعدة لن يرحمه. قبل موته بأيَّام قليلة، قدَّمتَ له كومة من الأوراق، لتسهيل مهمَّة حركتك التجاريَّة بسبب مرضه. وقّعها دون أيّ سؤال. ما كان بينكما كان كبيرًا على الموت وعلى الحياة. قُلتَ له: *وقِّع لي على ورقة الشراكة حتى أعرف كيف أحافظ على التركة، عندما يخرج لي الورثاء من كلّ الجهات*.

كما تعرف يا سيِّدي لوط، إنَّ الورقة لم تكن تحمل أيَّة شراكة. شراكة الوثيقة تؤكِّد ملكيَّتك للشركة الأمّ كلّها، وأنَّكما افترقتما بالتراضي، بعد أن أخذ والدي كلّ حقوقه. هكذا تقول الوثيقة. تفطَّن والدي للعبة وهو في فراش الموت، لكنَّ اللعبة كانت قد تمّت بإتقان من خلال سلسلة من التواطؤات الإداريَّة. لم يكن أمامي فعل الشيء

الكثير قانونًا أخبرت إخوتي بتفاصيل الحيلة. فكَّر خالد وعادل باختطافك وإجبارك على توقيع وثيقة بديلة، لكنَّ والدي رفض. زكّيتُ رأيه؟ *ما جدوى اختطاف يقود إلى السجن، لأنَّه يكون قد سجَّل كلّ شيء عند الموثّق؟*

كبر من يومها الشرخ بيني وبينك. وقفتُ مع والدي، ليس لأنَّه والدي، ولكنْ لأنَّ حقّه قد سُرق فقط. حاولت جاهدة أن أقنعك بالميل للحلّ السلميّ، لكنْ لا شيء نفع معك. ظللت مصرًّا على أنَّ والدي أخذ كلّ حقوقه.

بدأنا نتحرَّك قانونيًّا عندما سمعت بأنَّ العائلة تعدّ العدَّة في الخفاء لاسترجاع مصانع الحرير الأربعة، كنت قد انتهيت من كلّ شيء، وبعتَها لمغترب في ألمانيا الديموقراطيَّة وقتها، بنصف ثمنها وانتهى خبرها القضاء حسم الأمر لصالحك. الأكثر سوءًا ليس هذا. هناك ما هو أفظع. لم نكن نملك أيَّة وسيلة للدفاع عن جهود والدي. الوثائق التي اعتمدتها، لم يكن بها أيّ خدش. الباقي تعرفه جيِّدًا يا سيّدي. ذات يوم وأنت عائد من عملك، تعرَّضتْ سيَّارتك لطلق ناريٍّ خطير. كنتَ تعرف أنَّها مجرَّد تهديد لا أكثر، لكي تنصاع إلى الأمر الواقع، لأنَّ الذي يقصدك لقتلك يعرف جيِّدًا كيف، وأين يصطادك. لا يمكنه أن يتصرَّف بتلك الطريقة الصبيانيَّة، ويطلق النار في الهواء أو على عجلات سيَّارتك، ويكسر زجاجها، وأضواءها ركضتَ بسرعة نحو مركز الشرطة، في منارة سيتي، وقدَّمت شكوى موثَّقة، جرّت إلى السجن أخي توفيق، وابن عمِّي سفيان، زوجي الأوَّل، بتهمة الشروع في القتل وامتلاك ذخيرة من الأسلحة، كانت كلّ ميراث والدي وتاريخه، معلّقة ولم تغادر مكانها، منذ انتهاء الحرب العالميَّة الثانية وحرب الهند الصينيَّة وحرب الجزائر. التأبيدة التي نطق بها القاضي

للاثنين، خُفِّفت إلى عشرين سنة سجنًا لكلٍّ واحد، إكرامًا لتاريخ والدي في الحركة الوطنيَّة، وتنازلك عن الشكوى. بدوتَ يا لوط، في ذلك اليوم للكثيرين، رجلاً خيِّرًا وطيِّبًا وكريمًا ومتسامحًا. لكن وراء تنازلك، لا أحد كان يرى الظلم الكبير الذي لحق بالعائلة، ويأس رجلين ظلَّا يصرخان بكلِّ ما أوتيا من قوَّة، أنَّهما لم يقصدا في النهاية إلَّا تخويفك وتهديدك، لاسترجاع بعض الحقوق العائليَّة المسروقة.

كنتَ أصمّ مثل حجرة الوادي الزرقاء.

تنهَّدت لالَّة كبيرة طويلاً كمن يزيل ضيقًا جثم على صدره، ويبتلع زمنًا شديد القسوة.

الله يسامحك على كلّ شيء.

تطلب مسامحتي؟ لا أعرف كيف أسامحك؟ وإذا سامحتك، هل سيسامحك من سرقت أقدارهم ومنحتهم موتًا قاسيًا؟

احتفظت بهذه الأسرار التي حالت فيَّ مثل أقمشة بالية، فقط لأحميك من نفسك، وأمام الناس، وأحمي نفسي وأبنائي أيضًا لا أحد يعرف اليوم ماذا يتخفَّى وراء هذه المرأة لَدام بلانش، التي مات والدها بين يديها بعد أن ختمت جلطة دماغيَّة سرطانه، وكأنَّها كانت رصاصة الرحمة التي ظلَّ ينتظرها بعد أن جفّ كشجرة يابسة. فتحت رسالته ـ الوصيَّة التي كنت أحتفظ بها أكثر من أيّ شيء آخر. حتى حفظتها عن ظهر قلب. استغربت أنَّه لم يكن يوجد بها أيّ شيء يخصّ أمواله، ولكنْ وثائق إداريَّة خاصَّة بزنجبار والسماح له بالدفن هناك. وتليفونات وعناوين سيِّدة اسمها رِيًا، حفيدة زوجته الڤيتناميَّة كِيًا، وخريطة جزر زنجبار، وبطاقة سفر لي وله إلى تنزانيا، ومنها إلى جزيرة زنجبار والدفن في قبر يحمل رقم A23987.

لم تكن الرسالة طويلة.

أغمضت عينيها، وبدت كمن يستظهر شيئًا حفظه عن ظهر قلب.

حبيبتي آنستي البيضاء. أعرف أنَّ طلبي ثقيل جدًّا، لكنْ حاولي تطبيق هذه الوصيَّة. سأكون سعيدًا لو تمكَّنتِ من ذلك. ولن أغضب إذا صعب عليك الأمر. كنت أحبّ أمّك كثيرًا، لكن وضعها كان صعبًا، وحياة الترحال لم تسهّل من استقرارها يكفي أنّها أنجبتك لأكون أسعد إنسان في الدنيا لا ألومها على أيّ شيء، لقد تعبت معي كثيرًا عندما ماتت، اختارت قبرها بجانب أمّها في مرتفعات جرجرة. كيًا منحتني كلّ شيء، في أصعب الظروف وأخرجتني من تجارة الأسلحة. وفاء لها، أُدفن بجانبها في المدينة الصخريَّة التي اخترناها: ***ستون تاون***، *التي تقع على الساحل الغربيّ من جزيرة* ***أنغوجا*** *جهَّزت لك كلّ شيء حتى يكون تعبك أقلّ. رِيًا على علم بالتفاصيل. ستستقبلك في مطار* ***دودوما*** *ومنها إلى زنجبار، وتقوم هي بكلّ الإجراءات. سأكون بجانب كِيًا فقط لأقلّل من غربتها ووحشتها جزيرة* ***أنغوجا*** *أو بستان إفريقيا، ستعجبك بقرنفلها الذي يتجاوز المليون شجرة، ونهرها* ***مويرا*** *الذي يقطعها سيسحرك. اعتبريها رحلة سياحيَّة. لا تحزني، لأنِّي سأكون سعيدًا بوفائي لامرأة ومدينة حياديَّة احتضنتنا بحبّ، بدون أن تطلب منّا أيّ شيء.*

كانت معركتي مع إخوتي كبيرة، لكنِّي انتصرت فيها رافقته حتى مثواه الأخير. كانت رِيًا بالضبط كما وصفها. شعرت بانتشاء وأنا أقف على حافَّة نهر مويرا، ونمت يومًا كاملاً تحت شجرة التين التي غرسها والدي في بيته، على حافَّة النهر. عدت في سعادة كبيرة على الرَّغم من أنَّي، ربَّما، لن أرى قبر والدي مرَّة أخرى، فقط لأنِّي تمكَّنت أخيرًا من تنفيذ آخر ما اشتهاه.

كان والدي، قبل وفاته، يريدني خليفة له في أمبراطوريَّته التي

ظلَّت تتَّسع. جاذبيَّة تجارة الأسلحة ظلَّت فيه، تستيقظ من حين لآخر. أقنعتُه بأن يُخرج الفكرة نهائيًّا من دماغه، حتى ولو بموافقة ضمنيَّة من الدولة التي كانت متورِّطة مع الكثير من الثورات في إفريقيا، وآسيا، وأميركا الجنوبيَّة، وظفَّار واليمن. أقنعته بأن ينسحب بهدوء حتى لا ينتقم أحد من الذين أدخلوا في دماغه من جديد، فكرة تهريب الأسلحة بعد عودته من زنجبار. الحروب التي كان ينوي شراء الأسلحة لها بقناعة، كانت تفلت كلِّيًّا من سيطرته. الكثير منها لم تكن تحريريَّة، لكن صراعات داخليَّة بين مجموعات قبليَّة أو عرقيَّة، أو أيديولوجيَّة، حول السلطة. أغلب شركائه من الثوَّار، ماتوا في ظروف غامضة، والكثير منهم لا يُعرف عنهم الشيء الكثير قلت له *الزمن تغيَّر يا بابا حبيبي. القاتل والمقتول، قاتل هو أيضًا* استمع لي. ربَّما لأنَّه تعب، وكان ينتظر من يخرجه من كبريائه، أو من التعب، أو ربَّما لأنَّ حججي كانت قويَّة وكنت في حاجة ماسَّة إليه، بعد أن سرقت منه الحروب القاسية وعزلتها ورطوبتها الكثير ممَّا كان لنا.

بسرعة، استغلَّ والدي علاقاته الآسيويَّة، وعاود عبوره القارّات مسترشدًا بطريق الحرير القديم. كان يريدني أن أتخصَّص فيه، لأنَّه مادَّة نبيلة: الحرير والقماش. لكنَّ زمنه كان قد مضى، والمرض نشب فيه بلا هوادة.

هل ترى الرماد وانفجار الأوعية التي في عينيَّ، سببها ليس كثرة البكاء والحزن كما كنتُ أذكر لك دومًا، ولكنْ الصمت. الصمت الذي تحوَّل إلى ضغط، ثم إلى قنبلة موقوتة، ثم إلى موت بطيء. مع الزمن، تحوَّل إلى لعبة سيِّدها الأساسي وبطلها المركزيّ، الكذب. اخترت الصمت لأنَّه حائطي الوحيد. أنت لا ترى شيئًا إلَّاك. حتى المرايا لا تعكسك إلَّا أنت وإلَّا تكسرها وخوف أن أُكسر بعنف وتُرمى أجزائي

في كلِّ مكان، فضَّلت أن أكون مرآتك السرِّيَّة، وأصمت.

كانت عيناه المثبَّتتان في الفراغ، تنفصلان عنها وتكتفيان بتتبُّع حركات يديها يغمضهما، ثم يجهد نفسه لفتحهما عن آخرهما، فقط لتظلّا متوجِّهتين نحوها، قبل أن يثبِّتهما في الفراغ، في نقطة مبهمة لا تحيل إلى أيّ شيء. لا حركة حتى في رجليه اللتين تُركتا عاريتين، لتظهرا حركة أصابعهما لمعرفة ما به، وما يريده. الأصابع وحركة العيون أصبحت لغته الوحيدة للتواصل، أو حكّات وجهه كلَّما شعر بامتعاض.

ـ أما زلتَ هنا؟ هل تسمعني؟

أنا جئت هنا لأسامحك يا سيِّدي. الذي يحاسبك ينتظرك هناك، حيث لا بشر غيركما، ولا كذب يجدي، في فراغ وسديم لا ينتهيان. كنت أريد فقط أن أعرف، أما زلتَ تلحّ على أنَّ والدي باعك مصانعه؟ وأنَّ ابن عمِّي سفيان، وأخي توفيق الله يرحمه، حاولا قتلك؟ وأنَّك بعت المصانع لاحقًا لأنَّها كانت مفلسة بسبب الحرب التي أفقدتكما المبادرة في منافسة الحرير الاصطناعيّ؟ وهل بعتها كلّها أم جزءًا منها، لأنَّ بعض مصانع والدي الذي أخلص للحرير الياباني الحرّ، تخصَّصت في الحرير الاصطناعيّ الذي كان يأتي من الأسواق الآسيويَّة اليابانيَّة والصينيَّة والأندونيسيَّة؟ نظرتان غير متّفقتين بتاتًا بين والدي الذي حلم بالحرير الذي كان يصنع به القماش النادر والمميَّز، للأعراس الكبيرة، وللألبسة النادرة أو غطاءات صالات الأغنياء، والحياك والبرانس. الذي لم يلبس حرير الحاجّ إبراهيم، طرحة الزوجة، وبرنس الزوج، كساء البيت، أغلفة الوسائد والأسرَّة، سيكون عرسه بلا معنى. ربَّما تريد أن تسرَّ بشيء؟

ليس مهمًّا أجِّله. عندما تقف أمام المولى عزّ وجلّ، لا ينتظر

منك أن تقول الحقيقة، لأنَّها سترتسم على جبهتك. لا أهذي يا سيِّدي. في قمَّة صفائي. لا شيء يدوم. كلّ شيء يعود إلى أصله الأوَّل. التراب والغبار والانتظار، وربَّما العدم. لا أعرف. أنا لست هنا لأثقل عليك، يكفي أنَّ رائحة الموت التي تحوم حولك مثل بخار الحمَّامات التركيَّة العفنة، تسرق منك كلّ شيء.

كنت دائمًا أقول لك في لحظات غفوتنا وصفائك، احذر حبيبي، كلّ شيء موقَّت في هذه الدنيا. *ستأتي تلك اللحظة التي تذوب فيها القوَّة ويصبح الإنسان مثل فردة حذاء، إذا لم تحملها يد عابرة تحتاجها، ستبقى هناك. أقلّ من لا شيء.* لكنَّ يقينك كان أكبر دومًا. لا تسمع إلَّا لنفسك. أنت لا تعرف بأنِّي كنت الوحيدة من نسائك، ربَّما، التي لم تخترك لغناك، ولكن لأنَّك كنت أنت، شابًّا طموحًا، جميلاً، ذكيًّا وخلَّاقًا لا يعرف الملل أو الاستسلام للخسارة والخيبة.

عندما أعود إلى التفاصيل الأولى كيف قبلت بك زوجا؟ كيف كنتُ عمياء حتى موت والدي؟ أستغرب!

رأيتك كيف بدأت تعمل مع والدي، وعلى الرَّغم من أنَّ والدي هو من كان يسافر باستمرار، وكان ينتقي بدقَّة المتعاملين معه. يبقى هناك مدَّة طويلة، حتى إنَّ هناك من جاء يخبر أمِّي بأنَّ زوجها ارتبط بيابانيَّة، أبوها صاحب حقول تربية دود القزّ. كانت دائمًا تردّ، أنَّ سيِّدي إبراهيم يعرف واش يدير[1] وليس في حاجة إلى من يوجِّهه. هذا لا يمنع من مفاجآت الحياة. بعد وفاته بقليل، وصلتنا رسالة مكتوبة باللغة اليابانيَّة، من شابَّة مُحاطة بثلاثة أطفال، بالقرب منها، رجل وامرأة تجاوزا العقد السادس من عمريهما لم يكن فينا من

---

(١) يعرف ماذا يفعل.

يعرف اليابانيَّة. عندما رأتها أمِّي، سألتني ماذا تقول، أجبتها: هاااه. هي عائلة كيموتو التي تحبّك وتقدِّرك وتنتظر زياراتك أنت وزوجتك. رحمك الله يا سيِّد إبراهيم، *وأدخلك* فسيح جنانه. قالت أمِّي: سبحان الله، يتحدَّثون مثل المسلمين. هم أيضًا يقولون أدخلك فسيح جنانه؟ لا أدري بماذا أجبتها، لكنِّي خبَّأت الرسالة في الخزانة قبل أن تغيب بشكل فجائيّ. بحثت عنها في كلّ مكان، لكن عبثًا. الغريب أنَّ ذلك، صاحب سفر أصغر إخوتي إلى اليابان بهدف التعرُّف على أسواق الحرير هناك، وإعادة تنشيط تجارة الوالد. لكنَّه منذ أن ذهب لم نسمع به أبدًا. لم نتلقّ منه أيَّة رسالة.

هل تعرف ماذا سرقتَ من والدي؟

لا تعرف؟ أقول لك. حياته وذاكرته، ووضعتَ مكانهما موتًا بطعم الصخر البركانيّ. مع تعب والدي، أصبحتَ أنت من يُدير الصفقات مع حرير آسيا نبَّهنا سفيان، لكنَّ والدي نهره. *هذا* شريكي *في السرَّاء والضرَّاء، ما تزال في هذه الدنيا* شويَّة قيم. كنتَ قد قطعتَ شوطًا في الغشّ في الحرير، مستغبيًا مؤسَّسات الدولة الكبيرة التي كانت من أفضل زبائنكما حتى بعض المؤسَّسات الفرنسيَّة والشرقيَّة، بدأت تتساءل عن نوعيَّة الحرير الذي كانت تشتريه. كنتَ قد بدأتَ منذ فترة، تخلط الحرير الاصطناعيّ، بحرير دود القزّ دفعتَ بالشركة نحو الإفلاس. لم أكن أعرف ما كنتَ تفعله، لكنِّي عرفت بعض مشكلاتك من انزلاقات لسانك. قبل أن أُخبر والدي، وصلته أخبار مؤكَّدة، عن الغشِّ في الحرير نبَّهك وهو يشعر بحزن كبير. عندما أخبرته بصدق شكوكه، طلب منِّي أن لا أتدخَّل، وأن أبقى بعيدة عن كلّ هذا. بعد شهور قليلة، انتهى الأمر بالشركة إلى خسران زبائنها الأساسيِّين، والدوران في الفراغ.

الأعمار بيد من يملكها، لكنِّي لا أريدك أن ترحل عن هذه الأرض وفي رأسك أنَّ لَدام بلانش، كانت نيَّة ودرويشة، وربَّما غبيَّة أيضًا أعرف أنَّه لم يعد للأمر أهمِّيَّة، لكن يجب أن تعرف كلّ شيء في أشياء تخصّك مباشرة. أما زلتَ مستعدًّا لسماع بقيَّة الحكاية؟ كنتَ وراء فتح هذا الفيضان، عليك أن تتحمَّله. ربَّما لم تأت الأشياء كما أردتها، لكنِّي هنا أمامك. أتعرَّى بكلِّي، لا شيء يسترني، ولا حتى الكفن الذي أمضيت جزءًا من العمر أخيطه.

الغريب أنَّ كازانوڤا كان شديد الانتباه. وتتبّع حركات يديها وذراعيها بشهوة ارتسمت في عينيه. زاد وجهه صفاء.

ـ أفهم من هذا أنَّك تريد سماعي؟

بان صفاء عينيه وهو يستمع لسؤال لالَّة كبيرة. رمش مرَّتين. حوَّل سواد عينيه نحو الخارج، بالضبط حيث الدالية.

ـ الدالية؟

حرَّك أصابع رجليه ويديه كأنَّه طفل يحتفي باكتشاف جسده للمرَّة الأولى.

فهمتك يا سيِّدي. حقّك. كلّنا نحتفظ بشيء نريده أن يستمرّ فينا أعرف كم كانت عزيزة عليك. جدّك هو من غرسها هناك عندما زارك في البيت. في كلّ التغييرات التي أجريتها على الدار، ظللتَ تحافظ عليها أحيانًا، تأتي بمختصّ ليحرِّكها من مكان إلى مكان بجذورها أوصيتني بالاهتمام بها، أكثر من أيّ شيء عزيز. قلت بكلمة: *كيفما كانت الخرافة التي وراءها*، *فهي جزء من ذاكرتي*. لم أستغرب، والدي أخذ تينة جدّه حتى زنجبار.

الدالية كانت هي كلّ ما تبقَّى لك من ذاكرة مسقط رأسك وأهلك

أيضًا كان كلام جدِّك أمرًا فقد ظلَّ يعيش على رأس جبل عالٍ، ويستعدّ لحرب المسلمين الأخيرة، ضدّ النصرانيِّين، الذين سرقوا غرناطة، بالحيلة وبثِّ المنكرات في المدينة. مقتنع بأنَّ الكفَّار جاؤوا بألفيْ امرأة قشتاليَّة، من أجمل نسائهم، بعد أن درَّبوهنَّ على الغواية، وتعلُّم العربيَّة، وإتقان قواعد الإسلام، وسلَّطوهنَّ على السلاطين العرب الغارقين في ملذَّات الدنيا في ليلة واحدة كما كان يروي، أخذوا ما تبقّى من المدن الأندلسيَّة الكبيرة، طليطلة، غرناطة، إشبيليا، الميريا، مالقا طبعًا كنتَ تعرف أنْ لا علاقة لذلك، لا بالتاريخ ولا بصنّاعه. لكنّ الدالية الخضراء دومًا بين ظلال البيت، كانت أسطورة جدِّك الحزينة والأخيرة التي تشبَّث بها بقوَّة حتى لا يفقد الأمل الذي ورَّثوه له. ظلَّ هكذا حتى غادر هذه الدنيا ذات شتاء بارد بعد أن عاش واقفًا على رأس جبل، مائة سنة وسنة.

بعد هزَّتين عنيفتين جافَّتين كالمُصاب بالصرع، استفاق كازانوڤا قليلاً، وعاد إلى شخيره العاديّ بشكل متواتر ومنظَّم. أحسَّت لالّة كبيرة أنَّ الموجة الباردة التي انتابته ذهبت نهائيًّا، وأنَّه على استعداد لسماعها ومتابعة حديثها

نظرت إلى وجهه عميقًا، أشياء كثيرة بدت غميقة. بدا لها لأوَّل مرَّة غريبًا، كأنَّها لا تعرفه. لا تعرف ما الذي تغيَّر في وجهه بالضبط ما عدا النحافة، لكنَّ شيئًا قد زال نهائيًّا من محيَّاه.

ـ ما الذي تغيَّر فيك بالضبط يا سيِّدي؟

ـ لا شيء يا قلبي سوى أنَّ الذي ترينه ليس أنا، لكنَّه الموت!

ـ أيّ موت يا مجنون؟ لا أرى إلَّا بريقًا يملأ عينيك.

ـ لا بريق إلَّا ما تحمله عيناك، في النهاية.

لا بالضبط ذاك البريق. انسحب نهائيًّا

عندما تأمَّلته، كان ما يزال في سكينته. من تكلَّم في مكانك إذن؟

كم صرتَ غريبًا، وكم أنَّك ستذهب وأنا منفصلة عنك كلِّيًا، على الرَّغم من أنَّي في النهاية لا أملك شيئًا آخر سوى أن أسامحك، لكنَّ الآخرين الذين لم يعودوا بيننا، ماذا ستفعل معهم؟ هل ستطلب من الله أن يغفر لك؟ أخي توفيق الذي كنتَ السبب الأوَّل في انتحاره، ماذا ستقول له؟ ماذا لو طلب منك أن تُعيده إلى وضعه الأوَّل؟ شابّ مليء بالنور والحياة، يحلم كما كلّ الشباب في سنّه، أن يكبر ويتزوَّج ويعيش؟ هل بقي لديك شيء تقوله؟ كيف؟ قلْ لي؟

أنت تعرف أنَّه بعد زمن طويل من حادثة الاعتداء عليك، أسرار خطيرة ظلَّت مطمسة، ظهرت فجأة، وحدك كنت تعرف تفاصيلها، والصدف التي لم تحسب حسابها أبدًا. تُهم يُفترض أنَّ تقود صاحبها نحو المشنقة أو تأبيدة على الأقلّ. كنت زوجتك وشريكتك في كلّ شيء. ترجَّيتك أن تتدخَّل لصالح توفيق وسفيان لإخراجهما من السجن. قلتَ لي *فعلتُ ما في وسعي، على الرَّغم من أنَّي أعرف أنَّكِ تفعلين ذلك ليس من أجل توفيق، ولكن من أجل سفيان الذي فشل في أن يكون زوجًا ناجحًا معكِ، لكنْ يمكنه أن يكون عشيقًا رائعًا*. قلت لك *بنيَّة طيِّبة*. حرام عليك. *أنا من طلَّقته لأنَّه لا يصلح لا لهذا ولا لذاك. لم نخلق لبعض*. لا *يمكنه أن يكون شيئًا آخر إلَّا ابن أمِّه. ربَّما حالة مرضيَّة، لكن هذا ما كنت أظنّه وأعرفه أيضًا لكنَّه* لا *يمكنه أن يقتل نملة. يخاف من كلّ شيء.*

طبعًا، أنت لم تفعل شيئًا لا من أجل هذا، ولا من أجل ذاك. تركتهما يغرقان. عرفت أنَّ حكاية أخي توفيق الذي شنق نفسه في السجن، في سنته السابعة من الحجز الفرديّ، كانت مركَّبة، وأنَّه لم

يقم بأيِّ فعل، وأنّك أنت من لفَّق كلَّ شيء، كلَّ شيء من البداية حتى النهاية. سيناريو حبكتَه كما اشتهيتَه. كما تفعل أحيانًا مع من يناصبونك العداء. وتأكَّدتُ من ذلك بنفسي.

ـ الله يفضح القاتل دومًا، مهما مرَّ الزمن. اسمعني جيِّدًا. لم أكن لا غبيَّة ولا غائبة عمَّا كان يحدث من حولي. أروي لك الحكاية كما رواها النائب العامّ لزوجته، التي روتْها لي بدورها على مدار جلسات عديدة.

هناك بعض الصدف تشبه الأقدار، تتبع أصحابها حتى القبر.

قال لها بالحرف الواحد، إنَّ توفيق ظُلم في حياته ومماته. أكَّد النائب العامّ الذي أحرقه ضميره، أنَّك كنتَ تعرفه جيِّدًا، وأنَّك قاسمتَه جزءًا من أرباحك من رحلتك الأخيرة إلى الصين. في الأخير، تمّ تركيب العمليَّة بحيث أعطيته موعدًا بعين المكان عندما بدأت عمليَّة الاغتيال المزعومة، ليس بعيدًا عن السوق الإسبانيَّة، التي تحتلّ وسط المدينة. حتى الدراسات الباليستيَّة اللاحقة بيَّنت أنَّ الجرح لم يكن بفعل الرصاص، إذ لم توجد أيّ علامة مادِّيَّة تُحيل إلى ذلك. بينما ظلَّ توفيق يصرخ وحيدًا في بئر، لم يسمعه أحد. حتى والدي ظلَّ حزينًا طلبنا منه أن يتدخَّل، الكثير من الوزراء والمسؤولين كانوا أصدقاءه أيَّام الحروب الفائتة، لكنَّه رفض وظلَّت كلمته تعود في كلّ لحظة: *أموت ولا أفعل هذا لن أدافع عن مجرم أراد أن يقتل غيره*. لم يعرف والدي بسبب تصلُّبه، أنَّه كان يضع الخطوة الأولى في ملعب الجريمة ليكون شريكًا فيها في النهاية، شنق توفيق نفسه، لأنَّ حكم عشرين سنة كان قاسيًا على هشاشته. قاوم السنة الأولى مستقيمًا ومستسلمًا لقدر صنعه غيره له. لكنَّ السنوات اللاحقة أرهقته، وبدت له مسافة السنوات المتبقِّية طويلة. حتى الالتماس الرئاسيّ الذي طمع فيه بسبب تأكيدات محاميه، بمناسبة

عيد الاستقلال، لم يجْدِ نفعًا أكَّد له المحامي أنَّهما سينتصران على البغضاء والمنكر والظلم، لكنَّ المحامي نفسه كانت خيوطه في أصابعك ولا يتحرَّك إلَّا بها قبل أن يلتحق بمكتب محاميك في برج مارينا. في الليلة نفسها عندما وصلت قائمة المسرحيِّين، لم يجد اسمه، بينما وجد مجموعة من مهرِّبي المخدَّرات، والكوكايين والكوراي والموادّ الأوَّليَّة المدعَّمة من الدولة والأسلحة، أقدم توفيق على ما كان قد خطَّط له في الخطَّة ب، كما في الحروب. الانتحار شنقًا حتى الموت القاسي لم يشفع له. ورفض إمام منارة سيتي الشيخ نور الدين، الذي عُزل بعد ثبات فعل الاعتداء الجنسيّ على قاصر، الصلاة على روحه، وعوَّضه لاحقًا نائبه الإمام زكريًّا قال في خطبته، التي حضرتها، في مسجد المنارة الكبير، مع نساء العائلة والمدينة: *المسلم عندما يرتكب خطأً يستغفر ربّه، ويتوب. لكنَّه أن يتمادى ويسرق روحه التي ليست ملكه، لكنَّ الله وضعها هناك وديعة في انتظار أن يستلمها قدَّسها الله ورفض أن لا تُزهق إلَّا بالحقّ، فهذه كبيرة الكبائر.* قلبي وجعني يومها. تخطَّيت صفوف الرجال، وصرخت في وجه الإمام عبد النور الذي أهمل جسد توفيق، وتركه مسجّى كلّ الصبيحة في مكانه، في المسجد، وكأنَّه لم يكن معنيًّا به: *قل لي يرحم والديك، أنت إمام وإلَّا ضابط مخابرات؟ أخي ليس كلبًا* كنت قد حضَّرت نفسي لوضعيَّة أسوأ من هذه. واصلت صراخي الذي وقف يومها في حلقي كالوتد: *بدل هذه اللعنة، كان عليك أن تقف قليلاً وتحمد الله وتستغفره. لقد خلقتم دينًا خاصًّا بكم. سنصلِّي عليه، نحن أخواته والنساء، ما دمتَ قد رفضتَ فعل ذلك.* صرخ الإمام عبد النور وهو ينتف بقايا شيبات شعره: حراااام. *غير مأذون للمرأة الصلاة على الميِّت.* مرَّة أخرى، من حيث لا يدري، منحني فرصة أخرى لأكون أنا، في قمَّة حزني ويأسي. *الله لم يحرِّم صلاة المرأة على*

الميِّت. تعاقبونه في الأرض قبل أن يعاقبه خالقه؟ لا يوجد دليل شرعيّ يمنع المرأة من الصلاة على الجنازة، وهذا باتِّفاق الأئمَّة.

ناديت أخي الصغير أنيس الذي بدأ الزغب يملأ وجه، قبل أن يسافر إلى اليابان: *هل تريد أن يُدفن أخوك باحترام، أم تظلّ هنا تنظر إليه كالأحمق حتى يأكله الدود؟* أحنى رأسه. قال: *الإمام نور يقول.* صرخت: *ترنّك أنت والإمام ظلام ديالك. الإمام ليس ربًّا بشر مثلنا جميعًا يخطئ ويُصيب، وفي هذه أخطأ فقد أقنع الحضور بعدم حضور جنازة أخي. يمكنك أن تصلّي بنا صلاة الجنازة في المسجد. قال لا أعرف.* قلت له وأنا مشتعلة غضبًا: *الأعمال بالنيَّات. تقدَّم الصفوف واقرأ قرآنا بصوت عال.* حضرت الجنازات. افعل كما يفعلون. لا ركوع ولا سجود. قال *أعرف.* انتفض في مكانه. ثم تقدَّم نحو مسجد خلا من الناس بعد الصلاة. وقفنا وراءه. لأوَّل مرَّة، تدفن النساء أخاهنّ. نعم صلَّينا عليه نحن السبع، ومعنا بعض النساء الحاضرات، عندما استأذنتهنّ بعد الصلاة. *توفيق أخي وأخوكم ونحن من جُرح بفقدانه. لنذهب كلّنا، وليذهب الإمام إلى الجحيم. لا سلطان له على قلوبنا* ومشينا في جنازته برفقة مجموعة بسيطة من أبناء المدينة. أنت كنت في شأنك الخاصّ. لم يكن لديك الوقت لتقاسمني جرحي. على الرَّغم من أنَّك اعتزلتني، لكنّني كنت راضية عن نفسي داخليًّا وألَّف الناس قصصًا كثيرة عن أداء صلاة الجنازة والسير وراء توفيق. *رجل تدفنه سبع نساء، ومعهنّ بعض نساء القرية.* مع أنَّه رافقنا بعض الرجال، لكن لا أحد رآهم. لم يروا إلَّا جريمة النساء اللواتي دفنّ أخاهنّ. لا أدري من أين جاءت الفكرة، لكن كان يجب أن نفعل ذلك. عندما حضر الإمام عبد النور، ودار حول المقبرة ورأى الأشخاص الأربعة الذين حفروا القبر، وحملوا جثمان أخي إلى

المقبرة، هم أنفسهم من صلّوا عليه معنا صلاة الجنازة. بصق علينا في المقبرة حتى سال الريق على لحيته البيضاء: *تفوووو. لعنة الله عليكنّ أنتنَّ السبع ومن تبعكنّ في التنكُّر للدين وللسلف*. لعننا جميعًا ثم انسحب من المكان. أراد أخي أنيس أن يذهب نحوه، لكنّي منعته. كنت أريد أن أشتمه وأُسمعه ما لم يسمعه في حياته، لكن في هذا المكان المجلّل بالسكينة، كان ينام كلّ أهلي وأمّي. والكلام الساقط في المقبرة يؤذي الميِّت. ادّخرت كلّ شيء ليوم سيأتي، لكنَّ السجن المركزيّ سبقني إليه. ربَّما لأوَّل مرَّة أُسعد في حياتي لسجن رجل اتّهم كلّ الناس بأذى المجتمع، فظهر للعيان أنَّه كان يعتدي على الأطفال وينهاهم عن ذكر ذلك أمام أهاليهم.

عندما أتيتَ بالإمام زكريًّا، كانت حساسيَّتي لا توصف تجاهه. ذكّرني بسيِّده الذي سبقه إلى المنصب نفسه، الشيخ نور الدين، كما يشتهي أن يُنادى. قلت لك: *هذا الإمام البائس الذي تتعامل معه، سيكون مثل سالفه، وسينفِّر كلّ الملائكة في هذا البيت*. قلتَ: *اختبرته، وهو رجل طيِّب وكبير النفس*. لم أطل الكلام معك. قلت لك: *هو في سوقه وأنا في سوقي. لا علاقة لي به*. لكنَّك كنتَ مصمِّمًا على إدخاله للبيت ولم تكتف به مستشارًا دينيًّا للشركة. قلتَ: *هو شاطر في المسائل الدينيَّة، والشركة تحتاج أحيانًا إلى هذا النوع من الأئمَّة. فنحن مهما قلّدنا ثقافة الغرب، نظلّ أبناء هذا الدين. هناك مشكلات البيع والشراء، والنكاح، والكثير من المسائل القضائيَّة والتوريثيَّة، تمرّ عبر حلقة الدينيّ*.

وبدل أن تتركه في مكانه، أدخلته بيتك. عيناه لا تنزلان عن كلِّ نساء البيت. أعتقد أنَّه يعرّيهنّ عشرات المرَّات في سرِّه. تمنَّيت لو وضع الله على جباهنا شاشات تكشف دواخلنا، لما تجرَّأ الناس على

الكذب والنفاق. لكنَّه ربَّما ترك أمر ذلك للبشر، سيكتشفون يومًا ما، ليس فقط جهاز الكذب، لكن أيضًا جهاز كشف النوايا

ـ لا أدري كيف يمضي الوقت بسرعة عندما نقول ما في القلب، ودون خوف من أن يخسرنا قولنا من نحبّ؟ أسألك قبل أن تسألني حواسّك المرتبكة: هل سامحتك على كلّ هذا الأذى الذي لحق بي وبأهلي؟ لا أدري. هل سامحتَ أنتَ نفسك أوَّلاً؟ هل سألتها ماذا فعلتْ؟

فتح كازانوڤا عينيه عن آخرهما كمن يريد أن يرى كلّ شيء دفعة واحدة. أن يصرخ بأعلى صوته لسبب هو نفسه لا يتذكَّره. زاد بياض عينيه اتِّساعًا انتابته رجفة حادَّة، وبدأ يخرج من صدره صفيرٌ حادّ، ومن فمه الذي اعوجّ فجأة، ريق أصفر مختّر صدره ينتفخ كأنَّه يريد أن يتقيَّأ رئتيه وقلبه.

تأمَّلته لالَّة كبيرة وهي على مسافة أمتار قليلة منه. خافت من اختناقه. ندمت قليلاً في أعماقها أنَّها أسمعته شيئًا قاسيًا ظنّها زمنًا طويلاً أنَّها لم تكن تعرفه. في اللحظة التي قامت لكي تسعفه وتضع كمّامة الأوكسجين على فمه، كان مسعود قد سبقها في حركة شبه آليَّة. فتح له فمه ونظّفه بسرعة، بخرقة حمراء، كانت عند رأسه، ثم وضع بسرعة برقيَّة كمّامةَ الأوكسجين في فمه، وتركه يتنفَّس آليًّا حتى بدا كأنَّه قد نام. قبل أن يفتح عينيه شيئًا فشيئًا، وكأنَّه يكتشف المكان للمرَّة الأولى.

ـ هل تشعر سيِّدي بِنَفَسِك أفضل؟ هل أنزع الكمَّامة؟

حرَّك أصابع يده اليمنى بشكل آليّ.

عدَّل مسعود جسد كازانوڤا جيِّدًا، قبل أن يميل به نحو اليسار

قليلاً ثم نفض الوسادة الرهيفة من جديد، وأعاد وضعها تحت رأسه. خرج بسرعة لكي لا يربك لالَّة كبيرة.

ـ نسّاية وصبورة؟ أليست هذه كلماتك الهاربة؟ يااااه لو تدري ماذا يعني هذا يا لوط!

كم أشتهي يا سيِّدي أن أوقف هذا النهر المتدفِّق بجهنَّم المخزونة في داخلي، عند هذا الحدّ! لكنّني لا أستطيع. لقد رميتني في دوَّامة لا أعرف كيف ستنتهي، ولا كيف ستكون عواقبها تعلَّمت طوال الزمن الذي عشته معك أن أكون غفورة رحيمة. عفوًا لا ليس غفورة رحيمة، ولكن نسّاية. أحاول أن أرمي كلّ شيء ورائي. أن أكون مثل بقيَّة أغلب نسائك. أعليك، وأهينك في لحظات الصدق، وأكشف للأخريات كلّ خرابك، أن أفهمك قليلاً لكنِّي تعبت من كلّ هذا يا لوط، حتى من كلمة صبورة التي أسمعها في كلّ مكان. تخطَّيت كلّ قدراتي على التعب، لم أحسّ بأيّ شيء. لهذا، كثيرًا ما أشعر ببعض الراحة التي تفتقدها الأخريات. لا أدري ما الذي ساعدني على ذلك. ربَّما فداحة ما حدث. هل جرَّبتَ أن تخونك امرأة تحبّها؟ لو تبلع جرعة واحدة من ذلك كلَّما انتابتك رغبة في الزواج أو الخيانة، لعدلتَ عن كلّ ما فعلته. لهذا، كان عليّ أن أُدافع عن وجودي برمي كلّ شيء ورائي. لا لشيء، فقط لأستمرّ في هذه الحياة، لا كما أريد، فهذا انتهى منذ الأيَّام الأولى من زواجنا، ولكن مثلما تريده الأقدار المتدحرجة من الأعالي.

كلّ ما جاء لاحقًا منك، كان مجرَّد حلقات متتابعة ومتكرِّرة.

أما زلتَ تتذكَّر يا لوط؟

كان المساء وكنَّا نشرب القهوة على السطح، طوابق البيت كانت

مثلما ورثها والدك، بعد الثورة، من مستعمر أصله نورمنديّ. بعد الاستقلال مباشرة، عاد المجاهدون إلى أرضهم وذويهم. بعضهم ظلّ في فرحة الانتصار حتى مات فقيرًا وهو لا يعرف أنَّ أصدقاء السلاح والنار أكلوا البلاد كلّها، وخانوا الحلم الذي وعدوا به من دفنوهم في الليالي المظلمة، وتلطَّخت ألبستهم العسكريَّة بدمائهم. آخرون، والدك منهم، كان ضابطًا ذكيًّا وعرف أنَّ الفرنسيِّين سيغادرون قريبًا ولن يطول مقامهم. وستُخترق كلّ معاهدات السلام كما هو التقليد، وسيجدون أنفسهم أمام الخروج أو التابوت، وعليه أن يستعدّ لاحتلال أمكنتهم. واختار أجمل ثلاث فِلل، واقتحمها، منها هذه. حكيتَ لي كيف كان أثاثها الجميل والأنيق، والصور الرائعة التي كانت تملأ الحائط، والبيانو الذي يحتلّ جزءًا مظلّلاً في الصالة، يعبق برائحة الخشب القديم. حتى إنّك كنتَ تتساءلُ أحيانًا إذا كانت هذه المدينة هي نفسها التي استلمها الورثاء الجدد، من أبناء جلدتك.

ومن ذلك اليوم، وأنت تتحوَّل بتحوُّل تلك الفيلا التي تركها لك والدك، ليكتفي بواحدة. هي تشبهك في كلّ شيء. جاءتك من العدم. وتحوَّلت بحسب ذهنك. تخيَّل في وقت من الأوقات، تمّ طلاء أعمدتها الرخاميَّة باللون الأصفر استغربتَ، لكنَّك تركتهم يفعلون. عندما انفتحت في وجهك أبواب الله والخير، كان عليك أن تستفيد من ذلك. كنت قد زرتَ فيلّات عديدة، طلبتَ من مهندسك المولع بنموذج غاودي، أن ينقل عصارة جنونه، فغاودي كان خارج أيّ نظام أو اصطفاف فنّيّ. لكنْ بعد مدَّة، هدَّمتَ كلّ شيء وعوَّضته بشيء آخر أقرب إلى تاريخ جدِّك. البيوت لا تشبهنا فقط. هي نحن.

رأيت كلّ شيء يتغيَّر أمام عينيَّ، ولم أقل شيئًا. أنت كنتَ تحت ضغط جاذبيّات أخرى، وأنا بدأت أدخل بئر الصمت.

في هذه، أشهد أنَّي كنتُ غبيَّة قليلاً

كنت مثقلة بحَمْلي الأوَّل، بشير، عندما فاتحتني في الموضوع، وفرحتُ مثل طفلة صغيرة. قلتَ لي، وأنت تداعب خصلات شعري التي لم يبق منها اليوم الشيء الكثير *آن الأوان حبيبتي لأن ترتاحي. طلبت لك خادمة، تساعدك وتقف بجانبك حتى يفكّ الله كربتك. الولادة امتحان قاسٍ لصبر الجسد، وليس لعب أطفال، بعض الأجساد تستسلم وأخرى تقاوم. دلُّوني على خادمة شابَّة، في مقتبل العمر. فقيرة جدًّا، لكنَّ قلبها كبير وغير طمّاعة*. سألتك بعفويَّة صبيَّة تأخذ كلّ شيء في مستواه الأوَّل: *كيف تعرَّفت عليها*؟ ذكّرتني من جديد. *ألم أقل لك دلُّوني عليها لم أفعل شيئًا للبحث عنها، كانت هبة من الله. نظيفة وعقلها كبير فضل الإمام الشيخ نور الدين، كان كبيرًا* شعرت بوخز في قلبي. تقيَّأت وشعرت بقلبي يغادرني. تمتمت كلمات خرجت ثقيلة من أعماقي. *مهما كانت قيمة هذه البنت، يكفي أنَّها جاءت من طرف الإمام لأتطيَّر منها* أحسستَ بغضبي وحزني. لا أدري إذا كنتَ قد خفتَ عليّ أم على ما كان في بطني. قلتَ وأنت تحاول أن تسترضيني: *أعرف أنَّكِ غاضبة منّي، لكنّي فكَّرت في راحتك فقط*. ثم *هو رجل متفقّه. تصرَّف كما يتصرَّف أيُّ إمام*. حتى مساعده الشيخ *زكريَّا أيَّد الاقتراح*. هو *خرّيج المعاهد الإسلاميَّة الكبيرة*. لم أقتنع بكلِّ ما قلتَه لي، لكنّي مع ذلك، قلتُ: قد يكون إمامًا سيِّئًا، لكن خياره قد يكون طيِّبا لا أعرف كيف تسارعت الأحداث إلى يوم تخطَّت مباركة عتبة الباب. كان وجهها طفوليًّا. ملاك أوقظ من عزّ نومه، ليشرب حليبًا ثم ينام. سلّمتْ على رأسي. حسّستني أنَّي كنتُ في سنّ جدَّتها قلتَ لي وأنت تقدِّمها لي، *هي خاتمك، دوّريه كما تشائين. في خدمتك من اليوم. أأمريها كما تريدين*. وضعتها في رتبة

ابنتي من اللحظة الأولى. كانت جميلة. وكلَّما لبست قصيرًا أو ضيِّقًا بانت معالم جسدها المغري. صغيرة كانت، لكنَّها شهيَّة. وتلبس. جسد منحوت كتمثال رومانيّ، على الرَّغم من أنَّها لم تكن لتعطي لجسدها أيَّة قيمة. ربَّما أنَّها لم تكن تدري ما كانت تملكه. عندما رافقتني إلى الحمَّام لأوَّل مرَّة، أدركت كم أنَّ الله منحها من أنفاسه وجماله. لم تكن امرأة، كانت رسمًا. الذي استغربته ليس هي، ولكنْ الألبسة التي كنتَ تشتريها لها تركض هي صوبك، تأخذها ثم تعود بها وهي على جسدها وتصرخ: *شكرًا يا بابا* تلتصق برقبتك مثل طفلة محرومة من أيِّ حنان. لم يكن ذلك يُثير غيرتي كثيرًا لكن، بعد كلّ الذي حدث، هل تستطيع أن تقول لي لماذا تلك الألبسة التي كنتَ تشتريها لها، وتختار الأكثر غواية وإغراء وضيقًا؟ كلّها كانت تجعلها، عندما تلبسها، إلٰهة. الأيَّام الثلاثة التي قضيتها في الكلينيك للولادة، كانت كافية لقلب كلّ شيء ورائي. نحن في مدينة أهمّ أسرارها هي أنَّها لا سرّ فيها. وصلني الخبر وأنا في يوم نفاسي الثالث. سقط على رأسي كشفرة مقصلة، باردًا وقاسيًا احتلَّني الصمت. لم أجد أيَّة رغبة للعودة إلى البيت. كنتَ كلَّما زرتَني، وجدتني غارقة في سيل من الدموع. تلحّ أن أبقى، وكنت ألحّ على أن أغادر. فجأة، جاء التصريح من عندك هذه المرَّة، لتخرجني من خوفي وصمتي. *اسمعي يا كبيرة، البنت صغيرة وجميلة، وأنا الشيطان لعب بي، ولكنَّها هي من اعتدى عليّ. وصار واش صار. كنت أظنّ أنَّ المسألة بسيطة. لكنَّ الإمام ظلَّ يلحّ يجب ستر الفضيحة. قال أعرف أنَّها من اعتدى عليك، لكنَّ الستر مليح، طبعًا ليس الشيخ نور الدين، الذي لا تحبِّينه، لكن الإمام زكريَّا، شابّ أكثر اطّلاعًا على المدارس الإسلاميَّة الحديثة.* أغمضت عينيَّ كي لا أُصاب بالعمى نهائيًا. أحسست بالأرض تنسحب

من تحت قدميّ. حاولت أنَّ أسترجع أيّ شيء جميل، الحيوانات، الأشجار، أهلي، إخوتي. لم أستطع. خرجت من فمي كلمة واحدة: خذني *إلى بيتي من فضلك*. لم تتساءل، ربَّما أدركتَ لحظتها كم كان قاسيًا عليّ أن أقبل بما حدث وكأنَّ شيئًا لم يكن. كدتُ أن أضحك بشكل هيستيريّ. *في ماذا يهمّني أن يكون قد بارك اعتداءك وزناك، نور الدين أو زكريّا؟*

كنت في غرفتي عندما دقّ زكريًّا ليطمئنّ عليّ ويبارك لي المولود الجديد. كان برفقتك. قال وهو يحمحم بصوت صدئ. *بارك الله لكما فيه*. فجأة قمتُ من مكاني في حالة هيستيريا، لا أدري كيف حدث ذلك. قبضت عليه من عنقه وسحبته نحوي، وأنا لا أدري من أين جاءتني تلك القوَّة. *أنت شفت في بلادنا، امرأة تعتدي على رجل؟* ارتجف وقال: *ليس أنا صاحب الكلام، ولكنَّه قيل على لساني، وأنا بريء منه. هذه طائشة وبنت الطريق. لا تصلح ما أفسده الشيطان*. لا أدري من أين أتتني كلّ تلك القوَّة: *ألستَ أنت من يشيع أنَّها اعتدت عليه، وأنَّها لم تكن أصلاً عذراء؟ نحبّ نفهم. بربّك، قل لي كيف تعتدي عليه وهو كما الحيط؟* لولا تدخّلك وأنت تعتذر له لما فلت حيًّا من جنوني. كانت أعصابي مقهورة. زكريًّا مجرَّد شيء في يدك لا أكثر لن يعضّك. اتَّضح لاحقًا، بعد الفحص الطبّي، أنَّها كانت عذراء واغتُصبت.

كلّ الذين تسند عليهم ظهرك من عساكر ورجال مال وحكَّام، من الذين تعرفهم، نصحوك بستر هذا الهتك بالزواج منها، ولو بالفاتحة، حتى يصبح نكاحك خارج فعل الزنا كنتُ متألِّمة منها وحزينة عليها. فجأة، كبرت مباركة وأصبحت سيِّدة. خسرت ملامح الطفولة كلّها. أصبحتُ أنا من تتعاطف معها، وتتمنّى لها خروجًا سريعًا من هذه الكربة.

يا الله؟ عندما أرجع إلى ذلك الزمن، أتساءل كيف بقيت واقفة على رجليَّ، ولم أصبْ بالجنون؟

لا أدري هل كانت مباركة صادقة فيما فعلتْه، لكن، منذ أن اتَّضح أنَّها حامل من عمليَّة الاعتداء، لم يعد هناك ما يمنعك من اغتصابها كلّ ليلة. بينما كنت في حالة نزيف دائم. لم أطلب منك شيئًا، لكنَّك وعدتني بأنَّك ستصحِّح الخطأ، بطردها بمجرَّد الوضع. لم يكن يعنيني بقاؤها أو ذهابها. عندما يتمّ هتك أرقّ شيء فيك، يصبح من الصعب ترقيعه. اعتداؤك عليها كان كافيًا لأن يوسّع في المسافة، بل الهوَّة التي كانت تفصلني عنك.

هل تعرف يا لوط ما معنى الإحساس الذي تشعر به امرأة في عنق رجل، وهي تنام على صراخ زوجته الشابَّة في الغرفة المجاورة، وهي تصرخ، في سقف جنون لذَّتها؟ أحيانًا أقول من حقِّها، فهي شابَّة وهذه حياتها؛ وفي أحيان أخرى، أحقد عليها وأحمِّلها جزءًا من مسؤوليَّة ما حدث، لدرجة ينتابني شكّ: ألم تفعل ذلك بنيَّة مسبقة ومبيَّتة؟ لماذا لم توقفك؟ لماذا تواصل النوم في حضنك كلّ ليلة وكأنَّ شيئًا لم يكن؟ لماذا تركت شيطان اللذَّة يأسرها؟ لماذا كانت تناديك يا بابا؟ في عمق جحيم الشكوك القاسية. لكنِّي عندما أتعقَّل، أحقد عليك وحدك. يحدث لي أن أستكثر فيك الحقد نفسه.

ذات مساء، جئتني وأنت تفرك يديك كمن حقَّق انتصارًا عظيمًا. *بمجرَّد الولادة تذهب وتتركنا نعيش معًا، ونستعيد ثقتنا التي سرقتها منّا* لم يكن يعنيني ما فعلته. كنتَ بعيدًا، ولم أكن في مرمى بصرك.

ظلَّت مباركة طوال الأشهر التسعة، بين حافَّتين، الزوجة الشرعيَّة، والخطيئة المعلنة. استمرَّت على هذه الوضعيَّة حتى يوم الإنجاب. حضّرت الاسم وكأنَّ شيئًا لم يكن. تخيّل؟ ساعدتها حتى في خياطة

وشراء الألبسة، لأنَّ كلّ النساء اللواتي فحصنها أكَّدن لها بأنَّها حامل بصبيَّة، اختارت لها اسم أمّها، زهرة. لكنَّ الله أراد أن لا تفرح بها فماتت قبل أن تشبع منها نفرت صدرها حتى جفّ جسد زهرة وتحوَّل إلى شيء شبيه بالحطبة اليابسة. *هكذا شاء لها أن تكون*. لكنَّ مباركة كانت عندما تُصاب بحالة شبيهة بالجنون، تتّهم الجميع بالوقوف وراء الجريمة والتستُّر عليها بعد دفن المولودة، ظلَّت تزورها معك في مقبرة المدينة. هي صاحبة الشاهدة. وضعتها لها يوم دفنتها *هنا تنام قرَّة العين التي عاشت ثلاثة أيَّام، الملاك* زهرة بنت *لوط ومباركة، رحمها الله وأسكنها* فسيح جنانه. تقف على قبرها ساعات طويلة. تبكي بصمت وتنظر إليّ بعين حذرة، كلَّما التفتت نحوي. كنت تَنهرها وتمنعها من البكاء، لأنَّه بحسب الإمام زكريَّا، البكاء فعل مشين، يدخل في المحرَّمات الكبيرة.

كانت، كلَّما خرجتَ من البيت، تبعتك، حتى شككت أنَّ لها عشيقًا في مكان ما جاءتني ذات مرَّة. جلست بجانبي. قبّلت يدي. أحسست بدمعة نزلت منها ساخنة على بشرتي: يا لالَّة، *أنت امرأة كبيرة بحقّ. كلّ اعتذاراتي لا تساوي الشيء الكثير أمام آلامك. ليس لديَّ ما أقوله. هذا الرجل لا يستحقّك. ربّما كنتُ أوسخ منه، لكنَّك أكبر منّا جميعًا لو امرأة أخرى كانت في مكانك، لتركتني أنزف يوم الولادة حتى الموت. لم أكن إلَّا أنا وأنتِ. أنا لا أخرج بحثًا عن الرجال، كما يمكن أن يتصوَّر كلّ من يراني أغادر البيت مباشرة بعد خروج لوط. أبحث عن عمل فقط لكي لا أكون عالة على خالتي. الحمد لله، وجدت ما يحفظ كرامتي. سأغادر هذه العتبة ولن أتخطَّاها ثانية. الله يعينك على رجل تجرَّأ على قتل ابنته في المستشفى فقط ليمحو آثار الجريمة. أنا متأكِّدة من ذلك*. أدهشتني مباركة يومها بصفاء

ذهنها. لا أدري! لأوَّل مرَّة أصدِّقها

غادرت البيت ولم تعد إلَّا بعد شهور برفقة محامٍ لترتيب أمورها وحقوقها علِمتُ لاحقًا أنَّها اشتغلت بأحد حمَّامات حيّ الشِّيرَا الفقيرة، قبل أن تلتحق بمستشفى منارة سيتي المركزيّ، كممرِّضة. وجدت مكانًا يحميها من الذلّ.

لا أدري، لا كيف ولا لماذا؟ فقد تركت مباركة فراغًا كبيرًا فيّ، لا أعرف كيف أسمِّيه. ثم سألتك مرارًا: ماذا كنتَ ستفعل لو كانت مباركة ابنتك؟ لم تجد من انتقام مرّ وأعمى سوى تطليقها بحجَّة أنَّها كانت تخرج بدون إذن منك.

كنت ألتقي بها من حين لآخر في الحمَّام التركي، وتخبرني أنَّ كلّ ما حدث هو لعبة وسخة، المنتصر فيها حائط الصدّ البارد الذي كان يطوِّقك. غيَّرت حديثها عن موت ابنتها. تصرّ أنَّها موجودة في مكان ما في المدينة. تؤكِّد على ذلك لدرجة أنَّها جرحت قلبي، وتعاطفت معها على الرَّغم من يقيني أنَّها كانت وقتها تعيش حالة انفصام كلِّي. أو هذا ما ظننته أنا على الأقلّ. حكَّت ظهري وغسلتني طويلاً حتى أحسست أنَّها لم تكن تغسلني، لكنَّها كانت في حالة اندماج مع أحاسيسي العميقة، لدرجة أن أنستني كلّ حقدي ضدَّها ثم أعطتني ظهرها وبشرتها الناعمة مثل الحرير: *يدك حنيِّنة كما يديّ يمّا، يا لالَّة كبيرة. تفادت أسئلتي عن قصَّة مقتل ابنتها لم تجبني. عندما ألححت عليها يا يمّا كبيرة. القصَّة أطول وأكثر قسوة. لست بخير. أنت أمِّي.* قلت لها: *احمدي الله يا أختي. أخذ ما أعطى. ابنتك ملاك في الجنَّة.* صرختْ في وجهي بطريقة لم أعهدها فيها حتى في عزّ الاختلاف. *أنت أيضًا يا لالَّة كبيرة؟ ابنتي لم تمت.* زهرة حيَّة. عندما حككت على رأسها. نزعت يدي بلطف وهي تلحّ. *ابنتي لم*

تمت يا لالّة كبيرة. ابنتي في مكان ما على وجه هذه الأرض، لا أعلم أين! لكنَّها على بعد نَفَسٍ منّي. أشمّ رائحتها

لا أدري كيف سألتك في مرَّة من المرَّات عن زهرة. تمنَّيت أن تمنحني ما يريحني فقط. قلتَ كما عادتك التي لا تتغيَّر أبدًا *مباركة مريضة. ترى زهرة في كلّ مكان.* مجنونة. *تظنّ أنَّ ابنتها التي ماتت بعد الولادة، في اليوم الثالث، ما تزال حيَّة.* ولمَّا ألححت عليك وقلتُ لك: رأيتها بخير، وابنتها بصحَّة جيِّدة، حتى ولو رفضت الرضاعة. صرختَ في وجهي وكأنَّ قنبلة انفجرت بيننا زهرة *ماتت يا كبيرة. ماتت رحمها الله. لست قاسيًا إلى هذه الدرجة، وإلّا لما بنيت لها قبرًا أزوره برفقة أمِّها أو بدونها، ومعك أحيانًا* هي *ابنتي في النهاية. لم نضيِّع موسمًا دينيًا واحدًا، إلّا وكنّا حاضرين.*

ـ إنّك الوحيد الذي يعرف الحقيقة وأسرارها لا أدري كيف تواجه ما ينتظرك عندما تقف أمام زهرة؟

الألسنة مزَّقتها وأعطت كلّ الحقّ لك: كيف لرجل كبير مثل كازانوڤا أن يصبح تحت رحمة خادمة فقدت عقلها؟ أفعى سترها قبل أن تلدغه؟ كلّ الناس يتّهمونها بالجنون، والذين يعرفونها يقولون عكس ذلك. حتى إنّ هناك من يقول إنَّها تذهب إلى المقابر بعد كلّ جنازة لتأخذ من المقبرة ما يسهل سحرها. لكنَّها تنفي ذلك. حتى كابي، كلَّما سألته عنها يُجيب بلا تردُّد ولا إساءة، على العكس من الآخرين، *هاذيك المهبولة اتركوها لحالها من الأفضل أن لا تثقلوا عليها فقدت ابنتها* يؤكّد أنّه يراها يوميًا *تراقب البنات وهنّ يتّجهن إلى مدرسة الحيّ في الشِّيرَا* وتمتم: شوف يا عكاشة. شوف مليح. لو *كانت زهرة حيَّة، لكانت الآن في المدرسة، لكنَّهم* سرقوها منّي. قل *لي يا* عكاشة *وليدي إنَّها لم تمت، وإنّني* لست مجنونة. *أجيبها* لا

أبدًا زهرة لم تمت، وأنت لست مجنونة. فتشعر براحة داخليَّة، وسعادة كبيرة.

ماذا آخذ من هذا البركان الرماديّ، وماذا أترك؟

لن أثقل عليك. أنا أيضًا أشعر بتعب كبير يا لوط، وفي حاجة ماسَّة إلى من يسمع براكيني العميقة وهي تشتعل في داخلي. في حاجة إلى من يمدّ لي ذراعيه ويدعوني إلى صدره ببراءة طفلة، لم يُكتب لها أن تفرح كما كلّ البنات في سنِّها، ويقول لي: *ميما كبيرة نامي قليلاً، فأنت متعبة. عيناك مرهقتان، ونظراتك منطفئة. ارتاحي ولا تفكِّري في أيّ شيء.*

انتهت دورة حياتنا في وقت مبكِّر، لتبدأ دورة أخرى. الحفاظ على *الدار* الكبيرة من الانفجار، والأولاد.

كلّ أعراسك اللاحقة وضعتني في منأى عن الغضب. أصبحتُ بلا إحساس. حاولت أن أنسى كلّ شيء. الجرح عندما يتَّسع يصبح غير مؤلم. جرحي اتَّسع بفعل التكرار، فبدَّد كلّ خوف فيّ.

أنت تغفو الآن؟ ربَّما هي غفوة من يريد أن يرتاح من كلّ ما سمعه؟

أنا متعبة يا سيِّدي لوط، أكثر منك، ولا أبحث عن شيء آخر سوى الرغبة في النوم. بي نزف داخليّ ثقيل، يهدر مثل الوديان، وأشعرني مفرغة من كلّ شيء فجأة، منك، من محيطك، وحتى منّي.

حقيقة، لا أريد شيئًا، سوى أن أنام قليلاً، وعندما أستيقظ أجد ذاكرتي بيضاء كغيمة.

بيضاء كَلَاشيء.

كالموت.

ـ ٢ ـ مبَارْكَة

فَرَاشَةُ فِينُوسْ فِي مَطْهَرِ الأَمْوَاتِ

هل هذا هو أنتَ يا سي لوط، الملقَّب في الأوساط الاجتماعيَّة بكازانوڤا؟ أكاد لا أصدِّق. كم تبدو بعيدًا وكم أبدو غريبة! لا تتعب نفسك، فأنت الآن لا تستطيع فعل أيّ شيء؟ لقد هزلت؟ أكاد لا أصدِّق أنَّ الرجل الذي ينام ليس بعيدًا عنّي، هو الوحش الذي اغتصبني، وادّعى بجبن أنّي أنا من اغتصبته؟

هزَّت مباركة رأسها غير مصدِّقة وهي تتوغّل في أعماقها، وتحاول أن تطرد الصورة التي رأتها عندما تخطّتْ عتبة الصالة الأندلسيَّة. قادها مسعود ليجلسها على الكرسيّ قبالة كازانوڤا، في صمت جنائزيّ. لم يقل ولا كلمة باستثناء التعليمات التي أصدرها الإمام زكريًّا نفس ما فعل مع لالَّة كبيرة، كأنَّه يدير عملاً مسرحيًّا، عليه أن يضع كلّ واحد في مكانه الطبيعيّ الذي يوافق دوره، وفق خطَّة مسبقة لا مكان فيها للصدفة.

أغمضت مباركة عينيها، لكي تنسى المشهد الذي صدمها أوَّل

مرَّة. لم تتصوَّره بكلِّ هذا الهزال، وهذا الانهيار الجسديّ. لم يكن أكثر من ظِلّ رجل، في حالة انطفاء كلِّيّ. ميّتٌ على سرير النهاية، ينظر بعينين منهكتين مذعورتين، إلى الموت الذي كان يتجوَّل داخل الصالة وكأنَّه مالك كلّ هذه المساحات الواسعة. حتى رائحته لم تترك مكانًا لغيره. كانت تريد أن تنسى المشهد مهما كان اختلافها معه، لتقارع وحشًا ضاريًا، نزع ألبستها الخارجيَّة ومزّق الداخليَّة بعنف جرح جسدها، رجلاً أنيقًا وجميلاً، وحيًّا، لا جثَّة ملتصقة بسرير طبّيّ، تنتظر فقط من ينزع روحها

حاولت عبثًا أن تطرد كلّ ما رأته وهدّ من رغبتها في الانتقام، وهي تقطع المسافة بين الباب وكرسيِّها، وهو ينظر إليها بعينين احتلَّهما بياض مخيف يشبه البله والفراغ، لا تعرف إذا كان خائفًا منها، أم ينتظرها

فجأة، سمعت أخيرًا نقرات الأمطار التي لم تكن تسقط على الأسطح، ولكن في رأسها.

أغمضت عينيها قليلاً، ثم فتحتهما متمنِّية أن ترى كائنًا آخر فتحتهما بهدوء على الأجزاء كلّها، قطعة قطعة، لكن لا شيء تغيَّر. رائحة الموت نفسها التي تدفع إلى الرغبة في التقيُّؤ. تمتمت في أعماقها. جاء صوتها مثل هبَّة ريح بَحْريَّة كَنَسَتْ قليلاً عفن الموت الذي كان يحتلّ زوايا الصالة وكأنَّه يلعب لعبة الغمِّيضة مع جسد كازانوڤا

كازانوووڤاااا. هل عرفتني؟ أنااااااا؟ لا يهمّ. لو فقط تعلم كم أنَّ حظَّك كبير. لم أعد الآن معنيَّة بموتك، فأنت تموت من تلقاء نفسك. يااااااه وبأيَّة صورة. التاااااكل. أبشع موت ذاك الذي يأتي بالتقسيط. التآكل.

لقد تغيَّرت كثيرًا لم يعد شيء فيك يخيف.

خرجت الكلمات من أعماقها بصعوبة. لم تسمعها إلَّا هي.

لا شيء يُخيف مباركة اليوم. تساءلتْ إذا كان هو نفسه الرجل الذي كان كلَّما رفع صوته، وضعت رأسها بين يديها، لأنَّها تُدرك سلفًا أنَّ الضربة تتلو الصرخة بسرعة، ثم الشتيمة الثقيلة التي تمسّها وتمسّ أهلها. الضربة الجافَّة للرأس التي تورث دوارًا يكاد يُسقطها أرضًا. لأوَّل مرَّة في حياتها لم تشعر بذلك الخوف القديم. لم تصدِّق أنَّ الكائن الملتصق بالسرير هو نفسه كازانوفا، الذي كان كلَّما تكلَّم، ارتعشت رجلاها، قبل أن تتمكن من أن تسيطر على جسدها وهي تردِّد: *أسمعك يا سيِّدي. إنِّي أسمعك*. حدث لها، يوم أخبرته بحملها، شهرين بعد الاغتصاب. ضربها حتى تقيَّأت، وأحسّت أنَّ جسدها سيتخلَّى عنها: *يا قحبة منارة سيتي، وصلنا حتى هذا الدرك؟ جئتِ به من الشارع وأردت أن تلصقيه بي؟ سأخضعك لكلِّ الفحوصات، وإذا لم يكن من صلبي، سأقتلك وأقتله في المستشفى. سأنزعه من رحمك بسكِّينتي هذه*. لولا تدخُّل لالَّة كبيرة يومها، بكلِّ ما أوتيت من قوَّة، لكان قد قتلها ركلاً وضربًا لو لم تخف من تهم المجتمع وثقل ما كانت تحمله في بطنها، لرجعت عند خالتها بلا تردُّد، وعملت زبَّالة أو أيَّة مهنة، ولا تعود له أبدًا

هل يمكن أن يُنسى هذا كلّه بلمسة رحمة؟

مع من أتحدَّث الآن؟ مع بقايا رجل أشكّ في أنَّه يسمعني، مع رائحة الموت؟ أم مع نفسي؟

رفعت مباركة رأسها قليلاً من مكانها، من الكرسيّ المواجه له. شمَّت رائحة هي خليط بين الكافور الذي يوضع عادة على جسد

الأموات بعد غسلهم بورق السدر، وبشيء من ماء الزهر. اخترق أذنيها صفير صدره الحادّ، كما في صغرها، حيث كانت تلتصق بجسد أمِّها العاري لتسخينها من نزلة البرد القويَّة التي كانت تنتابها كلَّما خافت، فتحرق صدرها ويصعب تنفّسها لاحظت تعمّق محجري العينين وسوادهما، ووجهه الذي فقد لونه وأصبح بلون حجر الوديان. كانت بعيدة عنه، ومع ذلك شعرت بخوف من أن يمدّ يده نحوها، بينما ظلَّ هو شاخصًا في الفراغ، غير آبه بما كان يدور من حوله أو في داخلها

تشجَّعت قليلاً *هي هنا للحديث معه، وإلَّا لماذا جاءت؟* تمتمت بشكل متقطِّع.

ـ لوط؟ لا يبدو عليك أنَّك تتذكَّرني؟ ربَّما تكون قد نسيتني يا سيِّدي؟ أنا مباركة. مباركة الخادمة، البائسة التي جاءت بها صدفة مجنونة إلى بيتك. اليتم والفقر قاسيان. مذلَّان.

لا تُجيب حتى بحركة عينيك؟ ربَّما كنتَ تفضِّل الاستماع فقط. سأجعلك تتكلَّم حبيبي. يجب أن تتكلّم.

كان الشتاء قاسيًا. وكنتُ منهكة من الناس ومن توحُّشك. أن تكون المرأة جميلة في بلادنا، عليها أن تخضع لعمليَّتين قيصريَّتين: إمّا أن تتحوَّل إلى قحبة لمن يحميها، أو تلعب كما تلعب كلّ بنات جيلها في أرض ناشفة من أيّ حياة، حتى يأتيها الله بزوج، عليها أن تثبت له أنَّه أوَّل رجل في حياتها، وأنَّ جسدها انفتح عليه، وتحذر من أيَّة قبلة جميلة وطويلة وحقيقيَّة تأتي من أعماقها، حتى لا يجرحها السؤال القاسي: *كيف تعلَّمتِ التقبيل*؟ لم أكن أريد لا هذا ولا ذاك. لم أتخلّص بعد من طفولتي. كنتُ أبحث فقط عن عمل يحمي خالتي ويحميني.

رآني إمامك زكريًّا أوّل مرَّة حينما جاء يرقي للبيت المسكون في تصوُّره، ولخالتي شامة التي كانت تنتابها الشكوك في أنَّ جارتها الحسودة وضعت لها سحرًا، جعلها تكره بيتها وناسها وكلّ ما يحيط بها، بمن فيهم أنا عرفَ معتوهك قصَّتي كلّها من خالتي، من كثرة أسئلته، حتى إنَّه أدهش خالتي بحديثه عن تفاصيل العائلة التي ذكرتها له بدون دراية منها عندما خرج، قالت لي *واش به هذا المخلوق؟ ابن آدم وإلّا جنّيّ؟ ربَّما يريد أن يلحقك ببيته لتكوني زوجته الرابعة؟ والله يعلم كم يملك من امرأة في الخفاء؟ إمام غريب. عيناه ملعونتان. يملك حديقة من النساء. الأخيرة صغيرة، لكنَّها لا تأبه به. بدل أن يرقيها من زوجها المتسلِّط، رقيها لتصبح له، فتحرَّرت من كلّ شيء، حتى منه. الثانية ماتت بالغمّة والقنطة. والأولى مرضت طويلاً قبل أن ينتهي بها الأمر إلى الجنون.* صرختُ في وجهها يومها، لأوّل مرَّة، *كلّ شيء إلَّا إمامًا مريضًا وزير نساء.* كنت خوَّافة وما زلت. *لا نصلح لبعض، أنا في سنِّ ابنته وهو في سنِّ والدي. لو يقربني أقتل نفسي.* لهذا، عندما أخبر خالتي لاحقًا أنَّه وجد لي مكانًا يسترني طول عمري، إن كنت مخلصة له وللبيت الذي سأقيم فيه، رفضت في البداية، لكنَّ خالتي لامتني وعنّفتني طويلاً *شفت عقليَّة السوء التي تستبق كلّ شيء. الرجل أظهر نيَّة طيِّبة كبيرة، قلّ ما نجدها اليوم عند غيره.*

ـ أنتَ طبعًا لا تعرف هذه التفاصيل، لأنَّك لم تسألني يومًا عنها، ربَّما لأنَّها ليست مهمَّة بالنسبة لك، أو لم تجد لها وقتًا مرَّة أخرى أسألك: هل تذكَّرتني يا سيِّدي؟ هل تريدني للحديث معك؟ لا أعتقد. أنا فرضت نفسي على إمامك بالقوَّة. طلبتَ ساراي المتزوِّجة في آخر الدنيا، ولم تطلبني. أنا التي تموت كلّ يوم في مستشفى، غسّالة

الأموات، كلّ من دخله لا يعود إلى ذويه. كان واجبًا عليك أن تبادر بدعوتي أوّلاً، لأنَّك السبب الرئيسيّ في كلّ ما حلّ بي. ألم تأخذ كلّ شيء من جسدي؟ ألم تحوّلني إلى قحبة في عيون الناس؟ ثم إلى قاتلة؟ حتى لحمي أخذته منّي ورميتَه في الزبالة أو في دور الأيتام؟

قد لا يهمّك. لم آتِ للانتقام منك. لا رغبة لي في ذلك.

جئت أُسمِعك اشتعال نار حرائقي فقط، وأضع حفنة الرماد التي هي أنا، في كفِّك، لترى عن قرب ماذا فعلتَ بي. أنا مباركة يا سيِّدي، التي. دعني أخفِّف عنك ثقل الكلمات، التي ربَّما قد لا تحبّ سماعها، وأنت الرجل الغنيّ، الذي لا ينقصه أيّ شيء. حتى الجنس يمكنه أن يشتريه في كلّ لحظة. لنقل، بشكل مخفّف، إنّي المرأة التي حاولتَ أن تنام معها بالقوَّة. وأنت تعرف يا سيِّدي، أو لا تعرف، لا أدري! لأنَّك تعوَّدت على الحصول على كلّ ما تريده بالقوَّة، والقوَّة وحدها ربَّما لو تمهَّلت قليلاً وتفهَّمت أنَّي بني آدم، كان يمكنك أن تحصل على ما تريده بشيء من الحبِّ والصبر، لكن هياجك كثور، لم يمهلك. يقينك بأنَّك ربّ صغير، لا يُرفض لك طلب، زاد من شهوة الغطرسة. الحيوان الذي فيك غلبك وانتصر على صبرك. لكنَّك أنت من أيقظ الحيوان نفسه فيّ. حيوان الضغينة من أشباهك والانتقام بلا تردُّد. ببساطة، جعلت منّي قاتلة بلا رحمة.

كان يمكن أنَّ أظلّ امرأة بسيطة يا سيِّدي. غارقة حتى عنقها في مسلسلات الجريمة، تستلذّ بها وبأبطالها وبذكريات جسد أمِّها الساخن الذي كان يُعيدها إلى الحياة كلَّما علت حرارتها وتحلم كلَّما بقيت لحظات في خلوة مع نفسها، وتنظر إلى جسدها الذي كانت تحبّه. كلَّما استدار، شعرت برغبة ما تنبت فيها لكنّني لم أكن في بيتك، حتى عندما تزوّجتني، مجرَّد خادمة غير محسوبة في الاعتبارات

الخاصَّة. استغربتَ عندما طلبتَ منّي ملفًّا عن أسراري وحديقتي الخفيَّة، حينما قلت لك بعفويَّة طفلة، وربَّما أيضًا كامرأة جريحة: *أوّل جسد لامسني، جسدك. لم أعرف رجلاً واحدًا في حياتي. لم أعرف الشهوة، إلَّا شهوة أصابعي ويدي، عندما ينتابني فيضان الرغبة. الرجل الوحيد الذي اشتهيته كان جارنا حميد، في الزاوية الخلفيَّة من المدينة بحيّ الشِّيرَا* حيّ صعب جدًّا، إذا نجوت فيه من كلمة قحبة، لا أنجو من بيّاعي الكيفْ الذين إمَّا تشتري من عندهم صفيحة الالشيرَا وأنت لا تعرف بأيَّة مادَّة عُجنت، أو تتفحّصك عيونهم الدامية بعنف، ولا تقول شيئًا لأنّك ابنة الحيّ. اللي يحبّ، يجد له لحظة هرب في غيمة الدهشة، أو يعيش ليلة بين الأرض والسماء. أو من يريد أن ينتفي أسبوعًا خارج دائرة البشر، عليه أن يأتي إلى حيّ الشِّيرَا. لا يوجد في حيّ الشِّيرَا أيّ اسم من أسماء شوارعكم وأحيائكم الراقية: حيّ مدام لاكونتس Madame la Contesse الذي أصبح بعد استقلال البلاد، حيّ الياسمين الذي شيَّده وبناه المعمِّرون في وقت هيمنتهم؛ حيّ المنظر الجميل Jolie-Vue الذي كان يطلّ من الأعالي على البحر؛ حيّ الأميرة La Princesse الذي كانت تتنافس فيه الأوروبيَّات على استعراض آخر ألبستهنَّ الغالية، وغيرها من الأحياء الأخرى. في الشِّيرَا الأمر يختلف. نجد مثلاً: درب الأفعى، زنقة الحمير، نهج المعدومين، شارع الخلايا النائمة. من الأساس لم تكن طرقنا واحدة يا سيِّدي.

كنت ككلّ البنات الفقيرات، لا حقّ لي في رجل، إلَّا إذا تقدَّم لي هو. حفظت كلّ حركات دخول وخروج جارنا حميد. أعرفها بالساعة والدقيقة والثانية، وقليلاً ما أخطئ. كلَّما سمعت حركات قدميه وخطواته، ركضت نحو الباب، وتتبَّعته من العوينة. مثل

المهبولة. كم من مرَّة فكَّرت في أن أسرقه وأحجزه في البيت، ولا أسمح له بالخروج. أكتِّفه. كلَّما اشتهيته، أعرِّيه وأغرق فيه حتى أمتصّ كلّ قواه. أشبع منه مثل أيّ فتاة في سنّي. لكنِّي كنت أبرِّد عواصفي بقليل من التعقُّل. وفي الليل، عندما أستكين في الفراش وأرتخي، أراه يأتيني بلباقته وتحضُّره، ويعرِّيني كما يفعل سكَّان الأحياء الراقية، في الأفلام والمسلسلات التي كنت مدمنة عليها. عندما حكيت لك القصَّة، لم تصدِّقني وقلتَ لي عندما انتهيت: *العبي مع غيري، لست غبيًّا امرأة جميلة مثلك ومشتعلة، من الصعب عليها أن تحرم نفسها من النوم مع رجل تتحيَّن مروره من وراء العوينة لتتنفَّس عرقه*. مع أنَّك لو جئتني به اليوم، لا أعتقد أنَّي سأتذكَّر وجهه. على كلّ، لستَ الرجل الأوحد الذي يظنّ ما تظنّه. كلّ الرجال يتساوون في شكوكهم. يكادون يكونون نسخة طبق الأصل من بعضهم بعضًا يطلبون منك أسرارك وسجلَّاتك القديمة، وعندما تفضين بها، تصبحين متَّهمة حتى موتك.

ـ لا تشغل بالك. أنا لم آت لتعذيبك، كما قال زكريًّا، إمام الشؤم. *اللي فيك يكفيك*. وهل يحقّ لي أصلاً أن ألومك؟

أنا لست أكثر من تلك المرأة الهاملة يا سيِّدي، التي يبدو أنَّك أكرمتها وأعطيتها قيمة باغتصابها. كان يمكن أن تموت في هذا البيت أو في غيره بدون أن ينتبه لها أحد. لكنْ حدث الذي حدث. كنتَ هائجًا كثور. لآلّة كبيرة كانت في مستشفى التوليد، ارتميت عليَّ بمجرَّد دخولك إلى البيت. لم أفهم ما كنت تفعله بي، ظننتك تلاعبني. لكنِّي أدركت بسرعة أنَّك كنتَ تريد شيئًا آخر. عندما حاولت أن أصرخ، حشوتَ فمي بما وجدته قريبًا منك. ربطة عنقك الحمراء. ثم ألقيت بي أرضًا، وربطت يديّ إلى الوراء وإحدى رجليّ إلى طاولة المطبخ

الثقيلة، ثم أمسكت بكلتا يديك ساقي الثانية، وثبَّتها تحت ذراعك اليسرى. كانت الوضعيَّة قاسية، ويداي ورجلاي، تؤلمني. لم تجد صعوبة كبيرة في نزع ألبستي الصيفيَّة. لباسي الداخليّ الخفيف جدًّا الذي كان يعيقك، مزَّقته. رأيت نارًا دمويَّة تشتعل في عينيك. ثم رأيت عضوك المنتصب الذي أخافني. صرختَ أنت مثل المنتصر ستَرين من هو لوط. *تشتهون، وترفضون، وأعماقكنَّ تغلي من الرغبة. تظنِّين أنّي لم أفهم غمزاتك بلباسك الذي يظهر كلّ الجنون المتخفِّي فيك. سأُريكِ اليوم ماذا يملك رجل مثلي بين فخذيه.* ومع صرختي الكبيرة، غبت، ولم أعرف ماذا حدث لي. عندما استيقظت كنت مفكَّكة. شفتاي منتفختان. نزعت ربطة العنق الحمراء لتخفي الجريمة. وضعت منشفة بين فخذي لكي تمنع دم الاغتصاب من التسرُّب. بقيت للحظات لا أصدِّق، وأقنع نفسي أنَّه مجرَّد كابوس. أحاول أن لا أتذكَّر ما حدث، لكنَّ الدم ورائحة غريبة علقت فجأة بجسدي كانت تذكِّرني بك. حتى عندما تزوّجتني مرغمًا، لم تكن قادرًا على الحصول على الرغبة إلَّا بتكتيفي بالطريقة نفسها، واغتصابي في كلّ الليالي التي تلت يوم التعدّي عليّ. الفرق الوحيد هو أنَّ اغتصاباتك اللاحقة كانت تؤذيني نفسيًّا، لكنَّها لم تحرِّك ساكنًا واحدًا فيّ. أتساءل أيَّة لذَّة شعرتَ بها وأنت تمزِّقني؟ حتى الرغبة التي يمكن أن أكون قد أحسستُها وأنت تحوِّلني، في ثانية، من طفلة مجنونة بالحياة إلى سيِّدة بلا غشاء، اضمحلَّت من شدَّة الرعب من أنَّي فقدتُ بكارتي. الغشاء المضحك الذي يؤكِّد غباوة الأزواج والبلديَّات التي تشترطه كجزء من أمتعة العرس. رجال لا تحرِّكهم في الأعماق تلك البشرة النحيلة التي تشبه جلد غربال، ولكن وجه الذي مرّ من هناك. من فعل هذا؟ من سبقهم إلى جسدك؟ في الحقيقة، لم أبكِ العذريَّة التي هُتِكت فقط، لكنَّ شيئًا

آخر ذهب معها وأحرق قلبي: روحي. هل جرَّبتَ أن يمزِّق أحد روحك ويحوِّلها إلى رماد تكرهه؟

تلك اللحظة أعادتني إلى جسد أمِّي، الذي منذ أن ذهب فقدت الحرارة، وأشعر دومًا بالبرد.

وجدتني وحيدة. حتى وجه لالَّة كبيرة، لم أعد قادرة على النظر فيه. أعرف أنَّها كرهتني، وأنَّها كانت تسمع كلّ شيء بما في ذلك صراخي الذي كانت تظنُّه جنون الذروة، لم تكن أنت لترحم جرحي. كنتَ مصمِّمًا على استهلاكي نهائيًّا قبل أن ترميني على أقرب حافَّة، أو تتخلَّص منِّي برميي في أيَّة مزبلة بعيدة عن بيتك.

عدت إلى عزلتي، أبحث عمَّا ضاع منِّي. رفيقي في الليالي الباردة، شاشة كانت تعكس ما بداخلي، وأخرجت من خلالها كلّ نزعات الجريمة المبطَّنة فيّ. كلَّما دخلتَ، وجدتني غارقة في مسلسل *القتلة*. حتى حان يوم الشؤم. قمت بصعوبة من فراشي في ذلك الفجر البارد. كعادتك ـ متحضِّر جدًّا؟ رافقتني إلى المستشفى لإجراء التحاليل وتقديم ملفّ التوظيف كمساعدة ممرِّضة. كانت لديّ كلّ المؤهِّلات اللَّازمة. أخبرني الطبيب أنِّي كنت حاملاً التحاليل كانت إيجابيَّة. تمنَّيت كلّ شيء إلَّا هذا الحمل، كان جريمة ثانية في حقّ جسدي.

البشر أصبحوا كلّهم مرضى، في مدينة مريضة. كنت أبكي. الطبيب بدل أن يخفِّف عنِّي، ظلَّ يدور حولي ويعبر جسدي، صعودًا ونزولاً بعينيه. كنت مدوَّرة كتفّاحة مليئة بالماء. تمنَّيت حقيقة أن أُدفن في بطنه سكِّينًا. العالم الذي كان من حولي بدا لي تافهًا كلِّيًا، ومجرمًا أيضًا في النهاية، فتح عينيّ على خفاياه الدفينة.

أنتَ سيِّد إرادتك، وكنتُ أنا في عالم لم يكن لي.

رمش كازانوڤا عينيه بتثاقل. حاول أن يرفع رأسه أكثر، لكنَّه لم يستطع.

ـ لا داعي، فلن ترى شيئًا في داخلي. عيناي باردتان في هذا اليوم.

مندهش في وجهي كأنَّك تراني للمرَّة الأولى؟ وكأنِّي أتكلَّم بلغة غير لغتك؟ أو كأنَّ حديثي يبدو لك شديد الغرابة؟ ربَّما كنت أنا من اغتصبتْك؟ أليس هذا تصريحك؟ الرجل الشرقيّ فاشل في كلّ شيء، حتى في فحولة الاعتراف بحماقاته التي لن يقتل عنها يريد الربح في كلّ التفاصيل حتى تلك التي لا تخصُّه، بما في ذلك جسد المرأة. ألم تقل إنِّي اغتصبْتُك؟ لو فقط سألتني؟ ربَّما لعرفتَ أنَّك لم تكن في حاجة لاغتصابي. كان يكفيك أن تُظهر لي قليلاً من الحبِّ فقط. هل أنكر أنَّي اشتهيتك العديد من المرَّات وأنا أراك تغيِّر ألبستك؟ أحيانًا كنت تفعل ذلك أمامي، وأنا في غرفتك كنت أرى الزغب الناعم الذي يتسلّق صدرك. أشمّ عرقك يأتيني من بعيد، من فراشك وقمصانك. أفعل معك ما كنت أفعله مع حميد، من وراء عوينة الباب. أجدني يوميًا منساقة نحوك، لكنِّي كنتُ أمنع نفسي من رغبة ممكنة، وكأنَّ الشهوة أيضًا طبقيَّة وتراتبيَّة. كنتُ يوميًّا أقاومني.

ربَّما كنتُ أعرف بعض جسدك أكثر من لالَّة كبيرة.

كلّ شيء بدأ ذات صيف، وتمدَّدت وراء الكنبة من شدَّة الإنهاك، ونمت. وكانت كبيرة نائمة ليس بعيدًا عنِّي، لكن كان يفصلنا ستار خفيف. رأيتك تدخل. تحرَّكت كلّ حواسِّي. لم تصبر حتى تأخذها لجناحها رأيتك تعرّيها. تمدَّدتَ وراءها. رأيتُك عندما رفعتَ ساقها شعرتُني في مكانها وأنتما تصرخان وتهتزّان بعنف، كنت أنا أيضًا أقتفي خطواتكما على الإيقاع نفسه. شعرت باللذّة نفسها التي شعرتما

بها، وربَّما أكثر خيالاتي كانت جامحة، وبلا سلطان يوقفها. كنت مثل تفَّاحة ناضجة تجاهك، لا أعتقد أنَّك كنت في حاجة لاغتصابي. كنت فقط، سأحذِّرك وأخبرك أنَّي بنت. كنتُ أشعر بجاذبيَّة نحوك، مثل غريق تدفع به موجة مجنونة نحو الأعماق. لكنَّ بؤسك كان أقوى منك، ومحوتَ في ثانية واحدة صورتك، وجسد الشهوة.

لالَّة كبيرة كانت طيِّبة، لكنَّها كانت تراقب أنفاس كلّ شيء في البيت. ماذا أساوي أمامك يا سيِّدي وأمامها في النهاية، حتى ولو كنت جميلة وجسدي شعلة من الرغبة، كما كانتْ تقول لالَّة كبيرة، كلَّما رأتني ألبس قصيرًا في بيت لم يكن يحاسبني مطلقًا على هندامي، بل بالعكس كان عليّ أن أكون امرأة جميلة. *الخادمة واجهة الدار* كما كنتَ تقول يا سيِّدي. كنتَ أنت من ينتقي ألبستي، لا أدري من كان يقترحها عليك؟ كان الأمر عاديًّا في البداية، لكنْ مع الوقت، أصبحتَ تعطيها لي متخفِّيًا عن لالَّة كبيرة منذ أن لاحظتْ أنَّك تبالغ في شراء كلّ شيء، حتى الألبسة الداخليَّة.

في مرَّة من المرّات، سمعتكما بالصدفة تتحدَّثان عنّي. قلتَ لها

ـ يا كبيرة، كبّري خاطرك. هي في رتبة ابنتي. وهي خادمة وليست شيئًا أكثر من ذلك. نحن في مكان وفي موضع، كلّ شيء يحسب لنا أو علينا ولا أريد أن يأخذ المتعاملون معنا فكرة سيِّئة عنَّا وعن بلادنا

ـ كأنَّك تقول لها لا ترتدي الحجاب؟

ـ سألتها عن رغبتها في ارتداء الحجاب، ضحكت. كانت إجابتها قطعيَّة. لا تريد الحجاب. خالتها هي من فرضه عليها بسبب الأوضاع الأمنيَّة في حيّ الشِّيرا الذي لم تكن الحياة فيه سهلة.

عندما دخلت عليكما، لم توقفا الحديث، فشعرت كأنَّها دعوة

لإشراكي في موضوع يخصّني بامتياز.

- *يا لالّة كبيرة، اللّي تحبّ دير الحجاب ربّي يسهّل عليها أنا كنت أضع فولارًا على رأسي احترامًا فقط لخالتي ومسايرة لخوفها. ربّي يعرف قلبي مليح.* لا أحبّ الحجاب، ولا أجد ضرورة له.

يومها، لم تعلّق لالّة كبيرة واحترمت خياري؛ لكنّها، كانت في كلّ مرّة تذكّرني بأن أحذر من الرجال، *ليسوا كالنساء، يخبّئن شهوتهنّ لدرجة قتلها مع الزمن. في الرجل وحش ضار، عندما يشتعل، لا يرى إلّا ما يريد الحصول عليه، حتى ولو دعاه الأمر إلى القتل.* مع الزمن، أعطيتها حقًّا في كلّ ما قالته إلّا ضمور الشهوة عند المرأة. هذه لم أكن على الخطّ نفسه معها قد تخاف المرأة من الإعلان عنها وتركها متخفّية، لكنْ شرارة صغيرة، أو عود كبريت صغير، قادر على إشعالها في ثانية. المرأة تقبل بكلّ شيء في النهاية، إلّا أن يُفرض عليها لم أكن أعرف أنّ ما بي كان فظيعًا ولن يظهر إلّا بعد سنوات. دفء جسد أمّي الغائب عوّضته بشيء آخر.

هذه أيضًا قصّة طويلة يا سيّدي كنتَ أنت وراءها من نساء الحمّام الجميلات، أصبحت علاقتي بالأموات أهون من علاقتي بالأحياء. مع الأموات، مارست كلّ ما اشتهيته بلا أيّ رفض منهنّ. كلّما انتهيت منهنّ، أشعر بحالة عميقة من الاستكانة. أودّعهنّ بحبٍّ وفرح. أكفّنهنَّ وكأنّي أخاف عليهنّ من التحلّل. أضع كلّ أنواع الماكياج الغالي على وجوههنّ بعد التغسيل، وأجلس بالقرب منهنّ وأبكي بصدق، كأنّي فقدت عزيزًا، حتى يخرج قلبي. كانت بعض الممرّضات يدخلن عليّ، وأنا في نوبة البكاء، يضعنَ أيديهنّ على كتفي بصمت. يتأمّلن وجه الجثّة:

- سبحان الله، ما أجملها! كأنّها نائمة فقط.

الكثير منهنَّ يبكين معي. لا ندمًا، لكنْ حزنًا على وجه لن أراه ثانية. حالة الحبّ الوحيدة التي لا تتكرَّر هي تلك التي تمارس فيها الحبّ مع ميِّت. لأنّك ستستمرّ في الحياة، بينما هو يوضع تحت التراب. ونفترق على قبلة طويلة أضعها على الشفتين، وأمضي لأرتاح قليلاً، أسترجع كلّ اللحظات الجميلة. وعادة ما أغسّل البنات الشابّات. وكلَّما وجدتني مع عجوز أضحك معها *سامحيني يا يمّا عشتِ حياتك طولاً وعرضًا، لم يبق أمامك شيء تندمين عليه. البشرة نشفت ولم يبقَ إلَّا العظام، آن الأوان لترتاح*. أقوم بالواجب، وأغسلهنّ بدون تعريتهنَّ من السرّة إلى الركبتين. أعطِّرهنّ وأكفِّنهنّ، وأنادي لعمَّال برَّاد الأموات للاهتمام بهنَّ.

لا أدري ما الذي قادني نحو هذه المساحة. لم يحن دورها بعد؟ أنت لا تعرف أشياء كثيرة. أقصّها عليك اليوم للمرَّة الأولى، حتى إذا كُتب لك أن ترحل، ستكون خفيفًا وغير مثقل بالأوهام.

القصّة طويلة، لكنِّي سأحاول أن أجد لها ترتيبًا

ـ لكنْ، هل تتحمَّل ثقل ما يسكنني؟

لم أكن أنوي المجيء وأتركك بينك وبين ربّك. لكن وليدي عكاشة شجَّعني. قال: ميما مباركة، اليوم يتسامحن معه. جيبي حقِّك منه. ثم هناك أشياء يجب أن تعرفها، لأنْ لا أحد يخبرك بها غيري.

دخلت إلى مستشفى التوليد في ابن سينا، بحمّى حادَّة، وخرجت منه بلا لسان. كلّهم ينادونني البكوشة. الخرساء. مع أنَّي، على الرَّغم من مأساة الاغتصاب التي كنت أحملها على ظهري، كنت فرحة بمجيء حبيبتي زهرة. وحدها من يفهمني. كنتُ متأكِّدة من أنَّ حضورها سيساعدني على صعوبات الحياة. لا أتذكَّر الشيء الكثير من

حياتي سوى جسد أمّي. أنا مجرَّد خادمة، يعني لا شيء! جئت إلى هنا لأُسمعك ما في قلبي، وأتركك تختبر وحدك مسامحتي لك. الإمام لم يكن إلَّا سببًا، طريقًا جعلتنا الأقدار نسلكه، لا أنسى يوم استقبلتَني، أنت ولالَّة كبيرة. وكان البرد يدخل إلى العظام، والثلج يغطّي الأسقف. لكنّي كنت سعيدة عندما رأيتكما لأوَّل مرَّة، شعرت بحاسّة غريبة تشبه الأمومة والأبوَّة المفقودتين.

حاسَّة الأمومة لا تخطئ يا لوط، لها رائحة الأنثى. أنت لا تشمّها، لأنَّك لا تملكها هناك رجال يملكون ذلك، ولكنَّهم قلَّة. أشعر دومًا كأنَّ ابنتي زهرة سُرقت منّي ولم تمت. بل أكثر من هذا، أنا على يقين من أنَّها سُرِقتْ. في هذه تحديدًا، لا يمكنني أن أسامحك. إذا لم يعاقبك ربّي في الحياة وفي الآخرة، سأشعر بظلم كبير. أنت من درّبني على الحقد. الحقد كما الخميرة، يُربَّى في غفلة منّا، حتى يصبح كتلة ثقيلة ملتصقة بنا، ويصعب التخلُّص منها

الحقيقة التي لا تعرفها أيضًا، لولا عكاشة ـ كابي، الذي تحتقره، وربَّما لا تسمع به أيضًا، لمتُّ جوعًا يتيم مثلي من كلّ شيء. هو يأتيني كلّ مساء، عندما ينتهي من عمله في الكوشة[1] وبيع الصحف. يفتح كفّي الباردة، يقول، *ميما هذا حقّك*، ثم ينسحب بعد أن يقتسم معي أرباح اليوم. سألتك مرارًا أن تقول لي إذا كانت زهرة على قيد الحياة أم ماتت؟ كرَّرت عليّ أسطوانة أنَّها ماتت بجفاف جسدها، لأنَّها كانت ترفض صدري. حاسَّة الأمومة لا تخطئ، أبدًا يا سيّدي. لا تخطئ لأنَّ بها عطرًا خاصًا. لقد سرقتم ابنتي، ولا أدري ماذا فعلتم بها يومها بكيت طويلاً قلت لي دفنّاها في المقبرة.

---

(١) فرن الحطب.

سألتك عن أيَّة مقبرة. كنت يوميًا أبكي بلا توقُّف. قلتَ لي قومي بخير من *الولادة، وسأرافقك إلى المقبرة*. وأكَّدتَ لي أنَّك وضعتَ لها شاهدًا رخاميًا لا يفنى، كتبتَ عليه: *هنا تنام قرَّة العين التي عاشت ثلاثة أيَّام، الملاك زهرة بنت لوط ومباركة. رحمها الله وأسكنها فسيح جنانه.*

حتى على شاهدة الموت استكثرتَ عليّ كلمة لالّة، التي لا يمكن أن لا تقولها لزوجاتك. كُنْتَ تأخذني في كلّ المواسم والأعياد الدينيَّة، لزيارتها برفقة لالَّة كبيرة، أحيانًا كلَّما زرتها وحيدة، أشعر بقبرها فارغًا من كلّ حياة. في يوم من الأيَّام، رأيت حلمًا هزّني من الأعماق. رأيت زهرة تبكي، وكلَّما حاولتُ أن أمسح دمعَها الذي كان دمًا، تشيح بوجهها عنِّي. وفي آخر حلم، قبل اتِّخاذ قرار خطير، سمعت بكاءها، لم أر وجهها. طلبت من ربِّي طوال الليل أن يمنحني فسحة الحلم فقط لأراها، لكنَّه هو أيضًا أشاح بوجهه عنِّي. عرفت أنَّه مغضوب عليّ. كنتَ تقصّ عليّ كلّ ليلة، عندما كان جسدي سنبلة ممتلئة، وكنت تملكه، قصصك الغريبة. عن الحمام الذي يأتيك كلّ ليلة، تنفصل عنه واحدة أسميتها نور، توشوش في أذنك عن أحوال الأموات ممَّن كنتَ تعرف ولا تعرف، وتبلغك السلام ممَّن جاءت من عندهم. وفي إحدى المرَّات، قلتَ لي إنَّك رأيتها وهي تقف الآن على فرع الدالية. خرجت، فرأيتها هناك حقيقة. ترجّيتُك. قلت لك، قل لنور إنِّي اشتقت لزهرة. أريدها أن تبلِّغها أنِّي لن أسحبها من عالم الأموات، أريد فقط تقبيل جبهتها، وأبوس عينيها اللوزيَّتين اللتين أخذتهما منك. وأتسامح معها، لأنِّي لم أعرف كيف أحافظ عليها.

أخبرك بما لم تسألني عنه. ربَّما اعتبرتني قاتلة أمِّي وأبي وأخي بادي.

حادث السيَّارة الذي ذهب بميما زهرة، وأخي بادي (بديع) الذي كان توأمي الحقيقيّ، ووالدي، جعلني أعيش في الفراغ، في أزمة داخليَّة حادَّة. الصدفة شاءت أن أبقى حيَّة. كنت عند خالتي شامة في حيّ الشِّيرة واشتقت لهم جميعًا، ولجسد أمِّي أكثر الذي تعوَّدت على النوم في دفئه. ألححت عليهم أن يخرجوني من بيت خالتي الذي بدا لي فجأة أسود، لا أدري لماذا. ألححت عليهم لدرجة أن استقلُّوا السيَّارة وجاؤوني في اليوم نفسه. كنت وأنا أراهم في توابيتهم الثلاثة، أشعر كأنَّها مجرَّد خدعة سينمائيَّة، سيتوقَّف المشهد، ويعود الممثِّلون إلى حركاتهم الطبيعيَّة. وجه أمِّي كان من الصعب رؤيته، لأنَّه كان مغطًّى. بادي كانت اللفافة البيضاء التي تغطِّي رأسه تبيِّن قوَّة الصدمة التي أودت بحياته. أبي الوحيد الذي كان يظهر كاملاً من وراء زجاج التابوت. كان جميلاً، كما لو أنَّ الموت أعطاه حالة سكينة غريبة. ملامحه كانت هادئة. على الرَّغم من الفجيعة، كنت في دوار السينما، مؤمنة بأنَّ ما حدث كان مجرَّد خدعة فنِّيَّة. لا يمكن أن يكون الموت بهذه القسوة، وأفقدهم جميعًا في ثانية، وأستمرّ وحيدة! دراستي في علوم الحياة والأرض، توقَّفت بعدها مباشرة. جدَّتي، بالخصوص خالتي، ألحّتْ عليّ أن أعمل إن أردت أن أعيش في مجتمع لا يرحم. وجدتُ يومها من وجَّهني إلى الشبه الطبّي[1] تكويني في الثانويَّة كان مناسبًا لي. الدورة لا تأخذ أكثر من سنة. سنة دراسيَّة، ونصف سنة تدريب في المستشفيات والمستوصفات. يوم استلامي لوثيقة نجاحي في الدورة، عدت ركضًا لأفرح جدّتي وخالتي. بمجرَّد وصولي، أبلغوني أنَّ جدّتي ماتت، وتركت لي كلّ ذهبها خالتي وضعت الأمانة في كفِّي، وقالت هذه وصيَّتها أرجعت لها كلّ ما أعطته لي، وأخذت

(١) Le Paramédical

الإسورة الفضِّيَّة فقط التي كنت أراها دائمًا في يدها، وقلت لها معي *خاتم أمِّي الجميل، تكفي الإسورة الفضيَّة للبركة والذكرى*. كان حزني عميقًا، في مكان بدا لي قفرًا مع أنَّ الشِّير كانت هي الحيّ الأقلّ استهلاكًا للمخدَّرات، لأنَّها كانت مكانًا للخلايا النائمة والبيع. ولم تكن الدعارة التي انتشرت في الحيّ الجنوبيّ من المدينة قسرًا على الشِّيرا حيث يسود الفقر تكثر الضغائن والأمراض. بفضل الإمام زكريًّا، فرضت عليَّ خالتي الحجاب ليس إيمانًا، ولكن خوفًا من البشر الذين كانوا يحيطون بنا. لم اقبل إلَّا بالفولار. ظللت أنتظر فرصة العمل كممرِّضة في المستشفى، وصديقي ميدو منذ الكوليج، الذي لم يردّ أحد على طلباته المتعدِّدة. على العكس منه، وصلتني ردود كثيرة على مراسلاتي الإداريَّة. كلّ من كان يستقبلني كان يعرِّيني بعينيه قبل أن يكلِّمني. فجأة، تعب ميدو، فانتحر بطريقته. انتفت أخباره من الزمن، وهو يحاول أن يقطع البحر نحو لمبيدوزا. كان مهبولاً، يريدني أن أرحل معه، قبل أن يتّخذ قرارًا بأن يذهب أوَّلاً، يبني مستقبلاً هناك ويشتري بيتًا، ثم أتبعه أنا، حبيبته وزوجته. كنت أُدرك أنَّه حالم كبير، والحالمون ينتهون دومًا ضحايا أنفسهم. حبيبي ميدو هو الوحيد الذي كان مسموحًا له بأن يلمس وجهي وشفتيْ، وصدري. في الحقيقة، لم أحك لك عنه خوفًا، لكنْ لأنَّ ذكراه جارحة. فقد تركته يركض واهتممت أكثر بشأني الخاصّ، بينما كان يشركني في الصغيرة والكبيرة. انتهت علاقتي بالحياة يومها بشكل نهائيّ. ووجدتني خارج كلّ شيء، في مدار خاصّ بي، شديد القسوة. كنت أقضي الساعات الطويلة خارج البيت بين المصحَّات والمستشفى المركزيّ، لكنْ بلا جدوى. صديقة خالتي شامة، لالَّة شريفة الطيَّابة، كانت تشتغل في حمَّام تركيّ. عندما تعبتْ، طلبت من لالَّة الجوهر، صاحبة الحمَّام،

أن أوضع في مكانها. قالت لها: *مباركة مسكينة وقليَّة الولي*. هزَّتني خالتي شامة ذات صباح: *هل تريدين العمل، أم تفضّلين أن تظلّي هنا في مواجهة الأفلام البوليسيَّة، لا شيء إلَّا الدم والموت، ولا ملِّيم يدخل إلى الدار*. قلت لها: *يا خالة دفعت ملفَّات وأنتظر. ربَّما تحصَّلت على عمل في المستشفى*. اضطررت بعدها إلى العمل طيَّابة[1] حمّام في مكان لالَّة شريفة الطيَّابة، وأحيانًا دلَّاكة. درَّبتني بسرعة على جسدها وعلى جسدي، كيف أدلِّك. الدلك سعره أغلى، لأنَّه يأخذ وقتًا أكثر، ولأنَّ به حميميَّة خاصَّة يستلذّها الزبائن. كنت أحتاج إلى أيّ عمل لمساعدة خالتي وتدعيم تكويني التمريضيّ. التمريض كان هو المجال الوحيد الذي لم يكن يتطلَّب دبلومات كبيرة. لم أكن محترفة في التدليك، ولكن لالَّة شريفة الطيَّابة علَّمتني ليس فقط التدليك، ولكن أيضًا أسرار الجسد النسويّ بعد أن هذَّبت اسمي. قالت ريكا أخفّ. مباركة ثقيل وكلاسيك. لم أمانع، بل أعجبني الاسم، واستغربت كيف لم أفكِّر فيه، مع أنَّ صديقي ميدو كان يناديني به من حين لآخر.

مرَّت على يديَّ كلّ أنواع الأجساد، المنتهكة بأيد قاتلة، وتلك التي انتهكها الزمن وأثقلها أو امتصَّها الأجساد الجميلة، الخاملة والحيَّة، المنهارة، المفكَّكة، الرقيقة جدًّا التي تحسب فيها عظام القفص الصدريّ بسهولة، السمينة الرخوة. وتعلّمت مكامن الراحة واللذَّة عند كلّ واحدة منهنّ. أعرف كيف أدلِّكهنّ، وأدخل يدي في الأماكن الحميمة وأنا أغسلهنّ، وأوقظ أجسادهنّ المقتولة. وراء كلّ جسد ميِّت رجل قاتل، ليس شرطًا أن يكون زوجًا، قد يكون أخًا أو

(١) التي تغسل وتدلّك الأجسام في الحمَّامات التركيَّة الشعبيَّة.

أبًا أو حبيبًا أيضًا بين يوم وليلة، ركضت الحمَّامات التركيَّة الأربعة نحوي، مع تنافسيَّة في الراتب. حكيت كلّ شيء لصاحبته لالَّة الجوهر، قالت: *لا عليك، أعرف كلّ ما يدبِّرونه من ورائي*. على كلّ حال، سيأتي من يكنسنا جميعًا من هذه الأحياء. السبا **SPA** الجديد سيمحونا الأيَّام اللاحقة بيّنت أنَّ كلامها لم يكن فارغًا رفعت راتبي، فواصلت عملي في حمَّامها. ويوم أخبرتها بأنِّي سأغادر للدراسة وتدعيم تكويني في شبه الطبِّي، ضحكت. قالت:

ـ فهمتك. يريدونك. اشتروك؟ امرأة مثلك يُفترَض أن تكون الآن في حضن رجل يحبّها وتمنحه أجمل لذَّة.

ـ لا، يا لالَّة الجوهر أنا صادقة معك قطعت مع كلِّ الحمَّامات. حقيقة أريد أن أدرس.

رفعت مرَّة ثانية الراتب، فخجلت منها وبقيت.

ـ لا أدري أيّ سحر ينام في يديك وأصابعك، أغلب الشابَّات يشترطن أن تكوني أنت الطيَّابة. أصبحت المسألة بمواعيد. لم يعد السعر مهمًّا بالنسبة لهنّ. لا أدري ما هو مصدر النعومة التي كنّ يحسسن بها من وراء تدليكي، لكنْ كلّ ما كنت أقوم به كان يسعدهنّ.

أغلب النساء كنّ يستسلمن لي، مع أنِّي لا ملك إلَّا أناملي ولغتي وهمسي وتفهُّم أجسادهنّ التي لا تتشابه. بنات الشِّيرا المحرومات من الرجال كنّ يجدن في الحمَّامات فرصة لاستعادة أنوثتهنَّ، وكنت أوفِّرها لهنّ داخل البخار الذي تتداخل فيه الأجساد حتى تكاد لا تُرى. لم أكن أعرف أنَّ الحمَّام كان مدرستي الأولى في الحياة أو الموت، أيضًا. كنّ يستسلمن لي كلِّيًا، ما كان يعطيني قوَّة داخليَّة جبَّارة تكاد تكون ذكوريَّة. كنت أعرف كيف أوقظ الأجساد المغلقة

لبنات الشِّيرا من سباتها. مع اللواتي تركهنَّ أزواجهنَّ، وتزوَّجوا من غيرهنَّ، كانت لي وصفة سرِّيَّة علَّمتها لي لالَّة الشريفة الطيَّابة. أدلِّك وأصغي لحكاياتهنّ وتنهّداتهنّ، وأعطي ليديَّ وأصابعي حرِّيَّتها المحسوبة.

مَعَك كبرتُ بسرعة، وكبر معي حقدي على الرجال. القصص التي كنتُ أسمعها من زبائن الحمَّام، عن الضرب والاغتصاب والتهديد بالقتل، بالسكِّينة التي توضع في العنق على اللحم الطريّ إلى درجة النزف، عزّزت غضبي، أفقدتني توازني. ومع الأفلام والمسلسلات، التي كنت أرى، وقع في مخِّي ربط غريب أدركته بعد سنوات كثيرة، بين الجريمة ومقتل الطفلة البريئة التي قتلتها أنت بلا رحمة ولا شفقة، لأنَّك كنتَ تريد أن تتخلَّص منها.

ـ كم كنتَ قاسيًا يا لوط عليها! كم كنتَ من خراب وحجر وأنت تسحلها وراءك!!

إلى اليوم، كلَّما استكنتُ إلى نفسي، أرى تلك الصورة القاسية بكلِّ تفاصيلها التي رأيتها في كابوس يتكرَّر دائمًا لدرجة أن أصبح ينغِّص عليّ كلّ شيء. أراك وأنت تنزعها من داخلي، ثم أضعها أمامي بكلِّ عريِّها وجسدها الصغير المرتعش، لا أدري إذا كان ذلك من البرد أو من الخوف!! ثم وأنت تربطها بالحبال وتسحلها وراءك في كلّ شوارع منارة سيتي! وعندما تعود بها، وتضعها أمامي، يكون وجهها الصغير قد تلف. وجسدها تحوَّل إلى مزق وسيور نازفة، لم تبق منها إلَّا عيناها اللتان ظلَّتا تنظران إلى وجهي تارة، وأخرى إلى وجهك، قبل أن تدمعا طويلاً، ثم تنغلقا بهدوء، وبشكل نهائيّ على مشاهد الخراب والدم. قد تقول لي الآن: وما دخلك أنتِ في كوابيسي؟ لكن من أسكنها فيَّ؟ من حوّلني من امرأة عاشقة، تبحث عن جسد أمّها،

وتحلم بميدو ثم بحميد، إلى قاتلة ببرودة ولا رحمة؟

كان يمكنك أن تتحوّلي إلى ضحيّتي لولا أنَّ الجلطة سبقت إليّ.

لم أكن قاتلة يا لوط، لكنّي أصبحت أنصح بذلك.

إحدى بنات الشِّيرَة، رقيَّة ميمّيس، قضيتُ معها ساعات طويلة في الحمَّام وبخاره الكثيف والساحر. كانت كلَّما بلغت الذروة، تلوَّت في حجري بشكل جنينيّ، وبكت وهي تردِّد: يا ريكا إنَّه ينام معها أمامي. *يكتّفني ويطلب منّي أن أعيش معه الحالة بالتفرُّج عليه.* يمكنك *أن تتخيَّلي ماذا كان يفعل.* بشّع كلّ شيء في عينيّ. لا أدري من أين جاءتني الفكرة. لم أفكِّر طويلاً قلت لها: *لو كنتُ مكانك،* كنت *أغريته بليلة. أتعطَّر، أهيِّئ له فراشًا وثيرًا ودافئًا. أشعله. أمنحه كلّ ما يوقظ شهوته وجبروت اندفاعه الذي لا يمكنه أن يقاومه. وعندما تسكنه جهنَّم الرغبة، أخرج مطواي الحادّ من تحت الوسادة، وأقصّ ذكره من الأصل وأعطيه لأوَّل كلب أو قط جائع. أنادي الإسعاف، وأهرب إلى الشرطة. هو انتقام لا يعاقب عليه القانون. أنت لم تقتليه، ولكنَّك دافعتِ عن شرفك.*

ذات صباح، وأنا أقرأ جريدة الغاشي في نسختها الفرنسيَّة La Populace، فوجئت بخبر عن امرأة من سكَّان الشِّيرَا، تقوم بالشيء نفسه الذي نصحت به رقيَّة ميمّيس. التي أشير لاسمها في الصحيفة بالحروف الأولى R.M؛ لا أدري لماذا شعرت بسعادة لا توصف كأنّي أنا من قامت بالفعل. تمنَّيت أن أكون مكانها. واحدة شابَّة في زهرة العمر، يعبث بها خنزير متوحِّش، لا أخلاق له حتى في حدودها الدنيا حُگْرة.

شابَّة ثانية، اسمها فتيحة، ينادونها فاتي، اكترت مخدعًا خاصًّا

بها في الحمَّام. قالت لي لالَّة الجوهر، صاحبة الحمَّام: *فاتي تريدك أنتِ تحديدًا. لست أدري ماذا فعلتِ لهنَّ، كلُّهنَّ يردنك في التدليك، كما قلتُ لك*. رأيتها عندما دخلت وأنزلت الحائك من على وجهها تأمَّلتها من بعيد وأنا أستعدّ للعمل. قامة منحوتة بإزميل فنَّان دقيق. شعر طويل حتى خاصرتها وجه مستفزّ بجماله. ملامح ناعمة وعيون لا تخلو من شراسة، وعذوبة تستسلم بسرعة لدفء المداعبة. صرفت النظر عنها حتى لا أُتَّهم بالمثليَّة. رأيتها ثانية، كانت وسط بخار لذيذ يشبه غيمة دافئة. اقتربت منها. تمتمت: *هل أنتِ جاهزة يا سيِّدتي*؟ قلتها بصوت فيه الكثير من الغنج. أجابت بهمسٍ بالكاد يُسمع: *جاهزة حبيبتي*. استحضرتُ الزيوت النباتيَّة الغالية، التي كانت معي. دهنت جسدها بالكامل. كانت بشرتها من حرير، مثل بشرة طفل. كانت مستسلمة لي كلِّيًا. تتبَّع حركاتي بلذَّة غريبة، مغمضة عينيها قليلاً وكلَّما وصلت إلى زاوية حسَّاسة، تهمهم: *أمممم. اضغطي أكثر شويْ*. كنت أعرف جيِّدًا هذه الزوايا كما درَّبتنا عليها المعلِّمة الصينيَّة التي جاءت بها لالَّة الجوهر، عندما أصبحت مسألة السبا SPA أكثر من حقيقة. وضعيَّة تحبّها كلّ النساء اللواتي تعاملت معهنّ. جلستُ وراءها فتحت رجليّ، وسحبتها بنعومة نحوي بحيث أحتويها كلِّيًا شعرها كان ملتصقًا بظهرها. سحبته قليلاً نحو الجانبين، وبدأت أدلِّك أعلى كتفيها أستدير بأصابعي وكفيّ، حول نهديها، ثم الحلمتين اللتين كنت أضغط عليهما قليلاً بشكل مؤلم بعض الشيء، بدون أن يطغى الألم على اللذَّة. ثم سرَّتها التي كنت أتعمَّق فيها بسبّابتيّ وإبهاميّ، خصرها بكامل استدارته ونحافته الجميلة. وكلَّما نزلت قليلاً بأصابعي تحت، تتلوَّى، مستسلمة لذراعيّ اللتين كانتا تحضنانها كنت أريد تقبيلها، لكنِّي أحجمت. القاعدة أنَّ تبدأ هي، وليس أنا، لأنَّها

يمكن أن ترفع ضدِّي شكوى بالاعتداء الجنسيّ عليها إذا لم تبادر معناه أنَّها مكتفية بالتدليك. عندما انتهتْ، همست. كنت بالكاد ألمح وجهها الطفوليّ وأنا منحنية أمامها على ركبتيَّ، بعد أن غيَّرت الوضعيَّة. تعرفين *يا ريكا*، *لأوّل مرَّة أشعر بأنَّ هذا الجسد ملكي*. وحكت لي عن والدها المدمن الذي كلَّما شرب الكحول، أو تناول شيرة[1]، زحف نحوها ليلتصق بها بالخصوص بعد وفاة والدتها قالت: *أحاول أن أنهيه، وأدعوه للتعقُّل، عبثًا لا يسمع أحاول أن أخرج من ذراعيه. يا بابا خير. ما زلتَ شابًّا، تزوَّج. مائة امرأة تتمنَّاك. أنا ابنتك يا بابا شيرة عَمَتْكَ. أرجووووك اتركني*. لكنَّه يستمرّ، حتى *يصل إلى* حميميَّاتي. شعرت بحزنها العميق. كانت تتكلَّم بصعوبة. قلتُ لها وكأنَّ شيطانًا كان يتراقص على رأس لساني: *ربِّي يعطيك الصبر يا فاتي. أنا لا أتحمَّل. لو كنتُ مكانك، كنتُ وجدتُ وسيلة للتخلُّص منه. والله نكبّ عليه غالون بنزين وأحرقه بلا ندم أبدًا* كانت تأتي مرَّة في الأسبوع، وتطلبني دومًا وفي كلّ مرَّة تسألني: ماذا تفعلين لو كنت مكاني؟ بلا تردُّد: *أكبّ عليه غالون بنزين وأحرقه*. ذات صباح، قامت باكرًا. رأيت في عينيها فرحًا كبيرًا ملأ محيَّاها دخلت إلى حمَّام لالَّة الجوهر، واسترخت لي. قالت لي: *افعلي بي ما لم تفعليه مع غيري من قبل*. استجمعت كلّ لحظات اللذَّة عندي، وما اكتسبته من أخريات وقعن بين أصابعي، وأسكنتها في غيمة البخار الذي أعطى بغلالته وستائره طعمًا خاصًّا للذَّة، استعملت فيها كلّ حواسِّي. عندما ترتفع حرارتها، كنت أغلق فمها بيدي من شدَّة المتعة حتى أكتم صراخها المستنجد بي. في الحقيقة، أنا أيضًا كنت أجد متعة كبيرة في ذلك. ثم طلبت منِّي أن تضع رأسها قليلاً على صدري.

---

(١) من أنواع المخدِّرات.

لأوَّل مرَّة بهرني صفاء عينيها الواضح. ضممتها بقوَّة. شعرت بقلبها يدقّ، ونهديها الطفوليَّين الناعمين ينهضان. مددت شفتيَّ وقبَّلتها طويلاً سمعت همسها كأنَّه كان يأتي من بعيد.

ـ ريكا أؤمنك على سرّ خطير.

ـ من قلبي.

ـ أحرقته. كبّيت عليه غالون بنزين، وأشعلت عود كبريت.

ـ مَن يا روحي؟

ـ الوحش الذي استعبدني. لا علاقة له باسمه. مسامح خير الدين. لا تسامح. لا خير. لا دين. أغرقته هو وفراشه في البنزين وأشعلت المكان كلّه، وأغلقت باب الحديد. لم أسمع إلَّا صراخه.

ـ أبوك.

ـ خمس سنوات جعلتني أكره جسدي. الآن استعدته. وسأخبر الشرطة.

ـ كان يمكن أن تفعلي هذا قبل الحرق. على كلٍّ، مبرّرك أنَّك كنتِ في الحمَّام، لحظة الحرق. النار تغسل كلّ شيء. سأشهد أنَّك كنت هنا يومها

ـ لا أعرف ماذا حدث. تركت النار مشتعلة وخرجت من البيت.

في اليوم الموالي، قرأت في الغاشي، في زاوية: أخبار منارة سيتي الصغيرة. وفاة ***M.Kh***، *حاول الانتحار بسبب موت زوجته التي كان مرتبطًا بها ولم يتحمَّل غيابها لكلٍّ الذين يعرفونه ومحبّيه، الجنازة ستكون عند الساعة الثانية، بعد صلاة الظهر*. من الحروف الأولى لاسمه عرفت أنَّه هو.

أيَّة جنازة؟ المفروض أن يرموه للكلاب!

أردتك أن تعرف شيئًا يخصّك. كان يمكن أن تكون أحد هؤلاء كما قلتُ لك. نفذتَ بأعجوبة. كان موتك مؤجَّلاً فقط.

بدأت أكتشف في نفسي حالات غريبة، وهي أنِّي أحسد القاتلات اللواتي مارسن القتل في مكاني، وأحسدهنَّ ونحن داخل بخار كان جزءًا من مشهد اللذَّة والموت. من حظِّي أو سوئه، جاءت شركة SPA الكبيرة التي كانت تتخوَّف منها لالَّة الجوهر، حطَّت رحالها مع جيش من الفيليبينيَّات الجميلات المدرَّبات على الأصول، فأصبحت الحمَّامات الأربعة عاجزة عن المنافسة، فأُغلقت وبيعت للشركات نفسها، الطاقم تغيَّر في جزئه الأكبر. حتى لالَّة الجوهر التي كانت أكثر الحمَّامات تطوُّرًا إذ كان قريبًا من السبا، قاومت طويلاً، لكنَّها سرعان ما اضطرّت إلى البيع، والتخلِّي عن الحمَّام نهائيًا؛ العمر لم يعد يسعفها، فاختارت أن تعيش عزلتها حتى الموت.

في الوقت الذي كنتَ تنعم بحياتك، كنت أنا أغرق في موتي.

لم أحصل على أيّ عمل، على الرَّغم من أنِّي شاركت في كلّ التدريبات التي تحسِّن تكويني في الشبه الطبّي. من كثرة تردُّدي عليهم في المستشفى والمصحَّات المختلفة، اقترحوا عليّ الإمكانيَّة الوحيدة المتوافرة هي العمل في قسم البرَّادات. بدا القسم جيِّدًا، على الأقلّ من حيث التسمية. كلمة *برَّادات* قادتني إلى تصوُّر مغلوط منذ البداية، وهو تحضير وحفظ أكْلِ المرضى، في البرّاد، وتسخينه كلَّما حان وقتُ إطعامهم، وليس شيئًا آخر لكن عندما شرحوا لي طبيعة الوظيفة، عرفت المعنى الدقيق: تغسيل الموتى. لم أقبل في البداية، لكن خياراتي كانت محدودة. خالتي شامة المريضة، على مشارف الموت جرَّاء سرطان الكبد الذي كان ينخرها بسرعة من الداخل، شجَّعني على قبول العمل في انتظار الأفضل. قالت الغسَّالة السابقة، العجوز التي

كانت تستعدّ للتقاعد والمغادرة: *تعالي أدرّبك على الأقلّ قبل أن أخرج كيف تتعاملين مع جثث الناس وكأنّها كائنات حيّة.* حظّي دائمًا في المتقاعدات؟ رأيتها كيف كانت تضع الجثث على عربات حديديّة. تمدّد على العَرَبة الجثّة. تدلّكها طويلاً وتضغط على مستوى البطن حتى تخرج منها بقايا الفضلات، بحيث لا يبقى إلّا الجسد وكأنّه حيّ، وفي حالة نوم من بعد أن تغسله. لم تعد برودة الجثث تزعجني، لأنّها بمجرّد أن يتدفّق عليها الماء الدافئ، حتى تستعيد حياتها، أو تكاد. أشعر براحة داخليّة. لست أدري ما الذي قادني نحو تغسيل الأموات، حمّام النساء، هل هو الحاجة فقط إلى عمل، أم أنّ الموضوع أكثر تعقيدًا ربّما قبلت، لأنّني كنتُ أحلم برؤية حبيبتي زهرة من بين جموع الأموات. يستيقظ فيّ هذا الإحساس، كلّما جاؤوني بصغير لا يتجاوز عمره العشر سنوات. كنت أشعر نحوهم بإحساس غريب من الأمومة المحروقة. أبكي، وأحيانًا أشعر بالسعادة. أغسلهم براحة، كما تفرض الشرائع. أقبّلهم، فأشعر كأنّي أفعل ذلك مع ابنتي.

كان مغسل الأموات في البداية مكانًا مقفرًا ومقرفًا برائحة الموت القويّة. لست أدري ما الذي دعاني إلى تنظيمه وترتيبه ليصبح حمّامًا جميلاً، حتى نزعت عنه كآبته وغمّته. قلت لماذا لا نكون مثل المسيحيّين في هذا الأديان تتشابه فيما يخصّ احترام الميّت وتقديسه. نرافق أمواتنا في لحظاتهم الأخيرة، وهم جميلون.

بسرعة، عُيّنت مديرة لقسم البرّادات. كنت مسؤولة عن جثث ترى ولا تتكلّم. طلبت الإذن من مديريّة المستشفى، فسمحوا لي بتحسين المكان أكثر جئت بصبّاغ من أحد أحياء منارة سيتي، وطلبت أن يُطلى المكان باللون الورديّ. اشتريت الكثير من اللوحات تُمثّل الأطفال والطبيعة؛ وعلّقت على الحائط، أيضًا، آيات قرآنيّة كريمة،

لإضفاء نوع من الخشوع والاحترام على المكان: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[1] وعلَّقت على الحائط الثاني: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُون﴾[2] وفي الخلفيَّة: ﴿والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْم أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[3] أعطِّره يوميًا، حتى إنِّي كنت أحسّ بانتشاء غريب لا يحسّه من يدخل المكان للمرَّة الأولى. أصبح المكان إنسانيًا، أفضل من غرف التوليد التي تشمّ روائحها الكريهة من بعيد.

حدث معي مرَّة أن جاؤوني بشابَّة جميلة، اسمها رشا، قتلها والدها مدير شركة صنع الألبان، بسبب جريمة شرف، لم يتأكَّد منها شعرت بها تتنفَّس وأنا أمسِّد صدرها وبطنها. جسدها كان يرتعش بين يديَّ. لم يكن بها أيّ خدش باستثناء فتحة السكِّين الغائرة، بمحاذاة القلب، التي قطّعت الألياف، والجزء السفليّ من النهد الأيسر الناعم، لتخترق القلب. بقي الجرح واضحًا، لم تخْفِه عمليَّة التخييط التي قام بها الطبيب الجرَّاح. بعد أن انتهيت من كلّ العمليّات الأولى للتنظيف، غسلت الجسم جيِّدًا حتى أصبحت بشرته تنبض. نشَّفته كأنِّي أنشِّف ابنتي زهرة. شعرها، أماكنها الحميميَّة، عنقها، رجليها، وما بين أصابعها ثم عطَّرتها، وبدأت أضع المانيكير على أصابعها، وأحمر الشفاه، وكلّ ما يثير شهيَّة من يراها لأوَّل مرَّة. شعرت بتماه غريب معها. كانت مستسلمة لي بكلِّ بهائها كما نساء الحمَّامات. أغلقت باب المغسل، ووضعت عليه علامة ممنوع *الإزعاج*، وأطلقت الماء

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٨.

(٢) سورة آل عمران، آية ٥٦.

(٣) سورة العنكبوت، آية ٥٧ ـ ٥٨.

حتى يظنّ من يمرّ أنَّي في العمل. مددت يدي إلى شعرها، ثم إلى شفتيها بالتوازي، كنتُ أنزع لباس العمل، وأتخلَّص من كلّ ما يثقل جسدي. تذكّرت أمِّي. التصقت بها شعرت بحرارة ما تملأني وتعيد لي الحياة، ولها أيضًا تماهينا حتى أصبحنا جسدًا واحدًا كانت تأوُّهاتها تصلني متقطّعة. لم أستطع أن أتخلَّص من وجهها الطفوليّ. كانت رشا أوَّل حبيبة لي في المغسل. أوَّل امرأة ألصقت جسدها بجسدي. أقسمت يومها أن أنتقم لرشا، لا أدري كيف! لكنِّي كنت قد صمَّمت على أن أكون رشا الحيَّة، في مكان رشا التي سُرقت منها الحياة في وقت مبكر

ـ لماذا تفتح عينيك بخوف أو باندهاش؟ رضيت بها ورضيت بي؟ وأنت ما دخلك؟ لا تندهش يا لوط. هذا لا شيء يا لوط. قد لا يهمّك كثيرًا ما أقوله، لكن يجب أن تعرفه، وأن تفهم مسؤوليّتك في كلّ ما حدث لي.

عليك أن تعي معناه، قبل أن تطلب منِّي السماح، وكأنَّ الأمر مجرَّد كلمة تُرمى هكذا على مسمعك لإراحة ضميرك، أو صكّ براءة يُسلَّم لك بمجرَّد استيقاظك من قبرك، لتعبر البرزخ منتصرًا باتِّجاه جنَّة عشتها في الأرض كما أردتها، مالاً ونساء وسفرًا، وتريد أن تزاحم البؤساء في أوهامهم الصغيرة وشقائهم، الذين لا يتصوَّرون الجنَّة أكثر من بيت فيه زيت وخبز وبعض الأشجار يقيِّلون تحتها اتِّقاء شرّ الحرّ، وبعض الأنعام والأغنام والأبقار يحلبونها أو يأكلون لحمها كلَّما جاعوا، وبعض سواقي الماء القريبة منهم حتى لا يتعبوا أو يموتوا عطشًا وهم يتشمَّمون منابع الماء، على مسافاتٍ أحيانًا لا يعودون منها أحياء.

تململ كازانوفا في مكانه. لم يرمش. لم يغلق عينيه. كان مثل

دمية صينيَّة وُضعت في زاوية ونُسيت هناك. حتى أنفاسه كانت تتوالى بشكل متواتر، ولكن بدون صفير. كأنَّ خوفًا انتابه فجأة ممَّا كان يسمعه. حاول أن يحرِّك رأسه متفاديًا عينيْ مباركة، لكنَّه لم يستطع، ثم عاود الاستقرار على وضعه الأوَّل.

ـ لا تخف. ما تسمعه ليس فيلم رعب. لست هنا لقتلك، فقد نفذت منِّي وانتهى الأمر.

هل تعلم أنِّي بدأت أخاف من نفسي، لكنْ في أعماقي كنت سعيدة أيضًا أصبحتُ أقرأ عن حالة النيكروفيليا، والانجذاب الجنسيّ إلى الجثث. حتى أفهم نفسي، اطَّلعت على تحقيق قام به الباحثان روزمان ورزينك على ٣٤ حالة نيكروفيليا، وقد واءمني السلوك الذي انتهيا إليه، يعني رغبة حصول على شريك غير قادر على الرفض أو المقاومة. الاتِّحاد والتواصل مع شريك جنسيّ سابق. تقوية الثقة في النفس عبر التحكُّم بأشخاص لا يملكون القدرة على المقاومة. قرأت أيضًا حالة جيفري دهامر[١] القاتل المتعوِّد الذي كان يعاني من النيكروفيليا حتى يشعر بالإثارة، كان يقتل ضحاياه قبل أن يغتصبهم، ويمارس معهنّ الجنس، حتى لا يتركنه بعد الانتهاء من اللحظة الحميميَّة. اكتشفت فجأة أنِّي لم أكن الأولى في عشق جسد النساء الميِّتات. الظاهرة انتشرت في كلّ الأرض، حتى أصبحت عاديَّة. قصَّة الرقيب الذي كان يجامع الأموات، أو مصّاص دماء مونبارناس في القرن التاسع عشر، الذي كان يُخرج جثث الفتيات من قبورهنّ، ويمارس معهنّ الجنس قبل أن يقطِّعهنَّ إربًا إربًا. عندما أُلقي عليه القبض بالجرم المشهود، لم يعاقب إلَّا بسنة سجنًا شارلمان الذي

---

(١) Jeffrey Dahmer

يحفظ له التاريخ البطولات العظيمة، لم يستطع مفارقة عشيقته، وظلّ ينام معها حتى تحلَّلت. كان يرشّها بالعطور القويَّة ليستمرّ في تحمُّل الرائحة. بعض الأئمَّة عندنا، شرَّعوا ممارسة الجنس مع الميِّتة حتى ستّ ساعات بعد حدوث الموت، لأنَّه بعدها تبدأ عمليَّة التحلُّل بالخصوص، إذا لم يكن الجسد محفوظًا قالوا، نكاح الميِّتة حلال. قرأت عن عبد الباري الزمزمي أنَّه يجوز ممارسة الجنس مع جثَّة زوجته الميّتة، بشرط أن يرتبط الطرفان بعقد القران قبل الموت. أصبح من الصعب القيام بفراشة فينوس في حالة مثل هذه. حفظتُ عن ظهر قلب الوصايا العشر لفراشة فينوس، وطبَّقتها على الأموات الذين كنت أحبّهم بطريقتي. فراشة فينوس تبدأ بالقُبل واللمس، اللحس، حتى تحاذي المرأة سقف اللذة الذي يصل إلى الدرجة ٨ من ١٠ ولبلوغ الدرجة التاسعة، ضرورة القيام بحركة دائريَّة في كلّ مناطق الإثارة واللذة، ويكون اللسان والأصابع الطريق الأسلم لبلوغ هذه الدرجة من اللذّة. التمكُّن من تحريك النقطة G في الجسد لا يأتي إلَّا بالكثير من الصبر والتريُّث، بإشراك كلّ الجسد في التمادي، في اكتشاف المناطق النائمة وإيقاظها فراشة فينوس لا تناسب فئة العصابيِّين والعصابيّات المتسرِّعين في كلّ شيء. ينقصهم الصبر في استدعاء اللذّة، فيكتفون بما هو غريزيّ وحيوانيّ.

في الوقت الذي يبكي الناس موت شابَّة صغيرة، أكون أنا في عزّ انتشائي، في انتظار أن أحظى بجسدها في لحظات لا تتكرَّر، حيث تستسلم المرأة النائمة لي وحدي. ولا مرَّة تخيَّلتهنّ ميّتات، ولكنْ مستسلمات لجسدي الذي يشتاق لهنّ بسرعة. لم أعد أشمّ رائحة الموتى، إلَّا العطر المنتقى الذي أختاره لكلّ جسد. الأجساد لا تتشابه. في المستشفى عطر واحد قويّ، لمنع رائحة الجسد من التبخُّر

والتحلُّل السريع. عطر مهمّ لأنَّه يغلق المسامات، لكنْ أضيف له دائمًا عطرًا يناسب كلّ جسد بشكل خاصّ. أريده على المرأة التي أحبّ، وغالبًا ما يكون عطرًا رجَّاليًّا. باكو رابان ـ يساعدني بقوّته، بوازون الأسود، فرساتشي وكوكو شانيل، ديور، إيڤ سان لوران الذي أحبّ خفّته ونعومته، والعود الشرقيّ. يكلّفني ذلك كثيرًا، ولكن بمجرَّد أن أذكر أمام عائلة الميّتة، أنَّي عطَّرت الجسد بعطر غال، حتى يأتوني بكلِّ أنواع العطور. عندما يمدُّون أيديهم لمنحي نقودًا أنبّهم أنَّي لا أحتاج. تكفيني سعادة الميِّت. ومن الأفضل أن يهدوا مغسِّل الأموات، أو قسم البرَّادات، عطرًا يليق بهم. مع الزمن، كوَّنت خزانة غنيَّة ومتنوِّعة. وأصبح المغسل مثل الصيدليَّة، بها كحول، ودواء أحمر ميركيروكروم، وعدد لا يُحصى من أنواع العطور من بلوم بلوم عطر السبعينيَّات الذي يحرق داخل الأنف، إلى العطور الفرنسيَّة والإيطاليَّة إلى العود الشرقيّ الغالي جدًّا، إلى الضمّادات. كلّ من يدخل عندي من الأطبّاء، بمجرَّد أن يلاحظ هدايا المغسل، يندهش، يحسدونني على كلّ هذا الحظّ، لكنْ في أعماقهم يخافون بقوَّة عطر الأموات.

في مرَّة من المرَّات، في نهاية النهار، وقف رجل في المستشفى سأل عنِّي، وهو يحمل باقة ورد من أغلى الأنواع. رجل متوسِّط العمر، في عينيه بريق جميل للحياة. كنت ما أزال بلباسي الخاصّ، ولم أرتد بعد لباس العمل. قال عندما وُجِّه نحوي: أنت ريكا؟ قلت نعم. غسَّالة الأموات؟ قلت بابتسامة عريضة: يعني، بحسب رؤية كلّ واحد. *أنا لا أعتبرني غسَّالة بالمعنى التقليديّ. أحضِّر الأموات لرحلتهم الأخيرة، وأمنحهم الحبّ والاهتمام الذي لم يحصلوا عليه في حياتهم.* ردّ على كلامي: جميل، وهو يهزّ رأسه، ثم سلَّمني باقة الورد بكلِّ احترام.

ـ لهذا كلّه، جئت أشكرك.

ـ نعم. لكنّي لم أفهم جيّدًا نحن لم نلتق من قبل.

ـ لا لم نلتق. لكنْ أنتِ من حضَّر ابنتي لرحلتها الأخيرة. الكثير ممَّن زارها في رحلتها الأخيرة، قالوا كانت كأنَّها عروس حقيقيَّة. لم نشبع من بعض. الموت سبقني إليها

ـ هو عملي يا سيِّدي، لم أفعل أكثر من ذلك. أقوم به بحبّ وإتقان. للميِّت علينا حقوق كثيرة.

ـ ابنتي رشا، رحمها الله.

فجأة، كأنَّ سكِّينة انغرست في قلبي يومها شعرت بأمطار من الحمم تسقط على رأسي، بنارها ورمادها ما تزال ضربة السكِّين الغائرة، بمحاذاة القلب ماثلة بين عينيَّ. اخترقت الألياف والجزء السفلي من النهد الأيسر الناعم، لتخترق القلب. لم تخْفِه عمليَّة التخييط التي قام بها الطبيب الجرّاح. انتابتني رغبة محمومة في حرقه. لم يكن لديَّ أيّ شيء. قلبي وجعني كثيرًا وآلمني كما لم يحدث لي في أيَّة مرَّة. لكنِّي تمالكت.

ـ مسكينة. ربِّي يرحمها كانت ملاكًا صغيرًا.

ـ مكتوب الله. الشيطان ولد الحرام.**مكتبة الرمحي أحمد**

ـ لكنّ الله لم يقتلها اللّي قتلها شخص دفن في قلبها سكِّينًا حادًّا.

ـ أوصيتها أن تتفاداه، لأنَّه يلعب بها وبسذاجتها وطيبتها لكنَّها ركبت رأسها

ـ مصطفى؟

ـ تعرفينه؟

ـ لا قرأت هذا في تقرير الوفاة، والصحافة أيضًا يفترض أن

تأخذ تأبيدة، لأنَّها في النهاية جريمة بشعة. لو كنت قاضية، كنتُ علّقت على رافعة عالية كلّ من يقتل ابنته بسبب جريمة شرف لا أحد يعرف سرّها

ـ لا جرائم الشرف لا ينطبق عليها القانون الوضعيّ، نحن أمام قانون شريعة. سُجِنتُ على حمل المسدَّس، وأنا في الأصل شرطيّ، ولم أرجعه يوم غادرت السلك، قبل أن أنشئ شركة الألبان. كأنَّك لم تشربي من لبني؟ قالها بملعنة ارتسمت في ابتسامته غير المريحة.

تأمَّلته للحظات وهو يتكلَّم ببرودة كبيرة. تنامت رغبتي في قتله. مسدَّس ربعة فرنك[1] أفضل من إنسان جميل وطيِّب وعاشق. كدت أن أصرخ بأعلى صوتي: *يا ابن الكلب تقتل ولا تخجل من نفسك؟* لكنِّي كتمت أنفاسي لكي لا أنفجر في وجهه. لم أستطع أن أكتم، لا دمعي ولا حقدي. استحضرتها وهي تمشي مع مصطفى على حافَّة النهر، يدًا في اليد، بدون أذى لأحد. ثم فجأة يباغتها والدها بالضربة القاتلة. يُجرح مصطفى جرحًا بليغًا في ذراعه، لأنَّه حاول الدفاع عنها، بينما تُقتل هي في اللحظة نفسها

قبل أن يخرج، اقترب منِّي أكثر. لأوَّل مرَّة أرى عينيه اللتين تشبهان عينيْ ديك في صغرهما قال بصوت مفتعل، هادئ:

ـ أريد أن أشكرك على ما فعلته مع حبيبتي رشا

ـ لم أفعل أكثر من واجبي يا سيِّدي، أفرحتُها في موتها، ما دامت الحياة قست عليها

ـ أدعوكِ لعشاء، تختارين أنت المكان.

لا أدري لماذا برقت عيناي سعادة. لاحظ ذلك بنفسه. كأنَّه

---

(١) أي لا يساوي شيئًا

منحني فرصة لم أنتظرها كنت في عالم آخر، لم يكن يعرفه أبدًا. ولا يرى إلَّا ما يراه الناس العابرون.

ـ كثير عليّ.

ـ أمرّ آخذك على السابعة مساء.

ـ أفضّل المطاعم التي على الأنهار. مبدئيًا، نلتقي بجانب وادي الكبريت، في مصبّه الشماليّ. هناك مطعم جميل وبعيد عن مرأى الناس. لو يسمع والدي سيقتلني، لكنّي سأجد الحيلة المناسبة.

ـ لا تخافي، لن يعلم أحد بهذا. ستكونين معي. أنتظرك على حافَّة النهر في مصبّه الشماليّ.

لبست لباسًا ناعمًا وملوَّنًا بطعم الحلوى، وقفَّازين رقيقين أبيضين. تعطَّرت بالعطر نفسه الذي غسلت به جسد رشا. خرجت.

كان المساء ناعمًا. عندما وصلت إلى المصبّ الشماليّ، رأيتُه مثل الظلّ. المكان كان خاليًا. حتى المطر الناعم كان مثل غلالة ضباب مندّاة. جلسنا قليلاً حكى لي بالتفصيل عن ابنته. طبعًا كان يكذب. الطبّ الشرعي بيَّن أنَّها كانت عذراء. لأنَّه في جرائم الشرف، بالنسبة للبكر، يُبنى على هذا ثم قال:

ـ ما ريك لو نذهب معًا للبيت. أكثر أمنًا لك.

ـ أريد أن أدخّن معك سيجارة على حافَّة النهر.

ـ ممكن. تحبّين مارلبورو.

ـ لا عليك يا قلبي. أنا قادرة على شقايا عندي جوان صحيح ومدوزي[1] هههه. أريد أن أترك نفسي أضيع الليلة بين يديك.

---

(١) لفافة كيف (مخدّرات) مركّزة.

للممرّضات أيضًا الحقّ في العيش.

السيجارة التي كانت بين يديَّ ثقيلة، اشتريتها من شاب لا أعرفه، ولـم أره في حياتي. ظنَّني مديرة شركة. سألني: *خفيفة وإلّا ثقيلة ومدوزية*. قلت له ثقيلة. وضعها في يدي، ثم بسرعة غادر المكان، خوفًا من شرطة مكافحة المخدِّرات.

في سيَّارتي، لـم يكن هناك أكثر من التبغ الوطنيّ الذي يشبه التبن، إذا ما ضرّ، ما ينفع. لبست القفَّازتين البلاستيكيَّتين، واتَّجهت نحوه.

كنَّا نمشي. تناول السيجارة. حاول أن يلمسني، تمتمت بصوت خفيف، *ليس الآن* حبيبي. رأيته بدأ يهذي، وبدأ يترنَّح. قلت له *أنت* دخت؟ معناه *أنَّك* غير متعوِّد؟ قال. لا *لو كنت مخدَّرًا، ما استطعت السير على الحافَّة*. وبدأ يمشي على الحافَّة فاتحًا ذراعيه للتوازن مثل رياضيِّي الجمباز. كنتُ أتمنى أن يسقط من تلقاء نفسه، ولا أضطرّ إلى مساعدته على السقوط. واصل سيره خطوة خطوة، وهو يضحك بأعلى صوته: *شفتِ الشطارة، لم أقل كلمتي الأخيرة. ما زلت شابًّا* عندما مال قليلاً من الناحية الأخرى، لـم أترك له فرصة التوازن. كانت الأشجار تغطِّينا لم أبذل جهدًا كبيرًا، لمسة واحدة كانت كافية. فسقط في وادي الكبريت. قاوم قليلاً، ثم شرب الماء، قبل أن يستسلم للتيَّار. انتظرت قليلاً حتى هدأ الوادي، وعدت بين الأشجار إلى أن وصلت إلى ساحة منارة سيتي، حيث محطَّة القطار التي كانت تأخذ آخر السكارى. وصلتُ إلى البيت. كنت متعبة وحزينة ليس عليه، لكن على رشا أعتقد أنّي انتقمت لها بعد خمسة أيَّام، رأيت صورته في التلفزيون، في الأخبار، مع تعليق صغير كتب تحته: *قاتل ابنته، ينتحر في النهر*. أقسمت منذ مقتل رشا أن أكون رشا المنتقمة. هناك بشر لا

يصلح معهم إلَّا سلاح الجريمة: القتل. القانون لا قيمة له إذا لم يقُدِ القاتل إلى المقصلة أو حبل المشنقة. لا يتعلَّمون إلَّا باللغة التي يمارسونها هم دون الإنسانيَّة ليطبّق عليهم قانون الإنسانيَّة.

ـ أرأيت حبيبي ماذا صنع بي كرمك؟

أحزن أحيانًا، لأنّي لم أبدأ سلسلة جرائمي بك، المرض القاتل سبقني إليك، ربَّما كان هذا الموت هو أفضل ما تستحقّ، لأنَّ الميتات الأخرى سهلة، وربَّما حضاريَّة أيضًا.

بدون سابق إنذار، اصفرّ وجه كازانوفا وتغيَّرت ملامحه، وخرج من حلقه صراخ حادّ يشبه صراخ الدلفين، في لحظة آلام الوضع، أو آلام فقدان أحد أبنائه. كان يخرج من حنجرة جريحة. التفتت مباركة نحوه، اكتشفت ملامح رجل مرعوب، يحاول جاهدًا أن يرفع رأسه. في عينيه ذعر كبير، كأنَّه يريد أن يهرب من مكانه، أن يطير بعيدًا أدركتْ بسرعة أنّه لم يسمعها فقط، ولكنَّه تخيَّل ما يمكن أن يكون قد حدث. هذا يعني أنَّ بعض حواسّه ما تزال تشتغل، وأنَّ فيه شيئًا ما يزال حيًّا شعرتْ مباركة بسعادة غريبة. عندما همّت بالوقوف، ونظرت إليه طويلاً، وفي عينيه اللتين ظلّتا تدوران في الفراغ، رأت الموت ينشب مخالبه في كامل جسده، ويدمي عينيه.

أسدل جفنيه كأنَّه مات، وغرغرت أمعاؤه كأنّه أفرغ كلّ ما في بطنه.

جرى مسعود نحوه. سحب جهاز التنفُّس الاصطناعيّ، ثم وضع على وجهه كمَّامة الأوكسيجين، ليعود له تنفُّسه، بشكل شبه طبيعيّ. لكنَّ ذعره ظلَّ هو هو. سأله مسعود إذا كان يشعر بشيء، لكنَّ عينيه جحظتا أكثر وظلَّتا مثبَّتتين في مباركة، وفي وجهها، وكأنَّه كان يرى

فيها مصَّاصة دماء. تلمَّس مسعود جبهته. شعر بالحرارة التي كانت تحتلّ كلّ جسده. تساءل:

ـ هل سمع شيئًا أخافه؟

ـ لا شيء. قالت مباركة. لا شيء. أنا كنت فقط أحكي له عن حياتي كما هي، فأُصيب بالنوبة والسعال الحادّين. لا أريد أن أكذب عليه وهو يستعدّ لتوديع هذا العالم الصعب.

ـ الأعمار بيد الله يا سيِّدة مباركة. قلبه يدقّ بسرعة شديدة وكأنَّه سينفجر.

ـ هل أغادر المكان، وأتركه على راحته؟ هل هذا ما تريده؟

ـ لا الإمام زكريًّا يلحّ على الذهاب في التسامح إلى أقصاه. ربَّما سيِّدي لوط يشعر بألم اغتصابك في وقت من الأوقات وهو نادم، ويريد أن يعتذر لك، لكنَّه لا يستطيع؟ هو يعبِّر عن ندمه على الإساءة.

ـ مع أنّي قلت له من جهتي مسامحاك، حلّ مشاكلك مع سيِّدي ربِّي فقط، هو من يغفر، وهو من يعاقب.

ـ أترككما معًا. ربِّي يخفِّف كربته فقط.

ـ وكرباتنا جميعًا.

ثم غادر مسعود الصالة الأندلسيَّة بعد أن عطَّرها من جديد، عائدًا إلى غرفته التي تشبه برج مراقبة.

شعرت مباركة برجليها مقيَّدتين بسلاسل ثقيلة. مشت قليلاً في الصالة الأندلسيَّة. تأمَّلت الحيطان الأربعة التي نامت عليها لوحات كثيرة. ثم عادت إلى مكانها، كما حدَّده الإمام زكريًّا

ـ أعرف أنَّي أضعك في عمق حالة الرعب التي عشتها قبلك، حتى استكانت مع الزمن ولم يعد شيء يخيفني.

هل عرفتَ الآن أسرار المرأة المخيفة العاشقة للأموات، بدل الأحياء؟ المسافة بيني وبينهم تضاءلت، حتى أصبحوا كلّهم يتشابهون. الأحياء أموات، والأموات أحياء. لهذا، لم أؤمن مطلقًا، في أيّ يوم من الأيَّام، بأنَّ ابنتي زهرة ماتت. وحتى تلك التي جاؤوا بها إلى حضني، لم تكن ابنتي أبدًا. لا هي شمَّت رائحتي وقبلت بي، ولا أنا شممت رائحتها وأرضعتها للمرأة شعور أموميّ سرّي لا أحد يفهمه. خيمياء خاصَّة من الصعب شرحها لك. لا يمكنك أن تفهمها يا سيِّد لوط، لأنَّ إحساسك بُني بشكل مختلف. يمكنك أن تقول ما تريده. يمكنك أيضًا أن تكذب عليّ كما تشاء. وكذبتَ حتى استنفدتَ كلّ المحاولات، لكنِّي كنتُ أعرف أنَّ ابنتي سُرِقت في يومها الأوَّل، ولم تصلني. لا يمكن لمولود تربَّى في بطن أمِّه تسعة أشهر، أكل منها وشرب من جسمها، واستحمّ في روائحها، ألَّا يعرفَ أمّه. لا يمكن. لم ترضع ثدييَّ، ولم أشمّ شيئًا منِّي فيها. ثم فجأة في اليوم الموالي، يقولون لي إنَّها ماتت بجفاف جسمها؟ لأنَّها كانت ترفض أن تشرب حليبي الذي جفّ فجأة؟ لست أُمِّيَّة إلى هذا الحدّ، إذ يمكنها أن تبقى تحت المصل السيروم مثلاً، أو يعطى لها السكَّر والماء أو الحليب الاصطناعيّ. لم نكن في قفر، كنّا في مستشفى حديث اسمه ابن سينا، كلّ نساء المسؤولين يلدن فيه. هذا، سيحفظها على الأقلّ حيَّة حتى يُحلّ مشكلها الغذائيّ. جئتموني في ذلك الصباح الشقيّ، كمن يزفّ لي خبرًا عظيمًا: *البقاء لله. إنّ لله ما أخذ وله ما أعطى. وكلّ شيء عنده بأجل مُسمّى، فلتصبري ولتحتسبي. زهرة ماتت.* نظرتُ إلى عينيك لحظتها، قبل أن تضمّني إلى صدرك. كم شعرت أنَّ محجريك فارغين من أيَّة حياة. لم يكن بهما أيّ شيء يقودني نحوك لأصدِّقك. ظللت مشدوهة حتى نوَّموني. بكيت الأسبوع بكامله، وفي النهاية،

استسلمت لقدر كان أكبر منيّ. اكتفيت بزيارة قبرها وعدتُ إلى صمتي. *هنا تنام قرَّة العين التي عاشت ثلاثة أيَّام، الملاك* زهرة بنت *لوط ومباركة. رحمها الله وأسكنها فسيح جنانه*. كان قبرًا جميلاً ولم تترك موسمًا، أو أعيادًا، أو جمعة، إلَّا ورافقتني لزيارة القبر لدرجة أنَّي غفرت لك الخطيئة التي كانت زهرة ثمرتها لكنْ ما لم أغفره لك وعليك أن تجد ما يقوّيك أمام ربّك، هو كذبك. إلى اليوم، ما زلت أتساءل كيف يمكن لرجل أن يكذب بهذه البرودة وهذه الراحة، إلَّا إذا كان مريضًا؟

بدوت لك كأنِّي كنت أسير بخطًى حثيثة نحو الجنون.

كانت شكوكي كبيرة. أصبحت كلّ يوم أقف على القبر بعد صلاة المغرب، وهي فترة مرعبة في مواجهة الأموات، ولكنِّي كنت أجدها اللحظة الأكثر سكينة. لا بشر فيها، وكلّ المرئيَّات التي تعبر في ذلك الوقت من قطط وكلاب وذئاب أحيانًا وحركة أكوام السّدرة، كلّها تتحوَّل إلى أرواح أو أشباح. لا أدري من أين جاءتني تلك القوَّة، ربَّما لأنَّه لم يعد لديّ ما أخسره؟ ربَّما. كنت أقف على قبر زهرة ابنتي وأطلب منها:

ـ أنت تنامين هنا إذا كنتِ ابنتي قولي. تكلّمي. أريد أن أسمع منك أيّ شيء لأرتاح.

لكنَّ القبر لا يردّ. مرَّة واحدة أحسست أنَّه ردّ عليّ. عندما سألتها السؤال اليوميّ نفسه، سمعت صوتًا يخرج من القبر: لا تكثري *الدقّ على قلبي يا أمِّي*. لا *عليك. أنا أحبّك. أنا ابنتك* زهرة. في البداية، ارتعشت قدماي، لكنِّي سرعان ما عرفت الصوت: عكاشة حرام عليك، ظننتك روح زهرة.

ـ أنا أيضًا أحببت زهرة، لأنَّها منك وتعيش في حضنك.

ـ ماذا كنتُ سأفعل لولاك؟ أنت أيضًا مثل ابني يا عكاشة، لهذا أثق في ربِّي.

ـ والله خائف عليك يا ميما مباركة. أصبحوا يشيعون في الشِّيرة أنَّك تناجين الأموات، وأنَّك تدروشت وأنَّك في طريق الهبال. طبعًا، أنا أعرف الحقيقة وأحاول أن أقنعهم، لكنَّهم أشرار. يقولون إنَّ مصدر الإشاعة خرج من بيت كازانوفا، وهم لا يردِّدون إلَّا ما سمعوه.

ـ أناجي زهرة التي سُرقت منِّي. هل جرَّب الذين يراقبونني من وراء الأشجار، والحيطان الواطئة، وزجاج نوافذهم المطلَّة على المقبرة، ما معنى أن تشعل نارُ الفقدان، أمومتك السخيَّة؟ في النهاية، لم أعتد على أحد. لا أفعل شيئًا سوى أن آتي إلى هنا، أجلس وأخدم وأحبّ الموتى، بعدما فشلت مع الأحياء.

لا أدري لماذا ظللت تتبعني وتقتفي آثاري، مع أنَّي خلّصتك منِّي بسهولة؟ كنتُ قد تعبت من كلّ شيء. وذات يوم، قلت لك وأنا في قمَّة إجهادي: *لم أعد أصلح لك. أطلق سراحي يا لوط*. وكأنَّك كنت لا تنتظر إلَّا ذلك. زواجنا دينيّ وغير مدنيّ. *لن يكلِّفك أيَّة نفقة*. كنت سعيدة، لأنِّي اختصرت عليك، وعليّ أيضًا، مسافة كنّا سنصل إليها بعد مدَّة كانت ستقصر أو تطول. عدت لخالتي وانضممت لطيَّابات حمَّام لالَّة الجوهر البقيَّة تعرفها.

لمَّا كانت تنتابني حبيبتي زهرة، كنت أهرب نحوها مساء. كلّ ما وجدتَه في النهاية، أنَّك اتَّفقتَ مع جهات غامضة، اتّهمتني بالجنون. صوَّرني زبانيّتك وأنا أجول بين القبور كلّ مساء. قيل عنِّي الكثير، أقلّه حفر قبور الموتى لأغراض السحر الأسود. زجُّوا بي في مستشفى

الأمراض العقليَّة. أدركت بسرعة أنَّك كنتَ تقودني نحو قبر صنعتَه لي على مقاس جنوني على حبيبتي زهرة. من كثرة الأدوية التي فرضها الأطبَّاء في المصحَّة، كنت أبدو لك بلهاء، وكان يجب أن أكون كذلك لأستمرّ في الحياة. فجأة، استدركت أمري، وبدوت شديدة الرزانة. أطبَّاء قسم الأمراض العقليَّة، بعد محاولات كثيرة، خلصوا إلى النتيجة أنَّي كنت في كامل قواي العقليَّة، ولا يوجد مبرِّر لبقائي في المصحَّة. تظاهرت بأنِّي آمنت أنَّ ابنتي ماتت. وأصبحت لا أزور المقبرة. وانتهت قصَّة مستشفى الأمراض العقليَّة نهائيًّا

يوم امتلأ قلبي، جاءني عكاشة. كان يعرف كلّ حواسّي ومأساتي وآلامي. وقف ورائي وأنا أستعدّ للصعود إلى المقبرة. كان قلبي ممتلئًا قيحًا وخوفًا الكابوس الذي رأيته قد سكنني نهائيًّا بقوَّة. تكرَّر معي سبع مرَّات متتالية. صراخ حبيبتي زهرة كان يقطع قلبي. سمعته. *أمِّي أنقذيني من هذه الحفرة العميقة، أحبّك يا ميما ولا أريد أن أظلّ تحت التربة العمر كلّه*. طلبت من عكاشة الذي كنت أجد صعوبة في ندائه بالاسم الذي ألتصق به كابي، ابن الفراغ، وحفيد العدم، ***Fils du Vide et Neveu du Néant*** كما يسمِّي نفسه. أمَّنته على سرِّي، ليس سرّ جماع الأموات الذي أصبحت أمارسه بعد بيع لالَّة الجوهر لحمّامها، فذاك كان لي وحدي، حديقتي السرِّيَّة. أجبرته على أن يقسم على المصحف الشريف الذي أحضرته، وقلت له توضّأ، ففعل مستسلمًا لجنوني.

ـ أقسم على الكتاب أن تحفظ السرّ. كلّ ما سنفعله إن أنت ساعدتني، سيبقى في قلبك وقلبي إلى أن يستعيد الله تربته وبحره وكائناته وجماده. حتى إذا اخترتَ أن لا تساعدني، أقسم بأنَّك تحفظ السرّ.

على الرَّغم من أنَّي أعرف أنَّ ما بين كابي والله، مسافة، وحده كان

يعرف مدى اتّساعها أو ضيقها فوافق من دون أن يسألني عمّا كنت بصدد فعله.

ـ خوّفتني يا ميما مباركة. ومع ذلك، نعم، سأحفظ السرّ إلى أن يستعيد الله تربته وبحره وكائناته وجماده. تعرفين أنّي مثل ابنك. أخاف عليك مثلما يخاف الذئب على عزلته. أفهميني فقط.

لم ألحظ أيّ تبرُّم في كلامه. كلّ ما قاله كان شديد الطيبة والوضوح. كابي، يشتغل بحاسَّة الذئب، لا يأكل إلَّا إذا جاع ولا يُخرج مخالبه إلَّا للدفاع عن نفسه.

طلبت منه أن يرافقني إلى المقبرة وأن لا يسألني إلَّا بعد العمليَّة. رأيت لمعانًا حادًّا في عينيه يشبه لمعة الذئب، عندما يُحاصر من كلّ الجهات، فيبحث عن منفذ افتراضيّ أو الجهة الأكثر هشاشة ليعبر منها

ـ أنت دائمًا تقول: متى أستطيع يا ميما مباركة أن أساعدك بكلّ ما أملك من حبٍّ وقوَّة. ها هو وقت المساعدة قد حان يا عكاشة حبيبي. لن أطلب منك سوى هذا ابنتي زهرة حرقت قلبي، ولن أرتاح إلَّا بهذا.

ـ ماذا عليّ أن أفعل؟ تحت أمرك يا يمّا

ـ خذ فأسًا ورفشًا، وأحضر بطَّاريَّة ضوء وتعال. نلتقي في المقبرة، على العاشرة ليلاً، حيث يصبح كلّ شيء أسود وبلا ملامح. هناك ستعرف ما أنا بصدده. ولتأت جهنَّم بعد ذلك. سأرتاح إلى الأبد.

ـ الرفش والفأس موجودان في المقبرة، أنا أعرف مكانهما شاركت في حفر العديد من القبور في سبيل الله لأموات محتملين أو

ليس لهم من يقف بجانبهم. ماذا نربح غير الخير من وراء ستر الميِّت.

ـ أنتظرك هناك إذن على العاشرة ليلاً ما تنساش، جيب معك تليفونك، صوِّر كلّ شيء.

عندما وصلت، لم أجد إلَّا ذئابًا خلويَّة جائعة، كانت تحفر قبرًا جديدًا وضعت الباقة التي اشتريتها الليلة الماضية من شادي، في سوق كلّ شي. انتابتني موجة خوف لأوَّل مرَّة. ليس من الذئاب، فقد تعوَّدت عليّ، وتعوَّدت عليها، إذ تبدأ عواءها بعد صلاة المغرب، ولكن من شيء غامض كان يكبر فيّ كلَّما أقدمت على العمليَّة. نظرت إليّ الذئاب في البداية نظرات حادَّة، لكنَّها سرعان ما تركتني أنا وشأني، وعادت إلى حفرها. قلت في أعماقي إنّ هذه الذئاب غبيَّة. ماذا ستجد في جثث موتى التصق الجلد بعظامهم، ولا يوجد شيء فيهم يؤكل؟ ألم يكن من الأفضل لها الذهاب إلى مقبرة منارة سيتي الكبيرة والواسعة، عندها واش تأكل؟

وقفت بجانب قبر زهرة، من جهة رأسها تنهَّدت خوفًا من أن لا أستطيع تحمُّل ما سأراه. لم أستطع لجم آلامي ودموعي. *أنا هنا ميمة، زهرة حبيبتي ما تخافيش. جئت لأنزع عنك ضيق القلب والمكان.* فجأة، توقَّفت الذئاب وبدأت تنظر إليَّ. وبدأت أنا أنظر إليها إلى أن أحنت رؤوسها كلّها. ما السرّ الذي وجدَتْه في كلامي؟ قبض عكاشة على يدي بحنان وهو يهمس.

ـ يا ميما مباركة. أنا ابنك عند ربِّي. ما تخافيش. ما تبكيش ميما أختي زهرة ربِّي يرحمها، ويصبِّرك عليها

ـ ألم ترَ الذئاب الجائعة؟

ـ رأيتها تبحث عمَّا تأكله. لن تجد إلَّا عظامًا لا تخيفني.

الذئب لا يخاف من الذئب، ميما سأطردها.

صوّبَ بطّاريّة الضوء باتّجاهها، فلمعت عيونها الفوسفوريّة. أحسَّت بالعمى. هشّها فلم تتحرَّك. ثم رماها بحجرة ثقيلة قبل أن يكتشف أنَّها كانت جزءًا من شاهدة مكسورة. أغلب القبور هنا بلا أسماء. تفرَّقت وابتعدت قليلاً، وظلَّت ترقبنا من بعيد. كلَّما وجَّه نحوها بطّاريَّته، رأيناها متجمّعة تنظر إلينا.

ـ والآن؟ ماذا عليّ أنَّ أفعل بهذه الفأس؟ نزع يد ميت حديث الدفن مثلاً ههههه؟ أنت لستِ ساحرة لتفعلي هذا!

قالها ضاحكا أدركت أنَّه كان يمزح. رددت:

ـ باينة على وجهي. لو كنت سحارة راني بخير عليّ. أجبته ضاحكة. المطلوب منك يا حبيبي، أن تحفر قبر ابنتي زهرة فقط. أراها أوسّع قبرها وأُعيد دفنها كلّ ليلة تناديني، على مدار سبعة أيّام متتالية، تقف عند العتبة وتبقى تشكو باكية من الضيق. أصلّي عليها وأطلب لها الرحمة، وأبلغها أنَّها لم تكن ابنة خطيئة، ولكنَّها ثمرة ظلم لا ذنب لها ولا لي فيه. اغتصاب بشع لم يمزّق الغشاوة فقط، ولكنَّه مزّق الحياة أمامي إربًا إربًا، بلا أدنى رحمة. تمنَّيت أن تأتي زهرة في ظروف غير هذه، وتكبر في حضن والدين طبيعيّين، لكنَّ الحظّ لم يسعفني.

تمتم كابي وهو يتّكئ على الفأس:

ـ لكن ميما حرام. هو مجرَّد حلم أو كابوس؟

ـ طيّب، خذ البطّاريَّة، أعطني.

أخذت الفأس من يده تحت دهشته التي لم يصدّقها، وبدأت أحفر

ـ طلب واحد أرجوه منك كما أقسمت على المصحف. أن لا تفضحني أمام الناس، حتى لا يحوّلوني حقيقة إلى ساحرة ويلصقوا بي كلّ القبور التي تفتحها الذئاب الجائعة ليلاً لا تتعب نفسك. سأحفر بنفسي، بلا جميل أحد. ابنتي نادت أمّها ولم تناد أحدًا غيرها أنا سأوسّع قبرها

لكنّه، بعد الضربة الثانية بيديّ الثقيلتين، على الأرض الصلبة، قال:

ـ خلّيني ميما، أنا أعرف كيف أتصرّف.

وبدأ يحفر القبر وأنا أشدّ على البطّاريّة، وأحاول أن أثبّت يدي من الارتجاف. صوّرته بهاتفه. قال إنّه من النوع الجيّد. اشتراه من أحد سرّاق الشّيرا فجأة، وصل إلى صندوق حديديّ صغير، عندما نفض التراب عنه، بان صدأه في جوانبه. انتزعه من التربة التي التصقت به. أخرجناه بنعومة حتى لا يتفتّت بين أيدينا. ثم جلست على ركبتيَّ وأنا أرتجف. بسملت. قلت لزهرة أن تغفر لي، فأنا أفعل ذلك من أجلها واستجابة لطلبها. عندما فتحت الصندوق ارتعدت كلّ فرائصي، رأيت ظلًّا أبيض يخرج ويتماهى في ضوء البطّاريّة. عندما سألت عكاشة هل رأى شيئًا، قال: لا *يا ميما، إلّا التراب الذي تبعثر* بسبب صعوبة *فتح الصندوق*. ربّما كانت روحها السجينة، تحرّرت الآن؟

كانت العظام التي رأيت في تلك الليلة رقيقة وصغيرة ومنتظمة بشكل محكم، تبيّن جسدًا ممدًّدا طوليًّا. تأمّلته للحظات وأنا أتتبّع استقامته من الرأس حتى تحت. أعرف أنَّ رأس المولود يكون غير مدوَّر عندما يولد ثم يبدأ في الدوران، وكبيرًا، ولكن لا يمكن أن يكون بهذا الشكل المستطيل. نظرت إلى عكاشة تمتمت!

ـ هل ترى شيئًا حبيبي؟ هل ترى زهرة يا قلبي؟ قل لي إنّي مخطئة، وإنَّ بصري خانني، ونظري لم يعد طبيعيًا اقرصني لأستيقظ من هذا الخراب. قل أيّ شيء. لا تنظر إليَّ كأنَّك تراني للمرَّة الأولى في حياتك!

لم أستطع أن أصرف دمعي الذي نزل قويًّا

ـ ميما حنونة. أرى هيكلاً عظميًا لأرنب كبير.

ـ متأكِّد ممَّا تقوله؟ لست وحدي من يرى ذلك. أكِّد لي أرجوك ميما

ـ واضح يا ميما رأس أرنب، وعظامه. شوفي أسنانه الأماميَّة الطويلة. شكل فكِّه.

انهار على ركبتيه. وضع رأسه بين يديه.

ـ اسمحي لي ميما. كنت أظنّك تقولين أيّ كلام بسبب حرقة الفقدان. اسمحي لي. كنت ظالمًا لك. حتى أنا كنت أراك أحيانًا على حافَّة الجنون. حتى يوم أخذوك وخرجتِ مرتاحة من المصحَّة، دعوت لك الله في خشوعي: اللَّهمَّ احفظها يا ربّ. لا، ميما أنت لستِ مجنونة. أنت أمّ فقط.

ثم بكى طويلاً قبل أن يقوم ويبتعد قليلاً عنِّي، ويتقيَّأ أحشاءه كلَّها. في الظلمة، لم أعد أسمع إلَّا صوت تشنُّجات بطنه وهو يتقيَّأ، وكأنَّ سمًّا في داخله كان يمزِّقه بعنف.

ـ شفت يا عكاشة وليدي، لم أكن مخطئة أبدًا لم تكن زهرة، حبيبتي، مخطئة عندما نادتني إلى قبرها قلب الأمّ لا يُخطئ. كذَّب عليّ حتى النهاية. تخيَّل، كم سنة وأنا أقف كلّ صباح أترحَّم على أرنب؟ اغتصبني، ثم سرق حبِّي، ولم يمنحني حتى موتًا إنسانيًّا

طبيعيًا، أشفي به حرقتي من حين لآخر؟ زهرة حيَّة يا قلبي. حيَّة، في مكان ما. اليوم أروح له، وأطلب منه أن يأتيني بها من السماء وإلَّا من الماء.

ثم بدأت أبكي، ولم أجد من يسمعني إلَّا الأموات في قبورهم، وذئابًا يئست من لحم الأموات الملتصق بالعظام، فغادرت مكانها بحثًا عن مكان آخر

صوَّرنا كلّ شيء.

دفنت عظام أرنب جاءت به صدفة الأقدار، في قبر صغير حفره كابي بسرعة. ووضعت في القبر صندوقًا خشبيًّا صغيرًا كنت قد ملأته بألبسة زهرة التي أحضرتها لها، قبل مجيئها. أدركت يومها أنَّ ابنتي حيَّة وموجودة في مكان ما، وعليَّ انتظارها إن اقتضى الأمر، حتى آخر العمر

ـ كانت ضربة بفأس، في القلب. هل أنت معي يا لوط؟ هل تقدِّر فظاعة ما قمتَ به؟ أم يبدو لك مجرَّد حكاية تُحكى، ثم سرعان ما تنساب مع الوديان نحو الأغوار والأنهار لتنتهي في البحر قبل أن تغرق في العدم؟

صمَّمت أن أقدِّم شكوى رسميَّة للقضاء. لكنْ سابقة دخولي إلى مستشفى الأمراض العقليَّة أضعف من إرادتي، وحجّم حجَّتي. ثم. في النهاية. ماذا تساوي خادمة أمام القانون العام يا سيِّدي؟ عندما جرّبتُ واشتكيت للسلطات العامَّة، والشرطة، في منارة سيتي، لم يسمعني أحد. سألوني عن مكان الإقامة. أجبت وأنا أتلعثم: الشِّيرا تغامز رَجُلا المباحث وصديقهم الثالث الذي كان يدوِّن الإفادة. فهمت كلّ شيء. لم أعلِّق. بدا لي العالم كلّه في ثقب أسود، يدور داخل فراغ بلا قرار. وقَّعتُ على الإفادة وخرجت، وأنا أعرف سلفًا أن لا

شيء سيحدث. *القاضي في جيبك* كما كنت تقول لي دائمًا، كلَّما حاولت أن أتحرَّك. *ولا داعي لخلق مشكلة أنتِ في غنى عنها* نُصِحتُ برئيس البلديَّة، فلم أكلِّف نفسي حتى بالحديث معه. الوحيد الذي أبدى رغبة في المساعدة، بدتْ لي صادقة، هو نائبه الأوَّل، الذي كان في الأصل مديرًا للثانويَّة التي درست فيها فترة من الزمن. استقبلني في مكتبه، وكاد أن يبكي عندما حكيتُ له بالتفصيل المملّ، القصَّة من البداية حتى النهاية. بكيتُ حتى أحرقتني عيناي. قال لي *حزنك وصل، وإن شاء الله تسترجع لك الدولة حقَّك. أمرّ اليوم مساء آخذ الأوراق منك. حضّريها كلّها، ونكلِّف لجنة مختصِّين، يُعيدون حفر القبر، ونحلّ المشكلة نهائيًّا، ويُعاقب المسؤول بشدَّة*. وجاء. شممت رائحة عطره من بعيد. كنت أنتظره وفي قلبي سعادة غامرة. أخيرًا، سيسقط الطاغية بين أيدي العدالة. حضَّرتُ له الملفّ كاملاً، بما في ذلك التقرير الطبِّي عن اغتصابي. وصور القبر، وعظام الأرنب الكبير فجأة احمرَّت عيناه، فلم أشعر براحة. وفي كلّ حركة كان يغرس نظره في جسدي، يتفحَّصني، من رأسي حتى قدميَّ. وكلَّما التفتُّ نحوه، يهرب منِّي وينظر بعيدًا قلت ربَّما خجلاً على الرَّغم من عدم قناعتي بذلك. قلت له *اسمح لي ثانية واحدة*، نسيت وثيقة مهمَّة. من حظِّي كان عكاشة في أسفل البناية. ناديته، فصعد راكضًا لم أسمع منه يومًا كلمة لا أستطيع، كأنَّ الله أنزله من السماء. قلتُ له *أرجوك جيب باطا غاطو وارواح*[1] وتركت الباب مواربة قليلاً، وعدت إليه. وضعت الورقة، كانت أيَّة ورقة، شهادة ميلاد. قلت له ضعها في الملفّ ربَّما أفادتك. قال بوقاحة لم أستغربها، لكنِّي استغربت سرعتها

(١) اشتر لي علبة غاتو، وتعال.

- *تعرفين يا مباركة، سيِّدنا إبراهيم نفسه ما صبر على لالَّة سارة، فكيف أصبر أنا عليك؟ أساعدك، لكنْ يا لالَّة لا شيء يسير من تلقاء نفسه، ادهن السير يسير.*

- *تعرف حالة الفقر. الله غالب، سأحاول أن أحصل على ما أستطيعه. حالة طيَّابة الحمَّام يا سيِّدي؟*

- *المرأة عندها دائمًا مفتاح حلّ المشاكل. ليس شرطًا أن يكون الدفع نقدًا*

شعرت بدوار. سعدت بعكاشة الذي دخل في اللحظة نفسها وهو يمسح مخاطه، من شدَّة البرد في الخارج.

- *هذا كابي وليد جارتنا، اللي يسخر لكلّ الناس.*

- *واش يدير هنا*

- *يبات عندي، لأنِّي نخاف وحدي، منذ وفاة خالتي ربِّي يرحمها*

أخذ الملفّ. لم يشرب القهوة، ثم خرج وهو يكرِّر في جملة أصبحت تشبهه.

- *راح نشوف هذه القضيَّة مع رئيس البلديَّة. راح نشوف القضيَّة.*

كنت على يقين مسبق بأنَّه سيرمي الملفّ في أوَّل مزبلة تقابله. وربَّما سيعقِّد الأمر أكثر عليّ، ويكبِّرها سيوصلها إلى رئيس البلديَّة الذي سيتَّصل بك هاتفيًا، وأُتَّهم بنبش القبور. لكنِّي كنت أعرف أنَّه لن يفعلها، لأنَّه سيعقِّد الأمر عليه أيضًا

أنا نفسي نسيت كلّ شيء. لم تعد مقبرة الشِّيرا تعني لي شيئًا توقَّفت عن زيارة قبر زهرة. حتى شادي، الذي كنتُ أصادفه من حين لآخر في سوق كلّ شي، يبيع ورودًا، وآخذ من عنده باقة صغيرة

لزهرة، قال لي وهو يبحث عن لغته: *خالتي مباركة توقّفت عن الزيارة. الميّت ينتشي بالورود. في أعماقي أضحكني. أجبته: انتهى يا شادي حبيبي. الميّت قام من بين الأموات، واختار الحياة. لم يفهم الشيء الكثير. قال: عندك الحقّ خالتي مباركة. ثم ابتلعته سوق كلّ شي.*

من ذلك اليوم يا سيِّدي، لم أزر المقبرة، كمن شفي بشكل غريب من داء سكنه طويلاً وأقنعت عمِّي مسعود، الذي كنتَ قد كلَّفتَه، حتى ونحن مفترقان، بأن يأتيني كلّ صباح جمعة بباقة ورود كبيرة، لأزور قبرها وأضع الباقة عليه، ثم أترحَّم عليها، قبل أنَّ يمرّ أطفال سوق *كلّ شي* ويأخذوها، أو يستلمها مجنون من الذين يتعاطون المخدّرات، ويبيعها في سوق *كلّ شي*، أو يهديها لحبيبته. في الشِّيرا، لا يفرِّقون بين أنواع الورود، كلّ شيء نوَّار. كلّ شيء يصلح لكلّ شيء. حدث معي أن رأيت صبيًّا أعرف والدته الفقيرة التي تعمل في تنظيف مراحيض المدرسة، في سوق *كلّ شي*، يبيع باقة طبق الأصل مثل تلك التي كنت قد وضعتها صباح الجمعة على قبر زهرة. سألته عن اسمه، قال *شادي*. *ثم سألته ثانية* من أين اشترى باقة الورد، ومن نظَّمها له بتلك الطريقة الأنيقة؟ ضحك وقال، *هذه من المدينة العالية يا عمَّتي مباركة، وليست من هنا هناك عندهم ذوق ووقت كاف لفعل ذلك. في الشِّيرا* لا شيء، *كوّر واعطِ للأعور*. لا أدري كيف ضحكت من مثله. نسيت غضبي. فهمتُ كلّ شيء. من يومها، أصبح صديقي. يترك الباقة ليلة على قبر زهرة، بل أصبح يحرسها من السرّاق، وفي اليوم الموالي يأخذها لم أعلّق ولا بكلمة واحدة. انصرفت، بينما انهمك هو مع امرأة، باعها الباقة ثم غاب في أعماق سوق كلّ شي، لا يلتفت وراءه.

ـ أوووووف. ماذا أقول يا الله؟ تعرف كم من سنة سرقتَ من

عمري يا لوط بسبب زهرة التي قتلتها قبل أن تفتح عينيها؟ ماذا كنتَ تنتظر منِّي غير أن أصبح مجرمة وقاتلة. أشمّ رائحة زهراء الآن، وستعود بمجرَّد خروجك من هذه الدنيا. كذبتَ عليَّ كثيرًا يا لوط، وماذا ربحت غير قبر يفتح فمه بكلِّ اتِّساع في انتظارك؟

ربَّما لو بقيت ملاكًا، كما كنتُ، قبل أن تسرقني في غفوتي، لسامحتك، لكنَّك قطعت لساني، وأحرقت قلبي وجناحي، ولم تترك لي ما يساعدني على الاستمرار في الحياة سوى حلم اللقاء يومًا بزهرة. لا أستطيع فعل أيّ شيء من أجلك يا لوط. أنت لا تحتاج لي لأسامحك، ولكنْ إلى ربّ يشبهك، ومستعدّ أوَّلاً لأن يسمعك، قبل أن يفكِّر في أن يغفر لك أو لا لا أحد غيرك يستطيع أن يفعل شيئًا من أجلك. حتى البكاء لم أعد قادرة عليه، فقد امتصصتَ نصف حياتي، وربَّما كلّها تمنَّيت لو فعلتُ فيك ما فعلته في والد رشا، لكنِّي وصلت متأخِّرة كثيرًا لأنِّي في كلّ مرَّة أقول: *وماذا أقول لزهرة عندما تسألني عنك؟ إنِّي قتلتك؟* فأُحبَط. لأنّني أجدني مكبَّلة. لن تغفر لي مهما قدّمت لها من أسباب. اليوم، أنا من لا تغفر لنفسها، لأنَّه كان يجب أن أنتهي منك في وقت مبكر كان يجب أن لا أسمع لزهرة في هذه على الأقلّ.

ـ هل تسمعني يا لوط؟ هل سمعتَ الحمم التي لم تكن تراها، أو لا تريد أن تراها؟ *لا أعتقد، فأنت تعوَّدتَ أن لا تسمع إلَّا نفسك. ومن لا يسمع إلَّا نفسه، ينس وجود الآخرين. لقد انتهى كلّ شيء وأشعر براحة كبيرة. كبيرة أكثر ممَّا تتصوَّر. أعرف أنَّك ستعود إلى جحيمك الذي تربَّيتَ فيه، وإلى حممك التي جئت منها، إذ لا يمكن أن تكون قد وُلِدتَ من تراب.*

اهتزّ كازانوفا في مكانه كأنَّه غير مصدِّق كلّ ما سمعه.

هذه المرَّة لم يصرخ، لكنَّ شيئًا ما كان يسدّ حلقه ويضغط على رقبته بقوَّة ليوقف حركة الدم في كامل جسده. احمرَّت عيناه وجحظتا حرَّك رأسه بصعوبة يمينًا وشمالاً بدون أن يتنفَّس. ثم انتابه سعال طويل كاد يخنقه، تبعه صراخ يشبه هذه المرَّة حالة ندب في كورس جنائزيّ. كانت صرخاته مفرغة. بلا إحساس. بلا ذرَّة حياة.

نظر لوط إلى مباركة. بدا الحزن واضحًا في ملامحه المنكسرة، وعلى جبهته التي ظهرت طيّاتها الكثيرة وتعمّقت، فأعطته عمرًا أكبر من سنّه العادي.

ثم شيئًا فشيئًا، تثاقلت عيناه ككلب مجروح في رأسه وصدره، تستجديان منها رصاصة الرحمة، لم تجد أيَّة رغبة في أن تمنحه ذلك. تمتمت وهي تقف عند العتبة وتنظر صوب السقف الزجاجيّ.

ـ لا يا لوط. لا أستطيع. إلَّا رصاصة الرحمة، لن تنالها منِّي أبدًا

ـ ٣ ـ زِينَا

مُولِي التي لَمْ تُعَمِّرْ طَويلاً

١

الجوّ بارد.

وضعت زينا رأسها بين يديها، وبدأت تتأمَّل كلّ ما كان يحيط بها. كانت تريد أنَّ تنتهي من كلّ شيء بسرعة، لأنَّها لا تشعر بنفسها معنيَّة كثيرًا بالرجل. هو اختار وهي اختارت، وافترقا بدون مشكلات وحرائق كبيرة.

تمتمت وهي تبحث عن كلماتها الهاربة.

ـ ماذا أقول لك يا نوڤا؟ ربَّما كنتُ أفشل نسائك في الحديث والمواجهة. أنا أجد صعوبة كبيرة حتى في الحديث مع نفسي. إذا أخرجتني من دار الأوپرا، أُصاب بالخرس. حقيقيّ. لا تنتظر منِّي الشيء الكثير. جئت في النهاية احترامًا لك، متمنِّية لك بعض الراحة، بعد كلّ ما عانيته.

كانت تنتظر خروج مسعود الذي ظلَّ مشغولاً بوضع كازانوڤا. لتتمادى في الذي جاءت من أجله.

أخذ جهاز التحكُّم في المكيِّف. حاول أن يجد توازنًا بين البرد والحرارة. فهو إذا زاد من تدفئة الصالة الأندلسيَّة، شعر بأنَّ الموت يكبر مع الحرارة وإمكانيَّة التحلُّل السريع تزيد. وإذا أنقص منها، خاف من أن يتجمَّد سيِّده. عليه أن يجد الحالة الوسطى الصعبة التي يشعر فيها كازانوڤا أنَّه في وضع مريح. أصبح يراقب ذلك من عينيْ كازانوڤا حالة بريقهما الزائد لدرجة انعكاس الضوء وكأنَّه يسقط على قطعة زجاج مسطَّحة، تعني أنَّ الحرارة مرتفعة على تحمُّل جسده، قليلاً، وعليه أن يُنزلها ببعض الدرجات حتى يستقيم الوضع. وإذا لاحظ حالة ذبول في العينين وتكوّن قشرة رقيقة عليهما، هذا يعني أنَّ حالة البرودة منخفضة كثيرًا، وعليه أن يرفعها بعض الشيء. وكلَّما ضبط الوضع جيِّدًا، شعر بقليل من الراحة تنزل على وجه كازانوڤا وتُعيد له بعض البريق، بريق إنسان على حافَّة الموت، وأنَّ رائحة الموت انسحبت موقَّتًا، ومساحاتها الباردة والبيضاء تقلّصت، وبقاياها لم تعد موجودة في الصالة الأندلسيَّة أو تكاد.

بعدما انتهى من ترتيب درجة الحرارة بحسب ما يتحمَّله جسد كازانوڤا، ووضع كمَّامة الأوكسجين على فمه للحظات، شعر مسعود بأنَّ كلّ شيء على ما يرام، وأنَّ الوضع طبيعيّ لمواصلة جلساته مع نسائه.

احمرّ وجه كازانوڤا قليلاً حرَّك أصابع يده التي كانت متجمِّدة قليلاً شعر مسعود كأنَّه يريد أن يقول شيئًا. اقترب منه أكثر، ثم انحنى عليه لدرجة أن كاد يلامس وجهه المتعب. أذنه ملتصقة بفم كازانوڤا من الجهة اليمنى، لأنَّ سماعه من هذه الناحية لم تؤثِّر عليه الأزمة القلبيَّة والجلطة التي قادته إلى المستشفى. تمتم بكلمات مبهمة، لكنَّ مسعود فهمها من صوته الغائب وحركة شفتيه.

ـ فهمتك يا سيِّدي لوط. فهمتك جيِّدًا. تريد أن أعطِّر المكان بعطر الخزامى، لأنَّها عطر لالَّة زينا المفضَّل. سأفعل يا سيِّدي، ولو أنِّي عطَّرته قبل دخولك إلى هنا بعطر البرتقال.

وقبل أن يفتح بخَّاخ الخزامى، شمّ مسعود رائحة كريهة بدأت تجتاح الصالة الأندلسيَّة، تشمَّم فراش كازانوڤا، عرف أنَّها كانت تأتي منه وليس من مكان آخر

ـ فهمتك الآن جيِّدًا لم أفكِّر في هذا من قبل. لن أرشّ الخزامى إلَّا بعد تنظيفك. أمرك.

الآنسة زكيَّة غير موجودة. ممرِّضة تعمل مع مرضاها في بيوتهم. تقول إنَّها تجد المستشفيات متَّسخة ولا تحترم ضوابط الصحَّة الدنيا خرجت موجوعة من الدار الكبيرة، لكنَّها علَّمتني كيف أقوم بهذه المهامّ أثناء غيابها. امرأة طيِّبة كثيرًا، وحضورها مريح جدًّا. تعمل وتتقن الأشياء. عندما أريد أن أساعدها، تقول لي صراحة: *يا عمِّي مسعود هذا العمل ليس جديدًا عليّ، لكنْ جيِّد أن تتعلَّمه، يكون بالأوَّل مقرفًا، لكن مع الوقت يصبح عاديًّا ويشبه كلّ الأعمال. لقد تعوَّدت عليه مع والدي يرحمه الله. كنت أحيانًا عندما يغرق في فضلاته، لا أكتفي بتنظيفه بالمحارم المعطَّرة، كما تفعل أغلب الممرِّضات، أغسله في الحمَّام مثل طفل. مع الزمن، تحوَّل هو نفسه إلى طفل باستسلامه لي.* الآنسة زكيَّة امرأة تشبه ملاك الرحمة في كلّ شيء. عندما تقف على رأس الإنسان، تشعره بالسعادة الكبيرة والسلام. كان سيِّدي لوط يسعد بها، بالخصوص في البداية، عندما كانت حالات الوعي تستمرّ معه طويلاً، ولا تأخذ أكثر من حقّها وعندما أسلِّمها إكراميَّةً يكون سيِّدي قد أمر بها، نظرًا لعطفها معه وحنانها عليه، تقول *ما عليهش ربِّي يكثِّر خير سيِّدي لوط. اشتر بها*

أكلاً وأدوية وألبسة، وأعطها لمن هم في حاجة لها راتبي يكفيني يا عمّي مسعود. *القناعة في القلب وليست في البطن*. أخرج في اللحظة نفسها من البيت، وأمرّ على الصيدليَّة، والقصّابين، ومحلّات الألبسة، يكون في رأسي مجموعة من فقراء منارة سيتي السفلى، أشتري الحاجات الضروريَّة، وأسلّمها مباشرة لأصحابها هذه المرَّة غابت لدواع صحّيَّة، ربَّما تعبت هي أيضًا من طول المدَّة وفعل التكرار. استمرار الأشياء يرهق الإنسان ويكوّن داخليًّا حالة من الإجهاد. عوّضتُها بعد أن تعلَّمت منها كيفيَّة التعامل مع المريض.

ـ أنت تسمعني جيِّدًا أرى هذا في عينيك المرتاحتين. آن أوان الحمَّام يا سيِّدي. أبدِّل لك الحفّاظات. لالَّة زينا هنا، في انتظارك. من واجبي يا سيِّدي أن أُنَظِّفك لتكون في أبهى صورة أمام امرأة ربَّما كانت الوحيدة التي لم تطالبك بأيِّ شيء. هذا لا يساوي شيئًا أمام خيرك الكبير، وطيبتك العالية، وأمام محبَّتك لي ولغيري. منذ أن قَدِمتُ برفقتك من الصحراء إلى هذا المكان الذي أدهشتني رؤيته، والناس اللي فيه، وأنا أشعر بأنَّ لي حائطًا سميكًا يحميني. كيف سنكون بعدك يا مولاي؟ لكنَّ ثقتي في الله كبيرة.

فتح مسعود مكبح عجلات السرير الطبِّي، ثم سحبه إلى الوراء قليلاً قبل أن يدفعه إلى الأمام. اتَّجه به مباشرة نحو الحمَّام الواسع. حمل كازانوفا بين ذراعيه، كما الطفل الصغير. كان هزيلاً كورقة صفَّرها خريف قاس. فتح الحنفيَّة وانتظر قليلاً حتى أصبح الماء دافئًا نزع الحفّاظة الكبيرة المتَّسخة. وضعها داخل كيس بلاستيكيّ محكم الغلق، ثم رماها في سلَّة كانت بجانبه. رفع رجليه قليلاً ونظَّفه بمنشفة غسلها العديد من المرَّات تحت الحنفيَّة. وضعه داخل المغسل الواسع. نظَّف نصفه السفليّ الذي كان قد غرق في الفضلات بسبب

إسهال مفاجئ، كما تفعل أمّ مع صغيرها، بصابون سائل يُستعمل في الأصل للأطفال، لأنَّه يقي من التهاب البشرة الحسَّاسة. ثم بحركة سريعة، مرَّر منشفة إسفنجيَّة على كلّ مؤخِّرته وبين رجليه، وداخل سرَّته، وبين إليتيه، ثم كبّ الماء الدافئ عليه من جديد. نشَّفه جيِّدًا بمنشفة معطَّرة بماء الزهر، قبل أن يضعه على سرير حديديّ يشبه طاولة مفرغة. وغطّاه موقَّتًا، بعد أن وضع له الحفَّاظات الجديدة، وسدّها بمطَّاطها الملتصق بها غيَّر الأفرشة والأغطية الحريريَّة من على السرير الطبِّي، وقطعة البلاستيك التي تمنع تسرُّب البول داخل الفراش. نظَّف السرير كلّه بمادَّة الديتول المعطَّر، حتى غابت الرائحة الكريهة وجراثيمها كلِّيًّا. ثم سحب البخّاخ من تحت السرير ضغط عليه سبع مرَّات. فانتشر عطر اللافندا في كلّ أرجاء الحمّام. تشمَّم مسعود كأنَّه يبحث عن مصدر الروائح الكريهة، فلم يجد شيئًا

ـ الآن، سيِّدي أحسن وأجمل. أصبحت مَلِكًا متوَّجًا نعود إلى الصالة الأندلسيَّة لتكمل توديع نسائك والتسامح معهنّ. لالَّة زينا في انتظارك. هي طيِّبة ولن ترهقك. ألم ترها؟ نسيت كلّ شيء، وغرقت في الألوان والحيطان. هي هكذا دائمًا فنَّانة.

أغمض كازانوڤا عينيه، ثم أنزل يده واستكان بعد أن شعر ببعض الراحة.

عندما فتح عينيه، رأى السماء المتخفِّية من وراء الغطاء الزجاجيّ الذي يغلق سطح الدار. ضغط على يده لكي يقف قليلاً في ساحة الدار قبل أن يدخل إلى الصالة. تنهَّد عميقًا، بينما ظلَّت عيناه مرتشقتين في أعالي باحة الدار. شعر مسعود كأنَّ كازانوڤا سمع نقرات الأمطار التي كانت تأتي من السطح العالي، ومن حديقة غرفة VIP

ـ تمنَّيت أن أفعل من أجلك، ما هو أكثر يا سيِّدي.

أدرك أنَّك في هذه اللحظة تتمنَّى أن تجلس على كرسيِّك الهزّاز في وسط الباحة، بجانب النافورة الرخاميَّة، وتشرب قهوتك المسائيَّة مداعبًا خدمك الطيِّبين بتواضعك الكبير، بالخصوص زكيَّة، التي أتيت بها من أطراف منارة سيتي، عندما سمعت بعملها الجيِّد وإخلاصها هي أيضًا تتآلف معك وتسهر عليك أكثر من ابنتك، ولا تتمنَّى شيئًا من الدنيا سوى خدمتك. الوحيدة التي كانت معك يوم أُصبتَ بالسكتة الدماغيَّة والأزمة القلبيَّة، وهي من أخبر الطبيب، لأنَّها هي أيضًا من كان يشرف على فطورك، برفقة ميمونة التي كانت تساعدها في ترتيب الغرفة والسهر عليك. أمَّا مدام شانيل، فهي من كان يلبسك بالمناسبات والاستعداد للخروج إلى موعد مهمّ أو حفل خاصّ. منذ مرضك، توقَّفت عن المجيء، لأنَّه لم يعد لها أيّ عمل في البيت. في الحقيقة، بشير، ابنك، هو الذي أوقفها عن العمل نهائيًّا. عندما رآها ذات صباح، أوقفها عند الباب. سألها: *وين هذه الهزّة*؟ أجابت: *أُهيِّئ سيِّدي لوط لاستقبال ضيوفه*. أجابها ببرودة هي مزيج من السخرية والمرارة: *سيِّدك لم يعد قادرًا على استقبال أحد. وبالتالي، انتهت مهمَّتك*. هزَّت رأسها كأنَّ الأمر لم يكن يعنيها: *هل لي أن أودِّع سيِّدي*. أجاب: لا هو في غيبوبة. *حقوقك ستصلك حتى المليِّم* الأخير. من ذلك اليوم لم نرها. زكيَّة هي الوحيدة التي قاومت العواصف، لأنَّ الحاجة لها كانت حيويَّة وماسَّة. أعطاها الله كلّ صفات الوفاء، والخير، والجمال، والعقل. تقدِّم لك فطورك قبل الخروج، ثم تعطيك دواءك. تطمئنّ عليك، وتنزل عند بقيَّة أفراد عائلتك في ساحة الطابق الأرضيّ، جدّ مطمئنّة. بريق عينيها يشعّ في وجه كلّ من رآها سعيدة، *لأنَّ سيِّدي يتحسَّن وهو بكلِّ الخير*. فكَّرت في مرَّة من المرَّات، بيني وبين نفسي، واعذرني يا سيِّدي على

تدخُّلي، قلتُ: *لماذا لا يتزوَّجها سيِّدي لوط على شرع الله ورسوله؟ ما دامت هي هنا دائمًا، ولالَّة كبيرة تعبت ولم تعد قادرة على تحمُّل صعوبات الحياة. مباركة غادرت البيت. ولالّة روكينا لا تأتي إلَّا وفق مزاجها ووقتها.*

ماذا أقول يا سيِّدي؟ لولا نبل القضيَّة التي اعتمدتها، أن تلتقي بنسائك وتسمع حتى إلى عنفهنّ وقبح بعضهنّ، لقلت لك دعك من كلّ هذا لست في حاجة لاختبار قدراتك على التحمُّل، فأنت تحمَّلتَ وتتحمَّل كثيرًا لكنَّ إرادتك هي الأسبق يا سيِّدي. لا عليك، أنا هنا أيًّا كانت خياراتك.

كان يومًا مشؤومًا يا سيِّدي يوم السكتة الدماغيَّة القاسية التي كادت تسرقك منَّا أقسم بعينيَّ هاتين اللتين يأكلهما الدود، إنِّي رأيتها تعوي مثل ذئبة سُرق منها أبناؤها كانت تصرخ بأعلى صوتها *سيِّدي مات. سيِّدي مات.* طلبت سيَّارة من مستشفى ابن سينا أخذوك بسرعة. الحمد لله، الموت الذي تربَّص بك مرَّة أخرى، تخفّى، لأنَّك خرجت حيًّا من محنة قاسية. أعرف شوقك لهذا الفضاء يا سيِّدي. مكانك الأجمل عندما تعود مثقلاً من المتاعب، قبل أن تمتطي المصعد نحو الخُلْوَة التي كانت محطَّتك للراحة دومًا تداعب الجميع، قبل أن تسبقك زكيَّة برفقة ميمونة، تحضِّران لك سريرك في الشرفة ودواءك. يحسدونك على كلّ شيء، حتى على الحياة التي منحها الله للكلّ، حتى للنبات والجماد. هذه المرَّة، السكتة كانت قاسية قليلاً وأخذت منك بعض حواسِّك، لكنَّ قُوَّتك ستعيدك إلى الحياة مرَّة أخرى. متأكِّد من أنَّك ستعود، وستبني عرشك بالناس الذين تحبُّهم ويحبُّونك. تصوَّر يا سيِّدي: سمعت، وربَّما سمعتَ أنت أيضًا، قبل أيَّام قليلة، أنَّ زكيَّة انتحرت، بعد أن درَّبتني على تنظيفك.

رأيت يومها شيئًا حزينًا في عينيها قيل إنّها كانت حاملاً من رجل لم يعترف بحملها الناس لا يرحمون أحدًا إذا كان ناجحًا في جريدة الغاشي أيضًا، قرأت قبل يومين، في زاوية أخبار الناس، عن انتحار شابَّة وأعطوا كلّ مواصفات زكيَّة بدون ذكر لاسمها، لكنِّي أدركت بسرعة أنَّها هي الوحيدة التي تحمل خانة في الخدّ الأيسر، والذقن، وجرح صغير على الجبهة. تمنَّيت أن أسأل عنها، لكنِّي خفت من أن تكون القصَّة حقيقيَّة. تقول لالَّة كبيرة إنَّ الشرطة سألت إذا كانت ما تزال تعمل في تسيير البيت، فردَّت عليهم لالَّة كبيرة أنَّها منذ شهر من سقوطك في الإغماءة التي طالت، خرجت من البيت لأسباب عائليَّة، واستمرَّت في الإشراف على مأكله، ومشربه ونظافته، إلى أن عوَّضها مسعود في التنظيف، قالت إنَّ ظروفها العائليَّة لا تسمح لها بالتواجد يوميًّا

حرَّك كازانوڤا أصابعه وأصابع رجليه من جديد. في عينيه حمرة، وحركة ثقيلة لشفتيه تشبه همسًا لا يكاد يُسمع. انحنى مسعود من جديد عليه مقرِّبًا أذنه من شفتيْ كازانوڤا اليابستين. الجلطة الدماغيَّة تركت آثارها القاسية. إحدى أذنيه لم يعد يسمع بها *لكنْ لا بأس. ما يزال في سيِّدي شيء يجعل الاتِّصال ممكنًا في بعض الحالات، يكون الموت أهون. لهذا، فحالة سيِّدي لوط غير ميؤوس منها والله يأتي بعجائبه متى ما أراد ذلك. سمعت قصصًا غريبة عاد فيها أصحابها من موت أكيد. في منارة سيتي، تعشِّش مثل هذه الحكايات التي تزرع الأمل في المرضى. أنت أيضًا عنيد جدًّا. كان يمكنك أن تتفادى حالة مثل هذه لا تقود إلَّا إلى الموت الأكيد.*

ـ أفهم يا سيِّدي، معك كلّ الحقّ. هذه الصحافة تدير من الحبَّة قبَّة.

كما أمرتني حتى وأنت في نصف غيبوبة، لن أذهب عند ذويها لن أخبرهم بأيّ شيء عن زكيَّة. لن أتحدَّث عن المعركة التي قامت بينك وبينها، وكنت شاهدًا على لحظاتها الأخيرة، في زاوية البيت، سمعت أشياء كثيرة تتكسَّر. حتى زجاج النافذة المزدوج الذي تلقَّى شيئًا ثقيلاً، كاد أن ينفجر من شدَّة ثقل الجسم الذي أُلقي عليه. سمعت صوتها وهي تبكي يا سيِّدي، وشيئًا ثقيلاً يرتطم بالأرض، وصراخ زكيَّة: *لن تراني ثانية*. خفت أن يكون قد وقع لك مكروه. جريت إلى الخُلْوَة. وجدتها منحنية على ركبتها في قمَّة حزنها واستسلامها عرفت أنَّ خلافًا كبيرًا نشب بينكما، لكنِّي لمَّا رأيتك في حالة موت، أصبت بحالة ذعر حاولت أن أتلفن. عندي رقم الطوارئ. كنتَ قد أعطيته لي لمواجهة الحالات الاستثنائيَّة، لكنَّ السيِّدة زكيَّة كانت قد قامت بكلِّ شيء. كانت نبيهة يا سيِّدي، وشجاعة جدًّا. مسحتْ دمعها قالت *ساعدني في وضعه على السرير، وفي جمع أجزاء الإناء الفينيسيّ المكسور. خفت على سيِّدي من الموت وأنا أصرخ وهو يتهاوى. ركضت نحوه، فسقط الإناء الرخاميّ الغالي، فانكسر*. لكنِّي لم أفهم يا سيِّدي صراخها وكلمتها الثقيلة: *لن تراني ثانية. ابنك وليس ابني وحدي؟ اعترف به. تزوَّجني، وطلِّقني إذا شئت، وإلَّا سأنتحر. وربّ هذه الدنيا سأنتحر. لا وجه لي لمقابلة أهلي*. صاحب ذلك سقوطك الذي لم تستفق منه إلى اليوم. معك حقّ. الصحافة هكذا دائمًا، تجعل من الحبَّة قبَّة. هي عادت واهتمَّت بك أكثر من شهر يومًا بيوم، قبل أن تغادر لظروف عائليَّة على أمل العودة. حتى الخير الذي جئت به للبلاد، حوَّلوه إلى جريمة. لم تفتح بعد مصنع تركيب سيَّارات فورد في منارة سيتي، نزلوا عليك دقًّا، وشتائم، وحمَّلوك مأساة البلاد كلّها، وكأنَّك سرقتَ أموالهم وخيراتهم

الخاصَّة. اتَّهموك بالخيانة العظمى والتعامل مع الماريكان، وهم يأكلون في خرابه. الكلاب تنبح. خلّيهم يمرُّون بسلام، سيصمتون يومًا.

تجلس الآن أنت في مواجهة سماء أصبحت غائبة. تشتهي أن نفتحها الله غالب يا سيِّدي، إنّها تمطر في الخارج، ولا خيار لنا سوى غلق زجاجتيْ السقف. لكنْ عندما تعود إلى جميل عهدك، سنفرح بك جميعًا، ونجلس هنا، ونحضِّر لك القهوة التركيَّة التي تشتهي.

وكأنَّه لم يسمعه، أو كأنَّ مسعود لم يتكلَّم. ظلَّ كازانوفا مثبِّتًا عينيه في الفراغ، وفي السقف تحديدًا، كأنَّه يحاول أن يقول له بحركة عينيه المرتبكتين، *افتح السقف الخارجيّ، أريد أن ألمس المطر والسماء والغيم*. لكنَّ مسعود الذي فهمه جيِّدًا، أكَّد له مرَّة أخرى أنَّه لا يستطيع أن يفتح السقف، لأنَّ الجوّ ممطر في الخارج.

ـ ألا تسمع يا سيِّدي؟ عنف الأمطار يصل حتى سمعي وسمعك. إنَّها تسقط بعنف شديد.

العواصف كنَّست كلّ شيء في منارة سيتي.

ننتهي من جلساتك مع زوجاتك، وسأحاول أن أفتح سقف الدار كما تحبّ وتشتهي. أعدك بذلك يا سيِّدي. أخاف عليك من نزلة برد قويَّة، ووضعك الصحّيّ صعب، وأنت لم تنته بعد من المسامحة.

فجأة، جاءه صوت الإمام حادًّا من جهة غرفة الضيوف المميَّزين VIP

ـ ما هذا يا مسعود؟ يبدو أنَّك نسيت نفسك. لالَّة زينا تنتظر دورها منذ وقت طويل. نظَّمنا الوقت برضى الجميع. خلِّينا نحرِّر

النساء اللواتي ينتظرنك. هذه وصيَّة يا مسعود، وليست أمرًا عاديًا، وأنا مسؤول عنها أمام الله.

ـ أعرف يا سيِّدي، لكنِّي كنت أغسل سيِّدي لوط. عنده إسهال مفاجئ وثقيل. كان فقط يومئ لي بأن أفتح سقف البيت ليرى الشمس.

ـ سيول يا مسعود ليست مطرًا، لا يمكن. سيمرض لو فعلتَ.

ـ هذا ما كنت أحاول أن أوصله له.

ـ كلّ شيء جاهز في الصالة. زينا تنتظر دورها في غرفة الضيوف. سأرافقها إلى الصالة.

ـ رأيتها يا سيِّدي. كلّ شيء جاهز لم يبق إلَّا أن أضعه في مكانه الذي كان فيه.

ثم دفع السرير الطبِّي نحو الصالة الأندلسيَّة.

٢

قامت زينا من كرسيِّها

مشت قليلاً يصمت، متجاوزة الشَرْطيَّة التي فرضها الإمام زكريَّا ومعه مسعود. دارت من حول كازانوڤا قليلاً ثم قابلته. وقفت قليلاً تتأمَّله، وهو يحاول أن يتحرَّك صوبها بعينيه اللتين بدتا رائغتين، صافيتين، أقلّ ذعرًا ممَّا كانتا عليه في البداية. على الرَّغم من أنَّ حيرةً ما ظلَّت مبطَّنة في نظراته. سمعت أنفاسه وهي تبحث عن مستقرّ لها. لم تكن منتظمة، لكنَّها تحسَّنت بالقياس للبداية عندما أدخلوه لأوَّل مرَّة إلى الصالة الأندلسيَّة بعد تنظيفه.

لم تتحرَّك وكأنَّها شُدَّت إلى المكان. فكَّرت أن تقف على رأسه وتسمع شخيره وصفير صدره الذي يخفي ألمًا مبطَّنًا، وتحسّ بما كان يشعر به في تلك اللحظة القاسية التي يكون فيها الإنسان حرًّا، لأنَّه لم يعد لديه ما يخسره. وأنَّ لسانه الذي كان يزن الأطنان كلَّما حاول الكلام، تحرّر نهائيًّا، وأصبح فجأة أخفّ من ريشة.

هزَّت زينا رأسها قليلاً وهي تسترجع آخر جملة لمسعود، قبل أن يخرج ويتركها وجهًا لوجه معه. شعرت كأنَّه بالغ فيها كثيرًا *أنت أمام زينا، إحدى زوجاتك الطيِّبات المحبَّات لك، لأنَّها أكثرهنّ قربًا من قلبك، وأكثرهنّ ذكاء، وأقلَّهنَّ حقدًا على أخطائك معها، إذا وُجدتْ. هي سامحتك حتى قبل أن تدخل إلى الصالة الأندلسيَّة.*

ـ لا عليك يا عزيزي نوڤا أنا أمامك. قريبة لدرجة التماهي معك. زينا؟ أنا هنا من أجلك، أو من أجل ذاكرة مشتركة، لم تكن دومًا جميلة، لكنَّها هنا، وراء البوَّابات الخلفيَّة الثقيلة. وراء رائحة هذه الدار التي ظننت في وقت من الأوقات أنِّي سأموت فيها بعد سنوات طويلة جدًّا من الجهد والحبّ. المؤكَّد أنَّك تتذكَّرني. لكنْ يا نوڤا، الأقدار التي لاقتنا ذات صدفة، هي نفسها التي أخذتني منك، ورمتني بعيدًا عنك.

عندما مالت الشمس قليلاً في الخارج، انسحب الظلّ الذي كان يغطِّي جزءًا من الصالة الأندلسيَّة. رأت زينا وجهًا التصق جلده بالعظم، فبرزت الانثناءات بوضوح على مستوى الجبهة، وتحت العينين، وعند الخدَّين.

تمتمت وهي تحاول أن تهرب بوجهها بعيدًا

أكاد أشكّ في أنَّ الذي أمامي هو نوڤا، رجل اليقين المطلق. اعذرني. أنت لا تريد ذكر اسمك مبتورًا نوڤا تقول إمّا كازانوڤا أو لوط. عفوًا، أنا أفعل ما يفعله معك أصدقاؤك الأميركان. أسهل للتواصل. ***هاو آر يو مستر نوڤا؟ دير نوڤا. واو ماي غريت نوڤا!***[1] *تعجبني أيضًا، لأنَّها تقرِّبك منِّي بأقلّ جهد ممكن. لا*

(١) How are you Mister Nova? Dear Nova. Waaaw my great Nova!

أدري من سمّاك كازانوڤا؟ كان يبدو لي أنَّ نيّته لم تكن طيّبة. قلتَ من أيّام المدرسة، ومن ألصقها بك هو أستاذ الجغرافيا الذي لم تكن تحبّه كثيراً. كان عندما يراك محاطًا بالبنات، يناديك: كازانوڤا، تعال.
قلّل من البنات إذا أردت أن تنجح وتصبح شخصيَّة مرموقة، كما كنت تحلم دائمًا مال والديك لن يقودك بعيداً، سينتهي يومًا. مع الزمن، التصق بك الاسم نهائيًا ولم ترفضه، كان يمنحك نوعًا من الرضى النفسيّ والإحساس بالنجاح في مغامراتك. حتى عندما ذهبت نحو حياة كازانوڤا لتعرف سرّ الاسم الذي كنتَ تحمله، وقرأت عنه، خفت من نهايته التراجيديَّة والنسيان الذي تعرَّض له. وأصبحت تخاف من هذا القدر، لكنَّك كنتَ دائمًا تذكِّرني بأنَّك لم تعتدِ أبدًا على زوجة أيّ شخص، أنت في وضع يجعلهنّ يأتين نحوك، وليس أنت من يذهب نحوهنّ. وأنّك نمتَ مع نساء كثيرات، ولكنْ ليس ١٢٢ امرأة كما فعل كازانوڤا، وأنَّك أُعجبتَ بكلب لامرأة إسبانيَّة بيرو دي بيردي، وليس كلبة **فينات** مثل تلك التي كان يملكها كازانوڤا

كم كانت ثقتك في نفسك عالية! حتى الجوهر في كازانوڤا لم تكن تعرفه، وأخذتَ منه الصفة العاديَّة والذاتيَّة، ونسيتَ أنَّ الرجل كان في زمن التطرُّفات الكبرى والتحوُّلات الخطيرة السابقة للثورات التي غيَّرت وجه الأرض، وكان معاندًا في دفاعه عن الحرّيَّات الفرديَّة، وحقّ الإنسان في أن يكون مثلما يشاء أن يكون، بالخصوص المرأة. يكفي أنَّه كان صديقًا لڤولتير، وكتب عن لقائه به: كازانوڤا في ضيافة ڤولتير[1]، وتعرَّف على غوته، وموزارت، وجان جاك روسُّو، والبابا كليمونت الثالث عشر. وغيرهم.

---

(١) Casanova chez Voltaire

على كلٍّ لم آت من أجل هذا.

تمنَّت زينا فقط أن تمدّ له يدها، أن تحكّ قليلاً على رأسه، كما كان يشتهي دائمًا وهو بين ذراعيها، أن تدلِّك ظهره ومفاصله قليلاً حتى تتوقَّف آلامه، لكنَّها لم تكن قادرة إلَّا على الصمت والحكي قليلاً إذا أسعفها لسانها. شهيَّة الكلام تأتي مع الكلام. هناك شيء أعمق يمنعها أكثر من أوامر الإمام زكريَّا أن تسأله بما يحسّ به الآن وهو في أكثر الأوضاع ضعفًا، حتى إنَّه لا خيار أمامه، إلَّا تمنِّي أكثر أنواع الموت اختصارًا وأقلّها ألمًا. لكنَّه بدا لها بعيدًا. تمامًا كما أراد الإمام زكريَّا، وربَّما أكثر.

تأمَّلت الصالة طويلاً، ثم قامت من مكانها باتِّجاه لوحة جميلة. وقفت طويلاً وهي تواجهها. كازانوڤا يحاول أن يلتفت نحوها، ويحرِّك عينيه بصعوبة، وكلَّما شعر بالتعب أغمضهما. يرتاح قليلاً، ثم يفتحهما من جديد متأمِّلاً ما كانت تقوم به.

غرقت في اللوحة، ثم التفتت نحوه:

ـ نوڤا هل تعني لك هذه اللوحة شيئًا؟

لا أظنّ. فقد كنتَ في دوَّامة حياة لا ترى فيها شيئًا كلّ شيء كان يمرّ أمامك من دون أن تتمكَّن من رؤيتها أو لمسها أو معرفتها جزء كبير من حياتك مضى هكذا. ماذا تفعل الآن في عالم متماوج لا هو موت، ولا هو حياة؟ مجرَّد عالم هيولي، أنت في أعماقه مثل الجنين الميِّت، بلا حراك ولا أنفاس، تارة تتحرَّك وتارة ترسو مثل القشَّة البالية، في زاوية ما من الزوايا. مع أنَّها قصَّة تستحقّ أن تُحكى.

لا أعاتبك. لا ألومك على أيّ شيء. كلّ ما مضى وما حدث،

كان يجب أن يحدث معك أو مع غيرك. ربَّما بشكل مغاير. لكنْ ما حدث كان يجب أن يحدث حتمًا طاقات الجاذبيَّة التي نملكها لا تتوقَّف عند شخص وحيد، ولكنْ عند كلّ من تتخفّى فيه تلك الجاذبيَّة نفسها لا قوَّة في الدنيا تستطيع منعه. لهذا، يجب أخذ الأشياء بالكثير من الحكمة.

التفتت نحوه من جديد. لاحظت أنَّ في عينيه شيئًا من الاستجداء، وأسئلة معلَّقة في الفراغ، بلا أجوبة، أو ربَّما كانت أجوبتها قاسية، لهذا لم تُقَل بسهولة، كمن يريد أن يعرف شيئًا ويلحّ عليه، ويخاف من الحقائق المُرَّة المتخفِّية تحت جلد ذلك الشيء.

- عزيزي نوفا لا أدري لماذا أفضِّل الصمت مع نفسي على الحديث معك بصوت عالٍ.

ربَّما احتجت إلى حالة خاصَّة أخترق بها بياض الصمت. لا شيء يفصلنا الآن إلَّا هذا الستار الناعم ذو الملمس الحريريّ، كأنَّنا في مسرحيَّة يتماهى فيها الجمهور بالممثِّلين، ستار يُشبه بخارًا دافئًا شيء يقرِّبك ويُبعدك أيضًا، ويمنحني إمكانيَّة رؤيتك داخل تراجيديَّة فنِّيَّة لا علم لي لا ببدايتها ولا بخواتيمها أنا الآن، كما تراني، من خلال خوف عينيك من الانغلاق النهائيّ على الموت، لست بعيدة عنك إلَّا بقدر الإحساس بالشيء الذي يسكنك الآن، ويمنحك فرصة المقاومة وعدم الاستسلام للموت.

لم أكن مرتاحة، كما كنتَ أنتَ يوم تخطَّيتُ لأوَّل مرَّة عتبة بيتك.

دخلت *الدار الكبيرة* وأنا لا أعرف أنَّها مكان ملتهب بحرائق الغيرة والخوف.

قبلتُ برهان كيف أكون لك، وحبيبتك، وأكون في الوقت نفسه،

صديقة وإنسانة أمام امرأة على حافَّة الموت بالسرطان، لالَّة كبيرة التي كانت تنتظر أيَّامها الأخيرة، لكنَّها قاومت حتى الشفاء. ظلَّت امرأة خيِّرة وصابرة، لا تنصت لجنون الغيرة بقدر إنصاتها لكلامي واهتمامها بصحَّتها، لأنِّي كما اتَّفقت معك، لم أثُر أبدًا أمامها قضيَّة سرطان الكبد الذي كان يلتهم جزءًا من داخلها في صمت الموت. على الأقلّ، كما كنت أتخيَّل. أعرف أنَّ سرطان الكبد لا يمهل صاحبه زمنًا طويلاً قبل أن يأخذه، مثله مثل كلّ سرطانات الأعضاء الرخوة. لهذا، كنت عطوفة عليها. ولم أتجرَّأ يومًا على سؤالها عن مرضها كنت أراك عندما تأخذها للتحاليل الأسبوعيَّة وبعدها الشهريَّة، وكيف كانت تعود سعيدة، فرحة، تحكي عن الغابات والوديان وحدائق الحيوانات، ومتعة أن يكون الإنسان حيًّا ويرى كلّ هذا، بدون أن تذكر مرضها الذي كانت تتفاداه، ولا تحتفظ إلَّا بما رأته في الحدائق، بعد التحاليل. تحكي عن مستشفى سرطان الأطفال الذي كنتما تزورانه، إذ كنتَ أنت من مموِّليه الأساسيّين، بأن وضعتَ نسبة من فوائدك الماليَّة، تحت تصرُّف المستشفى.

كنت سعيدة، أنا المرأة الحسَّاسة جدًّا، بهذا العطف. رهافتك تجاه لالَّة كبيرة أذهلتني. قتلت حتى الغيرة التي يمكن أن تنشأ عند كلّ امرأة تنافسها أخرى في رَجُلها كبرتَ بسرعة في قلبي. كنت أقبِّلك وأقول لك، *في النهاية، لأيّ شيء يصلح المال إذا لم يُسهم في إسعاد بعض من هم في حاجة إليه؟* عندما تعودان من التحاليل، تُظهر لي لالَّة كبيرة صورها مع الأطفال وهي في قمَّة السعادة. ثم تقنعني بطيبتها وحماسها الطفوليّ: شوفي *يا زينا، هذا الطفل* شوفي بعد *أن لامس الموت بأصابعه، كيف أصبح اليوم! الأمل في الشفاء حاضر دومًا وهذا أُجْرِيت له عمليَّة ناجحة، كلَّما ذهبتُ* نحوهم، يركض نحوي

ويضمّني قبل أمّه. بينما يقبّلني أهله على يدي، وعلى رأسي، ويدعون لي بالخير.

ـ اكتشفت لاحقًا يا نوفا كم أنَّ الكذب، مثل الصدق، متعب جدًّا وكم يحتاج إلى جهود! أحسدك على ذكائك وحرصك الكبير على الوقت الذي كنتَ تقضيه في ترتيب الكذبات حتى لا تُكتشف. كان عليك تتبُّع كلّ شيء بدقّة، لتظلّ صورتك ناصعة ومدهشة. المتابعة التي أخذت منك وقتًا مجنونًا لا بدّ أن تكون قد أرهقتك إلى حدٍّ كبير وعندما تشعر فقط بأنَّ هناك تسرُّبًا يمكن أن يسمح للحقيقة أن تصبح مرئيَّة، تقتل نفسك لكي تمحو أيّ أثر للكذبة. يا الله! كم من الصعوبات كنتَ تتحمّلها فقط لإعادة الكذبة إلى أفق التصديق من جديد! يحتاج الأمر من إنسان مثلك إلى أن يكون موهوبًا فيما اختاره من طريق. أحيانًا، أشعر بدهشة من ذلك، وحتى الإعجاب. ليس متاحًا للجميع أن يملك هذه النباهة، وهذه الدقَّة.

طوال معرفتي بلالَّة كبيرة، لم تشتكِ في أيِّ شيء، ولا حتى من سرطانها القاتل، لدرجة أن أخفتني بتفاصيله التي كنتَ ترويها لي. امرأة كبيرة احتضنتني حتى كزوجة لزوجها. على الأقلّ، هذا الإحساس الذي خلَّفته فيّ. كم كان قلبي يؤلمني وأنا أرى امرأة طيِّبة كلّ يوم تموت قليلاً، تنتهي بشكل قاسٍ! كنتُ أتساءل كيف سيكون البيت بعدها؟ وكيف سينطفئ، بعد شهور، هذا الوجه الملائكيّ؟ حقيقة، كنت أشعر بظلم كبير في الطبيعة. ما زلت إلى اللحظة، أتذكَّر هالة النور الذي كانت على محيّاها، والحزن العميق المبطَّن في نظراتها الهاربة، كلَّما تأمَّلت وجهي الذي كثيرًا ما كان يبدو لها ناعمًا مثل وجه طفل. كيف تعرف امرأة أنَّ سرطانًا قاتلاً يهيئ نفسه لجرِّها نحو القبر، وما تزال تملك ذلك القدر من التسامح والصبر؟ لم أسمعها

ولا مرَّة تئنّ، أو تلعن الحياة على الظلم القاسي الذي سُلِّط عليها من بين المليارات من البشر في أقاصي حزنها، كانت تصمت، وتعود نحو عمقها وداخلها، وترتاح فيه كما لو كان حديقة من الصمت والبياض.

أعرف الألم الذي يمكن أن تشعر به امرأة حتى وهي غير مثقَّفة، وغير مثقلة بالجرح الذي ينفتح فجأة في جسدها، عندما تشعر أنَّ يد حبيبها أو زوجها أو الرجل الذي في قلبها، تمتدّ نحو جسد آخر على مسافة خطوات منها، لا يفصل بينهما إلّا حائط يضخِّم الصرخات أكثر ممّا يكتمها وتُدرك بالفطرة أنَّ الأمر لا يعدو أن يكون مجرَّد يد. يمكن للرجل أن يحكي ما يريده، أن يروي الخرافات التي يشتهي للتخفيف من تلك المرارة، ستظلّ هي هي، ثقيلة، وتُعطي الإحساس بالعبث والرغبة في مغادرة الدنيا بكاملها، وليس البيت وحده. هناك شيء من الإهانة يصعب حتى على الدين أن يقبل بها، بعد أن وضع الموانع التي تشلُّها صعب أن تحتلّ امرأة أخرى مساحتك كلِّيًا أو جزئيًا. ينغلق الذهن كلِّيًا عن التفكير.

تردَّدت كثيرًا قبل قبول الارتباط بك نهائيًّا، بعدما حكيت لي عن آلامك، وأنت ترى المرأة التي تحمَّلتك زمنًا تموت كلّ يوم أمامك، ولا تستطيع فعل أيّ شيء. قلت لك *ربَّما كنتَ تحتاج إلى امرأة تسهر على لالَّة كبيرة، أكثر من زوجة تقاسمك الحياة بحلوها ومُرِّها لا أستطيع حبيبي أن أكون تلك المرأة.* عملي، *في الأوبرا وفي الغاليري، للأسف يأخذ منّي كلّ وقتي.* مؤكَّد *أنّي لو رأيتها سأحبّها، وسأتعاطف معها، ولكنِّي لن أكون قادرة على أداء هذه الوظيفة الخيريَّة. أضعف من أن أفعل ذلك كلّه. ثم إنَّ بي قدرًا كبيرًا من الأنانيَّة، أريد أن أعيش لي أوَّلاً، أن أشعر بأنَّ الحياة جميلة وتستحقّ أن تُعاش بامتلاء. لا حلّ*

وسط لديّ. أريد رجلاً لي، وأكون له بكلّي.

فاجأتني بردَّة فعل رمتني في حيرة كبيرة. لدرجة أن تساءلت: *هل هذا هو الرجل الذي أدهشني، بل اشترى عمري كلّه بباقة ورد؟* ارتبكت بقوَّة لم أعهدها لا في نفسي ولا حتى في شخصيَّتي المتهوِّرة أحيانًا أشهد أنَّ قراراتي أحيانًا كانت رهينة الحرقة التي فيّ، وتحتلّني كلِّيًا، ولا تترك أيَّة مساحة للعقل. قلتَ لي:

ـ خلِّيك من كبيرة. انسيها نهائيًّا كم تربحين من عملك اليوم؟ لا شيء. أعرف رواتب الدولة جيِّدًا. يمكنني أن أجعل لك راتبًا كمستشارة، يساوي عشرة أضعاف ما تتقاضينه من الغاليري والأوپرا مجتمعتين. عمل الفنّان اليوم، حبيبتي، هو فوق الفقر بمسافة إصبع، هو رديف الفقر.

وجعني قلبي وأنا أسمعك.

ـ لا يا حبيبي. أنت تخطئ في العنوان، أجبتك بحدَّة. لا بدّ أنَّك تتذكَّر هذا لا أربح الشيء الكثير من عملي في الأوپرا، راتب شهريّ بسيط، ولا من الغاليري التي ورثتها عن والدي الذي ظلَّ يرى فيّ خليفته في الفقر، كما كنتَ تقول. لا أربح الكثير من التحف الفنيَّة، في بلاد لا تعرف قيمتها مطلقًا بل إنَّ تحفها تُهرَّب وهي نائمة أو مغطَّاة داخل القشّ. أربح شيئًا واحدًا ووحيدًا من هذا كلّه، نفسي وكياني وحتى مبرِّر وجودي. أنا كبرت على هذا مثل والدي. والدي هو من ورَّثني هذا الذي تسمِّيه فقرًا، في وقت أخذ إخوتي المال والشركات، وكنتُ جدّ سعيدة.

اعتذرتَ، وقلتَ لي إنَّ قصدك نبيل جدًّا، وإنّك تحترم كلّ خياراتي، وإنَّك كنت تنظر إلى الحياة بشكل براغماتيّ، في ظلِّ أزمة

الفقر وانهيار القيم والذوق العامّ، وإنّك مثلي، الفنّ يسري في دمك.
أجبتك يومها أنَّ الأمر لا يتعلَّق لا بهذا ولا بذاك، لأنَّ الحياة هي أجمل ما يحصل للإنسان. لهذا، الارتباط بها أكثر من ضرورة.

بيني وبينك كانت المسافات تتّسع منذ اللحظة الأولى، حتى تحوَّلت إلى فجوة، لدرجة أنّي أتساءل كلَّما غفوت إلى نفسي: كيف *قبلت بزواج كان محكومًا عليه بالموت منذ اللحظة الأولى؟*

لكنَّك عرفت يومها كيف تجرُّني نحوك. تشلّني. بل تقتلني.

ـ تعرفين يا زينا، أنتِ الحياة بالنسبة لي، لكنَّك ستكونين الحياة كلَّها بالنسبة لكبيرة، لأنَّها تحتاجك. الأطبّاء أعطوها سبعة أشهر على أكثر تقدير. حدَّثتها عنكِ طويلاً أحبّتكِ عن بعد.

ـ وقبلت بي كزوجة لزوجها؟

ـ كأيَّة امرأة في وضعها. في النهاية، هي تعرف أن حالتها الصحّيَّة تحتّم عليها التعامل بحكمة مع الوضع الداخليّ. هي تعرف جيّدًا أنَّ طبيعة عملي تفرض عليّ علاقات دائمة ولقاءات بعيدة. من واجبي أن لا أرهقها. لها من يخدمها، لا مشكلة. تحتاج فقط إلى صديقة تتقاسم أشياءها التي تريد، ربَّما حتى قسوة مرضها

ـ مستغربة. لا بدَّ أنَّ لالَّة كبيرة ملاك، وأنا هل فكَّرت فيّ؟ امرأة تسكن طائرة؟

ـ أعرف شروط عملك، وأعرف أنَّك تسافرين كثيرًا مع فريق عملك. الأوبرا قسمة يا قلبي مع الآخرين، وليست أنانيَّة. وإلَّا ما قيمتها؟ ما قيمة أن تكون فنَّانًا؟ تعرفين أنَّي لو لم أكن رجل أعمال، لكنتُ فنَّانًا

ـ لا أدري، لكنَّك تخيفني أحيانًا.

ماذا أقول لك يا نوفا؟ ماذا تنتظر أن تسمع منِّي؟ حقيقة لا أعرف. لا أريد أن أرهقك بأشياء أنت تعلمها أحسن منِّي. لا تغضب من بعض صراحتي. هناك أشياء تُغتفر، لأنَّنا ننتهي إلى الاقتناع بها وبأسبابها. لكنْ هناك أيضًا أشياء تظلّ تحفر فينا بقوَّة حتى تكبر، ويصبح من المستحيل تفهُّمها حتى الموت.

قبلتَ بي كما أنا، وفق شروطي، فقد كنت واجهتك الثقافيَّة أمام الآخرين، ولم أغضب من هذا أبدًا. كان الأمر مثل اللعبة. هناك نوع من النساء، أعتقد أنِّي منهنّ، عندما تكبر مصائبهنّ، يُصغِّرنها ليجعلن من الحياة أمرًا ممكنًا، وعندما تأتي لحظة فرح صغير، يكبِّرنها، ويجعلنها مثل الوردة، تتَّسع وتتفرَّع وتتفتَّح براعمها نعيش في عالمٍ الفرح فيه قليل.

على يقين بأنَّ حياتي، في النهاية، لن تكون إلَّا جميلة معك، على الرَّغم من هذه المنغِّصات القاتلة. قلت مع نفسي، ليس خطأ أن أرافق لالَّة كبيرة شهورًا، أو حتى سنة. لا مشكلة. لها خدمها ولها من يسهر عليها، ولن أكون إلَّا صديقة الوقت والشكاوي العميقة التي لا نفضي بها لكلِّ الناس. لي حساسيَّة مفرطة تجاه هذه الحالات. ربَّما كنت أبحث عن مبرِّرات الالتصاق بك، وقبول مقترح الزواج بعد تجربة خاسرة عشتها مع رجل أحببته وأحبَّني، قبل أن تنتصر عليّ جباله وأتربته ومدافنه، وأنانيَّته أيضًا مع الزمن، تحوَّلتُ معه إلى قطعة حجريَّة، أو صخرة نقشت عليها حياة أناس مضوا. يكتفي بتأمُّلها، وفي أحيان قليلة، تلمُّس تضاريسها، وشمّ تربتها. ونسي أنِّي كنت مخلوقًا من لحم ودم، عرضة لكلِّ جاذبيَّات الدنيا

أحاول أن أتذكَّر الزمن الذي مضى. يبدو أنَّ الرمّان الذي استهلكه عصيرًا، وحَبًّا، ومجفَّفًا، منحني ذاكرة فيل. عندما وصلتني

رغبتك عن طريق الإمام زكريًا، في اللقاء معي ومع كلّ زوجاتك، السابقات واللَّاحقات، استغربت الأمر في البداية. استهجنته، لأنَّه لم يعد هناك شيء يجمعنا كلّ منَّا أعادت حياتها كما أرادت، ما مبرِّر لقاء كهذا تعتذر فيه لنسائك أو يعتذرن لك؟ لكنْ، عندما عرّفني زكريًا على وضعك الصحّي، وأنَّ وجودي مجرَّد فعل إنسانيٌ مع رجل عشت معه جزءًا من حياتي، أخبرت زوجي، آدريان، شجَّعني. قال: *اذهبي. مهما يكون، فهو جزء من حياتك. الرجل يريد أن يعتذر. امنحيه هذه الفرصة قبل موته. لن تخسري شيئًا*

آدريان قلبه بسعة البحر، تغيَّر كثيرًا بعد زواجنا ولذلك قصَّة أخرى.

كلّ شيء يبدو واضحًا من هنا، كما النجمة في حفرة السماء الواسعة.

اعذرني. حقيقة، لا يوجد ما أخفِّف به من آلامك وشططك سوى ثقل قصِّ حياتي عليك، وهي لا تهمُّك. لو فقط كانت لديك القدرة على الكلام لتعادلنا في هذا الوضع، سأتكلَّم، ولكنِّي لن أتلقّى في النهاية إلَّا صوتي منكسرًا ومعوجًّا حتى أتحمَّل القسوة التي انتهت بها علاقتنا، أُسمِّي لقاءنا لقاء الصدفة، لأخفِّف ممّا حدث لنا. الصدفة وحدها هي التي صنعت كلَّ ما جرى بيننا من لحظات وهزَّات جميلة، ومن قهر مَسَّني في الصميم، لكنَّ عودة آدريان مرَّة أخرى إلى حياتي، بعقل مختلف عن الأوَّل، غيَّرَ فيّ أشياء كثيرة، ومنحني إمكانيَّة رؤية نفسي بشكل آخر. أنا أيضًا لم أكن مثاليَّة في علاقتي به. تطرُّف المزاجين لم يخلق منطقة وسطى للحياة المشتركة. منذ أن اخترت طريقًا غير طريقك، قلّ تطرُّف مزاجي، وأصبحت أرى الحياة ببساطة أكثر وسلام كبير. أقول، صحيح أنَّ تمركز آدريان على أبحاثه كبير،

لكنَّه يحبّني ويمنحني كلّ فرص الحياة، لدرجة أنَّه بين سفرة وسفرة يرافقني في عروضي، حتى البعيدة منها يكون أحيانًا متعبًا من عمله، ولكنَّه يبذل جهدًا خارقًا لإسعادي. أصبحت أكتفي بهذا، لأنَّه جوهريّ في حياتي. وكلَّما بدا له أن يحمل حقيبته ويركض باتِّجاه مكتشف جديد، لا أقف أبدًا في طريقه. كم نتغيَّر يا عزيزي في الحياة، وكم تمنحنا الحياة من فرص حتى ولو اضطررنا لتقليص أحلامنا قليلاً في النهاية، لا نُمنح إلَّا ما نستطيعه. الحياة أكثر تعقيدًا من أنانيَّاتنا الصغيرة.

معك، الأمر كان مختلفًا. التقينا صدفة في عزِّ انكساري، في الأوبرا نقطة ضعفي الجميلة وهشاشتي.

كنَّا نعرض أوبرا *«الإيطاليَّة في الجزائر»*[1]، أوَّل أوبرا هزليَّة كتبها جواكينو روسّيني. أدَّيتها بجرأة وحبٍّ. عشت في موسيقى روسيني الساحرة، أكثر من التأويل الإيديولوجيّ الذي يضع الشرقيَّ تقريبًا، في كلّ مرَّة، في قفص الاتِّهام. روسّيني لم يرد هذا. الذين أدُّوا موسيقاه هم من سحبها نحو مساحات العداء. ***مكتبة الرمحي أحمد***

أيُّ صدفة هذه الحياة؟ كنت جديدة على البلاد بعد تخرُّجي من مونريال، ومن المدرسة الوطنيَّة للفنون الدراميَّة. كانت فرصتي الكبيرة في الأوبرا الوطنيَّة في أداء *«الإيطاليَّة في الجزائر»*. كنت أرقص فوق الغيم، وأنام على أوراق الورد المخمليّ. كنت خارج هذا الزمن المقتول. الأوبرا بيتي كانت، وسعادتي.

---

(١) Opéra comique. *L'italiana in Algeri* est un opéra-bouffe en deux actes de Gioachino Rossini sur un livret de Angelo Anelli. L'Italienne à Alger est le premier opéra-comique que Rossini écrit peu après sa première œuvre développée, Tancredi.

كان العرض ليلتها ساحرًا تصفيقات الجمهور المدوِّخة قادتني إلى الأقاصي الجميلة. أصابتني بدوار حقيقيّ ليلتها، إذ دام حوالى النصف ساعة وقوفًا لم يكن ذلك عقدة عظمة. كان يعني فقط أنَّك لا تغرِّد في سماء لا يوجد فيها أحد غيرك.

بعد انتهاء العرض، فوجئت بك تخرج من الصفوف الأماميَّة وتسير بخطًى مجنونة نحوي. تساءلت في أعماقي من هذا الرجل الأنيق والجميل. تصعد على المنصَّة. تحيي الجمهور، وكأنَّك كنتَ عضوًا في فرقة الباليه الوطنيّ. كنتَ جميلاً والكرافتة الحمراء الناعمة والرقيقة، منحتك لياقة أكثر قدّمتَ لي الباقة الكبيرة، ولا أدري إذا كنتَ قد قرأتَ ما في قلبي، أم هي مجرَّد الصدفة؟ قلتَ، وأنت تضع الورود بين ذراعيَّ: *شكرًا على هذا الأداء العظيم الذي يهزّ الصخرة الميِّتة*. ثم رأيت ما كتبتَه على الباقة: *تحيَّة باسم هولدينغ فورد، الأوَّل في المنطقة العربيَّة كلِّها، والأكبر*. عندما نزلنا من المنصَّة، قدَّمت لي مديرة التسويق لسيَّارة فورد في المنطقة المغاربيَّة مدام جويل كورتيس، التي قالت بسعادة كبيرة أضاءت عمق عينيها: *سيِّدة زينا، أُعجبت كثيرًا بأدائك المدهش، أنا أيضًا درست الأوبرا، أصول أهلي من والدتي من ميلانو، ولكنْ للأسف لم أواصل دراستي بسبب ظروف العمل. لهذا، أوَّل ما رأيت الإعلان عن العرض، ركضت نحو كازانوفا، وأخبرته بالحدث، وجئنا لم نندم. فقد كان أداؤك ممتعًا* ثم عانقتني.

تفصيل صغير لا يمكنني أن أنساه.

وأنت تقدِّم لي الورود برفقة مدام جويل، رأيت لمعة جميلة في عينيك، أراحتني كثيرًا قبل أن تغادرا، سلَّمتني بطاقتك. لم تنس، قبل أن تتركني، أن تقول لي كلمتك التي كانت بمثابة رأيك في نصِّ الأوبرا أعجبتني، لأنَّها جعلتني أشعر بأنِّي كنت في مواجهة شخصيَّة

لها رأيها في الحياة، وليس أمام رجل مال غبيّ. قلتَ، وأنت على يقين بما كنت تقوله بلطف. *انتهى الأمر، علينا أن نعتبر العثمانيّين غزاة، غزاة بالمعنى الكامل، وأنَّ الإيطاليَّة، في الأوپرا، كانت رهينة اختطاف ومقايضة، مثلها مثل الآلاف من الغربيِّين. نحن الوحيدين عربيًّا من ما يزال يعتبر العثمانيِّين فاتحين، دافعوا عن الإسلام وعن أندلسٍ كانوا أوَّل العارفين أنَّ عهدها انتهى*. الغريب هو كأنَّك كنتَ تقول جزئيًّا ما كان بداخلي. كدتُ أقول لك *وعلى الآخرين أن يقلِّلوا من دروسهم البائسة، ويكفُّوا عن تسويق صورة لشرق لم يعرفوه أبدًا*. شعرت برغبة غريبة للبقاء معك، والاستماع لحديثك الجميل.

ـ العرض وحضورك والجمهور، أنسوني كلّ النار التي كانت تشتعل بداخلي.

لم تكن تعرف طبعًا. كنت خارجة من تجربة شديدة القسوة بسبب زواج فاشل. آدريان، كان عالمَ آثار بلجيكيًّا، مضروبًا في مخِّه. حرِّيَّته عزيزة عليه. تمرّ قبل الخيارات الحياتيَّة كلّها لدرجة أن انزعجت يومًا منه، وصرخت في وجهه بعنف لأوَّل مرَّة يلمسه فيّ: إذن لمَ تزوَّجتَ بي؟ كان شديد الطيبة. لم يردّ عليّ، لكنَّه واصل في نظامه الحياتيّ، كما لو أنَّ شيئًا لم يكن. وبدا لي واضحًا أنَّ حياتنا تتَّجه نحو حائط أصمّ. ذكَّرته بيأس أنَّ لنا حياة واحدة، إمّا أن نمسك بها، ونجرَّها نحونا، أو نتركها تمضي بعيدًا عنّا. انتصرت أنانيَّتي وخياري الأوَّل. مشى آدريان مغمض العينين نحو حرِّيَّته، ومشيت أنا باتِّجاه الأوپرا، كانت طريقي الوحيد والأجمل.

بعد أقلّ من أسبوع، كلَّمتني. دعوتني إلى قهوة في الشيراتون. قلتُ لك، *لم يكن ضروريًّا مقهى الشيراتون، مقهى الأوپرا كان يكفي حقيقة. أحبّه وهو ملاصق للأوپرا* ضحكتَ. لا أدري إذا كانت عيناي

هما الخادعتين أم كنت حقيقة كما رأيتك يومها. في ابتسامتك شيء من السحر والحبِّ والأمان. قلتَ لي: *أنا دعوتك إلى الشيراتون. في المرَّة القادمة، ادعيني أنت إلى مكانك المفضَّل، وسأجيء*. وهو ما فعلتُه. كنتَ في جمهوريَّتي. حتى إنَّ أحدًا من المعجبين اقترب منِّي في أوپرا المسرح، وقال: *مدام زينا، عذرًا انتظريني قليلاً* ركض. غاب خمس دقائق ثم عاد حاملاً باقة ورد. قبَّل يدي وخرج وقال: *حضرت عرضك الجميل. تكفيني سعادة أن رأيتك أخيرًا* كنتُ سعيدة أنَّه كلَّف نفسه من أجلي.

قلت لك: شفت عزيزي نوڤا؟ نُتّهم يوميًّا بأنَّ مجتمعنا متخلِّف فنِّيًّا وفقد البوصلة. ما يزال هناك ناس يحبُّون هذه الأرض والفنّ. المجتمع لم ينغلق كلِّيًّا. وإلَّا ماذا ربح هذا الشابّ الطيِّب منِّي؟ لا شيء سوى أنَّه عبَّر عن حبٍّ في داخله لا أكثر. واحد مثل هذا يجعلني أتفاءل بالحياة، وأواجه جيوشًا جرَّارة من التخلُّف. يمنحني فرصة أن أحلم. وافقتني على الفكرة، وجعلتني أتأكَّد من أنَّك أصبحتَ رجلاً أعرفه قليلاً

اقترحتَ عليّ ذات مرَّة أن نعبر كورنيش منارة سيتي الممتدّ. كنتُ متعبة وضائعة قليلاً قلتَ لي، *أنا لست على ما يرام بسبب مشاكل عائليَّة، وأريد أن أخرج قليلاً، إذا بدا لك، نترافق.*

ربَّما كنتُ في حالة مشابهة لك، لهذا لم أتردَّد ثانية واحدة في القبول. وخرجنا معًا لأوَّل مرَّة.

صمتت زينا قليلاً، قبل أن تغرق عميقًا في المبهم الذي كان يواجهها

كانت الجولة جميلة. ثم أخذتني لمكان على حافَّة البحر،

وجلسنا قليلاً بدوتَ لي منشغلاً جدًّا

ـ لوط. لا أريد أن أدخل في خصوصيَّاتك. أراك حزينًا لستَ على ما يرام.

ـ لا شيء يا زينا فقط، إنَّ الإنسان يجد نفسه داخل طاحونة شديدة القسوة.

ـ لكنْ لا يوجد شيء ثابت في هذه الحياة، المحزن يزول، والمفرح أيضًا

ـ هناك لحظات يجد فيها المرء نفسه وحيدًا في مواجهة التيَّارات الهوائيَّة القاسية والعواصف. ولا خيار له، إمَّا الموت أو الوقوف في وجهها حتى تسحبه معها

لم أجد ما أضيفه، لكنَّك واصلتَ من تلقاء نفسك:

ـ ماذا تفعلين عندما يُصاب شخص تحبِّينه بمرض السرطان؟

شعرت فجأة ببرد داخليّ.

ـ لا أدري، يا عزيزي لوط.

ـ زوجتي التي انفصلتُ عنها في الفراش منذ أكثر من سنة، مُصابة بسرطان الكبد، وهي في أيَّامها الأخيرة.

كبيرة. هذا اسمها، ربَّما التقيتما يومًا

ـ يا الله!

أوَّل مرَّة أسمع باسم كبيرة. كان حزنك مثل سحابة سوداء نزلت فجأة على وجهك المرهق. لم أتمالك، مددت يدي أبحث عن يدك. شعرت بارتجاف أصابعك. ربَّما كانت أصابعي هي التي ترتعد.

رأيت دمعات ترتسم في عمق عينيك.

مشينا طويلاً على حافَّة البحر، بعد أن عرفت الحالة التي كنتَ تعاني منها. ضممتني. شعرت بدفئك الكبير من يوم غادرت آدريان، لم أعرف رجلاً غيره، على الرَّغم من أنَّ زملاء العمل لا يتوقَّفون عن ممارسة اللعبة التي يتقنها جيِّدًا الرجل والمرأة. أحبّ الإنسان الذي يحسّسني بإنسانيَّتي ويمنحني الأمان الذي أحتاج إليه.

لا أدري كيف جرّني ذلك اليوم نحوك بقوَّة أكثر لم أكن أملك الشيء الكثير لمقاومة اجتياحك.

أصبحتَ انشغالي الكبير من حين لآخر، أسحبك نحو التدريبات، كلَّما سمح وقتك. وكان عمَّال المسرح سعداء بحضور رجل أعمال ناجح وكبير ويحبّ الفنّ. أمر مثل هذا لم نتعوَّد عليه. رجال المال في بلادنا، في الأغلب الأعمّ، *بقَّارين*[١] لا أكثر.

أدخلتني في عالم الأعمال والسهرات الجميلة. لكنَّ وضع لالّة كبيرة ظلَّ يشغلني.

في يوم من الأيَّام، سألتك ونحن متَّجهان إلى الشيراتون، كان عيد ميلادي، وصمَّمنا أن لا نخبر أحدًا، وأن نقضيه معًا فقط، صولو[٢] أنا وأنت. تركتُ عالم الأوپرا ورائي، وأغلقتَ أنت كلّ هواتفك، وقلتَ هذه ليلة سيِّدة قلبي.

- حبيبي، لماذا لم تقترح عليَّ ولا مرَّة التعرُّف على بيتك وعلى كبيرة؟

---

(١) البقَّار كلمة شعبيَّة تُطلق على التاجر الجاهل، الذي لا علاقة له بأيّ شيء آخر إلَّا بالمال والربح السريع. أغنياء آخر ساعة كما يُسمُّون أيضًا البقَّار في الأصل هو تاجر الأبقار، الذي جمع بين المال والأمِّيَّة والجهل.

(٢) من أصل إسباني solo وتعني وحيدًا.

ـ لا مشكلة. خفت أن لا تتحمَّلي مرض كبيرة. أو لالَّة كبيرة كما نناديها في البيت. أرجو فقط أن لا تذكِّريها بمرضها. حمله ثقيل. لا أريد أن أُثقل عليها بشيء آخر.

ـ لست مجنونة، حبيبي. على الأقلّ، أتعرَّف على السيِّدة التي ستكون صديقتي. أسهر عليها ومعها قدر ما أستطيع حتى يشاء الله ما يشاؤه. أنت تعرف، حبيبي، أنَّ قرار الارتباط ليس بهذه السهولة. لا أريد أن أكرِّر خيبتي الأولى التي حكيت لك عنها

في تلك الليلة، كبرتَ في عيني أكثر. كنت أنتظر أن تفعل مثلما يفعل أغلب الرجال، لكنَّك تصرَّفتَ بشكل عاديٍّ وعفويٍّ، وعزمتني إلى بيتك. والتقيت بلالَّة كبيرة. امرأة طيِّبة وذكيَّة. تغدَّيت معكما لدرجة أنَّي بعدها خرجت بعقدة ذنب كانت ثقيلة عليّ جدًّا. طلبت منك أن أبتعد عنك لمدَّة شهر. احترمتَ خياري. الجميل فيك هو أنَّي أينما ضربت، وجدت ردَّة فعل أشتهيها وأريدها. أعجبني أنَّك لم تناقش في أيِّ يوم من الأيَّام القرارات التي كنت أتَّخذها أخفقت في مقاومتك. بعد أسبوع، ركضتُ نحوك باشتعال أكثر. لحظتها، تساوى عندي كلّ شيء، ولم أرَ إلَّا حقِّي في أن أكون معك. أنانيَّتي.

تزوَّجنا، ولم أسأل كثيرًا عمَّا كان يخبِّئه لي القدر مرَّة أخرى.

عاد الظلّ من جديد ليغطِّي الجزء العلويّ من كازانوڤا، وانسحب النور نحو الحائط الذي أظهر لوحات عديدة، ومنها لوحة *الأندلسيَّات*، لمحمَّد راسم بتشكيلاتها اللونيَّة الكثيرة. تململ في فراشه بصعوبة كبيرة، بعين نصف مفتوحة، وأخرى مغمضة، كأنَّه كان يرفض أن يرى الحقيقة التي لا يريدها.

لم تنتبه زينا له ولا لحركته، لأنَّ بصرها تثبَّت فجأة على اللوحة.

بقدر اندفاعي، كانت خيبتي.

نسيت فجأة أنَّ في بلادنا، أن تكون المرأة فنَّانة، أو أُمِّيَّة، يتساوى الأمران. لن أكون في رأي أكثرهم تسامحًا إلَّا امرأة تتنافس أمام من يحسدنها في راحتها وبهاء جسدها ومال زوجها، على آخر التسريحات وعروض الألبسة التي تقتني منها أحلى وأهمّ وأغلى زيّ لا تلبسه أبدًا، وتفتخر بأن تظهر خزانتها المليئة بآخر الألبسة، حتى تلك الشفَّافة التي تلتصق على الجسد، وتثير شهيَّة الزوج وتجعله أكثر قربًا بالزوجة، ينتظر متى يأتي الليل لينام فوقها، تحتها أو بجانبها، مستمتعًا بجسدها الذي ما يزال في نضارته القصوى. أمام اللواتي يحسدنها، كلّ أسلحة الدفاع ممكنة. لا قيمة استثنائيَّة لكِ. الذي يصنع القيمة ليس نحن، ولكن المجتمع الأمّي، بالجهل والبؤس المستشري.

التفتت نحوه أخيرًا تأمَّلتْ عينه نصف المغمضة. رأت بقايا نور خفيف يتسرَّب داخلهما

عزيزي نوفا، لم تكن في حاجة إلى أن تقنعني بشيء، فقد فعلت الحياة كلّ شيء كما أرادته. أدركت بعد سنوات، كم كنتُ غبيَّة. وكنتُ أشبه لعبة باربي. إنَّي لم أكن إلَّا دميتك التي تتباهى بها في الجلسات الكبيرة وعشاءات الصفقات المدهشة. امرأة جميلة للأسفار، والمأدبات الكبيرة. يخرج بعدها المدعوُّون فاغري الأفواه وهم يتساءلون، *كيف تمكَّن ابن الكلب من اصطياد فنَّانة، بهذا الجمال المدهش*. لم تكن تمانع من أن يغازلني أحد المتعاونين معك من الأميركان. تعرف لو كنت أريد أن أخونك، إذا كان يهمُّك الأمر طبعًا، لفعلت ذلك مئات المرَّات في كلّ لقاء. أنت لا تعرف كم من شخص، ممَّن تعمل معهم، زحلق لي تليفونه وهو يرقص معي في

سهرة، أو وهو يحدِّثني في زاوية ما، وأنت منهمك في أحاديثك وذكائك في كيفيَّة حصولك على هذه الصفقة أو تلك، أو وهو معك في مكتبك، يسألني هل يمكنه أن يراني اليوم أو غدًا. عالم وحوش، وعليك أن تكون وحشًا أكثر شراسة منهم، أو ثعلبًا مسلَّحًا بالذكاء فقط، وإلَّا أُكِلتَ بسهولة. **نفطر بهم قبل ما يتعشاوْا بي**. هذه حكمتك. لم يكن هذا عالمي الذي دخلته عن طريق الخطأ، والصدف الغريبة، لكنِّي بذلت جهودًا فوق طاقتي لتفهّمك. عالمي كان أبسط، حبيبي. أبسط بكثير ممَّا تتصوَّر. عالم امرأة عاديَّة، لا سلطان لها على جسدها عندما يشعر بالرعشة وهو على منصَّة العرض، في عمق دوار القصَّة والموسيقى.

تفرَّغت لك وللأوبرا، وتكلَّفت أختي ليديا بمساعدتي في الغاليري، كلَّما وجدت بعض الوقت، في فترات غياب زوجها رجل الأعمال التركيّ، أصلان، بين تركيا والصين وروسيا، أو أميركا. فقد اختارت مال والدها، ولم تستفد في النهاية إلَّا من البيت الذي تسكنه. دخلتْ في مشروع استيراد موادّ التجميل بدون دراسة مسبقة للسوق. نسيت بأنَّ كلّ مساحات التجارة احتلَّها ناس قبلها، أكثر ارتباطًا بالمؤسَّسة التي تغطِّيهم وتمنحهم الشرعيَّة. أفلست بسرعة مع رجل أخذ منها كلّ شيء، وفتح أمامها أبواب الجنَّة حتى وجدت نفسها على الحديدة. الباقي نهبه إخوتها، كلٌّ بطريقته. قبل أن تلتقي بأصلان ويتغيَّر وضعها نهائيًّا فبدأت بالعمل في مؤسَّسة الخرسانة التي كان يُديرها عن بعد، قبل أن تصبح مسؤولة العلاقات الخارجيَّة فيها، ثم المسؤولة عن مكتب منارة سيتي.

ـ كنتَ شديد القسوة يا نوفا، لامست قاع الجراح الخفيَّة التي لا تبرأ بسهولة.

لا تنظر إليّ هكذا، وكأنَّك تحمِّلني شيئًا ثقيلاً بداخلك. أنا لم أفعل شيئًا سوى اتِّباع نصيحتك، بأن أخفي على لالَّة كبيرة معرفتي بمرضها في كلّ ما كنتُ أفعله، كانت لالَّة كبيرة حاضرة أبدًا. امرأة طيِّبة، لكنْ حزينة بشكل دائم. تحبّني. في أعماقي لم أكن مرتاحة. حبُّك وحده كان يخرجني من لحظات الأسئلة الداخليَّة المرهقة التي تشبه الندم. كنت أشعر دائمًا بلوم ما في نظرتها، إلَّا أنَّها لم تُسمعني أيَّة كلمة سيِّئة. أصلاً لا تتكلَّم إلَّا إذا بادرتها

تماهيت في علاقتي مع لالَّة كبيرة، لأنِّي كنت أريد أن أعطيها كلّ ما أملك من صداقة وحنين وحبّ، للتخفيف من سرطانها القاسي. سرطان الكبد المدمِّر كنت أراها امرأة مقاومة. كان يُفترض أن تموت بعد ستَّة أشهر من اكتشاف المرض، لكنْ مرَّت أكثر من سنة ونصف السنة من دون أن يلحقها أيّ ضرر. وظلَّت هي هي، بكلِّ حركاتها الحيويَّة وعقلها. كنتُ سعيدة بذلك، على الرَّغم من اندهاشي. طبعًا، كنتُ مدركة أيضًا، أنَّ هناك حالات تتجاوز المعطى الطبِّيّ، بل وتكذِّبه. لكنْ بقدر ما تكون بعض الصدف جميلة، تكون أخرى قاسية، لكنَّها ضروريَّة أيضًا

إلى أن جاء ذلك المساء القاهر الذي قلتُ فيه ما لا يجب أن يُقال.

أصبحت أتعامل مع لالَّة كبيرة بأمومة كبيرة، أعتقد أنَّها لم تكن في حاجة لها سألتها مثل العديد من المرَّات:

_ *كيف صحَّتك اليوم يا لالَّة كبيرة؟*

أجابت بلهجة فيها قليل من العتب:

_ *زينا! سؤالك هذا تكرَّر كثيرًا هل تريدينني أن أكون مريضة؟*

ـ لا أعرف ماذا أقول يا سيِّدتي.

ـ كأنَّك تخفين شيئاً عنِّي؟

ـ لا ، ولكنْ خروجك كلّ أسبوع نحو مستشفى أمراض السرطان حيَّرني. وخفت.

ـ ههههه. فهمت الآن. لا عليكِ. لو مسَّني هذا المرض ما أخفيته يا غالية. لا نختار أمراضنا، قاسية لكنَّها الأقدار. تعرفين حبيبتي أنَّي أُدير جمعيَّة الأطفال المرضى بالسرطان، وأخرج لأراهم وأرى ما هي حاجاتهم. فعل الخير لا يقتضي جهدًا خارقًا ثم إنّ لوط غير مقصِّر من ناحية المساعدة الماليَّة.

ـ لا تغضبي منِّي. صراحة، كنتُ خائفة يكون عندك سرطان وتخفينه.

لا أدري كيف خرجت الجملة من فمي. ضحكتْ بطيبة.

ـ لا ، حبيبتي. من هذه الناحية، الحمد لله.

استغربت أنَّها لم تكن متأثِّرة وأيَّامها معدودة كما قلتَ لي. ضحكتها شجَّعتني على الذهاب بعيدًا أكثر.

ـ اعذريني لالَّة كبيرة. لم أكن أريد أن أوقظ جرحك. أعرف كلَّ شيء. لا يمكنني أن أكون معك ولا أخبرك أنَّي أعرف حقيقة مرضك. مقاومتك للمرض الخبيث علَّمتني كثيرًا.

فجأة، ارتسمت حيرة كبيرة على محيَّاها كمن فوجئ بخبر دوَّخه وأفقده توازنه وصوابه.

ـ لحظة يا زينا لم أفهم قصدك! قلت لك لستُ مريضة. فأنا أذهب للمستشفى مرَّة كلّ أسبوع، ليس من أجلي، ولكن في إطار الجمعيَّة. يبدو أنَّك فهمتني خطأ

ـ يا لالَّة كبيرة. أنا أعرف كلّ شيء. لوط حكى لي عن المرض وأوصاني بأن لا أخبرك، لكنْ طيبتك غلبتني. كيف أمثّل أمام امرأة طيِّبة معي كأنَّ شيئًا لم يحدث؟ لا يمكنك أن تخفي عليّ مرضًا يصيبنا جميعًا، كلّ هذا الوقت. أريد أن أحرِّرك من مرضك، وأحرِّر جلساتنا من الألغاز. نعم، أعرف أنَّك مُصابة بسرطان الكبد. قبلت الزواج من لوط لمساعدتك لتجاوز مرضك.

ـ والله لا أفهمك. هل ترينني مريضة؟

ـ لا لكن مرضك يشبه مرض والدي، الله يرحمه. تحتاجين إلى من يعطيك الوقت الكافي، ويساعدك عن قرب. أنت تعنين لي الكثير، وقلبك طيِّب جدًّا أعرف أنَّ وجودي يتعبك، لكنَّ نيَّتي طيِّبة فيما أقوله. صحيح أنِّي أحبّ لوط، لكنَّ جزءًا من قبولي الزواج به، هو البقاء برفقتك.

كانت دهشتها كبيرة. نزل عليها كلامي مثل الذي فوجئ بحمَّام بارد. انفتحت عيناها على آخرهما، لدرجة أنِّي ندمت على إفشائي سرًّا أخطر ممَّا تصوَّرته. لم تختر لالَّة كبيرة المسالك الصعبة. كانت حادَّة ومباشرة معي. أوقفتني، بأن رفعت يدها كما تعوَّدت أن تفعل بشكل آمر، كلَّما كان ذلك مخالفًا لقناعاتها ثم وضعت يدها على فمي.

ـ أفهم أنَّك منذ أكثر من سنة ونصف السنة، وأنت تخفين عنِّي أنَّك تعرفين بمرضي؟ هكذا، أم أنِّي مخطئة؟ وأنَّ لوط أخبرك بكلّ التفاصيل، حتى بهذا السرّ الخاصّ؟

ـ بالضبط يا لالَّة كبيرة. كلَّما رأيتك، انتابني والدي الله يرحمه.

ـ اسمعيني. وضعك لوط في دوَّامة تشبهه. لا يا قلبي. لست مريضة لا بسرطان الكبد ولا بغيره. المريض بالكبد لا يقاوم كلّ هذا

الوقت. لم يتغيَّر. ولن يتغيَّر. يأتي الشخص من حيث نقطة ضعفه قبل أن ينقضَّ عليه.

أصررت بجنون، لأنِّي كنت أظنّ أنَّها تخفي عنِّي ذلك كلّه.

ـ يا لالَّة كبيرة أنا لا أريد أن أتدخَّل في حياتك الخاصّة. أعرف أنَّ مثل هذه الأمراض يحتفظ بها أصحابها لأنفسهم ولا يخبرون بها حتى أقرب الناس إليهم.

صمتت قليلاً ونظرت بعينيها الهاربتين في كلّ الاتِّجاهات. ثم جاءت بالقرآن، وقد علت صفرة مفاجئة وجهها لم أعرف ما كانت تريده.

ـ شوفي يا زينا لا أعرف دينك. أنا مسلمة، وأخاف الله. فأنت تشربين وتسهرين وتدخِّنين. وهذا حقّك. أنا لست كذلك. أسير وفق الحدود التي سطَّرها الله ولا أتخطَّاها لكنْ، أقسم بهذا الكتاب الذي يعني لي الكثير في حياتي هنا وهناك، إنِّي لست مريضة. وإنّي أذهب لمستشفى الأطفال المرضى بالسرطان، فقط لأضع ما ادّخرته من نقود لوط وتبرُّعاته، لهذا العمل الخيريّ الذي أُشرف عليه. أريد فقط أن أُعطي معنى لحياتي، وأتحمَّل هذه الأوضاع التي تنزل علينا بقسوة. لست مريضة يا زينا، وأنا لست ممَّن يخفين أمراضهنَّ. كلّ ما يأتي به الله، فمرحبًا غدًا، آخذك معي للمستشفى، وسترين كلّ شيء بعينيك، وعن قرب.

ـ هل تعرف ماذا حدث لي يا كازانوڤا؟

لا تعرف طبعًا، لأنَّ ذلك لم يكن يهمّك مطلقًا أقرأ ذلك في عينيك المرهقتين المنكسرتين. المرض أذبلهما

بقيت مشدوهة، يدي على فمي. *يا اللـــــــــــه!! إلى هذه الدرجة*

كنتُ غبيّة؟ وأنا ألوم يوميًا ليذْيا على غبائها، وكيف سمحت لغبيٍّ بأن يستولي على حياتها ويجرّها من أنفها نحو الإفلاس؟ ولكنَّها عرفت مسالكها الصحيحة مع أصلان. كنت مثل طفلة مجرَّدة من أيٍّ وسيلة دفاع، وجدت نفسها فجأة في غابة تشبه الأدغال، لا يوجد فيها أيّ مسلك إلَّا العودة إلى الوراء. اقتربتْ لالَّة كبيرة منِّي. وضعت رأسي على صدرها، وظلَّت تحكّ وتدخل أصابعها في أعماق شعري. بكيت بمرارة، حتى أحسست أنَّ قلبي قد احترق. لا أدري هل كان واجبًا عليَّ أن أبكي حزنًا على الكذبة القاسية والغبيَّة أم فرحًا؟ لأنَّ في النهاية كانت لالَّة كبيرة مشرقة، وبصحَّة جيِّدة.

قالت كبيرة وهي ترفع رأسي قليلاً:

ـ لو كنتِ خبيثة لما تصرَّفتِ معي، كلّ هذا الوقت، بكلٍّ هذا الوفاء وهذا الحبّ. لا أريد أن أقهرك في حبّك. لوط فيه صفات أجمل من الكذب. لي طلب صغير. سامحيه على كذبة شاء الله أن تُكتشف. عديني بأن لا تقولي شيئًا للوط، حتى يأتي وقت الإفشاء. هو يحبّك وإلَّا ما فضَّلك، ولا أعطاك كلّ هذه القيمة وهذه المرتبة في قلبه.

ـ لكن يا لالَّة. قرابة السنتين وأنا أعيش على كذبة كبيرة؟

ـ عديني فقط، هذا المطلوب منك.

وعدتها كم كانت شهمة! لم تجبرني على القسم على القرآن الذي كان بجانبها. كنت أريد أن أقول لك كلّ ما في قلبي، لكنِّي أعتقد أنَّي لم أفعل، لأنَّ الجرح كان قاسيًا وكبيرًا وعميقًا الأمر لا يتعلَّق فقط بكذبة، لكنْ باللعب بالمصائر، حيث يصبح الإنسان لا شيء. مجرَّد حفنة بخار.

أسألك سؤالاً بسيطًا، ربَّما فقد قيمته منذ زمن بعيد.

ـ لماذا فعلتَ بي كلّ هذا؟ هل الحبّ حقيقة هو ما دفعك إلى ذلك؟ أشتهي أن أؤمن بهذا، لكنّي لا أستطيع يا نوفا. لا أستطيع، لأنَّ الذي يحبّ لا يمكنه أن يحوّل الآخرين إلى مجرَّد عتبة يتخطَّاها، وينسى ما خلَّفه وراءه من دمار. كنت أحتاج أحيانًا لأؤمن بأنَّك فعلتَ ذلك من أجلي، لكي أستمرّ قليلاً من دون أن أكرهك على الأقلّ.

منحتك كلّ ما أملك بلا تردُّد. ماذا ربِحتَ من وراء كذبة عيّشتني فيها بين السؤال والفراغ؟ كيف أتعامل مع مريضة، شاءت الأقدار أن تضعفها وتكسرها في الداخل لدرجة الحياء من القنبلة الموقوتة التي كانت تحملها في داخلها كلّ يوم أقول إنَّها ستموت. وحضَّرت نفسي للجنازات المفترضة، مع أنَّني منذ أن عرفتها، كلّ ليلة أتمنَّى لها أن تستمرّ في الحياة. كنت معجبة بها، وأتساءل: كيف لامرأة لا تملك إلَّا هشاشتها وشجاعتها، أن تحارب أخطر أمراض العصر، وأكثرها فتكًا، حتى قهرته وتخلَّصت منه، ووضعت الطبّ نفسه في حالة إحراج؟

ماذا أفعل يا الله؟ كنت أسبح في فراغ يشبه كومة من الضباب تنعدم فيها الرؤية.

في اليوم الموالي، حاولت أن أنسى كلّ ما حدث، وذهبت مع لالَّة كبيرة إلى مستشفى الأطفال المرضى بالسرطان. رأيت بأمّ عيني فرح المستشفى والأطفال بقدومها. وكيف أنَّ حنانها كان حالة من الفيض الإنسانيّ. راقبتُ الحسابات برفقتها، لأنَّها مصرَّة دائمًا على أن يذهب كلّ ملّيم إلى مكانه الطبيعيّ، كما قالت لي. ثم سجَّلت شيكًا عند الموظَّفة المشرفة على المال، من عشرة آلاف دولار. وسجَّلتُ أنا بخجل كبير، شيكًا من ألفيْ دولار، وأنا أعتذر.

ـ عذرًا يا لالّة كبيرة، راتبي صغير، الله غالب.

ـ المهمّ النيّة والقلب الخيِّر. كلّ الأموال تذهب، أقنعته بهذا الواجب. لوط، من هذه الناحية، لا يقصِّر.

التفتت زينا مرَّة أخرى نحو كازانوفا كأنَّه لم يكن هنا في غفوة شبيهة بالموت. يعكس النور القليل بعض ملامحه المنكسرة، بينما تختفي أجزاء أخرى من وجهه في الظلِّ الرماديّ المائل نحو السواد. عندما التفتت زينا إلى يمينها، قليلاً، رأت فراشة بيضاء صغيرة تحوم حول اللمبة، قبل أن تشتعل وتتحوَّل إلى رماد تبعثر في كلّ اتِّجاه، لدرجة أنَّه لم يبق شيء.

ـ ماذا تريدني أن أقول لك يا نوفا بعد كلّ هذا؟

اختصرتْ عليَّ لالّة كبيرة، كلّ الشروح. رأيت كلّ شيء بعينيَّ في مستشفى الأطفال المرضى بالسرطان. لو كان الأمر يخصُّني، لكنت سامحتك، لكنْ أن تحوِّلني إلى غبيَّة لا أملك ما يمكن أن أقوله لك! لا أعرف حقًّا. في النهاية، الحقّ ليس عليك، أنا أيضًا في أعماقي، أحببت رجلاً يشبهني، صنعته على مقاسي. أخطر شيء أن تصنع المرأة صنمًا، ثم تحوِّله من تلقاء نفسها إلى إله تعبده. لا فرق سوى أنَّ وجهك الحقيقيّ الذي ظلَّ مخفيًّا، أصبح الآن في النور. لكنَّك كنتَ موجودًا في لاوعيي. كنت أرفض أن أراك، لكنَّك كنتَ هنا بحضورك المخيف. كنتَ كما اشتهيتني أن أراك. ربَّما ربَّيْتَني في ظرف أقلّ من سنتين على مقاسك.

لم أرَ والدي يومًا، حتى في حالات مرضه القصوى، يرتكب خطأً ولو صغيرًا، لا يعتذر عنه بعد لحظات عندما يكتشف النقيصة. لم يكن ككلِّ الرجال. صورة والدي كانت حاضرة في كلّ خياراتي. المرَّة

الأولى مع آدريان، رأيت والدي في نشاطه وحبّه للتحف والتماثيل، وسفره عبر العالم لاقتناء وشراء ما يؤثّث به متحفه الصغير. وأنت أيضًا، كان فيك شيء من جرأة والدي على القول جهرًا، ما يقوله الآخرون سرًّا حب الحياة والاندفاع نحوها بلا أسئلة أبدًا

هل ظلمتك الأقدار؟ لا

لا يمكنني أن أتشفّى فيك. لكنّها المرَّة الأولى التي أحسّ فيها أنَّك في المكان الذي صنعتَه لنفسك. في الدائرة التي شبكتها، ثم ارتميتَ فيها وكأنَّك تلعب فقط، وأنَّ كلّ المحيطين بك ليسوا إلَّا مجرَّد كائنات من الشمع الأحمر المرَّة الأولى أيضًا التي أشعر فيها بسقوط فخَّار ثمين فوق رأسي، فيتكسَّر ولا تبقى منه قطعة واحدة ملتئمة، بحيث لا يمكن لصق أيّ جزء مع الآخر

أحيانًا، أندم أنِّي خسرتك، فيك الكثير من الأشياء الجميلة، ربَّما لم أعرف كيف أراها كما قالت لالَّة كبيرة. وفي أحيان أخرى، أسعد أنَّ الصدفة التي لاقتني بك، هي نفسها التي فصلتني عنك بلا تردُّد. احتفظت بسرِّي الذي صغَّرك في عيني. كلَّما تكلَّمت على مرض لالَّة كبيرة شعرت بأنَّ الرجل الذي أمامي متماد في كذبه، بلا توقُّف. يبحث عن كلّ الوسائل التي تضمن صورة هو نفسه لم يعد مقتنعًا بها. لم تتوقَّف ثانية واحدة لتُعيد النظر في نفسك، وتقنعني فقط بأنَّك أخطأت لأنَّك كنتَ تحبّني، ولم تكن مستعدًّا لفقدي. تماديتَ في اللعبة، وتوقَّفت أن أكون شمعًا أحمر بلا روح ولا أحاسيس، كما في المتاحف الأوروبيَّة الكبيرة. وضعت المفتاح تحت الباب، وانسحبت بلا تردُّد.

هل تسمعني يا نوفا؟ لماذا دعوتني نحو مكان لم تعد لي فيه أيَّة مساحة؟ هل أنت هنا، أم أنَّني أحكي وحدي؟

أحتفظ بالسرِّ كما وعدتُ لالَّة كبيرة.

لم تكن تعرف يا نوفا أيّ شيء عمَّا دار بيننا. لكنَّ حاسَّة شمِّك تفترض كلّ يوم حصول شيء لا تريده أن يغيب عنك. كنتَ سيِّد العارفين، أنَّ حبل الكذب مهما طال، يظل قصيرًا الغريب هو أنَّ طاقتك الإبداعيَّة الخلَّاقة، تجد الحلول في كلّ ثانية، دقيقة، وساعة. الوقت الذي كنتَ تهدره كان رهيبًا في النهاية، فهمت متأخِّرة أنَّك داخل منطق طبيعيّ مرتبط بعملك. فقد تواءمت مع كلّ شيء. رفاقك الكذب والحيل والنصب، للحصول على الأسواق، لدرجة أن انتهى بك الأمر إلى أن رحّلتَ معك ذلك إلى بيتك، لهذا ما يبدو جهدًا مضنيًا لي، هو استمرار للعاديّ في حياتك اليوميَّة.

عندما عدتَ من عملك، كنتَ بشوشًا. افترضت أنَّك حصلت على عقود مشاريع جديدة. معارفك تشابكت، ووعودك كثرت لدرجة أنَّي أصبحت أخاف عليك من وسط عفن، كانت تسيِّره مجموعات مافيويَّة ماليَّة قويَّة، جمَّعتْ مال الدولة، ثم تغلغلت في أجهزتها، واشتريت شركاتها الضعيفة أو التي أضعفتها وأنهكتها قبل الانقضاض عليها، لكسرها، وشرائها بالنقد الرمزيّ. ثم فتحت مسارب أخرى للحكم للحفاظ على الكيان الماليّ الضخم، حيًّا ونشيطًا لا تستغرب إن سمعت أنَّ أحد رجالاتها قد اعتلى سدَّة الحكم.

أغمضت عينيَّ، رأيتك في كلّ صفائك.

أسمع صوتك يأتيني الآن من بعيد.

ـ زينا حبيبتي. أشهد أنِّي مقصِّر في حقِّك. العمل سرق منِّي حياتي كلّها ولا يفكِّر الإنسان أنَّ المال الذي لا ينفع في الحياة، لا ينفع في الموت. عدت باكرًا من أجلك. أريد أن أُسعدك. أن نستعيد

حياتنا كما كنّا في أيّامنا الأولى. حابب نشوف معًا أوبرا **مدام بوترفلاي**. ألم تحك لي قبل أيّام عن حبّك لموسيقى جياكومو بوتشيني[1]؟ فرصة، لنذهب معًا، ونخرج من دائرة السرطان ورائحة الأدوية والموت الذي سكن بيتنا للالّة كبيرة ربٌّ يحميها

ـ تعرفني مع الأوبرا، لكنّي أشعر بحزن هذا المساء.

ـ أعرف. تتحمّلين هموم عملك اليوميّ، وهمّ مرض لالّة كبيرة.

ـ لالّة كبيرة امرأة كبيرة وصبورة. أرى كلّ ذلك في عينيها

ـ جسدها مقاوم حتى فوق احتمالات الأطبّاء، الذين أعطوها ستّة أشهر. وها هي الآن تقترب من سنتها الثانية.

ـ ربّي يطوّل في عمرها

ـ قال لي مسعود إنّه أخذكم إلى مستشفى الأطفال المرضى بالسرطان.

ـ نعم. زاد احترامي الكبير لهذه المرأة. بمرضها القاسي، لا تكفّ عن التفكير في الآخرين.

كنتُ على يقين أنّك كنتَ تختبرني. ولهذا، كنتُ حذرة في كلّ إجاباتي. ليس كما في المرّات الماضية. كنت أريدك أن لا تشكّ، ولكن في الوقت نفسه، كبرت فيَّ الرغبة لصفعك وإيقافك عند حدِّك.

ـ تعرف، حبيبي، أنّي أتفهّم وضعك في العمل، ولهذا كلّما قرّرت الذهاب للباليه، أو رؤية عرض ما، أذهب ولا أنتظرك، لأنّي أعرف سلفًا أنّك ستقول لي إنّك مشغول. تعوّدت. لا تشغل بالك. مدام بوترفلاي رأيتها عندما انتظرتك في الأوبرا كما اتّفقنا، لم تأتِ ولم تعتذر.

---

(1) Opéra Madama Butterfly. Giacomo Puccini.

ـ ممتاز. كيفك مع لالَّة كبيرة، هل شكَّت في شيء؟

ـ وهل أخون عهدك؟ ألم أعدك؟ مرضها نسيته كما نسته هي، لماذا أذكِّرها به؟ أدهشتني باستماتتها وحبِّها للناس. متأكِّدة من أنَّ امرءًا يملك مثل هذا القلب، لا يمكنه إلَّا أن يُشفى بسرعة، ومن تلقاء نفسه وبلا دواء. خجلت من كرمها لم أدفع إلَّا ألفيْ دولار.

ـ لو أخبرتني، كنت أعطيتك شيكًا بعشرة آلاف دولار، أنت أيضًا

ـ لا أشعر بخجل. أعطيت ما ربحته من جهدي، وكنت سعيدة بذلك.

ـ هل بذهنك عرض آخر تريدين أن نراه؟

ـ لا أريد فقط أن أنام قليلاً

أنتَ طلبتَ أن تراني يا نوفا، وها أنا ذا أمامك أقول ما حملته معي، على الرَّغم من أنَّ السنوات محتك تقريبًا من ذاكرتي. أقول لك اليوم عن كلّ شيء بدون أن أخون قسمي، وحواسّك ميّتة أو شبه معطَّلة. وأنت بكلِّك على حافَّة الموت. لا أدري إذا كنتَ على الأقلّ واعيًا بفداحة ما قمت به معي.

الشيء الوحيد الذي استطعت فعله ليلتها، هو أنَّك رحت نمت عند لالَّة كبيرة. ليست الرغبة هي التي قادتك، ولكن تشمّم الأخبار. لأوَّل مرَّة، لم يتحرَّك فيّ شيء من الذي كنت أسمِّيه الغيرة، وكأنِّي تصالحتُ فجأة مع نفسي. العكس هو ما كان سيفاجئني. لو بقيت معي وفتحت لي قلبك، وقلتَ كما يقول أيّ عاشق لحبيبته: *أعتذر يا قلبي. أقول لك عن الحقيقة. كنتُ أحبّك وأريدك لي، ولم أجد وسيلة لامتلاك قلبك إلَّا تلك.* كنت ربَّما حاولت أن أتفهَّم لماذا رميتَ بي في المسلك الغلط. لكنَّك طبعًا لم تفعل. وبدلاً من ذلك، رحت تتأكَّد من خلفيَّات كذبتك، وهل أخبرتني لالَّة كبيرة بشيء، وأنت تعرف أنَّ

لالَّة كبيرة لن تخبرني بأيّ شيء، لأنَّها أصلاً لم تكن تعرف شيئًا من قصَّتك التي حبكتها، وربَّما لم تكن في حاجة إليها

كان كازانوڤا شبه نائم، لا يحرِّك ساكنًا باستثناء أصابعه التي تثبت أنَّه ما يزال هنا قليلاً، ولم يرحل بعد.

نظرت زينا إلى عينيه، بدتا كعينيْ ميِّت بالشهقة الأخيرة، الذي لم يجد حتى فرصة الاعتذار.

وضعت زينا رأسها بين يديها، تبحث عن أيِّ شيء تلتصق به لكي لا تهرب قبل الأوان.

ثم قامت من مكانها مرَّة أخرى. مشت قليلاً لتفادي وجه كازانوڤا الذي بدا لها كأنَّه بدأ يتحلَّل بصمت. حاولتْ أن تمحو من ذهنها كلّ ما مضى. بدتْ لها لوحة *الأندلسيَّات* قريبة كما اليوم. مدَّت أصابعها نحوها تحسَّستها بنعومة. شعرت بها قريبة من قلبها وذاكرتها أكثر تمتمت: *يااااه كم هي جميلة، وكم أحسّ اليوم أنَّها في مكان شبيه بها مثل النسيان!* تعلَّمت من آدريان كيف أقدِّر التفاصيل بشمِّها وتحسُّسها وحبِّها كان يشتري حتى الأشياء التي تبدو لغيره بمن فيهم أنا، تافهة، ولكنَّها لا تعوَّض بثمن. سافر لليمن ومصر وعُمان وعاد بأشياء غريبة من أسواقها البعيدة، وجبالها القاحلة المعزولة. في مرَّة من المرَّات، اشترى سفينة إنجليزيَّة بكاملها كانت عائمة في خليج عُمان. سحبها إلى الساحل الهنديّ بمعاونة البحَّارة العُمانيِّين القدامى، وهناك قام بترميمها مع حِرفيِّي السفن. كتب عنها الكثيرون. فجأة، خرجت من العدم وبنى لها قصَّة حقيقيَّة كانت ضائعة في البحار. استرجعها من العدم، وأعادها في النهاية إلى المتحف العُمانيِّ الذي كان قد فُتح حديثًا. اقتنى الكثير من العملات العالميَّة القديمة. شواهد القبور القديمة التي أعاد ترميمها وتأهيلها

عندما اقتنينا هذه اللوحة *الأندلسيَّات*، أنا وأنت، كان في ذهني ما قام به زوجي السابق آدريان. قلتُ لك نقتنيها، لأنَّها مهمَّة. هي من نوادر الفنَّان محمَّد راسم. نضعها في مكان في الغاليري، لتصبح مرئيَّة، وبعدها نصنع لها تاريخًا بالاعتماد على المختصِّين والعارفين، ويمكننا أن نبيعها لمتحف أو أيَّة جهة تريدها لم تكن معنيًّا كثيرًا بما كنتُ أقوله لك. أنت تجاوبتَ مع طلبي فقط. قصَّة اللوحة غريبة. كانت آخر منمنمات محمَّد راسم. وهو يرسمها، أُصيب بالشلل مرَّتين. وكأنَّ ذلك كان إنذارًا عاد من جديد إلى رسمها، لكنَّه بعدها بأقلّ من أسبوع، فقد الصوت لمدَّة سبعة أيَّام وسبع ساعات. وأُصيبت زوجته بحالة اكتئاب. لم تستطع كتم غضبها قالت له هذه اللوحة مشؤومة، تخلّص منها بِعها لأيِّ شخص. يوم انتهى منها ووضعها على حائط بيته، شعر بدوار كبير، فذهب لينام. في الليلة نفسها، أصبح مقتولاً هو زوجته. قُتل وهو لا يعرف لماذا حتى قَتَلته لا يعرفون جيِّدًا لماذا ارتكبوا جريمتهم. لم يلتقوا بمحمَّد راسم، ولا عرفوه، لا من بعيد ولا من قريب. أودعوا السجن، وبعد مدَّة خمس سنوات، أُطلق سراحهم، لأنَّ التهمة لم تثبت. إلى اليوم، أتساءل لماذا منحتَ هذه اللوحة غربة إضافيَّة بوضعها في مكان منسيٍّ، وهي ملكي ومسجَّلة باسمي؟ كيف نسيتها يوم غادرت هذا البيت؟ كان يمكن أن تنتقل إلى أحد مكاتبك الراقية في البرج الشماليِّ لمنارة سيتي، في الحيِّ الدبلوماسيّ. هناك تستقبل المتعاملين معك. لماذا وضعتها في مكان لا يراه إلَّا ناس الصدفة؟ لو فقط كانت في قاعة VIP لكان الأمر أهون. ربَّما نسيتَها أصلاً أنت رجل أعمال في النهاية، لك أولويّاتك. أعرف أنَّ ساراي لم تحبِّها أبدًا، لأنَّها كانت تظنّ أنَّها كانت هديَّتك لي يوم زواجنا هي لم تخطئ كلِّيًّا، لأنِّي أوَّل ما رأيناها في إحدى غاليريهات

باريس، جُننت بها أعجبتني، لأنَّها لفنَّان استثنائيّ. لم يكن سعرها غاليًا. عندما جئت أدفع، قلتَ لا *هديَّتي لك بمناسبة الذكرى الأولى لزواجنا*

لكنْ كما ترى الآن. إنَّها تموت في سكينة، وسيكون مصيرها الإهمال والتلاشي والتحلُّل.

ربَّما هذا الكلام لا يمسّك ولا يعنيك أصلاً؟ أو ربَّما أنَّك تسخر من جنوني الآن.

التفتت نحوه بشكل فجائيّ لتلقي القبض على خزرته، في لحظة توقُّفها وثباتها:

ـ هل تذكر يا نوفا، اليوم الذي اقتنيناها؟ طبعًا لا قل لي إنَّك تتذكَّر. كذِّب افتراضاتي. حرِّك أيّ شيء، لأعرف أنَّك معي. قل إنَّك هنا، لأعرف أنِّي على الأقلّ منحتك الجزء الخفيّ من حقيقة لم ترها أبدًا في حياتك، لأنّك لم تكن مستعدًّا لذلك؟ القوَّة تعمي عن كلّ شيء، حتى عن رؤية النفس.

هزَّ رأسه قليلاً كمن يحاول أن يخرج من دائرة موت ينتظره في كلّ زوايا البيت. ثم بهدوء، وكأنَّ العالم المحيط به لم يعد يعنيه، التفت صوب البياض ولم يحرِّك ساكنًا.

ـ كأنَّك غاضب منِّي. ضربني وبكى، سبقني واشتكى.

الذكريات تفتح المخّ المغلق. الحدث لم يكن عاديًّا لهذا لا أنساه. كان ذلك في الذكرى العشرين ليوم اغتياله الذي يصادف يوم ٣٠ مارس ١٩٧٥ في سكنه في الأبيار. البلاد الوحيدة التي يطلق فيها سراح القتلة ولا يُعوَّض من أخطئ في حقِّه. المتَّهمون، بعد خمس سنوات أُطلق سراحهم. هل يُعقل؟ رجل بهذه القيمة يذهب هكذا؟

مؤسِّس المنمنمات، هو وزوجته؟ ذُبحا في ليلة واحدة. هل كان القاتل يعرف قيمته؟ هل قتله فتح أمامه بابًا كان مغلقًا؟ عندما وضعتَ اللوحة هناك، لم تكن تعرف أنَّ لها كلّ تلك القيمة الكبيرة بالنسبة لي. يومَ غادرتُ البيت نسيتها لكنِّي في الطريق، فكَّرت أن أعود وآخذها، بعدها قلت في نفسي هي في النهاية هديَّة مرتبطة بزواج، هي لي، وليست لي. مع أنَّها لي، ومسجَّلة باسمي وأملك وثيقة حيازتها. تركتها في جناحي، وجدتها في مكان عام. ويبدو أن لا أحد حرّكها منذ ذلك الوقت. قلبي يوجعني لمَّا أراها مهملة. انظر، لقد علتها النقاط الكثيرة التي ستدمِّرها. عليّ أيضًا أن أرمِّمها. ربَّما بعتها أو حتى أهديتها للمتحف الوطنيّ لتُضاف إلى أعمال محمَّد راسم التي سُرق أغلبها.

لست أدري من أدخل لي هذا في رأسي، لوحة الأندلسيَّات لا تنفصل عن هذا الصالون قبل أن يتمّ تدميره.

عندما بدأت في إنشاء الصالة الأندلسيَّة، قلتُ لك: *رمّمها فقط، المساحة الموجودة فيها قادرة على استيعاب أكثر من خمسين شخصًا، أنت لن تبني صالة للأعراس! ولا تنزع الحديقة، لأنَّها أجمل شيء في البيت*. سألتك إذا كنتَ قد رأيت صور الصالة في الحقبة الاستعماريَّة. أجبت بتصلُّب: *طبعًا رأيتها، ولي ذائقة، ولا أعيش في المرِّيخ*. أريتك في إحدى الصور، الكثير من مزارعي الكولون في حفلة تقاسم نبيذ السنة، وهم يرفعون الأنخاب. عادتهم بعد موسم العنب وتحويله إلى معاصر الخمور. يشربون أولى الكؤوس الآتية مباشرة من المعاصر، نخب نجاح الموسم. قلت لي وأنت تتفرَّس الصور بإحساس كبير بالخسارة: *كان عالمًا جميلاً وانتهى، ولم يبق منه الشيء الكثير. قلت لك وأنا على يقين ممَّا كنت أقوله: طبيعيّ، العالم متمازج ومتحرِّك*

جدًّا، ولا يمكن أن يستقرّ على حالة واحدة. قلتَ: لا كان يمكن أن يكون أفضل لولا مجيء بني هلال بخرابهم، فهجموا على الحياة ومسحوا كلّ مظهر من مظاهر الحضارة. لماذا نلوم المتطرّفين، فقد سبقوهم في الخراب؟ أجبتك، لأنِّي سمعت هذا الكلام يتكرَّر في الكثير من الجلسات. جدّي مات ومنح حياته لتحرير البلاد، فهل عليّ اليوم أن أبصق على دمه وأحوّل تضحيته إلى سخرية؟ نعم كان عالمًا جميلاً جدًّا، بل مدهشًا وساحرًا بأمسياته ولياليه في الحدائق الواسعة وعشّاقه السرِّيّين الذين كانوا يجدون متعتهم في التخفِّي بين الأشجار العملاقة التي جاؤوا بها من جزر الكاريبي، والمارتنيك، والغابات الاستوائيَّة والأمازون، لكن لهم ولأبنائهم، البقيَّة كانت في رتبة البهائم لا أكثر. يشتغلون من السادسة صباحًا، حتى العاشرة ليلاً؛ وأكثرهم مقاومة، لا يتخطَّى عمره الأربعين سنة. لو التفتَّ حبيبي للعمَّال اليوميِّين في الدوالي وتشقُّق أياديهم ووجوههم، لاكتشفت البؤس المدقع الذي كانوا فيه. لا تطلب من بائس أن يحبّ شخصًا كان السبب الأوَّل في قهره وتخلُّفه وموته. قسوة، ولكنْ هذه هي ردَّة أفعال البشر الطبيعيَّة.

هل تعرف حبيبي ماذا تعني لوحة *الأندلسيَّات* التي صلبتها على حائط بارد؟

قيمة تراثيَّة وتاريخيَّة تجسِّد تقاليد المجتمع الأندلسيَّ المسروق. قلت لك يوم عدنا محمّلين بها: نضعها في المكان المناسب، بحيث يراها كلّ زوَّارك وأصدقائك. نضعها في الصالة الكبيرة، التي كنت تنوي تحويلها إلى *الصالة الأندلسيَّة*، مع أنِّي لم أكن موافقة أن تنزع من مكتبك الأساسيّ الذي يزورك فيه من كنت تتعامل معهم، وتوضع في جناحي في انتظار الانتهاء من الصالة الأندلسيَّة. حتى الغاليري،

كان فيها نزاع كبير بيني وبين إخوتي، لهذا لم أتجرَّأ على نقلها إلى هناك. مكتبك في المارينا، في الحيِّ الدبلوماسيّ، كان جميلاً ومناسبًا. لكنَّك صمَّمتَ على إرجاعها *للدار الكبيرة*. وانتهت إلى الصالة الأندلسيَّة مع مجيء ساراي. كنت أتمنَّى لها مصيرًا أجمل، وصالة غير هذه. عندما ذكّرتك بضرورة وضعها في مكتبك، في انتظار الانتهاء من مشكلة الغاليري، قلتَ. هناك *ما هو أهمّ يا زينا أنا غارق في مشكلات كبيرة مع فورد*. وسعدت بسماع هذا الكلام منك، لأنَّك كنت تُعيد إنتاج الأسباب التي أدَّت بي إلى الطلاق من آدريان. هو أيضًا كان مهووسًا بتحفه التي يقتنيها، وكنت دائمًا في المرتبة الثانية. معك، الأمر لم يختلف، كنت دائمًا في المرتبة الثانية بعد غريمتي فورد. لم يكن الأمر دراميًا، فقد غرقت في عملي، وصنعت لي عالمًا أحبّه من الأوپرا والموسيقى. نصائحك المتكرِّرة بترك عملي، باءت كلّها بالفشل. كيف أتخلَّى عن حياتي؟ كان ذلك يعني لي الموت.

كنتَ منفعلاً في ذلك المساء لسبب لم أكن أجهله، لأنِّي بدأت أخرج من يدك. الرجل هكذا ما دامت المرأة ملكه، في مرمى ملمسه ونظره، تصبح بسرعة جزءًا من المتاع البيتيّ العامّ، يشتهي أن يجدها في المكان الذي تركها فيه آخر مرَّة. عندما تخرج من هذه الدائرة، تتحوَّل إلى مشكل حقيقيّ، لا يستطيع تسييره. السلطة والتملُّك، ولا شيء آخر.

ـ الإصرار على البؤس والضياع والفقر سيخسِّرنا في حياتنا

ـ وهل هي حياة يا نوڤا؟

ـ تفرَّغي لبيتك يا زينا، أفضل لنا جميعًا

ـ على أيِّ حال، هذا الأمر يخصُّني، ويخصُّني وحدي. من

الأحسن أن تترك هذا الموضوع نهائياً

ـ نصيحة لا أكثر.

ـ وصلت. أنت لا تعرف أنَّ هذا العمل مبرّر وجودي في هذه الحياة.

ـ إلى هذه الدرجة؟

ـ وأكثر. ماذا أساوي بدونه.

ـ أنتِ حرَّة.

عندما أخفقتَ في إقناعي، صمتَّ نهائيًّا، ونسيتَ موضوع عملي. ربَّما كان هذا هو الشيء الوحيد الذي لم أكن مستعدَّة للتفاوض فيه. التفاوض وحده كان يعني تنازلاً قاسيًا لم أكن قادرة على تحمُّله.

في الأخير، التفتت زينا نحو كازانوڤا، وهي لا تكاد تصدِّق أنَّ الذي أمامها هو الرجل نفسه الذي قطعت برفقته جزءًا مهمًّا من الكرة الأرضيَّة، وبحار العالم، وأجواءه، وغيومه، وسماواته.

ـ هل تسمح لي بنزعها من هذا المكان الميِّت؟ هذه الذكرى جمعتني بك، لهذا لن أحتفظ بها لكنَّها في النهاية لوحة نادرة وكبيرة. للناس الحقّ في رؤيتها في متحف من المتاحف الوطنيَّة.

مدَّت أصابعها تتحسَّس اللوحة وألوانها النقاط الصغيرة التي رأتها من بعيد، سوداء، رماديَّة، خضراء وبيضاء بدأت تتَّسع وتحتلّ اللوحة كلِّيًّا، وتُحدث فيها ثقوبًا صغيرة، وتجعل ألوانها باهتة. البحر في منارة سيتي ترك عليها بقعه، من بقايا الرطوبة. كيف يمكن للأشياء الجميلة أن تموت أمام الجميع من دون أن يحرِّكوا ساكنًا؟

ـ أنت تعرف هذا يا نوڤا تعرفه جيِّدًا، لكنَّك الآن في عالم آخر بين الأرض والسماء. ولا أدري، وأبواب الخوف مشرَّعة أمام نظرك

المتعب، إذا كان يصحّ فيك اللوم يا عزيزي.

البقاء في مكان واحد يحوِّل الكائن إلى مرتع خصب للدود الصغير وللحشرات المرئيَّة وغير المرئيَّة. لا تغضب منِّي، فأنا لا أشبه زوجاتك الأخريات. أشبه نفسي فقط. لا يوجد شيء أسامحك عليه، إلَّا كذبات اكتشفتها متأخِّرة جدًّا، حتى فقدت فاعليَّتها مثل الأدوية التي انتهت صلاحيَّتها عليك أن تواجه بها أصحابها الشيء الوحيد الذي يجرح قلبي الآن، كلَّما تذكَّرته رأيتك تبتعد عنِّي كثيرًا، هو إقناعي بمرض لاألَّة كبيرة.

على العكس من زوجاتك الأخريات اللواتي سمعتُ غضب بعضهنّ، لا أحمل لك أيّ حقد. أعطف عليك أحيانًا وأنت على هذه الحال. أشعر كأنَّك، على الرَّغم من ذكائك، كنتَ ضحيَّة وضع يتجاوزك جدًّا يا نوڤا كلَّما تذكَّرتك أو رأيتك، شعرت كم أنت مسكين في عالم يمسكك من حيث أنانيَّتك. وكلّ شخص ضحيَّة لأنانيَّته هو ميِّت بشكل مفجع، مع وقف التنفيذ. أحيانًا، أسأل نفسي: ما الظرف الذي لاقانا؟ كيف تزوَّجنا؟ كيف هربنا معًا نحو شيراتون الساحل البحريّ، كيف نمنا معًا ليالي كنتَ فيها جميلاً وناعمًا ودافئًا؟ ربَّما ضعفي تجاهك كان هو السبب، أو ربَّما قوَّتك في منحي ما اشتهيته منك، أنا الخارجة من تجربة قاسية مع رجل لم أكن بالنسبة له أكثر من شاهدة قبر قديم، أو إلٰهة من البازلت.

فتح كازانوڤا عينيه. نظر إلى زينا طويلاً كمن يكتشف بدهشة محيطًا غريبًا، للمرَّة الأولى. كأنَّه كان يريد أن يقول شيئًا لم يكن قادرًا على النطق به. لم تنتظر موافقته. نزعت اللوحة الصغيرة. قلبتها على ظهرها رأت ورقة الحيازة في كيس بلاستيكي، ملتصق بها، تمامًا كما وضعتها في المرَّة الأولى في جناحها، ثم في مكتبه في الحيِّ

الدبلوماسيّ، قبل أن يُعيدها إلى الدار الكبيرة، وتنزلها ساراي إلى الصالة الأندلسيَّة التي كانت قد فقدت رونقها فتحت الكيس المغبرّ تأكَّدت من أنَّ كلّ شيء كان ما يزال على حالته الأولى. الحيازة باسمها أعادت غلق الكيس البلاستيكيّ. وضعتها في كيس من القماش، كان في حقيبتها اليدويَّة. *هذه ليست سرقة، لكنَّها استعادة ملكٍ كان ضائعًا* في لحظة من اللحظات، فكَّرتْ أن تطلب الإذن من مسعود، لكنَّها كانت تعرف أنَّه لا سلطان له على المكان. أن تستأذن بشير، كبير الإخوة، لكنَّها كانت تعرف سلفًا أنَّه سيحول كلّ شيء إلى قضيَّة، بينما اللوحة لا تعني له أيّ شيء. *بغضّ النظر عن هذا وذاك، اللوحة ملكي وباسمي.*

كان يتتبَّع كلّ حركاتها ويحاول أن يتأكَّد ممَّا كانت تقوم به.

ـ أعرف أنَّك هنا، وأنَّك غير راض عمّا أفعله. لا تستطيع يا نوڤا أن تمنعني من حقِّي الأدنى. تستطيع أن تصرخ حبيبي بأعلى صوتك، *اقبضوا على سارقة* لوحة محمَّد رااااسم، *والأندلسيَّات*، فلن يسمعك أحد إلَّا قلبك، إذا بقي لك قلب. لأنِّي أشعر كأنَّك تخلَّيتَ عن كلّ شيء.

عندما انتهت من ترتيب اللوحة، في داخل الكيس من القماش حتى لا تنكسر، عادت من جديد نحو الكرسيّ المقابل لكازانوڤا نظرت باتِّجاه الحائط. لم تَرَ شيئًا إلَّا بقايا بياض مكان اللوحة. تنهَّدت طويلاً، وتفادت أن تدقِّق في عينيه اللتين بدأتا تتفرَّسانها بدقَّة الذي يريد أن يحفظ تفاصيل ملامح الشخص الذي كان يقابله.

جلست.

ـ عزيزي نوڤا! هل نسيتَ ملامحي حتى تنظر إليّ بهذه الطريقة، وكأنِّي نزلت من المرّيخ؟ أنا من هنا جزء منك فيّ، قد لا يكون هو

جزؤك الأفضل، وجزء منّي فيك، قد يكون هو أجمل ما فيّ.

أنت تعرف جيّدًا، أنَّ خلافاتي معك في النهاية لم تكن نسويَّة، ولو أنَّ بعض الغيرة موجود دومًا. متأكِّدة من أنَّ الغيرة عندما تغيب، يكون الحبّ قد وجد طريقًا آخر ربَّما كانت هي مقياسي الكبير في اختبار عواطفي. كلَّما اشتعلت غيرتي، أحسست بأنَّ هذا الرجل يسكن حواسّي كلّها أو بعضها، وكلَّما خفتت نار الغيرة، شعرت بأنَّ ما كان يجمعني به انتهى، وربَّما مات. أنت تُدرك يا عزيزي نوفا أنَّه من بين كلّ نسائك، كنت أقلَّهنَّ تعبًا لك، وإرهاقًا ليس لأنِّي رزينة، فأنا لست كذلك، ولا صبورة، ولكنْ لأنِّي أحيانًا ينتابني سؤال طفوليّ: *الحياة قصيرة، ومن العبث تضييعها في القيل والقال*. عندما تنغلق السبل، آخذ حقيبتي وأعود إلى بيتي وعملي الذي ينتظرني كلّ صباح، وأعطيه كلّ طاقتي، على الرَّغم من الإرهاق الذي يسبِّبه لي، أجد متعة لامتناهية في التعب والجهد وحبّ ما أقوم به.

يبدو أنَّنا كلّنا جزء من هذا النظام القاسي الذي يسير خارجنا وداخلنا. مشكلتك أنَّك تشبه جميع أهل البلد في علاقتك بالمرأة، حيث يتساوى فيها المثقَّف والأمِّيّ، العاقل والمجنون، الغنيّ والفقير. الخوف نفسه من الخوف الذي نصدِّقه، وننسى أنَّنا نحن من خلقناه. المرأة التي تريد، ليست أكثر من صورة لا وجود لها إلَّا على تلك الصفحة الملساء والمسطَّحة التي تخرجها، ترى الوجه، ثم تخفيها وتنسى مع الزمن أين وضعتها لست أكثر من امرأة تسعدك في الفراش، لأنَّها لا تنام برفقتك إلَّا بالشكل الذي يجعل اللحظة جميلة ومدوِّخة. شيء جميل تلوِّن به رحلاتك الكثيرة، والتباهي به أمام ضيوفك والشخصيَّات المرموقة التي تلتقي بها، أنَّك زوج نجمة الباليه الوطنيّ Zinay. سيأتي وقت، عندما تجد الأفضل في عينيك، تنفر

منها وتبحث عن غيرها تعرف لماذا؟ المسألة بسيطة. قلت لك رأيي في هذا.

لنتجرَّد للحظة، ونرى الأشياء بعقل خارج الأعراف والأديان. ما الفرق بيننا لتكون ما أنت عليه؟ وأكون أنا تحت رايتك دومًا؟ لنبدأ بألف باء الأشياء. نولد متساوين في كلّ شيء. عقولنا تنمو بحسب المناخات التي نكبر فيها والاستعدادات والمورثات المحتملة. يكبر فيها غباؤنا أو ذكاؤنا ما الذي يفصل بيننا بعدها؟ الأنظمة المجنونة التي ترفع هذا وتنزل ذاك. وتزكِّيها الأعراف والتقاليد والأديان. الأعراف بلا دين تموت. بل العرف يتماهى مع الدينيّ ليستمرّ في أعماقه. ثم تأتي بعدها قوَّة هذا، وضعف ذاك. ثم يأتي من يشرِّع لك من النساء ما تشتهي ضاربًا عرض الحائط كلّ ما ينافس رجولتك. لماذا يفترض فقيهك الذي يقتفي خطاك، ليحلّل لك ما تشتهي تحليله، أنَّ المرأة بلا شهوات؟ بلا اندفاعات؟ بلا جنون داخليّ؟ ماذا لو طالبت المرأة ليس فقط بحقِّها النسويّ العاديّ، لكن بحقِّها بالاحتفاظ في بيتها بأربعة، أو سبعة، أو تسعة رجال كما في الأسرة الأميسيَّة القديمة؟ طبعًا ستُقتل وتُرجم في الساحات. ستُتَّهم بالدعارة المقنَّنة. وأن ينام رجل مع أربع، أو سبع، أو تسع نساء، أو حتى ما ملكت أيمانه، فكيف تسمِّي هذا؟

يسعل كازانوڤا قليلاً يحرِّك رأسه. يتمطّى في مكانه، ثم يهدأ.

ـ أفهم أنَّ كلامي لا يعجبك مطلقًا تحمَّلني. أنا لا أعطيك درسًا، ولا أعاقبك. فأنا في النهاية جئت فقط لأراك.

عقلي يُحبس. أعرف أنِّي أُثقل عليك. قد لا يهمّك الأمر أحاول أن أفهم كيف يتحرَّك العقل الرجوليّ. أراك الآن وأنت تعضّ على شفتك السفلى. تريد أن تقول شيئًا قل. إلعنّي. إشتمني كما في

لحظاتك الهستيريَّة التي كانت تنتابك كلَّما أُصبتَ بالحبسة الجنسيَّة، التي يمكنها أن تحدث مع أكثر الرجال يقينًا بنفسه. الحبسة هي ثمرة الخوف من الإخفاق أمام من نحبّ. هي حالة حبّ يسكنها خوف مضمَر. كم من مرَّة قلتُ لك لا تخف، هذا لا يعني شيئًا استعد تركيزك معي، وضعْني فيك، واخل ذهنك منهنَّ جميعًا ومن مشاكلهنَّ. الحبسة ليست رديفًا للعجز. تنفخ طويلاً، ثم تلعن اليوم الذي التقينا فيه، وبعدها تخرج من البيت وتعود فجرًا سكران، تبحث عن مرقدك قبل أن تنتهي في الصالون. لالَّة كبيرة لا تقبل سكرك. تقول لك دائمًا، *أتقبَّل المخدِّرات لأنِّي لا أعرف لا طعمها ولا رائحتها، لكن أن تأتيني سكران، ابحث لك عن مكان آخر تقيم فيه.* في الصباح، عندما تصفو، تحاول أن تعتذر دون أن تعتذر. أتأمَّلك. *ماذا سيحدث لو اعتذرت؟ ما الذي سيتغيَّر؟ أيّ سقف سينهار؟* كم تبدو لي صغيرًا في هوسك ضدِّي. أقول في خاطري، ليته يصمت. لكنَّك لا تصمت. أحيانًا تتحوَّل إلى شخص آخر، أكاد لا أعرفه من شدَّة محبَّته لي. فأقول سبحان الله، هل هو نفسه الذي كان معي، قبل ساعات، يؤنِّبني في أشياء تافهة ويحمِّلني كلّ مضارّ الدنيا؟ قبل النزول إلى مكتبك، تذهب نحو بائع الورود القريب من البيت الذي يبيع ما يغرسه في حديقته. هي الورود الوحيدة في الحيّ، التي بها عطر حقيقيّ. تختار بنفسك ثلاثًا، حمراء، بيضاء، وزهريَّة مائلة نحو البنفسجيّ. وروده تقاوم قرابة الأسبوع، لأنَّها أصليَّة. تقبِّلني على جبهتي، شفتيَّ، ثم تضمّني إلى صدرك. تهمس: حبيبتي زينا. أجمل امرأة تتحمَّل بؤسي الذي هو بؤس الرجال كلِّهم. ثم تهديني الورود، وكأنَّك تقرأ من عينيَّ العواصف التي تنتاب قلبي للمغادرة. تمحو بجمالك الغريب والطارئ، أسوأ ما عشته معك قبل أيَّام قلائل.

أحيانًا، أفكّر إذا لم نكن كلّنا نحمل جينات مرضيَّة بمجتمع غير سويّ. مرضى جميعًا بنسب متفاوتة.

ارتسمت فجأة على وجه كازانوڤا سحابة ملوَّنة. تجلَّى على وجهه طيف ابتسامة. الخوف الذي كان في عينيه خفّ كثيرًا. بدأ يحرِّك أصابع يديه ورجليه مثل طفل صغير يلعب في فراشه.

جميل أنَّك تحسّسني أنَّ فيك بقايا روح لم تمت. أنا أيضًا أحبّ هذه الجملة: *أحيانًا، أفكّر إذا لم نكن كلّنا نحمل جينات مرضيَّة بمجتمع غير سويٍّ. مرضى جميعًا بنسب متفاوتة.* صرتُ أكررها عليك، كلَّما تعقّد وضعنا الداخليّ. في النهاية، لست أحسن منك، وإلّا ماذا أفعل عندك؟

صحيح يا نوڤا، لم تكن حياتنا كلّها ظلامًا.

بذلت المستحيل لكي أفهمك. قلت لي حبيبتي أحتاجك في رحلة أميركا المصيريَّة، لأنَّ عليها ينبني مشروع بناء مصنع لسيَّارات فورد. وجودك معي سيريحني، ويوفِّر أكثر من ألفيْ فرصة عمل في بلادنا. كان الوقت مناسبًا، إذ لم يكن لديَّ أيُّ التزام مع الأوپرا إلَّا إعادة عرض بعض الأوپرات التي سبق أن أنجزناها، وكانت الراقصة الشابَّة، ريحانة، هي بديلي الجميل. رأيتها في التلفزيون، بالصدفة، فأصبت بأدائها. سجَّلت الحصَّة وعرضتها على المدير. قلت له أنتم بحاجة إلى شابَّة مثل هذه. كان بحماسي نفسه. والتحقتْ بالأوپرا. من فرط سعادتها كانت تتحدَّث مثل طفلة: *ماما زينا أشكرك. كلَّما رأيتك تمنَّيت أن أكون معك.* شيئًا فشيئًا، حتى أصبحت بديلي الأوَّل. تعوِّضني في سهرات رمضان. اكتشفها الجمهور، فأحبَّها

اعذرني على استطرادٍ لا أعتقد أنَّه يهمّك.

كنتَ تريد أن توسِّع المكان، لأنَّ تجارتك كبرت، وأصدقاءك الأجانب اتَّسعوا وتنوَّعوا، وإن ظلَّت أميركا هي المسيطرة. كنتَ الوكيل الأهمّ لسيَّارة فورد. أنا لم أكن أحبّ الفورد لأسباب ثقافيَّة بحتة، وأرى فيها تسلُّطًا أكثر من هذا، كان صاحبها عرقيًّا وعنصريًّا، فلم أحبّه. كانت سهرتنا مع مدير فورد التجاريّ، في زيارتنا إلى ديربورن(١) في ميشيغان. اكتشفت المدينة لأوّل مرّة في حياتي. سبق أن زرت نيويورك، لكنَّها المرَّة الأولى التي أجدني في هذه المنطقة. كنتُ مترجمتك أيضًا، وأنتَ سعيد بحصولك على صفقة بناء مصنع تركيب سيَّارات فورد في وطنك وأرضك. كانت السهرة في مطعم جميل. سرد المدير أمامي تاريخ فورد، كانت برفقته شابَّة ستاجيير(٢) في التسويق والماركتنغ تُدعى جوليا، لم تنزل عينيها من على وجهك بأناقتك الكبيرة في مثل هذه المناسبات. في عمقها ذكاء نفعيّ استثنائيّ. في الصباح، التصقت بك جوليا أكثر كنتُ أتبعكما لم تكن في حاجة إلى مترجم، كانت لغاتها العربيَّة، والفرنسيَّة، والإنجليزيَّة، ممتازة. جابت بنا المصنع الأمّ. وذكَّرتنا كيف استطاع رجل عظيم مثل هنري فورد أن ينطلق من العدم لينشئ أمبراطوريَّته، بدءًا من فورد تي Ford T حيث كان نجاحه الكبير في ١٩٠٨ نجاح غيّر العالم. كنتُ دائمًا أتساءل، في مجتمع اللوبيّات، كيف نفذ هنري فورد من نقد اللوبي اليهوديّ والصهيونيّ تحديدًا، الذي صمت أمام حالة معادية للساميَّة كحالة هنري الذي اشترى جريدة ديربورن *إندبندنت*(٣) في العشرينيَّات، ونشر فيها افتتاحيَّات ملتهبة ضدّ اليهود؟

---

(١) Dearborn, Michigan.

(٢) Stagiaire

(٣) Dearborn Independent

جمعها في كتاب تُرجم إلى لغات عالميَّة متعدِّدة، عنوانه: *اليهوديّ العالميّ*، الذي استفاد منه هتلر في سيرته: كفاحي. الشخص الوحيد الذي كان يحتفظ له هتلر بصورة في إطار، في مكتبه، كان هو هنري فورد. عندما سألت جولي، أجابت: *يا مدام. هنري لم يكن سياسيًا، كان صناعيًّا كبيرًا ورجل أعمال. ولا يُخفى عليك النجاح يولِّد أعداء.* أخذت نَفَسًا طويلاً من سيجارتي، ونسيت الموضوع. لم يكن لحديثي أيّ معنى. شعرت ببعض الإحراج في عينيك، وكأنَّك كنت تقولي لي: *ليس الآن.*

بقدر ما كنتَ فخورًا برفقتي معك، بدوتَ لي قلقًا ومنزعجًا. كنتَ خائفًا من أن يأخذوا منك المشروع. قلت لك: لا حبيبي، *اطمئنّ. لن يتوصَّلوا إلى شيء من هذا. فهم يحتاجونك. أجمل ما في الأميركيّ* براغميَّته. الغريب هو أنَّك، في أعماقك، كنتَ سعيدًا أن تكتشف الجانب الآخر لفورد. حتى عندما مزحتَ ونحن في المطعم، في حالة ارتخاء بعد يوم عمل متعب، ظلَّ قلقك ماثلاً بين عينيك، مخافة أن تفقد المشروع.

ـ وشهد شاهد من قومهم. هنري فورد كان أيضًا يعرف جشعهم.

ـ مثل كلّ الشعوب يا قلبي. لا يوجد شعب مجرم كلِّيًا، ولا شعب خيِّر كلِّيًا.

ـ لكنْ، أن يأتي الحكم من شخصيَّة كبيرة كفورد يزكِّي من نظنُّه نحن من لا صوت لهم في الغرب!

عندما عدنا، كنتُ سعيدة بتوقيعك للمشروع المبدئيّ في انتظار تثبيت ذلك عندما تتمّ كلّ الإجراءات القانونيَّة. لم تعد في حاجة إلى مترجم، فقد وضعت مؤسَّسة فورد تحت تصرُّفك جوليا، التي كانت

تقوم بكلّ شيء بسخاء كبير

السهرات الثلاث التي اختارتها لنا جوليا، كانت مريحة جدًّا همست في أذنك وأنا أكتم ضحكتي بصعوبة: *احذر، هذه الشابّة، إنَّها تريدك. كلّ شيء فيها يرتعش أمامك. ألم تلحظ ذلك*؟ ضحكت بيقينك المعتاد: *شابَّة تتدرَّب وتريد فقط أن تفرض نفسها* لا *أكثر، وأن تُرسم في عملها، وأن تُقنِع موظِّفها* لم أناقشك، لأنَّه كان إحساس امرأة، لا يمكنه أن يخطئ.

ـ ما بك يا كازانوڤا؟

شعرتْ كأنَّ كازانوڤا تحرَّك فيه شيء بمجرَّد سماعه لفظة جوليا بدأ يتحرَّك، ويهزّ رأسه يمينًا وشمالاً لم تفهمه. حاولت أن تسأله. قامت من مكانها متحدِّية مرَّة أخرى أوامر الإمام زكريًّا. اقتربت من تمتمات فمه. قرأتها بصعوبة. جووو. لـ. يااااا فهمته جيِّدًا، لكنَّها لم تفهم ما يريده. ثم بدأ يعوي مثل ذئب في برِّيَّة خالية. ركض نحوه مسعود بسرعة، وهو يوجِّه انتقاداته للالَّة زينا

ـ لا يجوز يا ابنتي. الزمي مكانك. أنا هنا لهذا الغرض. هذا يضع الإمام زكريًّا في حالة غضب.

ـ يا سيِّدي، أردت أن أفهمه. الرجل أخافني بحركاته التي لم أتعوَّد عليها من يكون الإمام زكريًّا في وضع كهذا؟ يطبِّق وصيَّة لوط، مفهومة. لكنْ لا أحد أعطاه الحقّ في التحكُّم في الناس.

ـ على كلّ حال، من الأفضل البقاء بعيدًا

ثم التفت نحو كازانوڤا لم يسعل ولم يحتج إلى أوكسجين. مدّ له أذنيه. كان كازانوڤا يريد أن يتكلَّم فقط. بعد عشر دقائق من الإنصات الصعب. قال له آليًّا *ما يكون إلَّا خاطرك*. ثم اتّجه نحو

زينا، وهمس في أذنها

ـ هذه أحواله عندما يشتدّ ضرّه. يسأل لماذا لم تحضر جوليا؟

ـ كأنّي أنا من ذكَّره بها ما دخلها في نسائه؟ شابَّة كانت في تربُّص، في التسويق والدعاية. قد تكون قد غادرت المؤسَّسة. هل تعتقد أنَّك سمعته جيِّدًا؟ ربَّما احتاج ماء شفتاه أصبحتا يابستين.

بلَّل شفتيه، ثم ناوله قليلاً من الماء، وانسحب.

ها قد حلّ الليل، وغابت الشمس، أشعر بذلك من هنا

ـ كما ترى يا كازانوڤا، أبذل جهودًا كبيرة لأقول لك أيّ شيء ما دمتُ قبلت بالمجيء.

كنتُ أقدِّر ظروف عملك وجهودك، لدرجة أنَّي كنت أشفق عليك أحيانًا أحيانًا، تعود منهكًا بسبب العمل والاجتماعات، أحسّ بهذا ولا أخطئ فيه؛ وأحيانًا، تعود على الساعة الرابعة فجرًا، في أيَّام الصيف، تسبقك رائحة المشروبات الكحوليَّة الطاغية، وروائح أخرى، تتحسَّس مكانًا. أراك في الظلمة وأشعَّة الفجر أضحك في أعماقي، وأحاول أن أفترض ما ستقوله لي صباحًا أراك الآن كما البارحة وأنت تورِّط نفسك كلَّما تكلَّمتَ أكثر تعبت. *لم أنم من كثرة العمل. هذه الأيَّام، الأزمات الاقتصاديَّة القاهرة، وانهيار الدولار، والمنافسات الشرسة، ووضعيَّة البورصة. تعرفين الأنجلوسكسونيِّين والأميركان تحديدًا، براغماتيِّين، أحسن من الفرنسيِّين والبلجيكيِّين الذين يظلُّون تحت ضغط الأيديولوجيَّة في التعامل. بزنس إيز بزنس. الباقي تفاصيل لا تهمّهم.* لم تكن مضطرًّا للشرح، فقد كانت لي أفكاري أيضًا فيما كنت أراه أمام عينيّ. أكاد أصرخ: *أرجوووك، احترم عقلي وقلبي. لست غبيَّة إلى هذا القدر.* أفضِّل في النهاية أن

أنام في صمتي. في الصباح أسمعك. تدعوني للإجابة. أنظر إلى وجهك. كم تبدو غريبًا وبعيدًا! تقسم أنَّك في المرَّة القادمة سنذهب إلى الأوبرا معًا سترافقني كما في يوم تعارفنا للمرَّة الأولى. طبعًا، المرَّة القادمة لا تأتي أبدًا. في كلّ ثانية، ينشأ شيء يأخذك في دوَّامته. *لأيِّ شيء يصلح غنى لا يسعد صاحبه؟ لا أريد أن أُسحَق في عمق طاحونة لا تُفيدني في شيء.* كنت أشفق عليك من محاولاتك.

في دماغي، نشأ شيء آخر. كنتُ أختبرك كلّ يوم قليلاً الطلاق.
ما الذي يجبر امرأة أو رجلا أنَّ يجر جثَّة وراءه؟

حملي الأوَّل جاء عن طريق الخطأ، لأنِّي كنت أفترض الطلاق، ولا أراني متحمِّسة لطفل لن أكون قادرة على تحمُّله. حتى إنِّي فكَّرت في إسقاطه، لكنَّك رفضتَ بصرامة. قلتَ لي كلامًا قهرني، لأنَّه توّهني حقيقة، أشعرني بالدفء ولو للحظة: *هذا ابني وابنك، ولا يمكنك أن تتَّخذي فيه قرارًا وحدك. هو في بطنك وجسدك، أنتِ من يحسّ به، لكنَّه أيضًا أجمل لحظة جمعتنا* الغريب أنَّك في ذلك المساء عندما أخبرتك بحملي، صرختَ مثل مجنووون هووورا!!!!! لازم تتوقَّفي عن *الأوبرا* أجبتك بشيء حميميّ كان بداخلي. *ليس الآن* حبيبي. نحضِّر *لعرض كبير*، لا يمكن *يا قلبي*. ثم *سألت الطبيب، قال* لا *مشكلة*. لأوَّل مرَّة أراك بكلِّ تلك السعادة. لا أدري لماذا تذكَّرت يوم أهديتني باقة ورد في الأوبرا، وفي عينيك لهفة على الحياة لم أرها في عينيْ رجل من قبل، حتى في عينيْ آدريان، قبل أن تأكله أسفاره، ويعود بعد سنوات يقتفي خطاي. لم تكن تشبه نفسك أبدًا أخذتني إلى أفخم مطعم لايف Life في المدينة. وفتحت قنِّينة شمبانيا تركتَ سدّادتها الفلينيَّة تصعد عاليًا حتى ارتطمت بسقف المطعم. كانت على شرفي. ثم قمت في وسط صالة المطعم، التي كان بها الكثير من أصدقائك:

هذه على شرف حبيبتي يان التي تعني بالصينيَّة سحاب. الله غالب عندي زوجة مضروبة على الصين. أتمنَّى أن يكون المولود بنتًا كنتَ تعرف الاسم الذي استحوذ عليّ. أنت من أسماها ليلتها. كم كنت مزهوَّة بك. لأوَّل مرَّة أشعر بأنَّ لهذه القادمة قيمة. وعندما عدنا، كنَّا منتشين إلى حدِّ الجنون. نسيتَ الحبسة الجنسيَّة التي أخافتك العديد من المرَّات. لم نبت في الدار. ذهبنا إلى نزل الشيراتون الذي احتضن أوَّل ليلة حبٍّ مسروقة لنا أخذنا سويت، على امتداد المتوسِّط بروائحه الليليَّة المنعشة. كنَّا كعريسين يكتشفان جسديهما للمرَّة الأولى بلهفة لا يحدّها موج. انتابني الإحساس وأنا في أقاصي الرعشة، كأنّني كنت أطير كان أجمل جنون في حياتي الزوجيَّة، وربَّما أجمل من ليلة العرس نفسها كنَّا وحيدين، بلا منغِّصات الأقارب والأصدقاء.

ذكَّرتني للمرَّة الألف: *أنتِ حامل، لا تستعملي سيَّارتك، مسعود يقوم بالواجب*. أفهمتك أنَّه عندما يصل حملي إلى الستَّة أشهر سأخبره طبعًا في الوقت الحالي، سأواصل ذهابي إلى الأوپرا بشكل عادي. وكلَّما توفَّر لديك وقت وأحببت أن ترى تدريباتي، تعالَ. سأخبرك بتاريخ العروض، إن استطعتَ أن تأتي معي، سأسعد، وإن لم تتمكّن، سأتصرَّف وحدي. لا تشغل بالك. هكذا نقلِّل من المنغِّصات. سأكون بالمقابل حاضرة معك في كلّ سهرات العمل التي تحتاجني فيها

الحمل غيَّر كلّ مزاجي إيجابيًّا أخرجني من الظلمة التي أقحمت فيها نفسي.

أصبحت أمشي للأوپرا، وحدي. يقترح عليّ عمّي مسعود أن يأخذني، لكنِّي كنت أرفض. أريد أن أمشي وحدي، وأن أكون حرَّة في حركاتي. مسعود في النهاية خادمك وليس خادمي. الثقافة التي تلقَّيتها في حياتي البسيطة كانت متناقضة مع هذا المفهوم. كنت آخذ

سيَّارتي تويوتا راف فور[١]، التي صاحبتني في جزء مهمّ من حياتي، ولم تخذلني ولا مرَّة.

كنَّا في التدريبات الأخيرة على أوپرا هيندل، ألسينا[٢] كنت ألعب دور ألسينا الساحرة التي تسحب الرجال نحو جزيرتها حيث تحوِّلهم إلى صخور، أو سواقي أو حيوانات مفترسة. وتضع تحت سلطانها السحريّ روجييرو، لكنَّه يتحوَّل إلى نقطة ضعفها، فتكون نهاية عالمها السحريّ من تلك اللحظة. في النهاية، يجد روجييرو الذي أنقذته خطيبته برادامانتي، نفسه من جديد. أحسست أنَّي أيضًا معنيَّة بها. ماذا فعلتْ سوى أن أحبَّت بأنانيَّة؟ الحبّ أنانيّ يا قلبي، مهما كانت معارفنا وتجاربنا.

كان العرض التجريبيّ مدهشًا وسُعدت يومها أنَّك فاجأتني وحدك، بدون الأميركان، حاملاً في يدك باقة ورد جميلة، أحلى من الأولى، ووضعتها بين ذراعيَّ وأنت تلتفت نحو الحضور الذي ملأ القاعة. احتفظت بثلاث وردات من الألوان التي أحبّ، حمراء وبيضاء وزهريَّة تميل نحو البنفسجيّ، تمامًا كما في المرَّة الأولى. ثم قلتَ ارميها للجمهور. رميتُها كلّها، وساعدتني أنت على ذلك بكلِّ قواك، فتسابقت الأيدي نحو الزهور الطائرة في فضاء الأوپرا، لدرجة أنّي شممت عطرًا يشبه عطر فرح غير منتظر. لا أدري كيف أسمِّي ذلك المساء. امتلأت بك فجأة. السعادة لا تتطلَّب الشيء الكثير أنسيتني في كلّ شيء، حتى في ظلمتي الداخليَّة. في الليل، صعدنا إلى الجبل المطلّ على الغابة والبحر، ومنارة سيتي وحصونها القديمة، في بيت جميل كنتَ قد استأجرته لراحة نهاية الأسبوع. شيء لا أعرف كيف

---

(١) Toyota RAV 4

(٢) Isola de Alcina, poème épique de l'Arioste, Opéra de Haendel.

أسمِّيه من شدَّة السعادة.

واستعدنا حياة ظلَّت زمنًا مؤجَّلة، أنستني كذبتك، التي كلَّما تذكَّرتها صعب عليّ الخروج من رمادها ليلتها، وضعتُ كلّ شيء على العتبة، ورميت بكلِّي في حضنك. كنتُ في حاجة ماسَّة إلى ذلك.

بعد أسبوع من العرض التجريبيّ، رافقتَني حتى المطار، باتِّجاه ڤِيينّا ضممتني إلى صدرك، بعد أن أجَّلتَ كلّ مواعيدك.

ـ *عودي لي بسرعة. أحبّك، وأخاف عليك.*

ـ *سأعود حبيبي. وأنت أيضًا احذر من جوليا، أخشى أن تسرقك منِّي.*

ـ *عودي. يمكننا أن نرمِّم كلّ أخطائنا جوليا ليست شيئًا، متدرِّبة عاديَّة تريد أن تجد مكانًا تلتصق به. المهمّ التوقيع على مصنع فورد، هذا هو رهاني.*

ـ *كم أريد ذلك يا قلبي. سيتمّ كلّ شيء بخير.*

ـ *أحبّك. لا تنسي هذا أبدًا.*

كانت تمطر تلك الليلة على ڤيينّا، وكنت مسحورة بالمدينة. كتبت لك رسالة عشقيَّة من هناك، ما زلتُ إلى اليوم أتذكَّر بعض جملها حرفًا حرفًا *حبيبي رغم كلّ شيء وكلّ وعيي وثقافتي، فشلت في أن أكون كلّ شيء إلَّا امرأة رومانسيَّة. كلّ شيء في ڤيينّا يدهش، وجوه الناس، محبَّتهم، حبّهم للموسيقى وهذا المطر الدافئ في هذا الفصل. تخيَّل بمن التقيت؟ ما أغرب هذه الأقدار! آدريان! هو هنا في مهمَّة، وزارني. عرض الفرقة الصينيَّة قبلنا كان مدهشًا تعرَّفت على الفنَّانة الرئيسيَّة، كانت تتقن الإنجليزيَّة، وحكيت لها عن حلمي الصغير أن أُبعث؟ مولي التي تعني في الصينيَّة ياسمين، لتتعلَّم الموسيقى الصينيَّة*

واللغة أيضًا كانت تحكي بنعومة كبيرة، وعزمتها لحضور عرضي إيزولا دي ألسينا، في اليوم الموالي.

لا بدَّ أنَّك تتذكَّر يا نوڤا كلّ ما حدث؟ أحيانًا يقف الحبّ، من شدَّة هشاشته، على شعرة.

هل أُعيد عليك التفاصيل التي تكون ربَّما قد نسيتها؟ كنت في الشهر الثالث، في ڤيينّا في مهرجان الأوپرا العالميَّة. كان الفضاء مدهشًا، ونحن نحضِّر ونعيد لآخر مرَّة، لآخر عرض، وأتفرَّغ لحبيبتي مولي. لا أدري ماذا حدث. ونحن في التدريبات، انزلقت بشكل فجائيّ ومفجع على الخشبة. كانت السقطة قاتلة، مع أنَّ الأرضيَّة لم يكن بها أيّ شيء. ذهابي للحمَّام وعودتي منه، لحظة واحدة هاربة، كانت كافية لقتلي، لولا سرعة نقلي إلى مستشفى ڤيينّا المركزيّ. انتبهت قبل أن أدخل في حالة غيبوبة التي استمرَّت حتى الليل، إلى بركة من الدم. وعندما استيقظت من العمليَّة كان جسدي ثقيلاً تلمَّست بطني. قلت ربَّما حبيبتي لان نائمة. حاولت أن أوقظها، لم أستطع. افترضتُني في حالة تعب.

عندما زارني طبيب التوليد، بكيت من عبث الأقدار. وفي لحظة اليأس، رشقت رأسي في السماء، وأعتقد أنَّي ليلتها قلت أشياء كثيرة ندمت عليها لاحقًا في ثانية، أصبحت لان مجرَّد ذكرى حارقة. ربَّما كنت امرأة حالمة أكثر من حقِّي في ذلك. يبدو لي أحيانًا أنَّ هناك صنفًا من البشر لا يحقّ لهم الحلم أصلاً

ليلتها، تأكَّدت أنَّي فقدت لان نهائيًا

قيل الكثير عن تلك السقطة، أو العثرة، لأنَّها لم تكن طبيعيَّة، لكنْ من فِعْل فاعل.

كانت ريحانة، قريبة إليَّ كثيرًا. اتَّفقت معها أنَّها ستعوِّضني في كلّ العروض القادمة، لأنِّي سأكون في مرحلة أمومة. الشرطة وجدت بقعًا زيتيَّة لم يكن لها أيّ مبرِّر في ذلك المكان. درسوا كلّ التفاصيل الدقيقة والبصمات التي أخضعت لها كلّ الفرقة والمنظِّفات. بل حتى الكاميرات المعلَّقة في كلّ زوايا المسرح.

بعدما استيقظت وبدأت أخرج من الإنعاش، سألت عن عرضنا، سُعدتُ أنَّه لم يلغَ. عوَّضتني ريحانة، وكانت في عزِّ التألُّق. فقد أدَّت الدور جيِّدًا في *أوبرا ألسينا* باركت لها النقلة الجميلة. قيل لي إنَّها مرشَّحة للفوز بجائزة المهرجان. مساء، لا أدري كيف تسلَّلت ريحانة إلى غرفتي. وقفت عند سريري. عيناها حمراوان كأنَّها بكت كثيرًا. ضمَّتني إلى صدرها بحذر مخافة أن تؤذيني، ثم طلبت منِّي أن أفعل الشيء نفسه معها بكت كثيرًا على صدري، ثم عند رجليَّ، وهي تقسم أنَّها كانت سعيدة برفقتي، وأنَّها لم تكن تتصوَّر أنَّ كلّ هذا سيحصل! أخبرتني أنَّها ممنوعة من السفر بسبب شبهة ضدّ الفرقة كلّها. قلت لها إنَّ هذه الممارسات الأمنيَّة طبيعيَّة. يشكُّون في كلّ الناس. يضعون أمامهم كلّ الاحتمالات. طمأنتها. بكت مثل طفل سُرقت منه أمّه: عفوًا. عفوًا يا ماما زينا لم أكن أعرف أنَّك حامل. لست مجرمة. لست مجرمة. لم أفهمها جيِّدًا وهي تصرخ. ثم خرجت مسرعة. لم تتح لي حتى فرصة سؤالها

كانت تلك آخر مرَّة أراها فيها.

خرجت. ونحن بالنزل، نستعدّ لقضاء الليلة الأخيرة في ڤيينّا، أخبرني المايسترو فاضل، الذي كان يدير فرقتنا السيمفونيَّة على أحسن وجه، من خلال الأصداء التي سمعتها، أنَّ ريحانة انتحرت. لم أصدِّق. قيل لي إنَّها رمت بنفسها من أعلى جسر في الدانوب، حاملة

سرَّها معها. وأنَّ جثمانها سيبقى في النمسا حتى تنتهي التحقيقات. لم أدرِ هل كان عليَّ أن أبكي أم أصمت، أم أفرح؟ رأيتها وهي تبوس رجليَّ وتكرِّر، *لم أكن أعرف أنَّك حامل. لست مجرمة. لست مجرمة.* لا أعرف لماذا كانت تقول ذلك الكلام؟ هل حقيقة كانت وراء انزلاقي العنيف الذي كاد يودي بحياتي، في الأوپرا؟

كان صباحًا جميلاً ذلك الذي دقَّ فيه شخص عليّ. وفتحت الباب. آدريان. لا أدري ماذا حدث لي وقتها عانقته بقوَّة. سمعت همهماته: *نحن فشلنا في أن نصبح أزواجًا، لكنْ يمكننا أن ننجح في أن نكون أصدقاء.* لا أدري من أخبره بوجودي في ڤيينّا؟ افترضتُ المايسترو فاضل، لأنَّه صديقه وعرفه جيِّدًا كان لطيفًا معي. على الرَّغم من مشاغله، رافقني حتى المطار. كنت طوال الوقت متِّكئة عليه. كان حزينًا.

لم أخبرك يومها يا نوڤا ونحن نشرب قهوتنا المسائيَّة، بكلِّ هذه التفاصيل، لا لأنِّي كنت أريد أن أُخفي عنك شيئًا أنت تعرفه، لأنِّي أخبرتك بوجوده، في رسالتي، ولكن لأنِّي كنت أعرف أنَّ ذلك سيؤذيك. كنتَ في أميركا لترتيب مشروع المصنع. كنتُ منكسرة. تخيَّل امرأة تموت فجر فرحتها؟ هذا ما أحسسته. سبقتك إلى السؤال، كيف انتهى المشروع، إن شاء الله خير؟ أجبتَ بمرارة وكأنَّ عاصفة كانت مخبَّأة في قنِّينة: *لن يكون المصنع على أرضنا بسبب الأوضاع الأمنيَّة الخرا، وسيكون في أرض أخرى غير أرضنا هكذا كان خيارهم. انزعجت منهم، وهدَّدت بالتنازل عن التوكيل، وأنَّه لم يعد يهمّني كثيرًا في ظلِّ الأزمة العالميَّة. وأنَّ الفرنسيِّين أكثر شجاعة منهم.* صمتَّ قليلاً، ثم صرختَ: *حتى الطحَّانين تاعنا لعبوا دورًا وسخًا لكي لا يكون هذا المشروع، ولا تتمّ الصفقة التي كانت على حافَّة التوقيع.*

عندما هدَّدتهم بفكّ كلّ شيء، اتّفقنا على مصنع قطع الغيار الأكثر استهلاكًا، في انتظار تحسُّن أوضاع البلاد.

ثم التفتَّ نحوي كأنَّك بالكاد رأيتني، انتظرت أن تسألني عن صحَّتي، لكنْ سؤالك كان شديد القسوة. كيف حبيبك القديم؟ أجبتك: *ليس حبيبي، زوجي السابق، وانفصلنا* جاء يزورني كصديق. *أنا متعبة يا نوفا!* لم تجد إلَّا سكِّينة صدئة لتجرحني بها من جديد: *أنتِ صفراء ومتعبة جدًّا، ربَّما كان فراقك معه صعبًا* كم كنتَ قاسيًا عليّ. بدأت أبكي. ولم أعرف ماذا أقول لك. كنت منهكة وبلا لغة. ثم سألتني فجأة عن قصَّة ريحانة، *هل صحيح أنَّها انتحرت أم أنَّه مجرَّد خبر فارغ كما عادة جريدة الغاشي*؟ حكيت لك القصَّة بكلِّ تفاصيلها مكثت صامتًا ثم التفتَّ نحوي وعيناك مليئتان بالدموع: *محروق يا زينا محروق إلى درجة التحوُّل إلى رماد.* حماقتك *كلَّفتنا* لان، *وكلَّفت البلاد أيضًا فنَّانة* مرموقة وشابَّة، ريحانة. *ماذا ربحتِ من عناد قاتل* وبلا معنى؟! لم أستطع أن أظلّ صامتة، وأنت تمزّقني. صرخت: meeeerde *وأنا؟ أنا التي تموت الآن، وكدت أموت؟ لا أعني لك شيئًا؟* لان حبيبتي، *كانت* حلمي. قلتَ وأنت تقوم على كأسك السابعة من الويسكي ودخان السيجار الكوبيّ: *أنتِ قتلتِها* ثم خرجت مثقلاً بفاجعة فقدان لان. حاولت أن أستوعبك، مع أنَّ جسدي هو الذي تمزَّق من أجلها

كنتَ بعيدًا مسافات ضوئيَّة حتى تستطيع أن تفهمني. لا يمكن. كان كلّ كلامي يصطدم بجدار من الخرسانة التي لا يعبر منها أيّ شيء. فجأة تغيَّرتَ كثيرًا وكأنَّ الرجل الذي كنتُ أعرفه مات، ونبت مكانه شخص آخر.

كنتُ أراك تأتي أحيانًا برفقة الإمام، وقد كبرت لحيتك، تراقب

أشغال خلوة لاغراند تيرّاس التي قلت لي هي من *أجلي وأجلك*. ثم تخرج ولا تلتفت لأحد. كانت لالّة كبيرة تسأل، فيرتدّ عليها سؤالها فارغًا عاد نزيفي من جديد، ربّما لأنّي لم أرتح وقتًا كافيًا وكدت أموت مرّة أخرى لولا لالّة كبيرة. بتّ في المستشفى الكبير لأنّي رفضت ابن سينا بقيت في المستشفى أسبوعًا كاملاً لم تأتِ. لم تزرني؟ استغربت؟ العمى ألهذه الدرجة، وأنا التي كدتُ أموت! عاقبتني عن جريمة لم يكن لي عليها أيّ سلطان. عندما كلّمني آدريان، قلت له: أنا بخير. قال كلمة لم يكن مخططًا فيها *أنت تموتين وتقتلين نفسك. ما زلت شابّة ويمكنك أن تحلمي بلان أخرى*. سآتي لرؤيتك.

عندما غادرت المستشفى، كنت وحيدة. لم أجد إلّا لالّة كبيرة في الأوقات الصعبة التي ظلّت ترفع معنويّاتي التي نزلت إلى الحضيض. حكيت لها عن خسارة حلمي. أمنيتي كانت أن تكبر لان في مناخ جميل وساحر، مناخ موسيقيّ آسيويّ، وفي عزّ والديها اندهشت. قلت لها هناك في آسيا، صفاء روحيّ كبير، افتقدناه اليوم.

هل تعرف ماذا حدث بعدها يا نوڤا؟

ارتميت أنت في عالمك الجديد، الدخّان والكحول والمخدّرات والسهرات الحمراء التي لا تنتهي إلّا فجرًا، وعدت أنا إلى صمتي، وعالمي الصغير الذي كان بإمكاني السيطرة عليه حتى في لحظات قهري.

كنت أستعدّ لحضور جنازة ريحانة، متردّدة، هل أذهب أم لا؟ فقد وصل جثمانها البارحة ليلاً، كما أعلن تلفزيون منارة سيتي. الإمام الذي مرَّ إلى البيت، هو من أكّد الخبر. كان غاضبًا سألته لالّة كبيرة، *لماذا تغضب؟ الغيرة تحدث عند جميع البشر. وزينا فنّانة كبيرة ومحسودة على ذلك. ولا أعتقد أنَّ لوط يستأهلها* ردَّ، ويا ليته

صمت: *ليس هذا قصدي، لا دخل لي في عالم الفنّ. كيف يعلن التلفزيون جنازة إنسان انتحر، ونعرف جميعًا أنَّه يتَّجه إلى جهنَّم؟* سألته وقلبي يغلي: *وهل تعرف لماذا انتحرت؟* أجاب وكأنَّه سبق أن طبخ ذلك كلّه من قبل: *تعرفين بنات اليوم لا ينتحرن إلّا لسبب واحد. يحملن ويسترن الفضيحة بالانتحار.*

شعرت بدوار ثقيل في رأسي، ورغبة محمومة للصراخ مثل ذئبة، حتى ينفجر دماغي. لكنَّ القيء سبقني إلى الصراخ. ارتحت بعدها

كنت مستلقية في غرفتي بعد الزهورات التي قدَّمتها لي لالَّة كبيرة، عندما رنَّ التليفون. عرفته من صوته.

ـ آدريان حبيبي. كيفك، يا مهبول، أنت هنا؟

ـ لا تحكي شيئًا أحببت أن أطمئنَّ عليك. قد آتي الأسبوع القادم إلى منارة سيتي. تعرفين لي فيها ذاكرة لا تموت. إذا سمح وقتك يمكن أراك الأسبوع القادم. أنا في مفاوضات مع متحف منارة سيتي الكبير، لتسليمه عملين مهمَّين من الذاكرة الجمعيَّة، مخطوطة ولوحة لإتيان ديني[1]

ـ واوووو. أُسعد بك آدريان.

خفت في البداية من الذهاب إلى توديعها في وزارة الثقافة. لكنَّ مدير الأوبرا ألحّ عليّ. عندما رأيتها في الساحة الكبيرة التي كان يلتفّ حولها أصدقاء الأوبرا والمسرح والثقافة، لتوديعها، كانت كأنَّها حيَّة. جميلة مثل دمية. وجهها مشرق. كلَّما رقصت، برقت عيناها ذكاء وحبًّا للحياة.

---

(١) Etienne Dinet فنَّان فرنسيٌّ اختار الجزائر، منطقة بوسعادة، مكانًا لإقامته. أسلم وأطلق على نفسه اسم نصر الدين دينيه. ولد في ١٨٦١، وتوفي في ١٩٢٩.

لا أعرف هل أحقد عليها أم أتحمَّل وأعضّ على قلبي! التقرير الذي نشرته الغاشي، نقلاً عن جريدة دير شبيغل كان واضحًا. فقد *وضَّحت الكاميرات وآثار الأصابع أنَّ ريحانة كانت وراء العمليَّة. لم يدفعها أحد. أغلب الظنَّ أنَّ السبب هو مجرَّد غيرة من الفنَّانة زينا.*

كانت ريحانة طيِّبة، لكنِّي شعرت ببرودة غريبة في يديها اليمنى التي تلمَّستها.

عندما رفعت رأسي، لأترك المكان لزملاء آخرين لتوديعها، شممت شيئًا يشبه عرقه، أو ربَّما عطره الشرقيّ الهنديّ القويّ. كان بوذيًّا في نظراته وقناعاته وحياته، لكنْ عاشقًا للبحث في سرّ البشريَّة الدفين، هكذا كان يسمِّي مشروعه الكبير. آدريااان. كان يقف ورائي. بكيت على صدره. نظرت إلى عينيه. كان يبكي مثلي. لم أسأل عمَّا أبكاه.

شككت في كلامه منذ البداية. أعرف أنَّه كان هنا من أجلي.

ـ يا كذَّاب. يا مهبووول. قل لي الحقيقة، أنت هنا من أجل ريحانة؟ الغاليري؟ المتحف؟ أم من أجلي؟

ـ من أجلك. نحن فشلنا في أن نصبح أزواجًا، ولكن يمكننا أن ننجح في أن نكون أصدقاء.

ـ لكنْ، حبيبي، أنا زوجة أهمّ رجل أعمال في البلد.

صمت قليلاً

ـ نحن أصدقاء. ما رأيك لو نعزِّي معًا والديْ ريحانة؟

ـ هما هناك في الزاوية. تعال. لا أعرف ماذا أقول لهما بعدما قالته صحيفة البؤس الصفراء، الغاشي، إذ روت القصَّة بكاملها كما نشرتها دير شبيغل الألمانيَّة.

ـ لا تقولي شيئًا لا مسؤوليَّة لك فيما حدث. وهي لم تعد اليوم بيننا.

توجَّهنا نحوهما كمن يتَّجه نحو موت أكيد. بادرتُ أمّها المنكسرة.

ـ خالتي فاطنة، ربِّي يعطيك الصبر. أنا زينا صاحبة ريحانة.

ـ لا أعرف ماذا أقول لك يا ابنتي. كانت تقول عليك ماما الثانية. ربِّي قدّر عليك وعليها

فهمت نار قلبها أمَّا أبوها، فلم يكن معنا كان بعيدًا عن كلّ شيء. كانت ريحانة تحكي دائمًا عنه، إنَّه أحيانًا يصحو قليلاً فيرجع إلى الوراء بعيدًا، وأحيانًا يدخل في علبة حديديَّة ولا يسمع أحدًا، حتى نفسه. مرض ألزهايمر صعب.

عندما سألني آدريان، *هل تحمّلينها ما حدث لك*؟ لم أجبه. لا أعرف إذا ما كان عليّ أن أحبّها أم أكرهها؟ لكنِّي فضّلت أن آخذ يده وأصمت، وربَّما أنسحب من المكان بأقصى سرعة ممكنة.

في المساء، عندما أوصلت آدريان إلى الفندق، لم أنزل من السيَّارة. قال.

ـ غدًا سأذهب باكرًا إلى بروكسل. تبقين معي قليلاً في الفندق؟

ـ لا حبيبي، لي رجل ينتظرني. لا أحبّه، وأعتقد هو أيضًا لم أعد أعني له الشيء الكثير. سنفترق، لأنَّ الخيط الذي كان يجمعنا تمزّق. ربَّما كان هذا قدري في النهاية! أفضّل أن أودّعك من الآن، عزيزي آدريان.

نظر إلى وجهي للحظات. رأيت جرحًا صغيرًا على جبهته، أردت أن أسأله، لكنِّي تراجعت. ضمَّني إلى صدره بقوَّة. شعرت به كأنَّه لا

يريد أن يتركني. سمعت تنهيدة قويَّة تأتي من أعماقه، هي نفسها التي كانت فيّ. همس في أذني. كان صوته ناعمًا كما في أوَّل يوم تعارفنا، وكانت المدينة ممطرة. أدركت بسرعة كم كنت أقاوم داخلي، وهذا لا يشبهني.

ـ هل انتهيتم من إنجاز لاغراند تيرآس؟

ـ سخَّرت فيها كلّ جهدي. نحن بصدد الانتهاء من الإنجاز، في مرحلة التلبيس، مدهشة. لكنْ ينتابني الإحساس الغريب بأنّي لن أدخلها أبدًا وكأنِّي أهيِّئها لغيري. مجرَّد حلم. ليس ممنوعًا أن نحلم.

ـ أبدًا يا زينا بعد شهرين أنوي السفر إلى الصين، تعالي معي.   أما زلتِ تحلمين بالصين؟

ـ عاشقة لشيء عميق فيها، أعتقد أنَّي سأنتهي بوذيَّة مثلك. الصين؟ ياااه.

ثم صمتّ، لكي لا أنفجر بكاء وعويلاً أمام مدخل الفندق.

ضمَّني من جديد. قبّل عينيّ ويديَّ. أعتقد أنَّه قبّل شفتيَّ أيضًا، ثم نزل من السيَّارة بسرعة، وغاب في بهو النزل المضاء بشكل خافت. لم يلتفت آدريان وراءه، على غير عادته.

كان كازانوفا هادئًا عيناه مغمضتان، وجسمه مسكين، مستسلم لشيء كان في أعماقه.

نوفا لا تحزن، لم نُخلق في الأصل لبعض. المسافات بيننا كانت كبيرة. بذلنا جهودًا كبيرة، لكنَّها لم تثمر حاولنا أن نربط بعضنا بخيط واه، لكنَّه لم ينفع. كلّ شيء كان ضدَّنا. في الحياة نظام سرّي، هو من يرتِّب كلّ شيء، وفي أغلب الأحيان، لا يستشيرنا بل لا يأبه بما نريده أو نخطِّط له. أعرف أنَّك تسمع هذا لأوَّل مرَّة، لكنِّي أرويه لك

بلا زيادة أو نقصان. لم أعد في حاجة إلى التخفِّي.

كانت تمطر بكثافة على منارة سيتي.

خرجت يومها تاركة ورائي شيئًا منِّي على هندام آدريان، وفي كفِّيه وعينيه، وربَّما قلبه.

سيَّارتي تنزلق بهدوء في كومة المياه. ضغطت على جهاز الراديو، ثم محرِّك الأقراص المضغوطة. كان صوتها ناعمًا، فبدأت أنحدر نحو الأعماق على إيقاع صينيّ قديم The Red Blussoms شلَّالات الضوء كانت تغرق في الشارع. لم أكن أرغب في العودة إلى قبري، بيتي.

التفتُّ إلى الوراء، رأيت كرسيِّ السيَّارة الصغير، كانت لان ما تزال نائمة في غفوة طويلة مستلذَّة بنقرات المطر ارتفع صوت الموسيقى قليلاً تركت السيَّارة تتماهى في الأضواء والأمطار الناعمة، التي غطَّت فجأة منارة سيتي بغلالة من الألوان والضباب والموسيقى.

انطفأتُ فيها بسعادة كبيرة.

لأوَّل مرَّة، أُدرك أنِّي ما زلت حيَّة. لأوَّل مرَّة أعرفني.

كأنّ كلّ شيء كان قد انتهى بيني وبينك.

ــ ٤ ــ سارايْ

كَمَا مَنَحَني الإله لَكَ، بِحَسَبِ مَشيئَتِه

١

عدّل مسعود الشاشة البيضاء الكبيرة جيِّدًا، على الحائط المقابل لسرير كازانوڤا جرَّب جهاز الكمبيوتر وداتاشو. ضغط على الزرّ. بدت صور عن الطبيعة تتلاحق. ضبط الشاشة من جديد بشكل أكثر دقَّة. الجهة اليمنى كانت منزلقة كثيرًا نحو اليسار، وظهر جزء من الصور على الحائط، خارج الشاشة. جرّب مرَّة أخرى. ظهرت الصور بشكل أوضح. غزالة تركض في البراري، يلاحقها نمر شرس. يركض وراءها، لكنَّه لم يستطع اللِّحاق بها فركن تحت الشجرة متقطِّع الأنفاس. النمر، إذا لم يكسر ضحيَّته في الانطلاقة الأولى، يتعب بسرعة، وعليه أن ينتظر قطيعًا جديدًا

ـ كلّ شيء جاهز يا سيِّدي. الآن، يمكنك أن ترى الصور بشكل أسهل وأوضح. سأشرح لك. لم يبق إلَّا اختبارالصوت فقط. التقنيّ الذي مرَّ من هنا البارحة، درَّبني على الصغيرة والكبيرة، فقط حتى نحافظ على حميميَّتك.

نظر إليه كازانوفا بعينين دافئتين، كأنَّه يريد أن يعلن رضاه على مسعود.

هزّ مسعود رأسه بيأس وهو يرى كازانوفا بين الموت والحياة. بدا له كلّ ما كان يقوم به، مجرَّد عبث لتأجيل موت، أصبح داخل البيت بعد أن كان يترقَّب في العتبة.

ـ اعذرني يا سيِّدي لوط على تدخُّلي. أنت تموت ونحن نموت معك بلا معنى. هذه مسرحيَّة سخيفة، لا فائدة تُرجى من ورائها أراك وأسمعك تموت في كلّ ثانية، فأحزن، لأنِّي مشلول ولا حقَّ لي في التدخُّل. هل كنتَ مجبرًا على هذا كلّه؟ هذا جلد للذات يا سيِّدي. أنت لم ترني أبدًا على هذه الصورة، لكنْ بلغ السيل الزبى. هذا النظام الذي فرضته على نفسك، سيقتلك. لقد استنزفك، يجب أن تأخذ نَفَسًا صغيرًا لتشمّ هواء آخر، وقسطًا من الراحة. أو حتى تلغي ما تبقَّى من لقاءاتك. لا يمكن أن تتحمَّل ردّات فعل قاسية من حياة لم تكن دائمًا سهلة، ولم تكن وحدك مسؤولاً عنها حياة بكاملها في دقائق وساعات. أعرف أنَّ هذه المسألة بالنسبة لك حيويَّة، لكنْ عليك أيضًا أن ترتاح قليلاً أسفارك التي لا تتوقَّف وأعمالك التي تقتضي نباهة دائمة، الله جلّ جلاله، خلق العالم في ستَّة أيَّام، واضطرّ إلى الراحة في اليوم السابع، فكيف بالبشر وبالمصائر المتضاربة؟ صِدْقًا، أخاف عليك من عواقب هذا الزمن. لا لا لست موافقًا على كلّ ما يحدث أمام عينيَّ.

ـ لا لا لست موافقًا على كلّ ما يحدث أمام عينيَّ.

فجأة، انتبه للجملة الأخيرة. كانت الوحيدة التي نطق بها بصوت عال. لم يقل شيئًا. حمد الله أنَّ الثورة كانت فيه. وأنَّ النار التي اشتعلت بشكل فجائيّ، ظلَّت في داخله. كازانوفا لا يقبل بأيَّة ملاحظة

حتى وهو على حافَّة الموت. يعرف جيِّدًا ردَّات فعله، ويمكن أن يطرده حتى وهو على هذه الحافَّة.

ضغط مسعود على زرّ السرير، فارتفع قليلاً جهة رأسه.

عدَّل فراش كازانوڤا جيِّدًا، بحيث يمكِّنه من رؤية الشاشة التي وُضعت قبالته، يسمع جيِّدًا ويرى التفاصيل إذا أسعفه نظره. وضع له السمَّاعتين في أذنيه. لم يسترح إلَّا عندما جرّبهما العديد من المرَّات على قرص غنائيّ. انحنى مسعود. خفّفَ النور قليلاً، وهو يمسح بمنشفة مليئة بماء الزهر، وجه كازانوڤا من العرق الذي تكاثف في شكل حبيبات صغيرة على الجبهة وفوق الأنف. تلألأت تحت انكسار الأشعَّة الضوئيَّة الخفيفة مشكِّلة ألوانًا شتَّى. ثم تفحَّص حرارته، لم يشعر بأنَّها مرتفعة أكثر من المعتاد. رسم الجهاز الذي وُضع في فمه ٣٩°، وهو أمر عاديّ تمامًا

أشياء كثيرة تغيَّرت. فقد وجد مسعود نفسه في دوَّامة لم يتعوَّد عليها، كان يقوم بها غيره من قبل، لكنَّ كازانوڤا منذ خروجه من المستشفى، وغياب زكيَّة الذي بدا في البداية عاديًّا لأسباب عائليَّة، واتَّضح لاحقًا أنَّه وليد معركة بينها وبين كازانوڤا انتهت إلى الانتحار، اشترط أن يكون مسعود وحده هو من يقوم بذلك، في انتظار توظيف امرأة غير زكيَّة التي كانت تعرف كيف تستر أسرار الدار الكبيرة، حتى في حالة الاختلاف. ترجَّاه وترجَّى العائلة والإمام زكريًّا أن لا يُعيدوه إلى المستشفى، وأنَّه يفضِّل الموت في بيته على الانطفاء على سرير بارد في المستشفى، حتى ولو كان ابن سينا. فقد علَّمته زكيَّة، قبل خروجها النهائيّ من البيت، كلّ تقنيّات الإنقاذ الضروريَّة، والتنفُّس الاصطناعيّ، ومهمَّات التنظيف الصعبة والثقيلة. بفضل الإستعافات العالجة، استطاع كازانوڤا أن يتفادى نوبات اختناق خطيرة كادت تودي

بحياته. لو لم يجد مسعود، بجانبه لانتهى باختناق أكيد، وبانسداد في حلقه. حتى عندما نهره الإمام زكريًا، وأمره بالابتعاد قليلاً عن كازانوڤا لأنَّه يخنقه، رفض كازانوڤا ذلك، أنَّبه بشدَّة، وأنَّ كلّ ما يقوم به هو من خيارات سيِّده. منذ تلك اللحظة، حفظ الإمام زكريًا الدرس جيِّدًا يكتفي فقط بتنفيذ ما هو مكلَّف به، ولا يتعدّاه. حتى أصبح كلَّما طلب منه مسعود استشارة، أجابه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1] ثم ينسحب، ويتركه معلَّقًا حول ما يجب فعله. لم يعد مسعود أيضًا يكلِّف نفسه سؤال الإمام زكريًا.

ـ صحيح أنَّ مزاج كازانوڤا صعب جدًّا، لكنَّ الإمام زكريًا يعطي لنفسه صلاحيًات في البيت لم يكلِّفه بها أحد.

تمتم مسعود وهو يحاول أن ينظر جيِّدًا إلى عينيْ كازانوڤا. أحسّ أنَّ وضعه أفضل.

ـ كلّ شيء كما يبغي خاطرك يا سيِّدي لوط. لم نترك شيئًا للصدفة. مهمَّة صعبة، لكنَّنا في النهاية رجالك في الظروف الصعبة. لا نريد إلَّا إرضاءك، وإلَّا ما فائدة ما نقوم به؟ محنة وتفوت. الله كبير وكريم. الشاشة والصوت جاهزان ممّا سيسمح لك برؤية وسماع جيِّدين.

لا يعرف مسعود لماذا شعر بكلِّ ذلك الحنان يرتسم فجأة في عينيْ كازانوڤا كلَّما اقترب منه أو تحسَّس وجهه أو ذقنه أو لحيته التي

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

بدت مثل شوك صغير، ذرفت عيناه دمعًا مُرًّا

منذ أن غادرت أغلب نسائه البيت، الواحدة تلو الأخرى، ووجد نفسه تقريبًا وحيدًا، لأنَّ لالَّة كبيرة أصبحت مثل أخته، جزءًا من أثاث البيت، لم ترتسم على وجهه أيَّة سعادة. سأله العديد من المرَّات مستفسرًا عن الغيمة الغامضة التي تعبر وجهه: *هل سيِّدي حزين؟ يريد شيئًا؟ هل في خاطر سيِّدي شيء يريده؟ أستطيع أن أُحضر لك ما يرضيك*. لكنَّه منذ الغيبوبة الأخيرة، لم يعد يتكلَّم ويكتفي بالملاحظات بعينيه وأصابعه، أو إشارات متقطِّعة ترتسم على شفتيه، لدرجة أنَّها تحوَّلت إلى لغة لا أحد يفهمها سوى مسعود، أو زكيَّة التي كانت تبذل جهودًا مضاعفة حتى تعوَّدت على لغته.

أخذه من يده، واقترب منه أكثر، ناحية أذنه التي يسمع بها جيِّدًا

ـ تجربة أخيرة. لا تنزعج منِّي يا سيِّدي لوط. هذه المرَّة سيختلف الأمر قليلاً، يجب أن تُصغي لي عن قرب. هل فهمتني يا سيِّدي؟ إذا نعم، حرِّكْ أيّ أصبع في يديك أو رجليك. أنا أتعبك بهذه الأسئلة المتكرِّرة، ولكن لأضبط الأمور جيِّدًا، فأنا الوحيد في هذا البيت من يفهمك.

لم يجد كازانوڤا صعوبة في تحريك أصابع يديه ورجليه، وعينيه، إعلانًا بأنَّه فهم كلّ ما قيل له، وسمعه.

شعر مسعود براحة كبيرة. وضع كاسْك السمَّاعتين على رأس كازانوڤا، وجرَّب تشغيل الكومبيوتر والداتاشو بعد أن وضع فيه قرصًا جديدًا، فظهرت أمّ كلثوم وهي تغنِّي *أغدًا ألقاك* التي كان كازانوڤا يحبُّها كثيرًا سأله مفردًا إبهامه إذا كان كلّ شيء جيِّدًا، فتحرَّكت أصابع كازانوڤا مجتمعة. السكتة الدماغيَّة لم تؤثِّر لا على بصره ولا على سمعه، إلَّا جزئيًّا

اقترب منه أكثر نزع مسعود السمّاعتين من على رأس كازانوڤا

ـ سيِّدي لوط. كما قلت لك. ربَّما لم تسمعني جيِّدًا، زوجتك السابقة ساراي، منعتها ظروفها الصعبة من المجيء، لكنَّها لم تتخلَّ عنك يا سيِّدي وعن الاهتمام الذي أوليتها إيَّاه. تتذكَّر خيرك الكبير تجاهها كما تعرف، هي اليوم في صحراء توَّات مع رجل طوارقيّ، موسى ولد يوسف. أنت تعرفه، هو ابن عمّها. البرلمانيّ الكبير، ممثِّل للجهة الجنوبيَّة من البلاد. حياتها معه مستقرَّة، ولا تريد أن يلحقها ويلحق عائلتها أيّ أذى. ابنها البكر آمود، من سيِّدي موسى ولد يوسف، عسكريّ في الجنوب، ضابط في الطيران، في قاعدة الرمال كما تُسمّى اليوم، التي تستعدّ لخوض حرب ضروس ضدّ عواصف التقسيم التي تهدِّد بها بعض القبائل الصحراويَّة، وضدَّ عدوٍّ غير مرئيّ، كلّ يوم يكبر يا سيِّدي، ويتمدَّد كالثعبان. هكذا يقولون، والله أعلم. من حقّك أن تحبّ لالَّة ساراي وتطلب حضورها، فقد كانت امرأة كريمة ونبيلة. ابنك من لالَّة ساراي، هارون، يطمئنّ عليك كلّما وجد فسحة، هو مع إخوته في لاغراند تيرَّاس، يحاولون أن يصونوا عرضك وتاريخك ومالك وكلّ مشاريعك، ريثما تعود لها بصحَّة وعافية. المهمّ أن تهتمّ أنت بصحّتك، الباقي على ما يرام.

شدّ كازانوڤا على يد مسعود بقوَّة. ارتسمت ابتسامة ذابلة على شفتيه اليابستين. بلَّلهما بقليل من ماء الزهر كانت عيناه زائغتين تعومان في فراغ من بياض لدن وثقيل. لا يبدو أنَّه تعب كثيرًا مع زينا كما مباركة مثلاً! خمّن مسعود.

ـ لالَّة ساراي تقدِّرك. فلا تحاسبها يا سيِّدي. كنت أنتَ والدها وأمّها

معك كلّ الحقّ يا سيِّدي، إذ أصبحت تراها حمامة، أسميتها

نور، تأتيك من بعيد لتطمئنّ عليك. تنقر حبّ الرمَّان الذي تهيِّئه لها، لأنَّها كانت تحبّه، ولهذا ظلَّت ذاكرتها مشتعلة. ثم تمضي، لا أحد يعلم إلى أين. تغيب نور قبل أن تعود بعد شهور. كنت في أوقات فراغك في أيَّامك الجميلة، عندما تكون في صفائك، وقبل أن يقعدك المرض وقدَّر الله، كنتَ كلَّما رأيتَ نور في الخُلْوَة، تعطيها القمح والشعير الذي كانت تأكله على مضض، وخارج كفِّك، لكنَّ حبّ الرمَّان كانت لا تأكله إلَّا من كفِّك. وكانت يدك هي اليد الوحيدة التي ترتاح لها نور، يا سيِّدي، وقع لها ما وقع لبيرو ڤيردي. كلبك الذي انتحر حزنًا عليك. قلتَ لي في مرَّة من المرَّات: *ساراي امرأة خسرتها، لكنَّها ستعود لي ونموت معًا حينما يأتي وقت المغادرة. لن أتركها ورائي يتيمة حتى ولو كانت متزوِّجة*. منحك الله وسيطًا بينك وبينها، كما كنتَ تقول ـ حمام الجنَّة. كنت تبعث معها أناشيدك، فهل تتذكَّرها يا سيِّدي؟

تمتم كازانوڤا بلا صوت.

ـ أساعدك.

يا لالَّة بنتتوات، يا أميرة الغاشي،

الجبال والصحارى والموت القاسي،

طير بنا يا حمام الخير وزيد

غطِّينا بالغيمة، وظلّ الجريد.

هذا نشيدك الذي كنتَ تغنِّيه كلَّما اشتقتَ لها

فهمتك يا سيِّدي. نسيت أن أُخبرك، حمامتك يا سيِّدي، التي تعوَّدتَ عليها وتعوَّدتْ عليك، عادت قبل أيَّام، ولم أرد أن أجرحك أكثر، إلى برجها في البيت. تخبَّأت في الركن نفسه الذي تعوَّدت أن

ترويها فيه وتطعمها كانت المسكينة مجروحة، ونظراتها يتيمة. لم يكن أحد يعرف سرَّها. جناحها الأيسر كان مكسورًا وبه دود صغير بسبب قِدَم الجرح. نزعت منه الشظايا الصغيرة التي أصابتها في مقتل، لكنَّها لم تقاوم طويلاً سال منها دم كثيف، قبل أن تصل إلى الدار الكبيرة. جاءت لتموت قريبًا منك. دفنتها في حديقة البيت، أو ما تبقَّى منها، ناحية صالة VIP، وكتبت لوحة صغيرة حتى لا يموت قبرها: *هنا تنام نور، حمامة سيِّدي لوط. لم تكن حمامة، كانت أكثر، امرأة.* هي مواجهة للنافذة، كلَّما جلستَ هناك رأيت قبرها الصغير بين الأشجار وشاهدها الذي يجعلها حيَّة. هي روح مؤمنة يا سيِّدي، كلّ ملامحها العفويَّة والطيِّبة تدلّ على ذلك. قرأت عليها الفاتحة، لأنَّها ليست حمامة عاديَّة، لكنَّها امرأة، كما كنتَ تقول دائمًا

علت غيمة رماديَّة وجه كازانوڤا اهتزّ قليلاً ثم أصابته رجفة، كأنَّ صرعًا انتابه فجأة. ندم مسعود لأنَّه أخبره، في وقت كان عليه تفادي ذلك، أو تأجيله. هو أيضًا مرهق كما البقيَّة. حاول أن يهدِّئ من روعه قليلاً وضع مفتاحًا في كفِّه، وانتظر حتى سكن جسده أخيرًا

ـ عذرًا يا سيِّدي إذا كنتُ قد آذيتك. خفت أن تعلم بذلك لاحقًا وتؤنّبني. رحم الله نور وأسكنها فسيح جنانه. أعتقد أنَّنا انتهينا من كلّ الترتيبات. آن الأوان لتسمع صوت لالَّة ساراي، وترى وجهها ستكلِّمك كأنَّها بجانبك مثل الأخريات. لقد ضخَّمت الصوت قليلاً، حتى تتمكَّن من سماعها بلا مشقَّة كبيرة. كلّ شيء جاهز ورهن إشارتك. نبدأ

وضع مسعود السمَّاعتين على رأس كازانوڤا من جديد. ثبَّتهما جيِّدًا حرَّك الوسادة قليلاً، ورفع رأسه بعض الشيء حتى يكون مرتاحًا

بشكل كامل. صفَّق مسعود مرَّة واحدة، فجاءه الإمام زكريًا ملفوفًا في برنس من حرير شديد البياض. لأوَّل مرَّة، ينتبه مسعود أنَّ سيِّده كان يلبسه في المناسبات الدينيَّة وأيَّام الأعياد. ربَّما كان هديَّة من سيِّده. لم يعلِّق. اقترب منه.

ـ سيِّدي لوط جاهز. هو يعرف الآن أنَّ لالَّة ساراي غائبة، لكنَّها ستكون حاضرة بصوتها وصورتها.

ـ وأنا أيضًا كنت أنتظر فقط إشارتك يا مسعود. الحمد لله أن سيَّر كلّ شيء بإرادته. ينتهي سيِّدي من هذا العذاب الذي فرضه على نفسه، ليعود أخيرًا إلى نظامه، إلى أن يرى اللهُ ما هو فاعل به.

قال الإمام زكريًا وهو يُخرج الظرف من صدره.

بهدوء، بدأ الإمام يبحث عن مكان فتحة الظرف. فهو المؤمَّن الوحيد على أسرار ساراي في هذا التسجيل، وعلى وعد قطعه لها، أنَّ القرص لن يسمعه أو يراه أحد غير لوط، وفور سماعه له، يُعيده لها يدًا بيد، أو يسلِّمه لابنها هارون الذي لن يعود إلى صحراء توات وإفريقيا الجنوبيَّة، إلَّا بعد حلّ إشكال خلافة كازانوڤا.

كان الإمام زكريًا يتلذَّذ بفتح الظرف، وكأنَّه سيعلن عن اسم فائز ما في مسابقة تلفزيونيَّة أو في مهرجان كبير. أخرج القرص المضغوط من غلافه. سلَّمه لمسعود، الذي أدخله مباشرة في عمق الجهاز لقراءته. ثم ضغط على زرّ بدء التشغيل.

رأيا عينيْ لوط في كلّ انفتاحهما، وهو يحرِّك أصابعه من تلقاء نفسه معلنًا أنَّ كلّ شيء على ما يرام.

اتّضحت الشاشة البيضاء بكلِّ اتِّساعها

انسحبا الإمام نحو مقصورة الضيافة، ومسعود نحو غرفته المقابلة للصالة الأندلسيَّة.

٢

لا شيء. شاشة بيضاء وصوت غريب يأتي من مكان ما، قريب من داتاشو.

تأمَّل كازانوڤا سقف البيت. لم يَرَ شيئًا إلَّا سماء كانت كلّ يوم تنزل قليلاً، وبياض الخوف الذي كان ينتشر بقوَّة، والأشكال الغامضة التي كانت تسير في اتِّجاهات متعاكسة، تتداخل، تختلط، ثم تنفصل. والألوان التي لا تستقرّ على شيء. لحظة صمت بدت طويلة أكثر من المعتاد. فجأة، تحرَّك قليلاً في مكانه. سمع صوت أطفال صغار، في الخلفيَّة، مخلوطًا برنين الدبابير، ممَّا يوحي أنَّ المكان صحراويٌّ وحارّ. قفر صامت لا حياة فيه، إذ لا سيَّارات، لا ضجيج تلفزيون، ولا تداخل الموجات الإذاعيَّة، ولا أيّ شيء.

ثم نحنحة خفيفة، كأنَّها شخص ما يُحضِّر صوته، ويبعد عنه بحَّة كانت تسدّ مخارج الحروف. شيئًا فشيئًا، يصبح الصوت واضحًا فجأة، امتلأت الشاشة الحائطيَّة. ظهر بعدها وجهها. ساراي. كانت

متّكئة على صندوق خشبيّ قديم، مليء بالنقوش الصحراويّة الغامضة والمتداخلة، ومختوم، في الكثير من جوانبه، بالنجمة الفاطميَّة، بمختلف الأحجام.

نظرت صوب من كان يصوِّرها، تأمَّلت الفراغ قليلاً، إلى أن سُمِعَ صوته واضحًا: يمّا، تكلَّمي. *بدأنا التصوير*. سرعان ما نسته، كأنَّه غير موجود.

جاء صوتها واضحًا هذه المرَّة، دون أن يفقد بحّته الناعمة. قطرة مسكرة من مشروب اللَّاغمي.

ـ صباح أو مساء الخير، يا سيِّد لوط.

ها أنا ذي قد قرَّرت أخيرًا أن أتكلَّم احترامًا للشيخ زكريًّا الذي قطع الفيافي، وهارون حبيبي الذي ما يزال متشبِّثا بفكرة الأب مهما كانت الآلام التي تسبّب فيها أو احترق بها، وأتكلّم احترامًا لما كان بيننا، وأعطيت فيه كلّ ما أملك من حبّ. لا بدَّ أنَّك عرفتني؟ لم أتغيَّر كثيرًا إلَّا بما يفرضه سلطان الحياة والعمر. أنا كما منحني الله لك، ذات سنة، بحسب مشيئته، وأقداره، فلم أناهضه. ومن أكون لأناهض سلطانه وجبروته؟ كان كونًا، وكنتُ نملة تسبح في ملكوته.

أنا ساراي بنت يوسف، بن داوود، بن يحيى، بن سليمان، من آل توات التي منحت لقبيلتنا الحياة بعد الحروب المفنية. كانت معبرنا في البداية، قبل أن يستقرّ المقام فيها، فالصحراء كالعقرب، لدغتها قاتلة، وسمّها دواء.

لا أعرف بالضبط الساعة التي سيتمّ فيها سماع ورؤية هذا الألم الذي في داخلي، مع أنَّي من قلبي تمنَّيت أن يظلَّ بعيدًا، لأنَّ إثارة هذا الألم لم تعد تجدي نفعًا، وأنَّ ما فعلته أنتَ معي، أو ما فعلته أنا

فيك، أصبح بعيدًا وحده الربّ من يستطيع أن يحكم عليه في نهاية الأيَّام. المصائر مثبَّتة ولا أحد يستطيع حتى لمسها لا أحد. جئتك، لأنَّ في قلبي *إيمانًا كبيرًا بأنَّ شيئًا فيك منِّي، مهما كانت الخلافات بيننا* من *ضلعك لحظة نومك، أخرجني الإله. فأوقع الإلٰه سباتًا على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه، وملأ مكانها لحمًا، وبنى الإلٰه الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم. ودعا آدم اسم امرأته حوَّاء، لأنَّها أمّ كلّ حيّ*[١] تخطَّيت لأكون بين يديك، محارق أبي، وقبيلتي، وعائلة أغلب ذكورها سعداء في صلواتهم أنَّ الله لم يخلقهم نساء. لم أكن كما كان أخي يريدني، ووالدي الذي علَّمني أسرار الأشياء، وضعني أمامه واستمتع بالندِّيَّة التي كنت أنتصر فيها دائمًا، لكنَّ رضاه في النهاية يذهب نحو الذكور. الخلاص من امرأة، هو الخلاص من نار تشتعل تحت الحطب، قلّ من يراها أنا من قال لك والدي: هي *امرأتك الآن يا لوط، فخذها واذهب*. وأخذتني، دون أن تلتفت، لهذا شعرتُني مدينة لك بكلِّ ما أملك.

لوط! هل تتذكَّر تفاصيل وجهي الذي تغيَّر كثيرًا بسبب المحن المتتالية؟ صوتي الذي تخترقه بحّة، كنتَ تقول لي دائمًا هي *واحدة من جمالك وسحرك*. ورثتها عن أمِّي التي ظلَّت طوال حياتها تغنِّي حياة أجدادها، الذين امتزج دمهم التوّاتيّ بالدم العربيّ، حتى انتفى الأوَّل في الثاني أو كاد، أحيانًا بالرضى، وفي أحيان أخرى بالخوف والحروب.

تمنَّيت أن أحكي لك بصوتي ووجهي وحضوري، لكنِّي عاجزة يا سيِّدي عن فعل ذلك، وأنا أجرّ ورائي جرحًا استقرَّ في عمقٍ لا يمكنني

---

(١) سفر التكوين، ٢/٢١، ٢٢، ٢٠/٣.

أن أدركه. هناك جروح تظلّ متخفّية تحت قشرة خادعة قبل أن تنفجر مثل البركان. *أسامحك؟ على ماذا؟* غفرت لك كلّ شيء ممّا أصابني منك، لكنّني عاجزة حتى أن أرى وجهك بدون أن أتذكّر حبيبي يوسف، الذي أسميته على والدي يوسف بن داوود، الذي رمته نساؤك في البئر، ثم جئن يتباكين أمامك. وبدل أن تحاسبهنَّ، رحت تسترضيهنَّ. وسُحِق حبيبي يوسف بين الأرجل، وكأنَّه لم يكن، وكأنَّه لم يأتِ إلى هذه الدنيا قُتِل أمامك ولم تحرِّك ساكنًا لحمايته. الغيرة حارقة، لكنْ قاتل يا سيِّدي أن أسمع كلّ يوم: *ولد اليهوديَّة، قتلوا أنبياءهم وجاؤوا لينهبونا ويقتلونا لم يصمتوا من كثرة الشتائم فيك أيضًا، أيَّة بلادة أصابت لوط ليتزوَّج امرأة من رمل جافّ؟ قلّة جميلات الشمال وهو الغنيّ الذي يسبح في المال؟ جاب أفعى مسمومة من صحراء توّات، تلدغ سرًّا وتمشي في الجنازات.* كنتُ أسمع هذا، وأشياء أخرى حاولت أن أنساها أخفض البصر وأمضي. كنت دائمًا أقول في داخلي، *ما دام حبيبي لوط معي، غير معنيَّة بالباقي.*

لا أدري ما قالته أو ستقوله لك نساؤك. لن أتحدَّث عنهنّ، لأنِّي معنيَّة بك، وليس بهنَّ.

ما دمتَ تريد سماعي، سأمنحك آخر ما فيّ، مع أنَّي أغلقت كتابك أبدًا، لأمضي في حياة خطَّها لي المولى القدير، وقد ارتضيتها في بعض جوانبها، وفي بعضها الآخر صارعت، لكي أكون أكثر من امرأة للمتعة. سأقول لك ما أحرق قلبي، ربَّما تكون قد نسيتَه. كنت أنوي الصمت عنه وإسكانه في قلبي فقط، بعد كلّ هذه السنوات، لكنِّي لم أفلح. جعلتني أمزِّق كلّ شيء حتى الأغلفة الثقيلة التي تخفي سرِّي، وأعرِّي كلّ شيء على الملأ، بما في ذلك جرحي الذي لم أستطع أن أنساه. الجرح يا سيِّدي لوط لا يخبو بقرار، لكنَّه عندما

ينتهي نزفه، يكوّن قشرته التي تحميه. إلى اليوم، لم يُتح لهذه القشرة أن تتصلَّب. رفضت في البداية، لكنِّي في الأخير، انصعت لحبيبي هارون الذي جاء من إفريقيا الجنوبيَّة، حيث يُقيم، فقط ليراك، ولأنِّي أيضًا أمرته بذلك. ثم استجابة لتليفون يونس الذي تفهَّمت ما طلبه منّي سرًّا، بشير ابنك طاغية. هارون يعرف كلّ شيء، فقد رويت له عن كلّ التفاصيل. لا أدري لماذا أخبرته! ربَّما لأنَّه يشبهني في الصغيرة والكبيرة، حتى في أحلامي. نرى الشيء نفسه في لحظات الحزن والفرح.

تحرّك كازانوڤا قليلاً في مكانه مستغلًّا صمت ساراي، التي أغمضت عينيها قليلاً، ثم سكتت، كأنَّ شيئًا عطّل لسانها فجأة. اتّقدت عيناه تحت الضوء الذي تسرَّب إليهما في زاويته المظلمة قليلاً

ـ ما أقول لك يا لوط، وكلّ شيء يتسارع في مخيّلتي كالعاصفة بسرعة متناهية. أحتاج إلى تفكيك ذلك كلّه مثل خيوط النسيج التي تتداخل بحسابات مسبقة دقيقة وألوان محسوبة، وإلَّا فرط كلّ شيء.

لا أملك شيئًا خاصًا أمنحه لك، ولا حتى بعض الراحة لترافقك في هذا الزمن الصعب والقاسي.

أتمنَّى أن تسمعني يا سيِّدي، حتى عبر آلة باردة وقطعة قماش. أن تملك القدرة على تحمّلي حتى آخر كلمة، ولا تهرب من المكان إذا كنتَ قادرًا على فعل ذلك، لأنَّ ما سأقوله لن يسرّك أبدًا ليس مشروطًا عليّ أن أكذب. أنا مثل آنيَّة توّات الطينيَّة السوداء التي لا تجدها إلَّا في صحراء النقب، عندما تنكسر، لا تُجبر كان بإمكان قدمائنا أن يجروا عليها تحسينات لتجبيرها، لكنْ، كما تقول جدَّتي في ثقافتنا الصحراويَّة، بعض الأشياء شديدة الشفافيَّة ونبيلة، لدرجة أنَّنا نرى كلّ شيء من ورائها، فلا يمكن الكذب عليها مستحيل أن تُلصق

أو تُجبر. فإذا انكسرت راحت، كما البشر أو أنَّ صانع الطين لم يقم بعمله كما يجب في منطقة حيَّة، تعجّ بالحرفيِّين، والصنَّاع، وبيَّاعي التمر، والحليّ الزاهية كالزهر، والأطباق المصنوعة من سعف النخيل، والصابون، والفضَّة والذهب.

زواجي بك كان خياري، ولم يفرضه عليّ أحد. لهذا، لا أندم على أيّ شيء. كنت مثل شهرزاد. جئتك لدرجة أن أخفت والدي وإخوتي بقراري. لم أفعل الشيء الكثير لاستهوائك، وجدت استعدادك كبيرًا أيضًا للذهاب في مغامرة تمنَّيتها طويلة، فأنا امرأة صبورة وأعطي كلّ ما لديَّ لمن أحبّ. أنصاف الحلول لا أعرفها المرأة في ثقافتنا، عندما يتحدَّد خيار المرأة، من حقِّها أن تفعل أيّ شيء لاستمالة رجلها نحوها عندما رأيتَني لأوَّل مرَّة، شعرت من عينيك ودهشتك أنَّني سكنتك، وأنَّ شيئًا منِّي أصبح فيك. إصابتي بك لم تكن أقلّ. كنت أريدك، وأريد أن أرحل معك باتِّجاه الشمال. العيون تفضح أصحابها وتفضح أسرارهم من أوَّل وهلة. أعطاني الله موهبة اكتشاف الأسرار من ارتباك العيون. في النهاية، أخفقتَ في مغادرة توَّات إلَّا بي. سحبتني معك برضاي، من مدينة الخلوة التي يظنّها الناس مدينة الموت، وهي الأمّ الحنون، المنشأ الأوَّل للتربة التي شكَّلهم الإله بها، التي سيعود الجميع لها عندما تُقفل في وجوههم سُبُل العيش، ولن يجدوا إلَّا أثداءها الحنونة. تربَّيت فيها حتى فهمتها، وأصبحت جزءًا من غبارها ورياحها وعواصفها ومائها التصقت بنورها حدّ التماهي، وابتعدت، رغم صراعي مع أخوتي السبعة، عن كلّ ما يجعلني في أعينهم لا شيء.

لم أنبتْ من فراغ.

لم أقبل أن أكون لا شيء، في مدينة كانت كلّ شيء بالنسبة لي.

كنت من توّات، مركب العربان، وملتقى التجارة وفضاء الخير والحبّ. فقد اجتمع فيها العلم والعمارة، والولاية والديانة والرئاسة، وانتصبت بها الأسواق والصنائع، والتجارة والبضائع. لا يستغني عنها الزاهد العابر نحو المدى وطريق الله. ألم يقل ابن خلدون عنها، إنَّها حاضرة الخير وملتقى المدن ومعبر التجَّار، بعد أن تركوا خطّ السوس ولاتا، ونهجوا الطريق إلى بلاد السودان من أعالي توَّات. *جعلها ذلك* محطَّة لالتقاء القوافل التجاريَّة القادمة من سجلماسة، والعائدة إليها من تومبكتوا وصحراء التكرور.

هناك نبتّ حيث للتراب معنى، وللعواصف الرمليَّة لغة.

كان أهلي، وما يزالون تجَّارًا كبارًا، يعرفون سرّ كلّ المعابر بعضه أعلنوا عنه، بينما البعض الآخر بقي في جعبة أسرارهم. ونظرًا لعمارة أسواق المدينة ورخصها وتنوُّع منتجاتها، أصبحت مقصدًا لقوافل الحجيج أيضًا، المارَّة بالصحراء في طريقها إلى أرض الحجاز، فحجَّاج سجلماسة وتافيلالت وشنقيط كانوا يعرجون على أسواق توات، التي كان أغلبها تحت إشراف عائلتي مباشرة أو ملكًا لها، لتجهيز قوافلهم بما تحتاج إليه من مؤونة قبل السير طويلاً في رحلة الحجّ. سيِّدي العياشي كان يقول بهذا «إن كثيرًا من الحجَّاج لمَّا غلا صرف الذهب في تافيلالت، أخَّروا الصرف إلى توَّات، لأنَّ الذهب فيها أرخص، وكذا سعر القوت من الزرع والتمر».

هذه هي أرضي يا سيِّدي، ولم أولد من فراغ. ولأنِّي أعطيتك كلّ شيء، فيوم غادرتك سحبت كلّ شيء أيضًا معي، بما في ذلك قلبي. ذهبي، وكلّ السجَّاد، إلَّا الزربيَّة التي منحتُها للدار أصلاً، وقضت فيها نساء توَّات زمنًا طويلاً من النسيج، وجئت بها من أجلك.

وضعتها في المكان الأشهى، الذي حوّلتني فيه، في ليلة مجنونة،

من عذراء توَّات إلى سيِّدة منارة سيتي، كما يليق بامرأة سليلة ملوك الرمال، ممالك صحراء توّات الشاسعة. قلتُ لك *لن نفرش شيئًا هذه الليلة*. ناديت الخادمة ميمونة. طلبت منها أن تفكّ معي خيوط هديَّتي الضخمة. فككت معي كلّ الخيوط، ثم نزعنا الأغلفة الجلديَّة لكي لا تؤذيها الرطوبة، ثم قلتُ لك، *هذه هديَّتي لنا من نساء توَّات*. ثم بسطتها بمساعدة ميمونة في كلّ الصالة الزجاجيَّة المفتوحة على حديقة لاغراند تيرَّاس. بانت كلّ الموتيفات الملوَّنة والجميلة، المرسومة بدقَّة عالية. عندما انتهينا، أمرت ميمونة بالعودة إلى عملها، في الطابق الأرضيّ. تحسَّست صوف الزربيَّة، ووبرها، وخيوطها الناعمة المنسوجة بإحكام، كمن يتحسَّس جسدًا من حرير بعدها، دخلنا في دوَّامة السكينة واللذّة. لتكتشف بدهشة طفل، أنت رجل النساء، أنَّ للحبِّ لغة أخرى، مبطَّنة في الأجساد، لا يملكها كلّ الناس. بعيدة المنال، وهي فيك.

أعرف أنِّي أثرثر، وربَّما أقول ما لا يُفيدك مطلقًا، أو ما تنتظره منِّي، لكنِّي أتكلَّم على سجيَّتي ولا أنتظر في النهاية شيئًا. فقط لتعرف أنَّ الوقت لم يمنحنا ما نشتهي، وأنَّ سرقة يوسف من بين يديَّ، وضعت بيني وبين صمتك المتواطئ خطًّا من نار مشتعلة، تشبه جحيم البراكين.

في البدء كنتَ جميلاً

لم يكن هناك ما ينغِّص عليّ. أمر زوجاتك من نساء أخريات، لم يكن يهمّني إلَّا قليلاً، لأنِّي كنت أعرف أنِّي الأقوى والأكثر قربًا إليك من نفسك. إلى يوم تعدَّين عليّ بشكل سافر، تغيَّر كلّ شيء. يا أنا يا هنّ، اختر تحالفن ضدِّي لضربي في أعمق نقطة فيّ: يوسف. أخرج من هذا الحكم زينا التي لم أعرفها، لكنِّي سمعت عنها أشياء كثيرة

جعلتني أحترمها امرأة تهمّها حياتها قبل كلّ شيء. أعتقد أنّها تصرَّفت كما يجب أن تتصرّف امرأة في مستواها.

استغربت صمتك وحيادك، كأنَّ الأمر لم يكن يهمّك. مع أنّي منحتك كلّ ما كنتَ تريده وتشتهيه، لأجعلك لباسي وخاتمي. كان عليّ أن أثبت لك بأنّني كنت الأجدر. كنت في سباق مع زوجات سبقنني إلى قلبك، وكان عليّ أن أعرف كيف أسكنه بقوَّة روحي وجسدي. كان عليّ أيضًا أن أعرف كيف أوقظ خفاياك الدفينة والمجنونة التي فشلن كلّهنَّ أمامها لم آتك بلا أسلحة. في ثقافتي الصحراويَّة، نتعلّم ذلك منذ الطفولة. الأمّ هي معلّمة ابنتها الأولى، بينما الحياة تعلّم الشباب الذي يختبر فحولته في المواخير التي تركها الفرنسيُّون في البلاد، وبعدهم الأميركيُّون والألمان، والإيطاليُّون، الذين اشتغلوا طويلاً في مصافي النفط أو في التنقيب في رمالنا التي لوَّثوها.

تعلَّمتُ ممَّا يُحيط بي الكثير. رجالنا، عبيد عند أسيادهم، أسودٌ على ذويهم. يعيشون في يقينيَّات قديمة، لم أعد فقط أكرهها ولكن أيضًا أحاربها، لدرجة أنَّ والدي نبَّهني يومًا: *احذري. الاختلاف مع الشخص يمرّ، مع المجموعة يمكن أن يصبح قاتلاً* قلت له: *أنقذني من ذكورك، السعيدين بصلوات الموت. هل سمعتَ جنونهم يومًا؟ مبارك أنت يا ربّ، لأنَّك لم تجعلني لا وثنيًّا، ولا امرأة، ولا جاهلاً* بينما تقول المرأة في هذه الصلاة: *مبارك أنت يا ربّ الذي خلقتني بحسب مشيئتك، الباقي أتدبَّر أمرهم بنفسي.* بابا مثلك، يصمت أحيانًا، ولا يقول شيئًا حتى تمرّ العاصفة. قلت له، *يا بابا لست بصورة الغواية أو الهزال الذي يريده لي إخوتي. أعرف أنَّ الله خلق آدم وحوَّاء وأسكنهما الجنَّة، وسمح لهما بالأكل من ثمرها إلَّا الشجرة الموجودة في وسط الجنَّة، نهاهما الله عن الأكل منها، قائلاً*

هل أكلتَ من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟ فأجاب آدم: المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة، فأكلت. فكان عقاب الإله لحوَّاء، عندما خاطبها: بالوجع تلدين أولادًا، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك[1] أيَّة عقوبة هذه يا ألله؟

أجاب والدي، *لقد خلقك الإله بحسب مشيئته*. فأجبته وليس بمشيئتهم.

فقد علَّمتني الأيَّام القاسية التي عشتها كيف أصنع ديني لتفادي الظلم والنقيصة التي أُلصقت بالمرأة، وكأنَّها لعنة منذ أن خرج آدم من دهاليز الجنَّة. قلت لوالدي وأنا صغيرة، في عزّ فيضان المراهقة، وهو يلقِّنني سرِّيًا برفقة أمِّي بعض نصوص التلمود ونصوص المشنا، التي كانت أرحم قليلاً ممَّا كنتُ أسمعه من إخوتي: يخطب الرجل بنفسه، أو بمبعوثه، وتخطب المرأة بنفسها، أو بمبعوثها بل وأكثر من ذلك، *إذا قرَّر الزوج تطليق زوجته بسبب شَكِّه في زناها، فالمشنا تفرض وجود دليلين أو شاهدين على ذلك*. يمكن *للمرأة أن تنوب عن زوجها في بيع سلعه، ومن نَصَّب زوجته مديرة لحانوت، أو عَيَّنها ناظرة وصيَّة، فلا مشكلة*. كان إخوتي يموتون من الغيرة والحسد، لكنَّهم كانوا يخافون من ردود فعلي، كان ورائي حائط سميك: والدي. كلَّما ظلموني، جاءهم بهذه الاستشهادات للحدِّ من تسلُّطهم وجشعهم.

ثقة والدي فيّ كانت عمياء. وكنتُ قلبه وعينه وسرّه.

تعجبني نِدِّيَّة والدي الذي كان يدفع بي نحو مواقف، كان عليّ أن أثبت فيها قوَّتي أمامه. كان يمكن أن يقع لي ما وقع لحبيبي يوسف. أخرجوني ذات مرَّة ودخلوا معي في رهان. أن آتيهم بالماء، من بئر

(١) سفر التكوين ٣/ ١١ ـ ١٢ ـ ١٦.

الذئب. قلت لهم تحتاجون إلى الماء فقط؟ قالوا نعم. عرفت قصدهم من عيونهم. صنعت من سعف النخيل امرأة تشبهني. ألبستها لباسي وملايتي، ثم أوقفتها على حافَّة بئر الذئب، في عزّ خلوة الرمل والخوف. ووضعت في يدها الحبل لدرجة أن بدت كما لو أنَّها أنا وبقيت أتأمَّلها من وراء سعف نخيل الواحة. كنتُ متأكِّدة من أنَّهم سيأتون. جاء أخي الأكبر يعقوب، ورمى بي في عمق البئر وهو يصرخ: إلى الجحيم. *بهدلتنا يا زانية*، على مرأى من إخوتي. في المساء عدت، وتخفّيت وراء صندوق المؤونة الذي تراني الآن أتّكئ عليه، فهو ذاكرتي. دخل أخي الأكبر على أبي وهو يبكي: ذهبت *سيِّدتنا وأمّنا الصغيرة، تلك التي جعلت منّا رجالاً* ويردّ عليه إخوتي السبعة: يعقوب، موسى، أيُّوب، هود، يحيى، عاد، يوبا، ذهبت *قرَّة العين وسيِّدة الخير والنعيم*. أبي وحده كان يبكي بصدق. عندما خرجت من وراء الصندوق، اندهشوا عانقني والدي بقوَّة. قال *ظننت أنَّ الذئب أكلك، أو سقطتِ في البئر*. قلت وأنا أنظر عميقًا في عيون إخوتي: *أنا من أكلتُ الذئب، والذئاب التي كانت معه، يا والدي*. كنت ذئبة بجلد خروف. *أحيانًا، يتحوَّل الإنسان إلى ذئب فقط ليتمكَّن من أكل* شبيهه. حقيقة وليست أسطورة. من يومها، تأكَّد لإخوتي أنَّهم في مواجهة شيطان رجيم، وليس امرأة. عشت حذرة، أُعطي كلّ شيء، ولا أؤمن في شيء. أفترض كلّ الخير في كلّ شيء، وكلِّ الشرّ في كلّ شيء أيضًا الحياة وحدها الفاصل بين هذا وذاك.

لهذا، لم تكسرني الصدمات، بما فيها صدمتك أو صدمة نسائك.

هل تتذكَّر ماذا قلتَ لي ونحن نقطع قفر توَّات، على متن ٤ × ٤؟ بعد رحلتك المثمرة إلى الجنوب؟

ربَّما وضعك الصحّي لا يسمح. أذكِّرك.

_ *أنا اليوم أكثر الرجال حظًّا شكرًا لقومك وعائلتك.*

هكذا قلتَ لي. فأجبتك وأنا واعية لكلِّ كلمة كنت أقولها لك:

_ *لم يمنحني أحد لك، لا أبي، ولا حتى قومي الذين تفتَّتوا اشكرني أنا فقط. فقد منحتُني لك بنفسي.*

بجانبك، وسط الرياح وستار الرمال، كنت أشعر بأنِّي أميرة. كانت الطيور والكواسر والنعام والغزلان التي كنَّا نصادفها، تحسدني فيك. لهذا، لم أتردَّد في منحك ما تشتهي. حوَّلت جسدي إلى خبزك اليوميّ، ومساحتك المملوكة. كنت لا أريدك أن تلتفت إلى غيري، أن تمنحني كلّك برضاك، وإلَّا أعتبرُني فشلت في كلّ شيء. اقترحتَ عليّ خادمة خاصَّة تقوم بشؤون البيت، قلت لك لا ميمونة تكفي عندما أحتاجها تدرَّبت على كلّ شيء في حياتي. أريد أن أطوي لباسي الخاصّ الذي قضيت الليلة به معك، بنفسي، أو أتركه مفتوحًا مبعثرًا يتعطَّر بعرقه وعطره ولهاثه الليليّ، البيت والفراش.

لم أجد أيَّة صعوبة في أن أساعدك في عملك. لكنَّ رجال إدارتك لم يتركوا لي الشيء الكثير كانوا يشكِّلون حولك دوائر كثيرة لم يكن لي عليها أيُّ تأثير. كنت سعيدة بك، لأنِّي كنت أيضًا أعرف حدودي. لم تكن لا مقفلاً ولا مستعصيًا وجدت فيك الأب الذي اشتهيت أن يكون عليه والدي، والحبيب الذي أردته، يعرف رغباتي وشهواتي وحزني من نظرتي وارتباك عينيّ، والزوج الذي ترك كلّ شيء، أو كاد، من أجل أن يكون معي، وفيّ، بكلِّ ما ملك من قوَّة الحبّ والعطاء. من شدَّة التصاقك بي، كنت أنا من يدفعك لتكون عادلاً مع كلِّ نسائك.

ولأنَّ في ثقافتي المبطَّنة، أنَّ امرأة بدون ذرِّيَّة، هي في أدنى

مراتب السلّم الاجتماعي، لم أطلب إذنك، لكنّي اجتهدت بجنوني لكي أحمل منك. وحملت بحبيبي يوسف، الذي أرى وجهه إلى اليوم في شكل هالة نور هاربة في الفضاء. لولا هارون الذي خرجت مثقلة به من بيتك، لمتّ قبل أن أصل إلى بيت أهلي. فقد وُلِد في الرمال، وكَبُر داخل عواصفها ورياحها، لكنْ أقسمت أن أعلّمه ثلاثة أشياء، كان أجدادنا الأوائل يلحّون عليها *كيف يسجن العواصف الرمليّة في كفّه. كيف يصنع من تربة الفراغ معدنًا حيًّا كيف يجعل المستحيل بوصلته.* لبس جلد الضان، واصطاد بسهم القوس غذاءه اليوميّ. عطش حتى جفّ جسمه، ووجد الماء قبل أن يموت. عندما بدأ يكبر، وضعته صباحًا في المدرسة العامّة، وفي المساء أرسلته إلى خيميائيّ المنطقة، سيّدي أمينوكال أخاموخ، وقلت له *هذا ابنك، علّمه ما لم تعلّمه لغيره. كيف يُخرج من الرمل والتربة والفراغ ذهبًا* بعد أيّام، جاء حاملاً دهشته في كفّيه وفي عينيه الصافيتين كواحة، وهو يقول، *إنّ ابنك يملك شيئًا لا يملكه غيره. من حفنة الرمل، يعرف بعينيه كم تحوي من ذرّات الذهب؟ سيبقى برفقتي كلّ أوقات فراغه. سأرحل به نحو جبل البراكين، حيث كان أجدادنا يبدعون من الفراغ وصمت الصحراء شيئًا خاصًا، لا تراه العين لكنّه موجود.* عندما كبر هارون، وضعه الخيميائيّ مع شركة إفريقيا الجنوبيّة للتنقيب عن الذهب. فتعلّم الكثير، بل احترف ولم يعد مجرّد هاو.

مجيء هارون أعاد علاقتي بالحياة. لولاه، كنت أُصبت بالجنون. فقد عوّضني عن كلّ شيء، وكاد يمحو صورة يوسف.

تزوّجتك يا لوط، لا طمعًا فيك، ولا في مالك. أرزاق والدي اتّسعت حتى شملت جزءًا مهمًّا من أراضي توّات. ربّما هناك سبب مبهم لم أفهم سرّه حتى اليوم! كانت بي حاجة إلى أمومة، لم أعد

صغيرة عليها، كما كانت تقول جدَّتي. ربَّما كرهي لإخوتي الذين قتلهم الجشع، ولم أكن بالنسبة لهم أكثر من إعاقة يجب التخلُّص منها والدي الذي كان يفيض أبوَّة وحنانًا، كأنَّه أخذ من أمِّي كلّ شيء. أحاطني برعاية خاصَّة، بينما إخوتي ظلُّوا على بؤسهم الذي كانوا يبرِّرونه بالتقاليد التي هي خليط من الأعراف وكلّ الأديان السماويَّة مجتمعة. أمِّي كانت تنصاع لإخوتي، وتستجيب لهم، ثم تأتيني سرًّا، في غرفتي، وتحاول أن تسترضيني بكلمات فارغة لم تكن تصلني: *إخوتك كبار. داريهم شوي. ساعفيهم. ستكبرين وتفهمين أنَّهم لا يريدون لك إلَّا الخير*. لم أكن راضية على هذه الحياة المزدوجة. كلّ شيء ولا غضب أبنائها السبعة، فهم مفخرة العائلة الكبيرة، وهم من يعطي استمرارًا لها، ويمنعها من الانطفاء. ماذا أساوي أمامهم؟ لا شيء.

عندما وصلتَ لأوّل مرَّة إلى رمال توات، قيل عنك الكثير. ودخل الآباء في منافسة سرِّيَّة: من يفوز بكرم رجل الشمال الأبيض الذي جاء على متن ٤ × ٤ باحثًا عن متعاملين يشتغل معهم. لهذا، كان زواجي قراري. أبي وأخي الأصغر كانا معي وسندي. بينما البقيَّة، بمن فيهم أمِّي، سكنت وجوههم رياح رمليَّة ثقيلة. أقسمت أن أنتقم من هذه الأقدار المزيَّفة. قبل أن تصل، حلمت بك، وحلمت بابنتي منك، كيف أجعل منها أجمل الصبايا وأكثرهنَّ عشقًا للحياة، وأمنحها الوصايا الثلاث. وعدم تقبُّل الأقدار التي يفرضها الآخرون علينا، وكأنَّهم تلقُّوا أمرًا مقدَّسًا بالوصاية علينا بتعليق مصائرنا بين أيديهم أو في الفراغ.

عندما عبرت عتبة الدار، أوَّل شيء شممته وقرأته في العيون: أنَّه لا أحد كان يريدني في هذا المكان. ومع ذلك، دخلت مثقلة بالأحلام

التي رسمتها، ما أبهرني وحسّسني أنّي كنت خارج الزمن، خُلْوَة لاغراند تيرَّاس التي أنجزتها لراحتنا كلّ نساء البيت حتى لادام بلانش، أجمعن على أنَّ فكرة خُلوة لاغراند تيرَّاس كانت، في الأصل، لزينا المولعة بالثقافة الآسيويَّة والصينيَّة تحديدًا هي من فكَّر فيها أوَّل مرَّة، وتابع بناءها عن قرب. أنت نفسك قلتَ لي عندما سألتك زينا هل تستطيع أن تتصرَّف؟ قلتَ لها *أنت حرَّة، افعلي ما تشائين في المكان*. جاءت بمهندس صينيّ من المتخصِّصين في البنايات والشرفات النموذجيَّة الصينيَّة، ومزجها بإيقاع خفيّ أندلسيّ. اقترح عليها في النهاية مخطَّطات، اتَّفق معها على المشروع نفسه الذي به الحكمة الصينيَّة ولمسة الهندسة الأندلسيَّة. وبدأت شركة صينيَّة في إنجاز تفصيلاته. لكنَّ زينا كانت قد غادرتك، في الوقت الذي كانت أشغال تلبيس لاغراند تيرَّاس جارية على قدم وساق.

أنت شيَّدتَ بيت الخلوة، كما كنت تسمِّيها، لأنَّك مللت من حياة الأجنحة في البنايات المغلقة. كنتَ تريد هواء يأتيك من مكان ما، تنام على حفيفه كما خرير الماء. زينا هي أيضًا من كان وراء اقتراح مصعد يصعد مباشرة إلى لاغراند تيرَّاس، ولا يتوقَّف عند الطوابق حتى تستفرد بك بعد عودتك. فكرتها كانت رائعة، وأنا أتممتها. في أشياء كثيرة كانت زينا تشبهني. وحدك كنت تملك مفتاح المصعد. لا أحد يصل ما بعد الرابع إلَّا إذا رضيت به، إلَّا من أراد أن يصعده راجلاً أو بالمصعد التقليديّ الذي يتوقَّف عند الطابق الرابع. لا أحد يعرف ما يدور في لاتيرَّاس أو طابق الخلوة، الذي خصَّصته عادة لعزلتك. كان حظِّي الكبير أنّي كنت أوَّل امرأة دشَّنته في ليلة مجنونة، كلَّما تذكَّرتها أدركت، أنا ساراي، ابنة توَّات، كم أنَّ الحياة جميلة وتستحقّ منَّا كلّ الفرح الذي نمنحه لها لكي تستمرّ فينا ثم. أنت تعرف جيِّدًا أنَّ دم

عذريَّتي المقدَّس نزف هناك، وهذا يجعلني أرتبط بالمكان حتى الموت، أو على الأقلّ من المفروض، لأنّ الذي حدث لاحقًا، سار وفق منطقه ولم أتخيَّله أبدًا

في المعتقد القديم الذي تبنَّاه أجدادي، أنّ الرجل الذي نحبّه، هو من نمنحه عذريَّتنا البكارة ليست غشاوة كما عند أهل الشمال أو في منارة سيتي، يأتي رجل فيهتكها بورقة، بشكل شرعيّ أو غير شرعيّ. لا البكارة هي أنَّك سيِّد نفسك ورغباتك. تسيِّرها كما تشاء. وتتحكَّم في الصغيرة والكبيرة كلَّما تعلَّق الأمر بجسدك. وأنَّ الذي يتخطَّى عتبة البكارة، ويضع أوَّل قطرة حياة فيك، هو من تتقاسم معه مصيرًا لا ينتهي إلَّا بموتك أو موته. العذريَّة هي المخبأ الذي يمنح أمانًا كاذبًا! الحياة من خلال قطرة أو قطرات من الدم. لهذا، عندما سألتني: ألم يمسسك رجل قبلي؟ قلتُ لا ثم تداركت عندما فهمت قصدك جيِّدًا. نعم، *مسَّني ثلاثة رجال قبلك. ولا أحد فيهم ذهب إلى أكثر من المداعبة تحت نخلة عجوز، أو قبلة هاربة. واحد فقط، اتَّضح لاحقًا أنَّه كان أسوأهم، وصل إلى درجة أن عرَّاني وقبَّل جسدي كلَّه. استسلمت له. فجأة، انتابتني كلمات جدَّتي: جميل وساحر. كرَّرت عليَّ: هل تحبِّينه؟ قلت: لا، لا يا جدَّتي لا أحبِّه، لأنَّه خدعني مع أقرب صديقة، وهو لا يعرف أنَّي أعرف. وقمت من مكاني ولبست ألبستي كلّها، وخرجت تحت وابل من شتائمه*. ويوم توغّلتَ في السؤال: هل ظلَّ معك في الصحراء؟ أجبتك بعفويَّة طفلة لأوَّل مرَّة تنبت لها أجنحة السعادة: لا، هو ليس من هناك. يسكن واحة قريبة عنَّا بمسافة ثلاثة أيَّام على الجمل، وساعات بسيَّارة ٤ × ٤. في البداية، ظننت أنَّه مات في حادث تحطُّم الطائرة المتَّجهة من تامنغاست إلى منارة سيتي. لكنْ بسرعة عرفت الحقيقة. انتفى طويلاً قبل أن

يصلني خبر زواجه من صديقتي، فمحوته من ذاكرتي. عرفت من جدَّتي مِيمَات *أنَّ الرجل الذي كان لي، لم يعد لي، أصبح لغيري*. أغلقت نافذته، وشرَّعت نوافذي نحو الشمال. اتَّخذت قرارًا أن لا أتزوَّج إلَّا رجلاً من الشمال، وإلَّا لن أتزوَّج. إلى أن جئتَ أنت. جدَّتي مِيمات كانت تقف دائمًا على رأس لساني، وتوجِّه حديثي نحو مساحات لم أكن لأحسب حسابها

فجأة، صَمَتَتْ عن الكلام. أصبحت الشاشة بيضاء للحظات، لكن صوت الدبابير ظلَّ مستمرًّا الصور تهتزّ، ثم اختلطت الألوان بدون أن يتَّضح أيّ شكل. ظهرت مساحة فارغة، ثم أشكال هيمن عليها اللون الأحمر والأزرق والأصفر. اتَّضح أنَّها كانت ألوان سجَّاد كبير كان يحتلّ الأرضيَّة بكاملها ثم نصف وجه ساراي وهي تحاول أن تمسح وجهها بسبب الحرارة. كأنَّ شخصًا كان يحاول أن يضبط الكاميرا، فتركها مفتوحة من دون أن ينتبه لذلك. جمدت الصورة.

كأنَّ كازانوفا أحسَّ بالخلل. تحرَّك يمينًا ثم شمالاً بدأ يبحث في عينيه داخل الفراغ عن شيء لم يكن قادرًا على توصيفه. حرَّك أصابع يديه ورجليه. لم يساعده أحد. لم يصرخ. كلّ شيء خال إلَّا من صوت الدبابير الذي عاد من جديد، كأنَّها في عمق الدار، أو بين النخيل. صوت ماء رقراق وهو يتدفَّق بين الفينة والأخرى، في الخلفيَّة. لماذا توقَّفت فجأة؟ كان مستمتعًا وهي تتحدَّث معه بصوت خفيض، كأنَّها كانت تتخيَّله قريبًا منها، وهو يغمض عينيه ويفتحهما من جديد. يميس، وينزلق شيئًا فشيئًا نحو نوم محتمل، ثم يستفيق من جديد ليواصل الاستماع مثل طفل استسلم لمعلِّمه. كانت تراه أو تتخيَّله كما هو الآن، ممدَّدًا على سريره الطبِّي، أو على كرسيِّه المتحرِّك، مثبِّتًا نظره نحو الفراغ.

فجأة، عاد صوتها. ملأ وجهها الشاشة الحائطيَّة كلِّيًا هذه المرَّة كانت ملامحها مقرَّبة أكثر.

ـ عذرًا يا سيِّدي. عطل صغير في الكاميرا، تجاوزه حبيبي هارون. ما زلت هنا، قريبة من أنفاسك. لم أُنْهِ بعد ما نويتُ أن أقوله لك، وتسمعه منّي للمرَّة الأخيرة.

لا تغضب يا لوط. تعرف أنَّ ما بيننا كان كبيرًا، على الأقلّ كما عشته. منحتك ما لم تمنحه لك أيَّة امرأة، وحاولت أن لا أجعل لياليك متشابهة. في شرفة بيت الخلوة، في لاغراند تيرَّاس، أزلتَ بكارتي، وأسلت دمي. لأوَّل مرَّة أشعر بلذَّة غريبة، شيء يشبه التحليق والعبادة في عالم خارجيّ، وغير أرضيّ. في ذلك المساء، نبَّهتك إلى شيء صغير وأنت تتلهَّف بعطش أن ترتاد لأوَّل مرَّة جسدًا نحاسيًّا، قلت لك: حبيبي. لا تكن متسرِّعًا *إطالة اللذَّة هي الحبّ عينه وليس الرغبة الطارئة. كن مثل الحلزون فقط، مدركًا لسحر اللذَّة.* هو مزدوج *الجنس، لكنَّه يحتاج إلى جسد يتواصل فيه معه ويتحوَّلان بالتناوب، من الأنثى إلى الذكر ومن الذكر إلى الأنثى. ساعات طوال يقضيانها معًا وقبل خروج السهم الذي يُغرس في الجسد لإثارة الشهيَّة، يحتاج الأمر إلى مداعبات طويلة. الحلزون بذكائه الطبيعيّ عرف السرّ، عرف أنَّ اللذَّة ليست لحظة طارئة، ولكنَّها صلب الوجود والكيان، كلّ شيء لا تعقبه لذَّة هو حالة إخفاق. يستمرّ الحلزون أيَّامًا متتالية ملتصقًا حتى الإنهاك الكلِّي.* قلت لك وأنا أثير قلبك وحواسّك: *اعتبرني حبيبي حلزونك، وسأستجيب لكلِّ جنونك، لكنْ لا تتركني معلَّقة في بياض اللذَّة، فسأكرهك.* سحبتك نحوي في تلك الليلة وأنا أحاول أن أملكك. صمَّمت أن لا أسكرك بالنبيذ، لكنْ حضّرتُ لنا تمرًا مخمَّرًا، قطَّرته بنفسي العديد من المرَّات، وادَّخرته لتلك الليلة التي صمَّمت فيها

أن نكون حلزونين. كعالِم مخبريّ. قطَّرتُ، من جديد، التمر الذي كان مجمَّعًا في قماش. سال بهدوء مثل شهد العسل. ثم وضعته في الشاش وتركته يقطر في إناء مرَّة أخرى، بعد أن وضعت عليه قليلاً من الماء الدافئ وبعض الأعشاب التي كنت أعرف بعض سحرها ومفعولها تركت اللَّاغمي ينزل بهدوء ثقيل. كان مثل الشهد. عندما شربتَه، شعرتَ بحلاوته تلتصق في الحلق. وضعتُ قطرات في فمي، ثم قبَّلتك طويلاً، وفعلت ما يفعله الحلزون مع شريكه في اللذَّة. تركت شفتيَّ تنزلقان على شفتيك، وقليلاً من شهد التمر المخمَّر يدخل إلى فمك وعروقك. أنبتُّ فجأة، في حلقك، حديقة من الألوان والدهشة، وعرسًا من الرغبات والشهوات، لم تعرفها من قبل. بدت القبلة هاربة، لزجة مثل العسل، تنزلق بسهولة على الشفتين، وعلى رأس اللسان. في البداية، شعرتُ ببعض الدوار الخفيف الذي تحوَّل بسرعة إلى حالة ارتخاء، ثم إلى خدر جميل. في النهاية، كفّت مقاومتك واستسلمت لي. لأوَّل مرَّة تشعر، وأنت في بيت الخلوة، أنَّ الجسد، أيّ جسد حيّ، سحر يجب أن تفكّ رموزه بالمزيد من اكتشاف مساحات الحبِّ الخبيئة. كنتَ داخل غيمة بآلاف، بل ملايين الألوان والتدرُّجات. سألتك وأنت تستعذب عسل اللَّاغمي، وحرارة السواك في فمي، وعطر الورد والرمَّان الذي استحممت به لأنَّه يحافظ على الجسد قويًّا ويمنعه من الرخاوة:

- *حلزوني الحبيب. هل تعرف ماذا شربت؟*

- *شربت دوارًا وشهوة ولذَّة. هههه.*

- *شربت مستخلص التمر وحليب النخيل. اللاَّغمي*[1]

(١) مشروب يُستخرج من جذوع النخيل بعد جرحه. يمكنه أن يكون عصيرًا، كما يمكن أن يكون مشروبًا مسكرًا، بحسب درجة التخمُّر.

ـ *أريد أن لا ينتهي تدفُّقه هذه الليلة.*

ـ *انتظرني فقط لتعرف الخدر الذي يضعك في عمق النباهة والارتخاء.*

عوَّدتك على أنَّ جسدك ليس واجبًا، وليس حالة من العبث. وليس كتلة بلا معنى. هو حياة مستمرَّة، عليك فقط أن تعرف كيف توقظها. حتى عندما كنتَ تريد أن تكون عادلاً مع نسائك جميعًا، وتنام معهنَّ، مخصِّصًا لكلٍّ واحدة حقّها في ليلتها، كثيرًا ما كانت المقارنات تأتيك بسرعة، فتجد صعوبة في الانتصاب معهنّ، فتخذلهنَّ. مرَّة قلتَ لروكينا، *أنت جميلة ومدهشة، لكنْ هناك شيء يغيب عنك. الجسد سحر يجب أن تفكّ رموزه بالمزيد من اكتشاف مساحات الحبّ الخبيئة.* كانت تلك لغتي التي استولت عليك واحتلَّتك كلِّيًا كنت أسجنك بهدوء فيَّ، لأنِّي كنت أحبّك. فأجابتْك روكينا بلا تردُّد وبضغينة تضخَّمت حتى ارتطمت بالأعماق المنهكة: *أنت لا تعرفني جيِّدًا يا لوط. ألم تسأل نفسك أنَّك قتلتني؟ وأنِّي معك، لكنِّي لستُ ملكك؟ هذا اليقين الذي فيك، سيجرّك إلى الهلاك. حذار من يهوديَّات توَّات، يا لوط. تدفِّئك ثم تلدغك. لقد كتبتُ لك في متاهات الرمل، لكي تضيّع طريق كلّ من تعرف، ويفقدك الأقربون منك.*

كنتُ أشعر دومًا أنَّها كانت تخاف منّي. لكنَّ خوفها لم يكن لاعشقيًّا ولادينيًّا، لكنْ خوف المصالح. تحالفتْ مع الجميع، بما في ذلك لدام بلانش، لكي تضعني خارج كلّ شيء. مع أنَّي أنا من كان يخدمها. عرفت منك أنَّ لادام بلانش، كانت مثل أختك. تفضي لك ببعض الأسرار، ثم تتركك في الصالون وحيدًا مثل محارب مهزوم. كانت لالَّة كبيرة تجد لذَّة كبيرة في تسيير شؤون البيت. تعتبره مكانها

الطبيعيّ ومساحتها الخاصّة. وكلّما اشتكت نساؤك من الإهمال ومبالغتك في التعامل معي، وعطفك عليّ، أعادت الجميع إلى جادّة الصواب. تعيدهنّ إلى النقطة التي تعوّدن أن لا يواجهنها بصدق وصلابة، ويهربن منها، معتمدات على كلّ الأسباب الواهية التي تجعلهنّ في الأعالي وفوق الجميع. لا تكتم روكينا رمادها: *من ساعة ما تخطّت يهوديّة توّات عتبة هذا البيت، وهي تعمل بكلّ ما أوتيت من قوّة على اختطافه. تذكّرهنّ لالّة كبيرة: كلّ واحدة منكنّ كانت سيّدة في بداية عرسها، أميرة أو ربّما ملكة. اتركن لساراي أيضًا حقّها سنوات وسينطفئ كلّ شيء. الصبر في مثل هذه الحالات مهمٌّ جدًّا* لكنّهنّ كنّ يشعرن أنّ حقّهنّ ضاع بوجودي.

كنتَ مزهوًّا تقول في داخلك مثل الذي عرف سحر الغنيمة: *ساراي لم تكن عاديّة في كلّ شيء. امرأة الهمّة.* ولا شيء يوحي أنّها *كانت صحراويّة. صحراويّة بالغلط.* عينان خضراوان *مثل الشجر الذي تمحو أشعّة الشمس كلّ ظلاله.* بشرة *ناعمة كحرير اليابان القديم.* أنت تعرف جيّدًا أنّ كلّ ليلة بدأناها لا تنتهي أبدًا مثل سابقاتها *هذا بالضبط* هو *الحبّ. اللاحبّ* هو *التكرار المميت.* كنتُ أهمسها كلّ ليلة في أذنك. *أن تحبّ حقيقة، عليك أن تتخيّل كلّ ليلة سحرًا جديدًا* الأيّام لم تفقدك رونقك مطلقًا حتى عندما أنجبت لك حبيبي يوسف، عرفت كيف أداوي كدمات وفتحات الولادة، وجعلت الجرح يلتئم بسرعة، ويصبح جسدي كأنّه لامرأة بكر، فُضّت عذريّتها في اللحظة. ظلّت حواسّي المجنونة تدّخر كلّ حرارتها بقوّة. شهوتي تتغيّر، بحسب الوضعيّات وصبرك معي. كنت أشتهي دائمًا أن تكون أنت حصاني الجامح، وأثبّت عينيّ في عينيك. أراك وأنت تغيب في دوارك وفي بحرك. كلّ لمسة منك تذكّرني بجدّتي مِيمَات، كأنّكما

عشتما في زمن واحد، وفي ظلّ قيم واحدة. وتحتضنني بكلّ عنفوانك، لا شيء يغيب منّي من مشهد التمادي في الجنون. أكاد أصرخ، دعني أقفز من هذا الجسد فقط، لأراه على بعد مسافة أمتار، كيف كان يحبّك لدرجة الانتفاء فيك. أُدخلك كلّيًا في مداري الذي يورثك الهبل والجنون. لا شيء يهرب منك، شفتاي، نهداي، سرّتي، حرارتي الداخليَّة، جسدي في رعشته، وتيرة الهبوط والنزول الهادئة، وكأنّي طائر يحلّق في الأعالي. كلّ شيء أقرأه في عينيك، فأقول لك همسًا حتى لا أغضبك بردّة فعلي الانتقاميَّة: *طبيعيٌّ أنَّ نساءك يغرن منّي، يحلمن بقتلي، وينتظرن الفرصة للسطو على سعادتي وسرقتها منّا* تضحك وأنت تُبدي خجلاً جميلاً *من تستطيع أن تأتي بمثلك، فلتسرقني. درِّبيهنَّ على هذا الدوار، وسأكون عادلاً في قسمة الليالي. لم أحبَّ جسدي مثلما أحببته معك*. أجيبك بالملعنة نفسها التي بدأت ألمسها وأدركها فيك: *لن أفعل يا أمير قلبي، وملكي وسلطاني. كن أنت معهنَّ كما تريد، حقَّك وحقّهنَّ فيك، لكنْ سلطاني سيظلّ لي. امنحهنَّ اللذَّة التي يشتهين، لكنَّك ستحنَّ لي في كلّ ثانية. بل كلّما وطأت إحداهنَّ، بدوتُ لك وحدي فوقك، وتحتك، وبجانبك، وفيك. لن تتخلَّص منّي*. مجنونة. كنتُ سعيدة بك. جعلتك تدرك أنَّ الجنس ليس عادة ليليَّة، ولسنا خفافيش، ولكنَّه لحظة صفاء وفرح مع الروح والجسد في تماهيهما وتجلّيهما. كنت أقول لك دائمًا، *لا تأتني ووراءك عمل، لأنَّك إمَّا أن تضيِّعه أو تضيِّعني. تعال وبك عطش وجوع لي*. سحبتني يومًا، بعد زفافنا مباشرة بأيَّام، كما تعوَّدتَ أنَّ تفعل مع نسائك الأخريات. *لا أريد أن تتحوَّل اللقاءات بينكنَّ إلى مأتم. تعرفينهنَّ ويتعرَّفن عليكِ*. ثم أضفتَ: *ننزل الآن أعرِّفك على سكَّان هذا البيت*، ينتظرننا في حديقة مقصورة الـ *VIP*، تحت. لبست

ألبستي التي خاطتها لي أمّي وبنات الواحة. كانت من الحرير القديم الصافي، بموتيفات بربريَّة قديمة، محلِّيَّة. وعطَّرت نفسي بما يثير شهيَّة ليس فقط أيَّة امرأة، ولكنْ أيضًا أيّ عابر من قريب أو من بعيد. رافقتك لزيارة بيوتهنَّ باتِّفاق مسبق معهنَّ. الطوابق الأربعة كانت عبارة عن أجنحة واسعة، كلّ واحد باسم. الأوَّل، جناح *زنُّوبيا*، سكنته لالّة كبيرة، لادام بلانش[1]، يغلب عليه اللون الأخضر جناح *زرقاء اليمامة*، وسكنته زينا، لونه أزرق. جناح *شهرزاد* ولونه أحمر، أقامت به رقيَّة، روكينا الرابع جناح *صافو* الموجود في الطابق الأخير، كان مكان إقامتي، ولو أنَّ وقتي كلّه ولياليَّ العشقيَّة، كانت بالخلوة، في لاغراند تيرَّاس. كان لونه بنفسجيًّا هادئًا، بينما بقيت مباركة في جناح *الزواليَّة*، في الطابق الأرضيّ، أو وسط الدار، الذي كثيرًا ما كانت تلتقي فيه بالخدم الذين ظلَّ الكثير منهم يعاملها كخادمة محظيَّة، لأنَّها كانت أمًّا لكبّول مات في المستشفى، مباشرة بعد ولادته.

كانت الأجنحة متشابهة تقريبًا، باستثناء الأذواق الداخليَّة، من الجناح المكدَّس بالأغراض، إلى العاديّ والخفيف، بما في ذلك جناح زينا التي غادرت نهائيًّا، لكنَّ جناحها بقي كما هو، لم يمسسه أحد. ديكور البيت أنيق وبسيط. لا شيء على الحائط، إلَّا لوحة كبيرة لها، وهي تؤدِّي رقصة دائريَّة وشعرها منتشر في السماء مشكِّلاً هالة دائريَّة واسعة، وضّحتها أكثر ظلال الضوء الذي انعكس على تموُّجات شعرها من فوق.

بعدها، نزلنا لنشرب شايًا مع الذين كانوا ينتظروننا في حديقة مقصورة الـ **VIP**، مع الجميع.

---

(١) من الفرنسيَّة.

كما تعرف يا لوط، لم يكن وجودي مرغوبًا فيه. تفهَّمتُ الأمر إلى حدٍّ ما، لأنَّك قلتَ لي إنَّها عادتك بعد كلِّ زواج، لتهدأ النفوس. *عداوة الزوجة الأخيرة هي الأصعب، لأنَّها تراك مختطفًا لسعادتها وتنسى بسرعة أنَّها هي أيضًا سرقت، قبل سنوات، سعادة المرأة التي قبلها* كنت غريبة عن الجميع. كان الإمام زكريًّا، الذي وجدناه جالسًا مع لالَّة كبيرة وروكينا، وحتى مباركة التي قبلت بالمجيء لتسلِّمك وثيقة الزواج الرسميَّة، بعد أن اعترفتَ بزواجكما، ووقَّعت على تسجيله في البلديَّة، وبعد أن ظلَّ زمنًا طويلاً زواجًا عرفيًّا، على الرَّغم من صدور قرار وزارة العدل لتسوية كلّ الوضعيَّات المعلَّقة. نسيت وجودي، وظلَّت نظرتها معلَّقة فيك بشكل غريب، كمن يتفرَّس الجانب الأضعف في الجسد للانقضاض عليه. أخرجت من صدرها الوثيقة التي جاءت من أجلها، ثم وضعتها بشكل بارد في الصينيَّة التي كنّا نتحلّق حولها.

ـ هي لك يا لوط. وثيقة ترسيم الزواج. يمكنك أن تحرقها الآن إذا أحببتَ.

ـ لسنا هنا من أجل هذا اليوم.

ردّ بصوت خافت. كسر الإمام زكريًّا حالة الثقل التي نزلت على المكان فجأة.

ـ الحمد لله الذي خلق الزواج ليقي عبيده من الخطيئة.

ـ ما أسباب الاغتصابات التي تملأ الدنيا يا شيخنا الجليل؟

قالت مباركة وهي تنظر إليك بعينين فيهما الكثير من الرغبة في الانتقام.

ـ الغواية صعبة يا ابنتي!

ـ الاغتصاب ليس غواية، لكنَّه اعتداء سافر.

ـ *أرى كأنَّ الوضع جنازة. الرجل نزل بزوجته ليخلق المحبَّة ويصفّي القلوب. التجاوب مع الخير محبَّة في وجه الله*. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1]

كانت نظراتهنّ مليئة بشيء غامض يشبه الرماد.

لم ألمس أيّ تقبُّل، وإن بذلت لدام بلانش كلّ جهودها لتكون طيِّبة معي، بلا نجاح. تركتنا وذهبت للصلاة حتى قبل أذان المغرب. ردَّدت جملة وصلتني مباشرة. *المغرب. لا مبرِّر لتأجيل الصلاة*. ضحكتَ وأنت تحاول أن تخلق وضعًا مريحًا: *يا لالَّة كبيرة، هذه ليست عادتك؟ الصلاة تنتظر*. *لا مشكلة. جئت اليوم لأعرِّفكنَّ على ساراي. نحن في البيت نفسه ويجب أن نتعاشر، وإلَّا يصبح الأمر جحيمًا ساراي زوجتي على سُنَّة الله ورسوله*. قالت روكينا التي كانت تداعب بيرو ڤيردي الذي كان يتحكَّك بها: *أنتَ في عمق الخطيئة يا لوط. هي من أهل الكتاب، لكنَّها يهوديَّة. عليها أن تسلم أوَّلاً* أجبتَ وأنت تضحك: *ليست ساراي في حاجة إلى ذلك. توات كانت يهوديَّة قبل زمن طويل، لكنَّ سكَّانها أصبحوا مع الزمن مسلمين*. كانت الغيرة تضطرم في عينيْ روكينا وكنت منتصرة بلا أيَّة ردَّة فعل متسرِّعة كنتُ سأندم عليها أضافتْ. *اليهوديّ مثل المسلم، يظلّ على دينه حتى الموت، حتى ولو اضطرّ إلى التخفّي باستعمال التقيَّة. وقت المغرب معناه المغرب. لا يتقدَّم بثانية ولا يتأخَّر بثانية أيضًا لهم صلوات المساء، لكنَّنا قبل المساء لنا المغرب، نودِّع فيه يومًا كاملاً قبل أن نصفو لأنفسنا* ثم قالت، وهي تعبر جسدي بعينيها وحواسِّها

---

(١) سورة المائدة، آية ٨٧.

خلِّصنا الآن، نتوسَّل إليك يا إلٰهنا أن ترحمنا برحمتك الواسعة. بينما نظرت مباركة طويلاً فيك، تارة إلى وجهك، عنقك، بطنك، ساقيك، ثم ترفع رأسها نحو سماء بعيدة. ولم تقل أيّ كلمة، لكنْ بدا لي أنَّ في قلبها شيئًا غامضًا لم أفهمه بسهولة. أخيرًا التفتت نحوي، كانت نظرتها باردة مثل الموت، لكن لا حقد فيها

كلّهنَّ تبعن لالَّة كبيرة للصلاة، ما عدا مباركة التي خرجت، وهي تردِّد:

ـ *ساراي، سعدت بالتعرُّف عليك. ألف مبروك، ما بيننا إلَّا الخير. احذري خديعة الضباع.*

ـ *شكرًا، أختي مباركة.*

رنّت كلمتها بعنف في قلبي، لكنّي حاولتُ تفاديها لكي لا أنغِّص علينا.

وجدت نفسي أنا وأنت والإمام زكريًا الذي شعر بإحراج. قال وهو ينسحب أيضًا:

ـ أُصلِّي بهنّ المغرب، وأعود لكما. كلُّ جرح لا بدَّ زائل. أنتما في عمق شرع الله.

ـ شكرًا يا شيخ زكريًا.

قلتَها بشيء من المرارة، وأنا أتفرَّس في وجهك الذي بدا لي ساكنًا كصخرة! استغربت، لأنَّك عادة تغضب بأقلّ من هذا لماذا تركتَ هذا المجنون يفعل ما يريد؟ أنت سيِّد الدار، قلت في أعماقي لا بدَّ أن يكون هناك سبب ما. لماذا لم يوقفه عند حدِّه؟ أصلاً ماذا يفعل هذا الرجل في دار هو غريب عنها؟

شعرتُ يومها بأنَّ شيئًا غير طبيعيّ في *الدار* الكبيرة يجب

إصلاحه، وأنَّ حربًا نسائيَّة حقيقيَّة كانت قد بدأت، كنت معنيَّة بها، ولا يمكنني أن أخرج من دوارها بسهولة. لم أردها، لكنَّها فُرضت عليّ.

في الليلة نفسها، سألتك عن مباركة، دون الأخريات، فهي الوحيدة التي لم ألحظ في عينيها حقدًا نحوي. قلت لك: *لماذا ذكرت لي قصص كلّ نسائك ولم تقل لي شيئًا عنها؟* أجبتني: *لأنَّها كانت زوجتي للضرورة. جرَّتني في حبائلها حتى ارتكبت المعصية، فحملت منِّي. الحمل معناه فضيحة، وورقة تُمنح لأعدائي في السوق، فتزوَّجتها عرفيًّا المفروض هي طالق. لكنْ كيف تطلّق امرأة أنت أصلاً لم تتزوَّج بها مدنيًّا؟ بصدور قانون وزارة العدل الجديد، إذا أردت أن أطلِّق رسميًّا، عليَّ أن أرسِّم الزواج أوَّلاً، ورسّمناه بضغوط من الحركات النسائيَّة ومحامي الدولة. من يومها، وهي في كلّ مرَّة تأتيني بشيء جديد من ملحقات هذا القانون. وصل أمر جنونها إلى أن تؤمن بأنَّها أنجبت بنتًا منِّي، زهرة، وأنَّها موجودة في مكان ما حقيقيّ أنجبت صبيَّة، ولامستها، ولكنَّها نفرت منها لسبب ما، ولم ترضع ثديها بعد أقلّ من أسبوع، ماتت بجفاف الجسد من الماء. حاول الأطبَّاء في مستشفى ابن سينا إنقاذها، لكنَّهم لم يفلحوا. وفي كلّ مرَّة، يقف محامي في القضاء لإثبات أنَّ الأمور ملتبسة، لكنْ من دون امتلاك الحجَّة. هي تعمل ممرِّضة في مستشفى منارة سيتي الكبير.*

لم أكن مخطئة في نظرة عينيها تجاهي. شعرت ببرودة حقيقيَّة في عظامي.

الأقدار أحيانًا تستعبدنا ما تشتهي.

لم تكن لديَّ أيَّة مسؤوليَّة فيما أصاب نساؤك من جنون، لكنِّي قرأت في عيون أغلبهنَّ رغبة في التخلُّص منِّي، ربَّما قتلي. أنا أعرف

جيِّدًا أنَّه لا غرابة في هذا. فكلّ امرأة لا تعطي إلَّا ما تملك.

في ليلة من الليالي، في جلسة من جلسات الحديقة، تمرَّدن عليك حقيقةً، واتَّخذن موقفًا بالمقاطعة. أوصل لك مسعود ما يحدث من فوضى وحركة غير طبيعيَّة. قلت لك عندما سألتني عن رأيي، لا تبق في الافتراض وأنت تتساءل، جرب معهنّ، ألسن زوجاتك؟ وربَّما لم يكن الأمر بكلِّ تلك السرِّيَّة. يبدو أنَّهنّ يردن إيصال غضبهنّ وإهمالك لهنَّ بهذه الطريقة، حتى تتعرَّف على تقصيرك. ربَّما أيضًا لم يجدن غير هذه الوسيلة لإثارة انتباهك.

سجنتك أكثر ممَّا يجب.

على الرَّغم من جهودك وتفانيك في إرضاء كلّ واحدة من نسائك، إلَّا أنَّك لم تستطع أن تكون عادلاً ولن تكون. هناك جاذبيَّات لا سلطان لنا عليها حتى لو أردنا إنَّه عمى الغيرة والغريزة. قلت لك: تأكَّد. أربعة أسابيع، وأنت تحاول معهنَّ، في كلِّ مرَّة كانت أبواب أجنحتهنَّ توصد في وجهك. بعثت لهنَّ الإمام زكريَّا للهداية. لم يستمعن إليه. صرخ فيهنَّ عندما رفضن الاستماع له: لا *يمكن أن يقبل منكنَّ الله هذا الغضب، لأنَّكنَّ تعصين سلطانه. العقوبة هي الاعتزال، وهذا جزاؤكنَّ. كما فعل الرسول الكريم يوم اعتزلته نساؤه الغاضبات، تسعًا وعشرين ليلة، فأنزل الله عزَّ وجلَّ، لِمَ تحرِّم ما أحلَّ الله لك.* كيف تعصين وأنتنّ المؤمنات، القانتات، الصالحات، الصائنات لفروجهنَّ؟

كلَّما سمعته يتحدَّث بهذه اللغة، شعرت بأنَّ الكذب يسري في دمه.

الأكثر غضبًا وعنفًا كانت روكينا، التي لم تدَّخر جهدًا في وضعك

أمام خوفك بأنَّهنَّ سيعدْن إلى أهاليهنَّ ويفكِّكن كلّ الروابط. كانت تعرف أنَّ الكثير من مصالحك مربوطة بعائلاتهنَّ. كنت أراك يوميًّا في وضع غير مريح. ضيق تنفُّسك كان يبيِّن أنَّك في محنة. حاولت جاهدة أن أخفِّف عنك حزنك، وأستعيد لحظاتنا، لكنِّي أدركت بسرعة أن لا عودة إلى اللحظات التي سرقتك فيها منهنَّ إلَّا بحلٍّ مشكلة تمرُّدهنَّ. كلّ واحدة أغلقت على نفسها في جناحها وبدأت التلميحات بغلق قناتيْ التلفزيون: *الرحمة والغفران* اللتين كان يديرهما أحد أقارب لالَّة كبيرة جيِّدًا إضافة إلى *بنك الحلال الكبير* ***GBH*** بمختلف فروعه، بما فيها الوكالات الفرعيَّة في الدول الأجنبيَّة التي كان المغتربون يجدون فيها ضالَّتهم. كلّ الأمور كانت مترابطة ببعضها بعضًا أحد شركائك كان صديقًا لشخص في وزارة الدفاع، ساعدك كثيرًا على التهرُّب الضريبيّ. وفي يوم ما وأنت تحكي لي عن الحادثة، استغربت هشاشتك، وبدوت لي أضعف من قطعة زجاج.

عملتَ بنصيحتي، فرافقك الإمام زكريًا نحو أهاليهنَّ، وحُلّت المشكلة. على الأقلّ، سلمت من منغِّصات بعض شركائك.

عندما انتهين منك، التفتن نحوي. فكانت الكارثة التي فجّرت كلّ شيء بنيتُه معك.

اليوم، كلُّ شيء تغيَّر يا لوط. ما حدث بيني وبينك أظهر لي إلى أيِّ حدٍّ الجريمة متأصِّلة في الإنسان، ولا يمكنه تفاديها وأنَّ الغيرة لا حدود لتطرُّفها أنت تعيش آخر لحظات جنونك قبل أن تغادر عالمًا منحك كلَّ شيء، وسرق منك كلّ شيء أيضًا، إذ ما قيمة أمبراطوريّة ستؤول لغيرك أحببت أم كرهت. الأقدار انتقمت منك مرَّتين: الأولى عندما أقعدتك على كرسيٍّ متحرِّك لتثبّتك على أرض سرقتَ منها الكثير، والثانية، عندما سبّقت بموتك الجسديّ قبل خروجك من هذه

الدنيا، حتى ترى ما لا تريد رؤيته. لقد عشتَ بيقين الذي لا يموت أبدًا، وها أنت الآن في وضع أقلّ من إنسان عاديّ.

أغفر لك كلّ شيء، حتى خياناتك الليليَّة مع السكرتيرات الصغيرات، إلَّا أن تشترك في قتل البذرة التي كانت فيّ، يوسف. لست حمامتك، كما تتخيَّلني في كلّ مساء. ولن أكونها أبدًا، لأنِّي في اليوم الذي دفنت حبيبي يوسف، أقسمت أن أحرق سفن العودة نهائيًّا لن أكون حمامتك، لأنِّي لست وهمك. كنت أمينة سرِّك، وجنون شهوتك، واعتقدت أيضًا سيِّدة قلبك، لكنَّك بعتني لتسترضيهنَّ. ولن يجمعني قدر الموت بك. سأنام في التربة التي شكَّلتني، فأنا أعرفها ذرَّة ذرَّة. تخيَّل، يوم تركتك، لم ألتفت، لأنِّي أدركت لحظتها أنَّك ستموت وحيدًا حتى نساؤك بمن فيهنَّ أنا، لن نمنحك الشيء الكثير، لأنَّنا لا نملك ما تنتظره منَّا. متأكِّدة من أنَّ كلّ واحدة ستضعك أمام المرايا الخفيَّة التي تفاديتها دومًا، وتظهر لك ما هربتَ منه طوال حياتك.

كان يمكنك أن تموت كما عشت لو أردتَ، لكنْ لم تكتف بالدنيا، أردتَ الآخرة أيضًا بينك وبين الإلٰه. عند أجدادي، كلّ شيء يُصنع في الحياة. الباقي أنت وما تشتهي.

لم أكن أنوي لا المجيء، ولا بعث أيّ شيء، ولا إحياء أيَّة ذرَّة مشتركة كانت تربطني بك. أَوْصَل لي كلّ من بعثتهم لي من طرفك، أحزانك، وفقدانك لي، لكنَّك كنت تعرف جيِّدًا أنَّ الكسر الذي كبر بيننا، كان صعبًا وعديم الرتق والتجبير الجريمة التي كنتَ طرفًا فيها، يا لوط، كانت قاتلة لي. كلّ الذين جاؤوا من طرفك، منهم إمامك زكريًّا الذي لا أحبُّه، لأحضر للتسامح معك، لم يحرِّكوا فيّ ذرَّة شفقة أو لمحة ذاكرة. جئتك، بصوتي وصورتي إكرامًا لابني هارون لا أكثر.

هو داخل دوَّامة أعرف جيِّدًا أنَّه سيخرج منها منتصرًا ربَّما أيضًا، في أعماقي الخفيَّة، كنتُ أريدك أن تسمعني، لأنَّ الكثير من الأشياء خبَّأتها عنك أو لم أر لها ضرورة. لا يمكنني، أنا التي أحدثت الفرقة بين نسائك، وفجَّرت كلّ استكانتك، وأخرجت إلى الملأ الضغائن الدفينة، أن لا أقول لك ما أفكِّر فيه. على الأقلّ لذاكرة يوسف المقتول، وابنك هارون الذي يوم وُلد، لم تجد من ردَّة فعل انتقاميَّة سوى التنكُّر لدمك! وكان عليّ الركض بين المحاكم والمخابر لإثبات الأبوَّة، إلى يوم وقفت الشرطة عند بابك وسلَّمتك وثائق ثلاث مخابر دوليَّة معتمدة. قال لك محافظ الشرطة ووكيل الدولة: لا حلّ ثالثًا، إمَّا الاعتراف يا لوط، أو المحاكم. سوابقك لم تكن هيِّنة. خفت على تجارتك، وانتهى كلّ شيء بالاعتراف وترسيم ذلك قانونيًّا

عندما بدأتَ تتيقّن بأنِّي ذاهبة، أدخلتني في خلواتك المخيفة. بدأتَ تراني في شكل حمامة، تأتيك، تطمئنّ عليك، ثم تخلو في مكان قصيٍّ في البيت، وتنام قبل أن تعاود السفر في اليوم الموالي. كنت أنصحك عن طريق كلّ من كان يحدِّثني عنك، ويحاول أن يقنعني بالرجوع إليك، أن ترى طبيبًا نفسانيًّا، فأنت تتّجه نحو الجنون، ولن ينقذك أحد منه إلَّا أنت. كلّ هذا انتهى بلا نتيجة للأسف. الموجود أمامنا الآن، أنت على كرسيٍّ، وأنا في صحراء توات، ورائحة الموت التي تملأ المكان.

أنا اليوم امرأة في عصمة رجل. لي ابن منه، طيّار. يُقاتل الرمال والعواصف. كلّ صباح يحمل موته في كفِّه، كلَّما امتطى طائرته العسكريَّة. في الحقيقة، لا أريد أن أراك، لا لأنِّي أحقد على صمتك، ولكنِّي لو رأيتك، لن أتمالك نفسي من قتلك. تعلَّمت وصفة من الجدّة عن كيفيَّة قتل الرجل بعجينة السكينة والموت. كنت الوحيدة التي

تعرف سرّها. جدَّتي جرَّبتها، فقتلت زوجها الذي قاومته ثلاثين سنة، وبعدها اتَّخذت قرارها بتفتيت العجينة اليابسة في طعامه، وأكله، كلّ يوم. فجأة، بدأ ينحف ويجفّ، بدون أن يمرض. في اليوم السابع، خرج من هذه الدنيا جرَّبتُها مع الذئب الذي كان يأتي في الليل ليأكل الدجاج، فضبطت. كنت أهيِّئ دجاجته، يلتهمها ويتعدَّى بعدها على الدجاجات الأخريات اللائي أصبحت أخفيها عنه، ولا أترك له إلَّا دجاجته المسمومة. في اليوم السابع، قمت باكرًا وجدته عند الباب وكلّ فرائصه ترتعد. آلمني في البداية، لكنِّي لم أمنع نفسي من القول: جبتها *لروحك. تستأهل*. الإلٰه أغناني عن فعل ذلك. قتلتك قوَّة انتقاميَّة أكبر منِّي ومنك، بشكل مفجع.

لا أعرف كيف أسامحك، وأنتَ تستعدّ للرحيل. حتى لو سامحك الله. سأظلّ بحرقتي، حتى أندسّ للمرَّة الأخيرة في عمق التربة. الجريمة كانت مدوِّية. يوم قُتل يوسف، بكيت في حجرك، وصرخت بأعلى صوتي مثل ذئبة جريحة، قلت لك، حبيبي *لوط. اضربني. اصفعني. اجرحني بإبرة أو سكِّين، قل لي فقط إنِّي أعيش كابوسًا. أيقظني منه. ألم تقل لي لنتركه لرقيَّة وكبيرة، فهما أفضل من يسهر على راحته؟ قلت لي جنازة والدك أسبق*؟ عاديت العائلة كلّها لأربحك. ذهبت إلى توات في النهاية، من أجلك. ما جدوى جنازة لا يحقّ أن أحضرها نهارًا، وأمشي في إثر والدي؟ دُفن في النهار في صمت مع الجميع. في الليل، وقفنا عليه، العائلة فقط، أخوالي، وأعمامي وإخوتي السبعة، يعقوب، موسى، أيُّوب، هود، يحيى، عاد، يوبا تلا يعقوب، أخي الكبير عليه القاديش[1]، حدادًا على روحه، ثم انسحبنا بسرعة من المقبرة، حتى لا نُتَّهم بالسحر. حتى وصيَّته التي

---

(١) من الآراميَّة، وتعني المقدَّس.

كانت لحظة سكينة عائليَّة، زادت في عداوة إخوتي ضدِّي. فقد شعروا بأنَّ والدي لم يكن عادلاً قلت لأخي الأصغر، يوبا، *افتح تجارة التمور على فرنسا وأوروبا*، *ومعامل تصبير طماطم الجنوب*، *وأنا سأكون وراءك*، حتى *تقف على رجليك*. كان حادّ الذكاء. كنت أريد أن أُخرجه من خراب عائليّ لا أريده أن يغرق فيه.

في اليوم السابع، حينما عدت إلى الدار الكبيرة، في منارة سيتي، رأيت سيَّارة إسعاف مستشفى ابن سينا، بالقرب من البيت. شعرت بخوف داخليّ شلّني بشكل شبه كلِّي عن الحركة. قلتُ لك: حبيبي *لوط*، *خائفة*. *هل ترى ما أراه*؟ أرحتني بكلماتك: لا *شيء يا قلبي*. *سيَّارة الإسعاف هناك تقريبًا* بشكل *دائم*. ما كنت أخافه، حدث بشكل جافّ وبارد. استقبلتني لالَّة كبيرة ورقيَّة.

سألتهما إذا ما كان يوسف قد بكى في غيابي. قالتا لي لا، ما عدا بعض الحرارة، فنادينا سيَّارة الإسعاف في حالة الاضطرار. رضع جيِّدًا *ثم استراح*. *اتركيه نائمًا حتى الصباح*. شكرتهما وأخذته ملفوفًا في فراشه بين يديّ، نحو الطابق الرابع، قبل أن أنتبه إلى أنِّي كنت أحمل جثَّة. صرختي اخترقت كلّ الحيطان السميكة والطوابق الأربعة. لا أدري إذا سمعني أحد، ولا حتى أنتَ. ظللت أتلوَّى أمامك كمن أكل سمًّا، بينما كنتَ مندهشًا ممَّا كان يحصل أمام عينيك.

صرخت: *لماذا لم يمت قبل*؟ *لماذا لم يمت بعد*؟ حرقوني في قلبي. انتظرت أن تتحرَّك. كنت تبكي بأعلى صوتك. وتصرخ *وعلاااه يا ربِّي*. يووووسف حبيبي *لماذاااا يا الله*؟ لأوَّل مرَّة أرى دموعك على خدّك بذلك الشكل، حتى لمت نفسي كثيرًا بعد الحادثة بأسابيع. كيف لم آخذ جرحك بعين الاعتبار. لكنِّي لم أفهم صمتك تجاه نسائك. قلت لك: لنذهب إلى التشريح لمعرفة سبب الوفاة. أريد

أن أعرف كيف مات ابني؟ أن أرتاح. عرّيته. كان صلبا فتّشت عن جرح، أو أيِّ شيء في جسده، فلم أجد ما يشفي غليلي. قلتَ لي: لنأخذه حالاً إلى ابن سينا. قلت لك. لا أريد مخبرًا حياديًا. ولا أدري لماذا أصررتَ على الرفض. حملتُ يوسف جثّة، وبدأت أدور به في المستشفيات والمخابر. رافقني مسعود. وكلّما التفتُّ أجدك ورائي، في كلّ زاوية، ولا أسمع من الأطبّاء سوى كلمات مكرورة: *الله يعطيك الصبر*، وبعد أن يعاينوه ويتأكّدوا من أنَّ الموت حصل، يتمتمون: **إنّا لله وإنّا إليه راجعون. لله ما أخذ ولله ما أعطى، وكلّ شيء عنده بحساب وأجل مسمّى**. حتى نساؤك فعلن الشيء نفسه. أكاد أصرخ: *يا بنات الكلب، الله بريء من شروركنّ، هو لم يأخذه*، شروركنّ هي *التي سرقته منّي*. سمعتهنَّ يتحدّثن في الكثير من المرّات، وأنا حامل: *لم يبق لليهوديّة إلّا الحمل. يفترض أن تمنع لتفادي دخول هذه الزريعة الفاسدة لبيوتنا. استولت على كلّ شيء، حتى على لوط وماله*. ركضت حتى يئست. لن يزيل أحد من دماغي أنَّ يوسف قُتل بسبب الغيرة.

ألم يقل لك الإمام زكريّا، بأنّي لم أرفض فقط المجيء، ولكنّي قلت له بلا تردُّد: لا يمكن. *كيف تتصوّرني أجلس في القاعة نفسها مع النساء اللواتي قتلن ابني، ومع المرأة التي وضعت كفّها على فمه، وكتمت أنفاسه*.

قضيت شهورًا في العزلة المُرَّة. كنتُ أنام معك بلا أيَّة لذَّة. تحاول أن تحرِّكني، فأبدو لك ولنفسي جثّة على حافّة التحلُّل. حاولتَ معي كثيرًا. وذات مساء، فاجأتك بقراري وأنا أبكي. كنّا في الخُلْوَة. كان الهواء البحريّ يأتي ناعمًا. سألتني: هل رأيت اليوم مباركة. قلت لك بتعب: رأيتها.

ـ لم تستشيريني؟

ـ لم يكن ضروريًا يوم أردتك، لم أستشر لا والدي ولا جشع إخوتي.

ـ وماذا قالت لك؟

ـ لا شيء، سوى أنَّها كانت شديدة الطيبة. بكت كثيرًا وهي تذكر لي حادثة اختطاف ابنتها زهرة. لها على الأقلّ أمل الحلم في عودتها يومًا أنا دفنته بيدي.

ـ مباركة أُصيبت بالجنون، غسّالة جثث الأموات، ماذا تنتظرين من ورائها؟

ـ مثلي. الميِّت داخليًا هو من يتعامل مع شيء مثل هذا ببرودة دم.

ـ لا تخطئي في حقِّهنّ، وحقِّ زوجك.

ـ لهذا يا لوط، أخرج من بيتْ الجريمة فيه بلا عقاب. بدءًا من اليوم، أفكّ العهد الذي يربطنا سأعود إلى بيتي وبيت أهلي. وأتمنَّى أن أُرزق بقليل من الصبر حتى لا أُجنّ.

ـ أفهم وضعك. لكن لا يمكن أن يموت كلّ ما قمنا به مع بعض.

ـ مشاريعك في الجنوب لا تخف عليها ستستمرّ، سيكون أخي الصغير الذي تعرفه وتحبّه، ويحبّك، يوبا، هو مفاوضك في كلّ التفاصيل. لا أحد يستطيع أن يمسّ مصالحك.

ـ ليس هذا قصدي. ارتاحي قليلاً. أعرف جرحك. سنتحدَّث بهدوء. ابنك مات يا ساراي. أقدار الله.

ـ يوسف قُتل يا قلبي.

تعرف يا لوط. الدنيا هكذا حكمتها في أنَّها قصيرة ولحظة

الفرح فيها عابرة. لهذا عندما تأتي، فمن العبث تضييعها، لأنَّ الثابت هو حزن الإنسان ومأساته وليس فرحه. منذ أن غادرت الدار الكبيرة، لم التفت ورائي. لي حياة وأبناء وزوج، لا أريد أن أحزنهم. لا يعرفون شيئًا عن قصَّتي. ما عدا هارون وأخي الأصغر يوبا. الباقي لا يعرفون شيئًا إلَّا كوني تزوَّجت برجل من الشمال، ومات بمرض عضال وانتهى الأمر، فعدت إلى أرضي، لأكون بين أهلي وأنفاسهم القلقة وأحزانهم وقبورهم.

وُلد هارون يتيمًا من أخيه ووالده. ختنَّاه في اليوم الثامن من ولادته.

ستظلّ أنت والده، ولن تستطيع لا أقداري ولا أقدارك أن تغيِّر شيئًا في المصائر القديمة. ربَّيته على تربية أجدادي الأوائل، أن ينتزع حقَّه بأظافره ولو تحالف مع الشيطان. لأنَّ الشيطان لا يواجَه إلَّا بشيطان مثله، وإلَّا خسرت الملائكة كلّ ما يميِّزها من خير مؤسّسته الصغيرة لتحويل الذهب مع المتعاملين من إفريقيا الجنوبيَّة، تسير بشكل جيِّد. بدأت برأسمال صغير وشراء ذهب عجائز صحراء توات، ثم من شذّاذ الآفاق الذين أتوا من رمال إفريقيا، بآلات اكتشاف الذهب، الذي يبيعونه لذهّاب، يعمل عند هارون، وانتهت إلى ذهب الصحراء كلّه. قضى مدَّة طويلة مع حرفيِّي بني ينِّي وتلمسان وفاس ودمشق، قبل أن يتوجَّه نحو إفريقيا الجنوبيَّة. له حاسَّة غريبة في انتقاء الأجوَد. كبرت الشركة، وأصبح يتعامل مع خبراء من إفريقيا الجنوبيَّة الذين يشتغلون في مناجم الذهب عندنا. بعض ذهبهم لا يُخرجونه، يبقى في الصحراء. تلك إكراهات التجارة. ورث عنك مهنة السفر، وعن أجداده من أمِّه، حرفة الذهب. منذ البداية، ترك التمر لأخواله وتوجَّه نحو الفضَّة والذهب. هو مشارك برأسمال صغير لكنَّه سيكبر مع شركة

بيتروليوم أويل أوف منارة سيتي P.O.M.C، الأميركيَّة. هل تتخيَّل أين وصل به الحلم؟ يتمنَّى أن يُنشئ مؤسَّسة مثل هوليود في قلب الصحراء، مدينة سينمائيَّة تكون نواة لمدينة في الأفق! الأزمة الاقتصاديَّة خفَّفت قليلاً من حماسه، لكنَّه مصرٌّ على ذلك مهما كلَّفه الأمر

لو كان يوسف حيًّا لجعلتهما يصنعان المستحيل، لكنِّي متأكِّدة أنَّ هارون سيصل.

أرأيت يا كازانوڤا كم أنَّ الدنيا قلقة وصغيرة؟ لكلٍّ منّا تاريخه وأسطورته التي تركض وراءه حتى تدركه. صحيح، لم نعد معنيِّين بعضًا ببعض، فلكلٍّ حياته الخاصَّة، لكنْ في الحياة أيضًا متَّسع لغير الأحقاد. ربَّما كان أولادنا أفضل منّا

ليس لديّ أيُّ حقد عليك، أطلب منك شيئًا واحدًا أن تقنع نساءك القاتلات، أن تعدنَ لي ابني وحبيبي يوسف، كما تركته بين أيديهنّ يومها. أسامحك على كلّ شيء، وأشكرك عن كلّ شيء أيضًا حياتنا لم تكن سيِّئة قبل سرقة روح يوسف، فقد منحتها من جسدي، وقلبي، وروحي، وهوسي، كلّ ما يديمها يجب أن تعلم يا كازانوڤا، أنت الذي عشتَ خارج كلّ الملاحظات، أنَّ أفظع ما يُصيب امرأة منحت كلّ شيء في حياتها لمن تحبّ، أن تُرزأ في ابنها، أمام عينيها. ربَّما احتجتُ إلى زمن آخر، وحياة أخرى لأتمكَّن من ترميم داخلي ونسيان كلّ ما حدث.

مضى الذي كان يجمعنا مضى إلى الأبد.

أعانك الإله فيما تبقَّى من عمرك، على ألمك وخوفك.

فجأة، توقَّف كلّ شيء وعمّ البياض.

أغمض كازانوفا عينيه على دمعات ظلَّت عالقة، سرعان ما انحدرت متلاحقة مثل السيل، عندما حاول فتحهما من جديد.

ـ لا عليك يا سيِّدي لوط. ألم تقل إنَّ الدنيا قاسية، لكنَّها تستحقّ أن تُعاش؟

قال مسعود، وهو يحاول أن ينزع الشاشة البيضاء، بعد أن أشعل أضواء الصالون.

٥ ـ رُوكِينَا

مَرْيَمُ الّتِي خَسِرَتْ عُذْرِيَّتَهَا

١

عندما أخرجه من الحمَّام للعودة بعدها مباشرة إلى الصالة الأندلسيَّة، كان ذلك لغسله واستراحته. لم يكن مسعود يتصوَّر أنَّ عليه مواجهة ثقل جديد لم يكن مستعدًّا له. رجل على حافَّة الموت يريد أن يستمتع بالمطر!

ـ *مخِّي حبس، ولّيْت ما نفهم والو. واااااالو*(١)

لمع البرق مخترقًا السقف الزجاجيّ المغلق، فأضاء المكان كلّه لدرجة أنَّ مسعود أحنى رأسه لتفادي النور الذي أعماه. تبعته دمدمة رعديَّة عنيفة، هزَّت جدار الدار السميك، محدثة هزَّة عنيفة في الداخل، وارتعاشًا في الكرسيّ المتحرِّك الذي كان يجلس عليه كازانوڤا

رفع كازانوڤا رأسه إلى السماء بصعوبة، كمن يحاول أن يحرِّك جبلاً ضخمًا

---

(١) مخِّي توقَّف. أصبحتُ لا أفهم شيئًا

كان السقف العالي يحجب السماء عنه.

ـ أنت الآن يا سيِّدي أنظف من ملاك. لالَّة ساراي كانت أسهل امتحاناتك. اكتفيت برؤية وجهها والاستماع إلى صوتها مليح أنَّها قبلت أن تُحادثك. أتذكَّر كيف غادرت البيت بعد موت يوسف. كانت محروقة! أضع نفسي أحيانًا في مكانها. *أترك ابني في صحَّة جيِّدة، وبمجرَّد عودتي، أجده قد مات*؟ لا سيِّدي، هذا ظلم.

أغمض كازانوڤا عينيه كأنَّه شعر بألم داخليّ. ثم سال الدمع مدرارًا من عينيه، مرَّة أخرى.

ـ أعرف يا سيِّدي أنَّ فقدان ابنٍ أمر شديد القسوة. الخوف من الموت يبدأ ربَّما من هناك. أن يجد الإنسان نفسه وحيدًا في موت غير مريح. أنا أحبّ لالَّة روكينا، لكنَّها عندما تغضب، يصبح حقدها أعمى. كنت دائمًا أقول لماذا هذه المرأة الخيِّرة تتحوَّل فجأة إلى عاصفة؟ هل يمكن أن يكون في الإنسان الواحد، اثنان؟ عندما سألتَني: *أنت يا* مسعود *الذي يرى كلّ شيء ويكتمه، هل يمكن أن يكون الفعل من إحدى زوجاتي*؟ أحنيت رأسي يومها، ولم أقل سوى تمتمة صغيرة: *لا أعرف يا سيِّدي ومولاي. ربِّي يجازي اللي كان السبب*. ثم صرختَ في وجهي هذه المرَّة بعنف، قلَّما رأيته فيك: من *اللي كان السبب*؟ خرجت منِّي كلمة سريعة لا أعرف كيف، لأنَّ لساني تجمَّد وقتها: *لا أعرف يا سيِّدي. آخر مرَّة رأيته، عندما مررت لآخذ مفاتيح السيَّارة الكبيرة، كان بين يديْ لالَّة روكينا تضمّه إلى صدرها* صرختَ مرَّة أخرى: *هل كان ميِّتًا بين يديها أم حيًّا*؟ كرَّرت عليك وقلبي يرتعش خوفًا، وأشتم نفسي كيف حشرت نفسي في ما لا يعنيني، دخلت إلى دائرة لم أكن مؤهَّلاً لها: *لا، سيِّدي. ربَّما كانت تنوِّمه فقط، لالَّة روكينا امرأة طيِّبة*. عندما قلت لك هذا الكلام كأنِّي

أنزلت عليك رحمة كبيرة.

أغمض مسعود عينيه لكي ينسى كلّ ما رآه. تهاوت في أعماقه الكلمات متدرِّجة، ميّتة من شدَّة الصمت.

ـ *يومها، شككت فيها، لأنَّها لم تكن طبيعيَّة. بعدها تأكَّد الأمر. كنت أرى المشهد وأنا أراها بالصدفة كيف دخلت إلى المطبخ. كانت حركاتها مريبة ومرتبكة جدًّا كنت قد عدت لآخذ وثائق السيَّارة، لأنِّي انتبهت في الطريق أنَّ السيَّارة التي كنت أسوقها، تأمينها منته. كان يوسف بين ذراعيها كان يبكي. ظننت أنَّها تهيّئ له حليبًا في المطبخ. استغربت يا سيّدي. لها في جناحها كلّ ما تريد، لماذا تفعل ذلك في مطبخ؟ لم أغادر مكاني حتى لا أحرجها بقيت في الداخل أنتظر عودتها إلى جناحها، لأتمكَّن من الخروج، لكنَّها لم تأخذ له حليبًا من المطبخ، أخذت طورشون[1] تنظِّف به ميمونة أحيانًا كؤوس الشاي من بقايا الماء، عندما توضع على الصينيَّة. كان يوسف يرغي كأنَّ به ألمًا كبيرًا بجانب النافورة، نظرت يمينًا وشمالاً، ثم وضعت الطورشون في فم يوسف، ودخلت به إلى الصالة الأندلسيَّة التي كانت خالية من أيَّة حركة. استغربت أنَّها تمسح فم يوسف من بكاء الصراخ، بخرقة متَّسخة. بعد لحظات، خرجت وأعادت الطورشون إلى المطبخ. رأيتها تحمل بين ذراعيها يوسف. هذه المرَّة، كان مستسلمًا لها، أو نائمًا، ربَّما ميّتًا سمعت صوت المصعد الداخليّ الذي يتوقَّف في كلّ الطوابق، وهو يصعد نحو طابقها لا عليك من هذا. انتهى كلّ شيء. ربّي يغفر لنا خلّ البئر بغطاه.*

ـ إذا كنت تشعر بنفسك أفضل، نعود إلى الصالة الأندلسيَّة. لم

---

(١) من الفرنسيَّة Torchon، خرقة بالية يتمّ بها تنظيف الأواني بعد غسلها

تبق إلَّا لالَّة وركينا

-

لم يردّ عليه. لكنَّه بدا كأنَّه غير مرتاح. نظر إليه طويلاً بدون حركة، مثبِّتًا عينيه الحادَّتين فيه، وكأنَّه كان يريد أن يخترق وجهه. ثم حرَّك رأسه يمينًا وشمالاً، بسرعة زادت حدَّة، لدرجة أنَّ رقبته تصلَّبت. واعوجَّ وجهه وشفتاه ويداه، وأصبح في حالة تشوُّه كلِّيَّة. سال اللعاب الأصفر من جهتيْ فمه. لأوَّل مرَّة، يشعر مسعود بأنَّ سيِّده يريد أن يموت.

في اللحظة نفسها، صرخ الإمام وهو يخرج من الحديقة الملتصقة بمقصورة الـ VIP:

ـ ألا ترى يا مسعود أنَّه لا يريد الدخول؟ معناه أنَّه يريد استراحة أطول. اتركه، الوقت كاف، لسنا في امتحان.

التفت مسعود نحو الإمام وهو يحضن كفَّيْ كازانوفا.

ـ أنا أيضًا أشعر به غير مرتاح، لهذا نظَّفته. أحسّ كأنَّه لا يريد أن يعود إلى الصالة الأندلسيَّة، أخاف عليه من البرد العاصف فقط. ألا تسمع العواصف في الخارج والرعود القاسية؟ أسمع عنف نقرات حبَّات المطر الخشنة على السطح. أعتقد أنَّه يريد أن نفتح له سقف الدار ليرى السماء والنور والمطر. أنا أفهمه وأفهم رغباته، لكنَّ الجوّ غير مناسب.

ـ طيِّب. عينك ميزانك. شوف له حلًّا؟

ـ أيُّ حلٍّ يا رجل؟ ألم تقل إنَّها تمطر بعنف ويخشى من ضربة برد قاسية؟

ـ لكنَّه لن يعود إلى الصالة الأندلسيَّة وهو في حالة اعوجاج

كهذه، وسنتحمَّل مسؤوليَّة كلّ ما يمكن أن يحدث. واضح أنَّه يريد أن يبقى تحت المطر هذه خياراته. في زهو أيَّامه كان دائمًا يقول: *لا أريد من أحد، لا أولادي ولا حتى زوجاتي، أن يقفوا أمام خياراتي. طوال حياتي تصارعت مع الحيطان الصلبة، ولم يسمع لي أحد. وتحمَّلت كلّ الخسارات، الكبيرة منها والصغيرة التي لا يحسّها إلَّا المتضرِّر منها حتى السجن تحمَّلته عندما شهِدَتْ أختي فيَّ شهادة زور، يوم عرسها عندما اكتشفت العائلة أنَّها غير عذراء، بأنِّي أنا من اغتصبها، لتنفذ بجلدها وتعيش مع زوجها، ولم يسمعني أحد يومها، لكنِّي دفعت ثمنًا غاليًا ولولا شجاعتي الداخليَّة، ما نفذت بنفسي. من يومها، عرفت أنَّ هناك حلَّين: إمَّا أن تكون ضبعًا أو تأكلك الضباع. أنا اليوم ضبع كما البقيَّة التي تحرِّك طاحونة البلاد، أو تتحوَّل إلى زيت يحرِّك آلاتها المسنَّنة مثل الساعة الضخمة المعلَّقة في الفراغ.*

برقت السماء من جديد، فارتسم خيط ناريّ على زجاج السطح. بقيت عينا كازانوڤا مرشوقتين إلى الأعلى. عندما أراد مسعود سحبه من جديد ولو بالقوَّة، لأنَّه لا يريد أن يحمل على ظهره ثقلاً يمكن أن يؤدِّي إلى موته، ليُعيده إلى الصالة الأندلسيَّة، ضغط كازانوڤا على زرّ كرسيِّه المتحرِّك الخاصّ بالإنذار السريع، فأحدث صوتًا حادًّا ومقلقًا يُسمع من بعيد. تردَّدت أصداؤه في عمق فضاء الصالة الأندلسيَّة ووسط الدار.

انفتح فجأة باب المصعد المؤدِّي مباشرة إلى لاغراند تيرَّاس. خرج عليلو مرفقًا بأخويه يونس وهارون، على وجوههم حيرة واضحة. وقفوا عند رأس كازانوڤا

ـ ماذا حدث يا بابا، نحن هنا بالقرب منك. عليلو ويونس وهارون. قل ماذا تريد الآن منَّا، وننفِّذه لك؟ هل تشعر بألم ما؟ تريد

أن نعيدك إلى المستشفى، ربَّما شعرت براحة أكثر.

في اللحظة نفسها، حرَّك رأسه وتقلَّص حتى أصبح حفنة من الألم.

ـ طيِّب. فهمنا. لن نرجعك إلى المستشفى. أنت رفضت هذا صوت هذا الإنذار أزعج جلسة الاجتماع وأربك الجميع، ونحن نحاول أن نحلّ مشكلات شديدة التعقيد خلّفتها وراءك. وإذ بك تُعيدنا إلى حالة الارتباك التي كنَّا بصدد تخطِّيها أنت طلبت أن ترى نساءك، فجئناك بهنّ، حتى إنّنا ترجَّينا بعضهنّ. فهل تريد شيئًا غير هذا؟ أم عندك ألم في مكان ما من جسدك؟

سمع يونس موسيقى خلفيَّة هادئة.

ـ من وضعها يا مسعود؟

ـ لالَّة زينا قالت إنَّها ستريحه.

ـ سبحان الله. فكَّرت فيما فكَّرت فيه اللحظة. زينا امرأة راقية. الموسيقى نفسها التي كنت أسمعها عندما كنت أدرس في نيويورك. موسيقى الراحة النفسيَّة. الموسيقى التيبتيَّة[1]

التفت عليلو إلى يونس وهارون، ثم نحو والده.

ـ معي حبيبك يونس وقرَّة عينك هارون. كلّنا تحت أمرك يا أبي. فقط امنحنا فرصة الخروج من محنة الحسابات المعقَّدة وحصر شركاتك وأعمالك، وكيفيَّة التسيير، في ظلّ أزمة خطيرة وأطماع لا تتوقَّف. وسنكون تحت تصرُّفك. نحن في خيرك يا أبي. إنَّنا نستجيب قدر المستطاع لطلباتك. أرجوك أن تهدأ قليلاً، وقل لنا ماذا تريد فقط؟

---

(١) Tibet

نطَّ برأسه رافعًا عينيه إلى الأعلى وهو يئنّ مثل طفل مريض.

قال مسعود وهو يزيل حيرة عليلو.

ـ والدك يريد شيئًا آخر.

ـ طيِّب، هل انتهى من المسامحة؟ كلّ نسائه قلن له ما عندهنَّ؟

ـ تقريبًا لم تبق إلَّا لالَّة رقيَّة، هي طلبت أن تظلّ الأخيرة، حتى لا تربك قراءة رسالة لالَّة ساراي التي أثَّرت فيه بشكل كبير كانت جد متسامحة معه، لأنَّه بمجرَّد الانتهاء من سماعها كان سعيدًا، وطلب هذا الطلب الغريب الذي كان قد لمَّح لي عليه قبل أن يحرن.

ـ طيِّب. أرجعه للصالة الأندلسيَّة، وليستمع لرقيَّة، ونتركه يرتاح في غرفته قليلاً في جناح زينا، لأنَّه فارغ، في انتظار أن نحرِّر له لاغراند تيرَّاس. لم يبق وقت كبير لنخرج باتِّفاق قريب.

كأنَّ كازانوڤا سمعه وفهمه. فتلوَّى من جديد في مكانه، وفتح فمه الذي سال منه لعاب أصفر. كأنَّه كان يريد أن يصرخ بأعلى صوته، لكنَّ لسانه خانه بثقله مثل الرصاص. تحوَّلت ردَّة فعله إلى حالة من التعصُّب والتصلُّب التي كثيرًا ما تسبق حالة الأزمة القلبيَّة أو توقُّف المخّ، مصحوبة بعويل حادّ كان يخرج في شكل شخير صفيريّ.

اقترب منه يونس أكثر، ثم التفت نحو عليلو وهارون الواقفين بحيرة بجانب مسعود.

ـ يريد أن يرى السماء. لا يمكن أن نحرمه منها يا عمِّي مسعود.

ـ لكنْ يا سيِّدي، سمعت بأذنيك حبَّات المطر التي تسقط على السطح الزجاجيّ، ورأيت بعينيك لمعان البرق والرعود، لكنْ، إذا تحبُّون يا سيِّدي، سأفتح. أنا والإمام زكريَّا خفنا عليه من البرد.

ـ توكَّلوا على الله، قال عليلو، ما دامت هذه رغبته، ليكن.

أعرف الآن ماذا يريد. آتوه بكرسيِّه الذي يحبّه، *فوتاي لويس الخامس* عشر.

ارتسمت فجأة على وجه كازانوڤا علامات الراحة والفرح، وعاد وجهه بعد تشنُّجه إلى طبيعته.

رنّ التليفون الذي لا يغادر يد عليلو اليمنى.

سحب يونس وهارون وراءه، واتَّجه الجميع نحو مصعد خلوة لاغراند تيرَّاس. وضع فيه المفتاح. أداره. قبل أن ينغلق باب المصعد الفضِّيّ السريع، قال عليلو لمسعود وللإمام المشدوهين.

ـ افتح له السقف يا مسعود، واتركه يستحمّ بالمطر حاول أن تغطِّيه قليلاً

ثم انطفأ الجميع في عمق المصعد، تحت حيرة مسعود الذي لم يفهم ما يجب فعله.

ـ هل سمعت يا سيِّدي زكريَّا ما سمعته الآن؟

ـ يا سيِّدي، ناس مكَّة أدرى بشعابها. افتح السقف واتركه تحت المطر قليلاً يجب أن نضع أنفسنا في مكانه، وفي مكان أولاده أيضًا تعرف، الإنسان عندما يصل إلى هذه المرحلة، يريد كلّ شيء في ثوان وإلَّا يغضب مثل الطفل. ما دام هذا يسعده، على بركة الله.

تحرَّك الجميع، وفي دقائق كان فوتاي لويس الخامس عشر بأناقته وجماله وخشبه المذهَّب، حاضرًا.

جاء مسعود بغطاء بلاستيكي أصفر وغطَّى به كازانوڤا، ومعه الكرسيّ الوثير. ضغط على الزرّ، فانفتح السقف الزجاجيّ بهدوء، فاسحًا الفضاء لعينيْ كازانوڤا بسرعة، ارتسمت علامات الفرح على وجهه وحركاته التي أصبحت منتظمة أكثر. رسم البرق في عينيه

النائمتين خيطًا من النور المعمي للأبصار، فأيقظه. لأوَّل مرَّة يحرِّك يديه ورأسه بحرِّيَّة أكثر فتح فمه مثل طير جائع، بحيث يصبح مواجهًا للأمطار التي تكاثف سقوطها حتى أحدث بركة في وسط الدار، بينما وقف الإمام في الزاوية. وفي الزاوية المقابلة، وقف مسعود وهو لا يصدِّق عينيه.

ـ المطر غزير. لقد برد جسدك يا مولاي، هل أحرِّكك يا سيِّدي نحو زاوية أفضل من وسط الدار؟

هزّ كازانوڤا رأسه وأصابع يديه التي أخرجها من تحت اللباس الجلديّ، أنْ لا

ـ سبحان مغيِّر الأحوال.

ظلّ المطر يسقط، والبرد يحوِّل الظلمة إلى نور، والرعود والرياح التي كانت تتسرَّب من الأعلى ومن كلّ فجوات الدار، إلى حالة انتشاء، كان كازانوڤا أكثر إحساسًا بها من غيره، إذ تجلّى ذلك في بياض عينيه الذي اتَّسع أكثر

استمرّ سقوط المطر نصف ساعة، حتى خفّ قليلاً، ثم توقَّف، وهدأت الرياح. بينما نام كازانوڤا تحت وقع الأمطار والرعود والموسيقى، التي كانت تأتيه من مكان لم يكن أحد يراه. أخذته إغفاءة استمرَّت طويلاً

ضغط مسعود على الزرّ من جديد. فانغلق السقف الزجاجيّ.

بهدوء، قاده نحو الحمَّام ليغيِّر له ألبسته التي كانت تقطر ماء على الرَّغم من الغطاء البلاستيكيّ. وتمَّ سحب الكرسيّ الوثير لويس الخامس عشر. كان كازانوڤا سعيدًا، ووجهه متَّقدًا فرحًا، بعد أن كان الدم قد هرب منه، وأصبح لونه مثل صمّ الوديان.

ـ أفرحتنا يا سيِّدي. الحمد لله أنّك بخير.

لكنَّ كازانوفا ظلَّ صامتًا ونائمًا، ومغمض العينين مثل ميِّت.

كان يتنفَّس بانتظام، مستسلمًا ليديْ مسعود الخشنتين، وهو يلبسه قميصًا جديدًا ومعطفًا دافئًا

ـ يا الله. يا سيِّدي لوط، كنتَ شجاعًا إذ تحمَّلت كلّ شيء. لنمضِ يا سيِّدي. لالَّة رقيَّة تنتظرنا

٢

زاد ثقل الصمت على المكان.

الصالة الأندلسيَّة فارغة إلَّا من أنفاسه، وبعض روائحه التي كانت مزيجًا من الخمائر القديمة والأجساد حينما يبدأ المرض يثقلها، والموت ينخرها من الداخل.

أحسَّت روكينا كأنَّها انتظرت قرنًا من الزمن، حتى إنَّها فكَّرت في لحظة من اللحظات أنَّها مكيدة من مكائد الإمام زكريًّا، ربَّما يكون قد وشوش في أذنيه شيئًا مؤذيًا يبعده عنها فكَّرت أيضًا أنْ تنسحب إلى جناحها الذي ما تزال تحتفظ به، من دون أن تُعلم أحدًا، لكنَّها تراجعت في الأخير. أحسَّت أنَّ ما في قلبها كبير. أكبر من عاصفة. عليه أن يسمعها في تفاصيلها ورياحها، أحبَّ كازانوفا ذلك أم كرهه، بعدها ليحدث ما يحدث، فهي لن تعود معنيَّة به، ستنتقل إلى بيتها الجديد الذي اشتراه لها عليلو من ماله الخاصّ.

المفارقة هي أنَّ الإمام زكريًّا هو من هدّأ روكينا، لأنَّ كازانوفا

هو من أخَرهم. كان يريد أن يشمّ رائحة التراب والمطر الذي يذكِّره دائمًا بطفولته، في حواشي منارة سيتي.

شعرت بالبرد القارس يتسرَّب إلى مفاصلها

عندما رفعت روكينا رجلها اليمنى، في خطوتها الأولى، أعماها البرق الذي اخترق من جديد كلّ شيء، بما في ذلك النوافذ الزجاجيَّة الخشنة، وسقف الدار الزجاجيّ، متبوعًا بقوَّة رعديَّة عاصفة كأنَّ الدار كلّها كانت ستسقط، ويتحوَّل كلّ شيء إلى رماد. شعرت بعدها كأنَّ الطوابق الأربعة، والخُلْوَة ولاغراند تيرَّاس، راحت كلّها في الهواء.

ـ *بسم الله الرحمٰن الرحيم. القيامة؟*

تمتمت ثم واصلت. خطوات محسوبة من المدخل إلى الكرسيِّ، الذي يضعها وجهًا لوجه مع الرجل الذي أمضت معه الجزء الأكثر صعوبة من حياتها جلست مقابلة لوجهه، وفتحت عينيها عن آخرهما، حتى لا تفلت منها أيَّة لحظة. كانت ملامحها تُضاء بشكل واضح كلَّما لمع البرق متخطِّيًا سمك الزجاج. الكحل البلديّ عمَّق أكثر اتِّساع عينيها بدت السنوات التي عبرت على جسدها باهتة، وكأنَّها لم تؤثِّر فيها إلَّا قليلاً وجه طفوليّ صاف كالحرير شفتان حمراوان، رسمتا بدقَّة بأنامل غير مرئيَّة. جسد طريّ كتفَّاحة.

أخرجت مرآتها الصغيرة. نظرت إلى وجهها للمرَّة الأخيرة. مسحت بالسبَّابة والوسطى على حاجبيها، حتى التصقا مع الجبهة. ثم نظرت إليه. لم تنتبه لعينيه اللتين بدأت تعلوهما صفرة جافَّة، تشبه صفرة الموت.

لمع البرق مرَّة أخرى في عينيها، متبوعًا بصوت رياح عنيفة حرَّكت كلّ أشجار الحديقة الخلفيَّة، فأغمضتهما كلِّيًّا لدرجة أنَّها لم

تعد ترى شيئًا بعد فتحهما لثوان معدودات. ولا تسمع إلَّا دمدمة الرعد القويَّة التي كانت تمزِّق السماء، وأسطح منارة سيتي القرميديَّة القديمة، أو الزجاجيَّة الحديثة، التي بدا كأنَّها تتطاير في السماء المغبرَّة.

فجأة، توقَّف صوت الرعد بشكل جافّ، كأنَّ يدًا امتدَّت نحوه، فمسحته. أعقبته سكينة لا تقطعها إلَّا نقرات الأمطار التي كانت تُسمع من زوايا كثيرة في البيت. كانت تصل إلى أذنيها في شكل سلسلة من الإيقاعات، المتناغمة الهادئة، التي فتحت شهيَّتها للكلام، أخيرًا.

ـ *ماذا يحدث في الخارج يا كازانوڤا، أيُّها الكونت الجليل؟*

عندما التفتت نحوه وهي تضع المرآة الدائريَّة في حقيبتها الصغيرة، رأت وجهه البارد كحجرة في واد جافّ. حاولت أن تغمض عينيها قليلاً، حتى لا ترى شيئًا إلَّا طفولتها الهاربة مثل ظلّ. لكنَّها لم تستطع. حاولت أن تنسى رائحة الموت الذي كان أمامها، لكنَّها كانت أكبر منها تنفَّست طويلاً حالمة بدوار مدوِّخ لا ترى فيه إلَّا البياض، لكنَّ حضوره لم يمنحها عدا الصياح الذي كان يصعد من أعماقها في شكل نداءات بلا حدود، لا أحد غيرها كان يسمعها

يبدو أمامها كازانوڤا مرهقًا، مسجًّى مثل ميِّت، ملفوفًا في أغطية الحرير والقطيفة النادرة، كأنَّه في كفن من أكفان الملوك الصينيِّين. نظر إليها بعينين منتهكتين تستنجدان حتى بالخوف، لكن روكينا لم تعره أيّ اهتمام. لم يكن برودها أقلّ من موته. شعرت بشيء غريب يغلي في أعماقها، يشبه سيلاً من الحمم الخفيَّة التي ارتسمت في عينيها. لم تدركـ، قبل أن تدخل إلى هذا المكان، أنَّ حرائق الحقد التي كانت تنام في أعماقها، كانت أكبر ممَّا تصوَّرته.

ما إِنْ دخلت إلى الصالة الأندلسيَّة، دخلت وفي رأسها أن تسخر

من وضعه وتصغُّره، وتذكِّره بما قاله لها في ليلتهما الأولى، يوم اغتصبها بعنف، بلا أدنى رحمة، وهي تترجَّاه أن لا يمسَّها، وتبوس يديه وحذاءه، أن لا يترك على جسدها لطخة لن تسمحها لنفسها أبدًا؛ وتنبئه بما في قلبها منذ ذلك الزمن البعيد، ثم تخرج وتتركه يموت بحقده، كأفعى يقتلها سمّها، لكنَّها أحسَّت بأنَّ ما في داخلها من حرائق، أكبر من هذا كلّه. مثلاً، الرغبة في استحضار غالون من البنزين ودلقه عليه، ثم حرقه أمام الناس الذين ينظرون ولا يتدخَّلون. لكنَّها تراجعت. ماذا بقي فيه باستثناء عينيه اللتين اتَّسع بياضهما حتى أصبح مخيفًا، وفمه الذي لا يُغلق أبدًا، نصف مفتوح في الفراغ، والزغب الأسود الذي بدأ يتماهى مع وجه مشقَّق مثل الأرض الجافَّة، زاد رماده. فقد غابت ملامح وجه الرجل الذي كان قبل أن يخرج، يتأمَّل ملامحه طويلاً، في يده ملقط الأنف، ينتزع كلّ الشعيرات الزائدة على مخارج الأنف، ويحلق كلّ صباح قبل أن يخرج. يتعطَّر ثم يدقِّق في وجهه في مرايا البيت. ثم يتلمَّس جسده قبل أن يلبس قميصه الحريريّ، ثم طاقمة وربطة عنقه الحمراء، ويخرج لمواعيده السخيَّة، يجرّ في إثره سائقه مسعود. تتذكَّر أنَّها عندما كبر يونس، دفعت به وراء والده منذ صغره، إذ تعلَّق به كثيرًا، حتى أصبح ذاكرته في كلّ شيء. كلّ التفاصيل الحسَّاسة تمرّ عبره. لا يستطيع أن يستغني عنه أبدًا عندما كبر أصبح ذاكرته ودفتر كلّ حساباته. قبل أن ينتقل إلى نيويورك، وهناك يتخصَّص في التسيير، والمانجمنت والمحاسبة البنكيَّة. ويأخذ، بعد عودته، زمام البنك والبورصة والإشراف الماليّ على كلّ المؤسَّسات التابعة لشركات والده، وشركائه. كلَّما رأته روكينا يتخطَّى الباب ليصبِّح عليها وعلى والده، باستقامته وطوله، تتذكَّر أيَّامها الأولى عندما رُزقت به، وهي تقسم أن تجعل منه وسيلتها للحياة،

ومحو اللطخة التي تُركت على جسدها منذ الليلة الأولى.

عدّلت روكينا قليلاً من جلستها كانت تتحرَّك وكأنَّه لم يكن موجودًا أبدًا. على الرَّغم من ثقل الجوّ، لم تعطه أيَّة قيمة. رفعت ساقها اليمنى، ووضعتها فوق اليسرى، فظهر جزؤها السفليّ المنحوت بدقَّة، كأنَّها دمية. عندما ارتشقت عيناه فيها، تمتمت: *يا الربّ، حتى ميّت وما تطلقش*[1]؟ *لن أمنحك حتى متعة النظر في جسد، كنتَ أوَّل من أشعل فيه براكين الحقد والضغينة*. غطَّت جزءًا من رجلها بالرداء الأبيض الذي كان على ظهرها عندما قالت لها لالَّة كبيرة، ضعي لباسًا على ظهرك، أنت تواجهين رجلاً يموت، لم تكن قد فكَّرت في هذا أجابتها بردّ فعل لم يرق للالَّة كبيرة: *ما هذا يا لالَّة كبيرة؟ هل لأنّي أواجه رجلاً يجب أن أكون هكذا*؟ هزَّت لالَّة كبيرة رأسها، ثم مضت نحو مكانها.

جلست.

ـ تريد أن نتسامح؟ أنت من طلب هذا. معك حقّ. من الأفضل أن يرحل الإنسان عن هذه الأرض غير مثقل بجرائمه السابقة. لا مشكلة سَيِّدِي الكُونْت القَاتِل، هَلْ تَعْلَمُ عَلَى الأَقَلّ مِقْدَارَ خَرَابِكَ؟ يَوْمَ اشترَيْتَني، قَتَلْتَني. أخذْتَ منّي كلّ شَيْء، بِما فِي ذَلِكَ دَمِي، أَنْفاسي، أنِيني، عَرَقِي، وبَعْضَ جَسَدِي، إِلَّا أَنْ أَكُونَ لَكَ. قِصَّة طَويلَة، عَلَيْكَ أنْ تَسْمَعَهَا مِنَ البِدايَة حتى الكَلِمَة الأَخِيرَة. تعرف جزءًا منها، لكنّ جزأها المظلم القاتل، يغيب عنك.

حرَّكت روكينا خاتمها الرقيق في أصبعها.

دار بعينيه الفارغتين نحوها متتبِّعًا حركة أصابعها وشفتيها:

---

(١) يا إلٰهي! حتى وأنت أمام الموت، لا تنسى عاداتك؟

ـ عذرًا يا سيِّدي الكونت لوط. هذا الخاتم ليس لك. تعرف جيِّدًا أنَّ خاتمك رميته في الليلة الأولى في الحمَّام وأنا أمسح الخليط اللزج من منيِّك، وقليلاً من دمي، ليس دم العذريَّة، فذاك أخذه من استحقَّني وحرمتني منه بجبروتك ويقينك. لكن بسبب عنفك الشديد، وكريَّة الدم التي وضعتها لك، حفاظًا على عائلتي من الأذى، ولأرضي فحولتك وأجعلك تنتشي بأكبر كذبة ابتدعتها الذكورة. طوال الليل وأنا أتألَّم كمن أُدخل فيه مسمار ساخن. أخفيت هذا الخاتم طويلاً عن نظرك، لكي لا تسألني، لأنِّي كنتُ أستخسر فيك حتى الإجابات. ألبسه اليوم لتتذكَّر فقط كم كنت مؤذيًا، وكم أنَّ الأحقاد تعمي! ربَّما تتساءل لمن هذا الخاتم، أيُّها الكونت الجليل؟ من له الحقّ في إهدائي خاتمًا بهذه القيمة، غير رجل يسحرني ويهبني لجنونه، لأكون أمَّة لجنونه حتى آخر العمر ثم. هل يجب أن تعرف؟ لا أعتقد. أحيانًا أصمت، رأفة بغطرستك، أن تظلّ على يقينك أنَّك سيِّد كلّ شيء. سيِّد جسدي، سيِّد قلبي، سيِّد خوفي وفرحي، سيِّد أنفاسي، بل سيِّد موتي وحياتي أيضًا، تختار لي لون لباسي وشكل كفني. وأحيانًا أقول باسم ورقة الزنا التي شرَّعها سلطانك بالعنف والسرقة، يجب أن أُسْمِعك كلّ ما في قلبي، وكلّ ما عشته معك حتى هذه الثانية، من ضغائن، أنت من أشعلها ولا تعرف عنها شيئًا، أنت المدَّعي أنَّك تعرف أعماق النساء. دعني اليوم أقول لك إنَّك لم تعرف شيئًا إلَّا ما اشتهيت معرفته. نعم، استهلكت منهنَّ ما ارتضيت، لكنَّك ظللت طوال عمرك خارج الجوهر. لو كنت داخله، لاحترمت أوَّل شيء، قلبي، الذي انتزعته من عرقه ورميته لكلاب جسدك تنهشه.

أدارت روكينا الخاتم من جديد في أصبعها. تأمَّلته وهي تنظر إلى عينيْ كازانوڤا اللتين اتَّقدتا بنار من يريد أن يكتشف بقيَّة القصَّة. لا

يمكن ألَّا يتذكَّر حتى وهو في حالة انهيار جسديّ، أنَّه أهداها في ليلة الدخلة خاتمًا من الذهب الأبيض، معشَّقًا بالألماس، جهّزه خصّيصًا لها في الفيليبّين. وضعه في أصبعها. لم يكن يعرف أنَّه كان عبارة عن حبل لفّه حول عنقها يسترضيها بعد أن أدخل مسمارًا صدئًا في جسدها. منذ اللحظة التي دخلت فيها إلى الحمَّام، بعدما استفاقت من إغماءة اغتصاب الليلة الأولى، لم يره في إصبعها قال في أعماقه يومها، إنَّ الأسفار والحياة السهلة والراحة والرخاء سينسُّونها حتمًا، ليس فقط في عليلو، لكنْ أيضًا في أجمل وأبهى شابّ يمكن أن تكون قد عشقته.

عيناه تدوران في محجريهما كمن ينتظر شيئًا لا يعرف سرّه.

ـ أيُّها الكونت المسكين، لستَ على ما يرام. أرى اللحظة الجرح الذي يرتسم فيك. وتكابره كأيِّ ذكر يتفاحل على امرأة هُزمت منذ أن سُرقت، لكنَّها لم تستسلم لقاتلها. في الليلة نفسها التي سجنتَ بخاتمك إصبعي الذي تمنَّيت أن أقطعه، مرَّ فارسي وحبيبي، عليلو، ووضع قلبه في إصبعي، ومسح النار التي كانت تشتعل فيّ، وقبّلني طويلاً، وقال: *هذا لحبيبتي وقلبي وسكني. نقشتُ فيه أوَّل* حرفين لاسمينا *R & A إلى آخر العمر. نحيا معًا، نكبر معًا، ونموت معًا* خبَّأتُه لك منذ سنوات قبل أن يمرّ غول الرماد، ويسرقك منِّي. لكنِّي *أعرف أنَّه لن يفلح أبدًا في مسّ قلبك. القلب هو المكان الأوحد والسرِّي الذي لا يحوي إلَّا ما يريد ويشتهي، ولا تنفع معه كلّ وسائل الرقابة المعقَّدة.* هل تعلم أيُّها الكونت الجليل في خرابه، في شهر العسل الذي سرقتَ فيه بكارتي، أو ما بدا أنَّها بكارة، كان حبيبي يحملني بين ذراعيه القويَّتين، ويسرقني نحو فراش اللذَّة، ويسكنني جسده مثل عشَّاق الزمن الغابر؟ كان مجنونًا في كلّ شيء، في تعريتي،

في تقبيلي، في التوغُّل في أعماقي، في عشقي. كنت ريشة في حضنه. عرف كيف يزرع النور في جسد مظلم. لم يكن يأبه لك وبكلِّ ما فعلته بي، فقد كنت في النهاية تأكل جثَّة أنت من قتلها إلى اليوم، تستيقظ هذه الجثَّة من سباتها، كلَّما مرَّ عليها حبيبها، وأصبحت في قمَّة جنونها وهبلها، تعطي ما لا تستطيع أن تعطيه مع غيره، ولو كان يملك مال قارون. حبيبي مقتلك، مقتل الرجل الذي يسرق جسدًا لم يكن في أيّ يوم له.

انتابته نوبة سعال سرعان ما استكانت بسرعة.

ـ اتركني أيُّها الكونت، أدَّخر لك الأجمل للنهايات قبل أن أغادر هذا المكان نهائيًّا، ولا أعتقد أنَّي عندما أخرج من هنا، سألتفت إلى الوراء مرَّة أخرى، بعدما أكون قد تركت لك ما لم تشته سماعه أبدًا في حياتك.

تعمَّقت في عينيه. ربَّما لتتأكَّد من أنَّه يسمعها بشكل جيِّد. نظرت إلى المرآة التي أخرجتها من حقيبتها اليدويَّة. رأت وجهها كما أحبَّته دائمًا وهو بين يديْ عليلو، وهما في عزّ تألّقهما. كانت جميلة كما اشتهت نفسها، باستثناء قليل من الكحل الذي فاض على عينيها وحاجبيها، بسبب دمعات هاربة لم تتمكَّن من السيطرة عليها. نزعته برؤوس أصابعها التي بلَّلتها بلسانها

ـ ماذا تنتظر أيُّها الكونت من امرأة قتلتَها؟ أن تسامحك؟ ماذا فعلتَ لها لتسامحك سوى تحويلها إلى امرأة كانت في السماء بأحلامها، فأنزلتها تحت الأرض؟

ليكنْ، أنا هنا، ما دامت هذه إرادتك الأخيرة كما المحكوم عليه بالإعدام!

لكن. هل ستسامحك صرخاتي في خلوة الفراغ مثل ذئبة

مقتولة؟ هل سيسامحك الرماد الذي في داخلي، لم تستطع أيَّةُ عاصفة من عواصف الموت المجّاني، أن تحوِّله إلى غبار وتبعثره؟ هل يسامحك جسد لو عرّيتُه الآن أمامك لرأيتَ جروحه المقيِّحة؟ هل تسامحك المسافات التي كنت سأقطعها برفقة حبيبي، في الحياة، واختزلتَها في ورقة ليست أكثر من دعارة مشروعة؟ هل ستسامحك المراهقة التي عندما طلبها والدها أن تأتي وهي لا تعرف لماذا؟ وتنحني وتقبِّل يدَك ورأسَك، فأنت والد حبيبها، وأنَّك جئت فقط لمنحها رضاك وحبّك، من أجل أن تستمتع بالحياة كما كلّ بنات سنِّها، مع من تحبّ؟ وعندما جلستْ أمامكما، أنت ووالدها، ظلّت تحكي عن مشاريعها وكيف ستصبح طبيبة ولن تنجب أطفالاً لمدَّة ثلاث سنوات، ليس قبل أن تذهب هي وعليلو إلى المناطق الإفريقيَّة الأكثر فقرًا، وتداوي من هم في حاجة إليها؟ ماذا سأقول لابني الذي حرمته من أبوَّة مشروعة وعلنيَّة؟ ماذا قلتَ لمباركة التي حوَّلتَ ابنها إلى لقيط، وإلى اليوم لا تعرف هل هو ابنها حقيقة، أم ابن الشارع؟ أنت لا تعرف شيئًا طبعًا عن هذا. انتظر قليلاً، وستعرف كيف ينتفض الرماد قبل أن يتبعثر في سماء فارغة. لا أدري كيف تعاملتَ مع الأخريات اللواتي سبقنني إلى هذا المكان! هل صمَتْنَ بنفاق أمام الموت؟ أم قالت كلّ واحدة حرائقها؟ ما ستتركه وراءك يا سيِّدي لن ينتهي أبدًا ربَّما كنتُ في هذا أشبه بزينا، لكنَّ ساراي جاءت في عزّ حقدي وحرائقي، ولم أكن قادرة على تحمُّلها، ولا حتى التعرُّف عليها كما يجب. لم أكن بديلها في قاعة المسرح ولكنْ في الحياة. لا هي رأتني ولا أنا رأيتها إلَّا لاحقًا سمعت أنَّها هربت مع بلجيكيّ، فتركت المسرح، وأنجبت منه ابنة سمَّتها مولي[1]، تعيش في الصين، قبل أن

---

(١) تعني ياسمين في اللغة الصينيَّة.

تعود كمديرة للأوبرا الوطنيَّة، ومديرة متحف النوادر الخاصّ الذي فتحته رسميًّا مع أختها ليدْيا وزوجها، رجل الأعمال، أصلان، وصديقها البلجيكيّ آدريان، المتحف الذي كان في الأصل عبارة عن غاليري. ربَّما حسنًا فعلت. جاءت فقط لتقول لك ما ظلَّ في قلبها طوال الزمن الذي مضى، انسحبت من جحيم حقيقيّ قبل أن يدركها أمَّا ساراي التي جمعتني بها صدفك القاسية، فقد أحرقتها وأحرقتني، وخرجنا مهزومتين من وضع أنت من صنعه. لم أكن أحبّها، بل كنتُ أكرهها. لا لأنِّي أغار منها، ولكنْ لأنَّها أعطتك كلّ مبرِّرات الاستمرار. قصَّتها حارقة، أنت تعرف الجزء الظاهر منها، لكنَّك عاجز أن تعرف جوهرها يمكننا الآن أن نتحدَّث معًا في فراغ أصبحنا فيه متساويين، أنا وأنت. لم تعد وحدك سيِّده. لستَ الآن أكثر من جثَّة هامدة.

انقلب السلطان يا كونت، بحيث أصبحت الأشياء أشياء، وأصبحت أنت لا شيء.

فتح فمه من جديد. سال ريقه على الجهة اليسرى من شفته السفلى التي ارتخت كلِّيًّا. فكَّرت أن تمسح كلّ وجهه وتعطِّره، لكنَّ شيئًا فيها لم يسعفها، ثم إنَّ أوامر الإمام زكريًّا صارمة. *أن لا يقترب منه أحد. من له كلمة فليُسْمِعها له عن بعد وفق المسافة المحدَّدة، الرجل متعب ولا يتحمَّل أنفاس الناس القريبين منه.*

كان يتنهَّد بسرعة وبشكل مخنوق. فجأة، علا صفير حنجرته، كأنَّه يريد أن يصرخ، أو كأنَّه يريد أن يزيح ثقلاً عن صدره لا يستطيع التخلُّص منه. كان يمدّ عينيه نحو جهاز التنفُّس الاصطناعيّ، حتى تفهمه روكينا

ـ أحيانًا، يا كونت. أشكّ في أنَّك تسمعني، وتفهمني؟ أفترض

أنَّك عرفتني لكي أستمرّ

أنا روكينا رقيَّة، أو أمّ الخير، كما أرادني والدي بابا أحمد، وكما حلم بي أن أكون، سيِّدة كبيرة في علوم الدين والفقه، تعلِّم الذرِّيَّة صلاحًا وخيرًا، وتنمِّي أمَّة الإسلام بأكبر عدد يرفعون راية الخير الخلل لم يكن في الجوهر، ولكنْ في الرؤية. لمّا كبرتُ قليلاً، ضحكت وأنا أبوس رأسه، *يا بابا ذاك الزمن راح مع أصحابه الذين ملأوا وقتهم، امنحني فرصة أن أؤثِّث زمني بطريقتي في الخير أيضًا ربَّيتني على الطيبة والتفكير في الغير، ولن أكون إلَّا كذلك*. سأجتهد *لأكون طبيبة توليد، تقابل النساء، تعرف أنَّه في بلداننا* جزء كبير من *النساء يمتن أثناء الحمل أو الوضع، مع تعقُّد العصر، لم تعد الطرق التقليديَّة كافية. لن أفعل إلَّا ما علَّمتني إيَّاه من حقّ وخير وفضيلة*.

كنت أقنع والدي بسهولة، ولم أجد يومًا صعوبة معه في أيّ شيء، إلى يوم دخلتَ بيتنا للمرَّة الأولى، فتغيَّر كلّ شيء. قلتُ لوالدي وهو يطلق عليّ تسمية أمّ الخير، ما زلت صغيرة يا أبي، امنحني فرصة أن أصبح امرأة بهدوء. ردّ عليّ بيقينه المعهود وطيبته النائمة تحت كتل الأوهام، *مثل هذه الأسماء تمنح الوقار لصاحبها كلَّما ناديناكِ أمّ الخير ارتفعتِ* درجة. كنتُ أريد أن أكبر بهدوء، وكانت أمامي شهادة البكالوريا علمي، وضرورة الحصول على معدَّل ١٧ من أجل الدخول إلى كلِّيَّة الطبّ، لأكون في منأى عن كلّ الاحتمالات غير السارَّة. لوالديَّ رؤية أخرى. روكينا، *ابنتي لن تكون إلَّا حبيبة أمّها الصغيرة، مهما كبرت*، وسيأتيها *أزواج كثيرون، لكنَّها لن تختار إلَّا من يسعدها ويهبها الحبّ الذي تريده*. كانت ماما خديجة تدلِّعني باسم روكينا حتى أنستني اسم رقيَّة. أمِّي كانت بطلة كلّ أحلامي وأشواقي. لم تغادر عملها في التعليم أبدًا، على الرَّغم من إصرار والدي على أن تتوقَّف

وتكتفي بتربية الأولاد. مهمَّة نبيلة تساوي كلّ شيء. ثم تبعها حبيبي عليلو الذي ظلَّ يناديني في الثانويَّة، بالاسم الذي اختارته لي أمِّي، لكن مخفَّفًا روكي، لدرجة أن التصق بي، في الثانويَّة وخارجها. كان يتناسب مع شكل وجهي ولون شعري، إذ إنَّ بعضهم ظلَّ يناديني بالفرنسيَّة[1] *Poiles de carottes*، نسيت بعدها اسم رقيَّة الذي سمَّاني به والدي تبرُّكا بكلِّ ما يمتُّ للدين بصلة. كان أبي كلَّما رأى أمِّي تناديني روكينا ينهرها بشدَّة. *حرام! ألا تعرفين أنَّ اسمها مقدَّس؟ رقيَّة ابنة الرسول ﷺ، فكيف تحوِّلينه إلى اسم غربيّ؟ ناديها أمّ الخير على الأقلّ.* تضحك ماما خديجة، *روكينا مجرَّد صفة محبَّبة للتي بوجهها نمش وشعرها أحمر*، ثم تمضي نحو المطبخ، تحضِّر الدروس لتلامذتها، وهي تتمتم: أمّ الخير؟ ما تزال روكينا صغيرة يا أحمد. اتركها تتعلَّم الدنيا بنفسها ثم يبدأ درسه الذي سمعته منه عشرات المرَّات يرنّ في البيت، وفي رأسي: *أنا مجرَّد ناصح ولست بمسيطر إنَّ الله سينزع ألسنتكم يوم القيامة على كلّ كلمة ليست في مكانها* رقيَّة وليست روكينا *أمّ عبد الله. ابنة الرسول ﷺ، وأمّ المؤمنين خديجة تزوَّجت عتبة ابن أبي لهب وهي دون العاشرة. وعندما نزلت سورة المسد في ذمِّ أبي لهب، طلَّقها زوجها، لترتبط بعثمان، وتنجب منه عبد الله الذي مات بنقرة ديك في وجهه.* يومها، لم أستطع كتم ضحكتي ممَّا كان يقصُّه والدي، ربَّما لأنِّي لم أكن لا من عصره ولا من زمانه. قلت له: *اشرح لي يا بابا، كيف تتزوَّج امرأة دون العاشرة؟ وكيف يموت طفل بنقرة ديك؟ الديك ليس أفعى؟* يظلّ يدور في الصالة الواسعة بحثًا عن جواب يقنعني به، يعرف أنَّ رأسي لا يقبل بنصف الأشياء. في الأخير يتمتم، بالكاد أفهمه: *أعطيني مهلة أسأل الإمام*

---

(١) شعيرات الجزر.

زكريًا، *أو الشيخ ابن الزهراء*، وسيكون معه *الكلام الفصل*. من عمق المطبخ، نادتني أمِّي، *روكينا أحتاجك*. فقط لتقول لي *إنَّ أباك* يعيش *حالة* خرف مبكِّر، لا تسمعي كلامه. وعندما ألتفت نحو والدي، لأسمع بقيَّة الحكاية، ينسحب من مكانه غضبًا من أمِّي، ثم يمضي نحو غرفته.

ـ سمِّها كما تشاء، لكنْ اتركها تواصل دراستها وتفتح عينيها على دنيا أخرى أجمل. يكفي أنَّك سرقتها في عزّ طفولتها، ومنعتها من المسرح الذي كانت ترى فيه تعبيرها القويّ. لكنْ، لا يمكنك أن تمنعها من دراستها فلا تقتلها بحبِّك الزائد، أو ما تراه حبًّا، قبل الأوان.

ـ لست بكلِّ هذا التوحُّش يا خديجة. رقيَّة ابنتي ولا أحبّ لها إلَّا الخير. لا تكوني قاسية عليّ. المسرح شيء، والدراسة شيء آخر تنجح أوَّلاً في البكالوريا، وبمعدَّل كبير يسمح لها بدراسة الطبّ، وقتها نتحدَّث عن التخصُّص. على كلّ حال، الطبّ النسائيّ ليس فكرة سيِّئة.

ويوم نجحتُ بالمعدَّل الذي اشتهيت، الذي يضعني خارج عاصفة الحسابات الخطيرة ١٨,٩٢، وعليلو نجح بمعدل ١٧,٧ يومها لا أدري إذا قبّلته في شفتيه أم تراءى لي ذلك، لكنِّي عانقته بدون الانتباه إلى من كانوا يحيطون بنا. كنّا سعداء كعصفورين. لأوَّل مرَّة حقّ، لنا أن نحلم معًا كما نريد. كنت حبيبته وهبله وجنونه. وكان إصابتي القصوى، وكلِّي، وبعض بعضي، وكلّ جزئيَّاتي. جرينا في حديقة الجامعة بلا توقُّف، حتى استسلم جسدانا للفرح. ثم صعدنا إلى مرتفعات منارة سيتي العالية، وصرخنا بأعلى صوتينا فرحًا مثل حيوانين أو إنسانين بدائيِّين، لدرجة أن بدت السماء في متناول أيدينا والبحر

أصغر منَّا وعبرنا نحو سيدي مُنِير، حارس المدينة، وربطنا خيطًا واحدًا على معصمينا، جمعنا لأوَّل مرَّة نحن الاثنين. دعوناه كما يُدعى أولياء الله الصالحين، أن يجمعنا، وأن يزيل من طريقنا كلَّ المصاعب، وأن لا يُسرق منّا حقّنا الصغير. الله وحده كان يعلم قوَّة ما كنت أحسُّ به.

جهود ماما خديجة انتهت إلى نتيجة أرضتني. اقتنع بابا أحمد بدراستي. كان سعيدًا، لكنَّه ظلَّ يذكِّرني: *غير الطبِّ النسائيّ*، ممنوع. وأُجيبه بفرح: *ولن أفعل غير ذلك، يا بابا أحمد.*

سجَّلت أنا وعليلو، كلٌّ في تخصُّصه. ضحك طويلاً منِّي عندما قصصت عليه صراع أمِّي وأبي حول تسجيلي. لكنَّه، في ذلك الصباح، كان مصمِّمًا على فكرة الخطوبة والزواج.

ـ أنا لا أريد أن يسرقك منّي أحد.

ـ وأنا يا قلبي.

ـ أصبحت دكتورة وسيكثر سرّاقك.

ـ لحبيبي ما يريد، ولنا ما نشتهي. نرسِّم العلاقة.

كنتُ سعيدة، لأنَّ أمرًا مثل هذا يريح والدي ويخرجه من الشكوك الممكنة.

لم أجد كلماتي، لأنَّ الأرض بكلِّ اتِّساعها، بدت لي ضيِّقة.

فجأة، تحوَّل الحلم الذي ظللت أنظر في وجهه كلّ صباح، وأقرأ أسراره، وأشكر الله أن شكّله على تلك الصورة، إلى رماد ناعم بعثرته أولى العواصف الليليَّة.

أطلق والدي عليَّ رصاصة مزَّقتني إلى أشلاء وإلى آلاف القطع، ليتها فقط كانت رصاصة الرحمة. رصاصة صدئة تقتل مع الزمن وتحفر

الجيوب في الأمكنة الخفيَّة من الجسد، وتحشوها أحقادًا. جمد لساني، وتمنَّيت الموت فقط ساعتها، لكنَّه تكبَّر عليّ. لم يمنحني الشجاعة الكافية للانتحار ومرافقته في رحلة العدم.

ركضت نحو عليلو بيأس وقلبي المحروق في كفِّي: *حبيبي، عليلو، أنقذني، إنَّهم يسرقونني منك*. قلت له: *قل لي ارم بنفسك من علوِّ هذا الجبل الشاهق، وسأنتهي من العذاب، لكنْ لا أقبل أن يسرقني أحد منك*. حكيت له القصَّة كاملة. ضمَّني. شعرت بحرقة دمعه على رقبتي. بكينا معًا قال لي: *إنَّه والدي يا روكي! ماذا أفعل؟ هل أقتله؟* وصرختُ بأعلى صوتي: *هل تتخلَّى عنِّي يا مجنون بهذه السهولة بسبب والدك؟ وأنا حبيبتك*. التفت نحوي، وقال بهدوء: *إذا كنت تريدين أن أقتله، سأفعل، وأُنهي حياتي في السجن*. فكَّرت في الخراب الذي يمكن أن يلحق بنا قلتُ له: *لا نفكِّر فقط فيما يمكن أن نفعله*. مستعدَّة *أن أترك كلّ شيء وأهرب معك. لن تحرمني منك أيَّة قوَّة*. حتى *في قبري لن تستسلم روحي، وستحفر منفذًا وتأتيك كلّ ليلة*.

نمت على صدره باستكانة، وتأمَّلنا البحر والسماء من أعالي الجبل.

وصلنا إلى أشياء غريبة، ولا أدري كيف قبلت بها لا أدري من أين جاءني عليلو بفكرة الكحول الطبِّيّ. إذا اضطررت إلى النوم مع والده! *اطلِ جسدك بالكحول الطبِّيّ، حتى لا تلتصق رائحته بجسدك*. الفكرة أراحتني قليلاً بدت لي معقّمة للمخّ وليس للجسد وحده، الذي كان وقتها بين يديْ عليلو وملكه. الكحول ينشِّف البشرة، لكنَّه يمنع موقَّتًا الروائح الأخرى من الالتصاق. لا بدَّ أن تكون مكتشفة هذا امرأة تكره زوجًا فُرض عليها بالقوَّة. تذكَّرت كلمات ديدرو التي حفظتها في

الثانويَّة، بصدد تحرير المرأة: *رأيت امرأة شريفة ترتعد ذعرًا كلَّما اقترب منها زوجها رأيتها تستحمّ العديد من المرَّات عبثًا، للتخلُّص من لطخة الواجب. هذا النوع من الرفض لا يمكن أن نحسّه نحن الرجال*[1]

في غفلة هاربة، تقاطع نظر كازانوڤا بنظرها لاحظت روكينا أنّ وجهه كان قد أصبح أزرق وجافًا وباردًا مثل شواهد القبور، لا شيء فيها إلَّا الأسماء الباردة التي لا يتوقَّف عندها إلَّا من يعرفها قليلاً، قبل أن يتركها ويمضي نحو شأنه.

لم يتحرَّك أبدًا بدأ يسعل بقوَّة سعالاً استمرَّ طويلاً حتى كاد يخنقه. لم تتحرَّك روكينا من مكانها، وهي على مسافة ذراعين منه، وكأنَّها لم تكن معنيَّة بشيء. نادت بصوت فيه غنج، وكأنَّها كانت تؤدِّي دورًا مسرحيًّا: مسعود، *الكونت يختنق. أسرع لسيِّدك قبل فوات الأوان*. ركض مسعود نحوه. وضع كمَّامة الأوكسيجن في فمه. تنفَّس كازانوڤا بصعوبة، في البداية، قبل أن يستعيد تنفُّسه الطبيعيّ. تلمَّس دقَّات قلبه. *كلّ شيء على ما يرام*، تمتم مسعود.

ـ هو الآن أفضل يا سيِّدتي، يمكنك أن تواصلي مسامحتك معه. عذرًا، أزعجتك في صفاء لحظاتك مع سيِّدي، لقد كنتِ مدلَّلته. كان يفضِّلك على الجميع.

ـ حتى قبل ساراي وقبل سكرتيرته الجديدة، زكيَّة؟ هههه.

ضحكتها كان فيها دلال كبير، وغنج واضح.

ـ كنتِ الأفضل ممَّن أحبّ وتعوَّد عليهنَّ سيِّدي. ساراي غير محسوبة يا سيِّدتي، غادرت منذ مات ابنها. طلَّقها سيِّدي قبل أن

(١) Denis Diderot. Sur les femmes. P. 85

تتحوَّل إلى حمامة تنغِّص عليه راحته. وزينا حالة هوى طارئ لم يكونا يصلحان لبعض. حتى هي كانت مدركة لذلك، وعادت إلى زوجها الأوَّل وهي سعيدة معه. ثم إنَّها أصبحت مديرة الأوپرا الوطنيَّة.

ـ الكونت كان يحبّ حمامته التي كانت تزوره كلّ ليلة.

ـ كان يداريها يا سيِّدتي فقط، لأنَّها خدعته. تركته ولم تلتفت نحوه. خرجت من البيت وهي حامل، وتزوَّجت من غيره. لوَّثت ذرِّيَّته. أهانته. على الرَّغم من ضعفه تجاهها، لم يسامحها على فعلتها المشينة.

ـ لكنَّ هارون ليس ذرِّيَّة ملوَّثة، هو ابنها الشرعيّ. هل تشكّ في ذلك؟

ـ لا، ولكنْ كان يجب أن تعود للرجل الذي أطعمها من جوع وآمنها من خوف.

ـ تعبتْ منه. الحمامة ما سرُّها؟

قالت روكينا مستفسرة ونظرها بين كازانوڤا ومسعود.

ـ من كرامات سيِّدي لوط التي لا ينالها الشكّ: هو سليل أولياء الله الصالحين سيِّدي منير، حامي المنارة سيتي. أتركك تتصافين معه يا سيِّدتي. الوقت ضيِّق. سيِّدي ألحَّ على هذه اللحظة، قبل أن يستعيد الباري روحه. كنت حاضرًا عندما كلَّف الإمام زكريَّا، بعد اعتقال الإمام ولد الزهرة، لينفِّذ هذه الوصيَّة. لا يريد أن تعود الروح لخالقها مثقلة بالديون.

ثم انسحب مسعود نحو غرفته المحاذية لغرفة كازانوڤا

كان كازانوڤا مستكينًا لعودة أنفاسه التي كانت تضيق عليه من حين لآخر لدرجة الاختناق. سمع كلّ ما قاله مسعود لروكينا، إذ كانت

عيناه تشرقان من حين لآخر، لدرجة أنَّه كان يفتحهما كلَّما سأله مسعود: هل سيِّدي بخير؟ حرَّك أصابع يديه ورجليه، لكنَّ روكينا لم تنتبه لكلِّ ذلك، أو لم تعره أيَّة أهمِّيَّة.

مرَّة أخرى، يواجه كازانوڤا قدرًا عاريًا

ـ كازانوڤا كونتي الجميل مَنْ غيَّرك؟

أنا لا أفهم التحوُّل الذي مسَّك في الأعماق! كنتَ رجلاً موديرن يحسدك الكثيرون، فما الذي غيَّرك فجأة؟ فجأة، أصبحت لا تسير إلَّا بمشورة إمام معتوه؟ أنت لست نبيًّا يا كونتي العزيز. أنت رجل عاشق للنساء، ضعفك أنَّك لا تعرف كيف تحبّ. الحبّ شيء آخر. أنت تؤمن بأنَّك الأوحد في الفراش، أنَّ امرأتك جزء من عنفوانك وخسارتك أيضًا، وأنَّك قادر على توقيف الرياح الساخنة التي تسرق منك من تحبّ، قادر على حربك المقدَّسة مثل الأخيار من عشَّاق هذه الأرض، وإلَّا ستصبح عاديًّا حتى بمالك، لا تساوي أكثر من الحفنة التي تمنحها لمن يشيد بك ويمدحك، ويغدق عليك بكلِّ النعوت الممكنة. تعوَّدتَ على الانتصارات حتى في زواجك. كلّ امرأة تركض وراءها بحرقة، كلَّما ابتعدت تنامى جنونك، وعندما تمتلكها وتصبح أثاثًا، تدَّخر جهدك لامرأة أخرى، ما تزال بعيدة، لكنَّها تدور في فلكك. وأنا أتأمَّل زينا عن قرب، كم حسدتها وحقدت عليك أكثر أنَّك سرقتَ حلمي! أدركت في وقت مبكر أنَّ علاقتها كانت عبثًا عاشته كما تصوَّرته، لهذا تَرَكَتْكَ بلا حسابات. حتى جناحها لم تعد له منذ أن غادرتك. ركضت وراء أسطورتها حتى ذلَّلتها، وأصبحت سيِّدة عليها كان يمكنها أن تفعل ما فعلته ساراي، لكنَّها جاءت لتسمعك ما في قلبها، حتمًا ليس طيِّبًا   هي أيضًا جرحها كبير الفرق بيني وبينها هو أنَّها لا تحمل في قلبها ما يسكنني. جرحي أكثر قسوة. عرفتك

وهي في مجدها في الأوبرا لم تتنازل لك عن شبر واحد من حقّها، عندما كانت الموسيقى والمسارح تعني لك شيئًا مع أصدقائك الأميركان. لا أدري إذا كنت مؤمنًا بجدواها، أم فعلتَ ذلك فقط لتظهر لهم ثقافتك ومعارفك وحاسَّتك وذوقك؟ كنتَ سيِّد الكلام واللغة وحلاوة اللسان. من هذه الناحية، فيك سحر غريب، وجاذبيَّة تنقص أجمل الرجال وأكثرهم شبابًا زينا عرفت قصَّتي متأخِّرة، بعد أن افترقتما. ويوم زرتها في الغاليري، استقبلتني هي وأختها ليدْيا وزوجها التركيّ أصلان الذي كان يستعدّ للسفر، بمحبَّة وبكبرياء امرأة حقيقيَّة. حكيت لها قصَّتي كلّها. عندما انتهيت، لم تستطع أن تُوقف دمعها ضمَّتني إلى صدرها وتركتني أبكي، حتى أفرغت حرائقي، ثم سحبتني نحو مطعم البحر. تغدّينا هناك. ونحن على حوافِّه، طلبت منها أن تعود إلى بيتها، فما يزال جناحها مغلقًا لم يمسسه أحد. قالت وهي تمسح على وجهي بمحبَّتها العالية: *لا، يا روكي. انتهى كلّ شيء، ولم يعد هناك ما يسحبني نحوه. عندما نختار شيئًا نتحمَّل خسارته وقسوة التمرُّن على نسيانه. هو اختارك، لا حبًّا، ولكن مرضًا اغتصبك. وأنا لم يعد لي مكان هناك. على كلٍّ، زواجه منك كان نقطة الماء التي أفاضت الكأس. قام محاميَّ بكلِّ الإجراءات القانونيَّة، لاستعادة ما هو لي فقط، وما هو له لا يخصّني. حاول أن يكذب عليّ مرَّة أخرى، لكنّي قلت له كلمة أعتقد أنَّها جرحته في العمق؛ مقتل الرجل رجل آخر يدور في حواشيك.*

ـ يكفي حبيبي، لم تعد مجبرًا على الكذب، ولم أعد مجبرة على تحمّلك. اخترت طريقك، واخترت مسلكي.

ـ آدريان.

ـ ربَّما لكنَّ اليوم في رأسي شيئًا واحدًا: الأوبرا

ـ لا أعتقد. لقاؤك بآدريان في ڤيينا غيَّر كلّ شيء.

ـ الذي جعلني أُغيِّر كلّ شيء هو أنتَ. أنت وحدك. لا نصلح لبعض.

استهلكنا كلّ إمكانيَّة للفرح المشترك. أن يبدلكِ رجل بامرأة أخرى، أو بمشتهى يراه أفضل، معناه أنَّه يطلق عليكِ النار بدون أن تتمكَّني من الردّ عليه. ولا حلّ! إمَّا أن تستمرّي في اللعبة، أو توقفيها بقسوة أوقفتها

كانت زينا امرأة حقيقيَّة. أغار من شخصيَّتها العالية وقوَّتها سألتها أكثر ونحن نمشي على الساحل المهجور:

ـ أفهم أنَّك لا تنوين العودة له.

ـ لا، أبدًا هو اختار، وأنا أيضًا اخترت أن لا أبقى في عنقه.

ـ أتحدَّث عن آدريان يا زينا

ـ آههههه. غبيَّة أنا، حقيقةً. لم أفهمك جيِّدًا افترقت عن آدريان لا كرهًا فيه، فهو إنسان سخيّ جدًّا، وجميل القلب. لكنَّ عيبه الكبير هو ارتباطه المَرَضيّ بعمله. يمرّ قبل كلّ شيء، وأنا امرأة شرقيَّة، أريد أيضًا من يحسّسني أنَّني أنثى، مرغوب فيها لا رجل لي إلَّا هو. لهذا، في يوم من الأيَّام فككنا العلاقة. هو يريد أن نرجع كما كنَّا أعرف أنَّه تغيَّر كثيرًا لكنْ أريد فترة أرى فيها الأشياء بصفاء أكثر كازانوڤا يركب رأسه قليلاً عندي عملي في الأوپرا، يأخذ منّي كلّ الوقت، والغاليري، نخطّط أنا وليدْيا وآدريان، يشترك معنا أحيانًا، أصلان، لتحويلها إلى متحف صغير للمقتنيات النادرة.

ـ أنا، على العكس منك، حلمي توقَّف على حافَّة الموت كازانوڤا سرق منّي حياتي. قتلني. أعماني، وحوَّلني إلى آلة لا شيء

في ذهنها إلّا الانتقام.

ـ لا يا روكي. ما زلتِ حيَّة ومليئة بالنور. امرأة شهيَّة. يمكنك أن تُعيدي تركيب حياتك وفق ما تشتهين. لا تدعيه يقتلك ثانية. استسلامك لسلطانه يعني ببساطة أنَّك انهزمت أمامه. الانتقام عندما يكبر ويشتعل، يأكل كلّ شيء، بما في ذلك حامله. حاذري. اختاري الحياة بدل الموت.

ـ لا أدري إذا كنت سأتخطَّى حجم الضغينة التي تلتهب في داخلي!

ـ أعرف أنَّ الموضوع ليس سهلاً لكنَّك ما زلتِ حيَّة. لا أعرف كيف ستحلّين مشكلاً معقَّدًا مثل هذا، لكنْ عليلو يحبّك. واضح من كلّ ما حكيته لي. الزواج ليس قدرًا مطلقًا، طلِّقي كازانوڤا وتزوَّجي عليلو رسميًّا، أو عيشي معه. هو في سنّك وحبيبك. لا تخافي، الزمن كفيل برتق كلّ الجراحات المفتوحة.

ماذا أقول يا كازانوڤا سوى هذه النار التي تأكلني من الداخل، والتي لن تستطيع فهمها أبدًا؟

لا أدري يا كازانوڤا إذا ما كنت قد فهمتني جيِّدًا أم لا، لكنَّها كانت سبيلي للمزيد من الانتقام من جريمتك في حقِّي. لم أكن مستعدَّة لتضييع ثانية واحدة في الندب والبكاء الذي يريحك، ويحسَّسك بالقوَّة التي تبحث عنها والتبعيَّة لخيباتك. حفظت الدرس بسرعة يا كونتي *العزيز*. قتلُكَ لي أيقظ كلّ مكامن الانتقام المتخفِّية في أعماقي.

فجأة، صمتت روكينا للحظات. بدأت تتأمَّل حيطان وسقف الصالة الأندلسيَّة.

عينا كازانوڤا تدوران بتثاقل في محجريهما، كأنَّه في دهشة كبيرة،

ينتظر شيئًا غامضًا لم تقله شفتا روكينا. حرَّك قليلاً جبهته التي ارتسمت كلّ تجاعيدها بشكل واضح، ووجهه المتعب. لا يعرف ماذا يتخفَّى في قلب روكينا التي كانت أحيانًا تتلذَّذ بما كانت تقوله، وكأنَّها كانت عبارة عن مجموعة من العلب المليئة بالثعابين، الواحد أخطر من الآخر

ـ لا تستغرب يا كونتي العزيز، فأنا أقسمت مع نفسي أن لا أُسمعك إلَّا الحقيقة، لأنَّنا قد لا نجد فرصة ثانية تمنحنا راحة القول كما هذه. ما حدث بيننا منذ تلك اللحظة التي أعدمتني فيها، كان بلا لغة. شديد القسوة.

تتذكَّر يا كونتي الكبير، عندما تخطَّيتَ عتبةَ بيتنا الأولى؟ استغربت أنَّك حضرت وحدك بدون السيِّدة الكبيرة، أمّ عليلو، لالَّة كبيرة. كيف تخطبني لابنك وزوجتك ليست معك؟ معناه أنَّها ليست راضية بي؟ قلت ربَّما هي مجرَّد كلمة تأكيديَّة على جدِّيَّة العلاقة، قبل ترسيم الخطبة عائليًّا لا يحتاج الأمر إلى إزعاج العائلة. كنت طفلة ساذجة محكومة بنيَّتها الطيِّبة تجاه الأشياء. كنت مشبعة بعليلو وبحلمي معه الذي انهار في ثانية واحدة. كنت أنتظر زيارتك بفارغ الصبر، بعد أن أكَّد لي عليلو أنَّك قادم إلينا لترسيم علاقتنا. قال لي: *ننتهي بما يرضي العائلتين، بعدها نسافر بعيدًا نهرب معًا إلى أقاصي الدنيا لا نعيش الحياة، ولكن نقضمها قضمًا ونستلذّ بكلّ ثوانيها. نسرق حقًّا لا يدوم طويلاً الموت والأمراض والخوف تحتلُّ كلّ البياضات التي فينا* كلّ كلمة منه كانت تدفع بي عاليًا نحو سابع سماء. فكَّرت وقتها في شيء واحد، وهو: كيف أكون أمّك يا كازانوڤا، خادمتَك، ماسحة حذاءك، ومدينة لك بهذا العمر كلِّه، لأنَّك الأوحد من سيجمعني بمن أحبّ؟ هكذا تصوَّرت على الأقلّ.

تتململ يا كونتي *العزيز*؟ هل بدت لك الجريمة ثقيلة الآن؟ أم أنَّ ذاكرتك أصبحت ملساء ولزجة، كذاكرة دودة؟ أنا لم أقل شيئًا بعد. هل أذكِّرك كيف زرتنا يومها، أم أنَّ كلّ شيء مرتّب في دماغك؟

أغلق كازانوفا شفتيه. أغمض عينيه. مدَّد ذراعيه مثل ميِّت، ثم استكان.

ـ أنتَ ربَّما نسيتَ، لأنَّ الأمر لا يهمّك كثيرًا، أمَّا أنا، فلا

كنتُ قد حضّرت أهلي بأن يقبلوا فقط ولا يسألوا كثيرًا، أكَّدت لهم أنَّ عليلو هو كلّ حياتي، بالخصوص لأمِّي، فهي تعرف كيف تصوغ الأشياء أمام بابا أحمد، الذي لا يعرف شيئًا سوى ترديد كلام الشيخ ابن الزهراء الذي يصلّي وراءه، ويرى فيه كلّ الخصال مجتمعة. كنتَ يومها تلبس الأبيض يا كونتي الكبير. برنسًا حريريًّا جميلاً، يخفي طاقمًا أسود من الألباغا[1] عندما جلستَ، ركضتُ نحوك، ونزعتُ بلغتك البيضاء، كما أفعل مع والدي أيَّام الجمعة، عندما يعود من صلاة الجمعة. ربَّما كنتَ تكبره بخمس سنوات. ثم سلّمتُ بلغتك الفاسيَّة لخادمك مسعود الذي لا يترك أحدًا يقترب منك، إلَّا أنا يومها بشكل استثنائيّ. شعر بقبولك لي من خلال نظراته وخزرة عينيه. والدي حكّ على رأسي، وتمتم كعادته وتسامحه: *ربِّي يحفظك يا ابنتي*. بنت أصول. *ثم واصل أمامك، رقيَّة حبيبتي، هي رجل الدار، شجاعة ومربّية تربية عالية. هذه السنة ستلتحق بالجامعة، معدَّلها يؤهِّلها للطبّ*. شرّفتني حقيقة. *لكنِّي اتَّفقت معها أن تظلّ في الشرع، لهذا ستدرس الطبِّ النسائيّ والتوليد. حتى الشيخ ابن الزهراء موافق على ذلك*. كنت أحلِّق ووالدي يصفني بفخر كان صادقًا، لأنَّه قال لي

---

(١) Alpaga

ذلك. على الرَّغم من عناده أحيانًا، لكنَّ قلبه يظلّ شديد الطيبة.

غادرتُ المكان لأحرِّرهما من وجودي. كنتُ على يقين أنَّ كلّ شيء سيتمّ بخير. تلفنت لعليلو لأبشِّره: خلاص حبيبي *إنَّهما يتحدَّثان عن دراستنا ومستقبلنا طوّلوا كثيرًا فقط، لأنّ في المسألة جدِّيَّة كبيرة. طيِّب، لماذا لم تأت أمّك، خالتي كبيرة؟* صمت قليلاً: ثم قال، لا أعرف. *ربَّما مجرَّد اتِّفاق أوّلي بين الرجلين، وبعدها نرسم الأشياء لاحقًا ونذهب جميعًا سأسأل لوط فور عودته، قالت أمِّي.* أجبت عليلو بغبطة بما قالته لي أمِّي: *أوَّل لقاء دائمًا رجَّاليّ.*

وقت كثير مرّ بدون أن يخرجا. وعندما دخلت عليكما، لم أجد أيّ حديث عن الزواج. كان كلّ شيء قد انتهى. كنتما منهمكين بشرب الشاي، بعد الأكل. أحسست أنَّ والدي لم يكن سعيدًا من عينيه، من بعض الصفرة التي علت ملامحه، واحتلَّت وجهه. أقنعت نفسي بأنّ ذلك من تعب العمل والخوف عليّ. فجأة، رنَّت كلماتك يا كونتي البائس، في أذنيَّ مثل مطرقة صدئة، لكنِّي حاولت أن أجد للأمر تفسيرًا، وهو حبّك لابنك، بالخصوص عندما وضعتَ يدك على رأسي، وبدأتَ تتحدَّث إلى والدي.

ـ قليل عليها لن أدَّخر جهدًا أبدًا في إسعاد رقيَّة. سأكتب لها السبا SPA الجديد باسمها، فور الانتهاء منه. هذا مهرها الأوّلي فقط، وستكون هي من يديره في أوقات فراغها سيكون الجناح الجديد، في الطابق الثالث لها وحدها، سواء كنتُ حيًّا أو ميتًا. في انتظار أن تكون مديرة مصنع قطع الغيار الذي ننوي إنشاءه مع شركة فورد الأميركيَّة، إذا سارت الأمور وفق ما أردناه. سأعرِّفها بوكيلتي الأميركيَّة جوليا، سندوّن هذا كلّه رسميًّا عند القاضي والموثِّق.

أعجبني سخاؤك، لكنَّ ذلك كلّه لم يكن يهمُّني أبدًا. المهر كان

ثقيلاً، لكنّي لم أطلبه. ظننتك تريد أن تكرِّم ابنك وزوجة ابنك كما يفعل الكثير من الآباء. لمَ لا؟ كنت في أعماقي سعيدة بأن أدير أنا السبا، حتى ولو كنّا أطبّاء. وفكّرت ليلتها أن نستحدث معالجة المفاصل بالحمّام، لإعادة تأهيل الذين يقومون بعمليّات ثقيلة. المهمّ أن نكون معًا أنا وعليلو. لم تكن الفكرة خائبة، لكنّي رأيتها كرمًا مبالغًا فيه منك. وربّما طلبت من والدي فعل ذلك في مكاني إذا أراد، بعد أن أُجبر على التقاعد بسبب خلافات مع الإدارة. حوّلوه إلى لا شيء، يظلّ بين رجليْ أمّي ينتقد الصغيرة والكبيرة تحت أمر إمام يركض وراءه حتى آخر الدنيا فقط ليصلّي وراءه. كان مسؤولاً ماليًّا *للشركة الوطنيّة للجلود الصناعيّة*. وعندما اكتشف تحويلات ماليّة مشبوهة، وغير مبرَّرة، أحاط الإدارة العليا علمًا بذلك. لم يكن يعرف أنَّ السرقة والنهب أصبحا نظامًا قائمًا بذاته، مثل البنيان المرصوص. الكلّ يحمي الكلّ. بدل معاقبة الجناة، عوقب هو، وكادوا أن يُلبسوه تهمة كان بريئًا منها، عندما رفع تظلُّمًا للوزارة، أرسلت بعثة مراقبة، وجدت كلّ الحسابات التي كان يشرف عليها والدي، جيِّدة، لا تشكو من أيّ نقص. على إثر ذلك، سُجن موظَّفان في الحسابات، سرعان ما أُطلق سراحهما أصبح والدي مثار تهمة مسبقة، والكثير من العمّال كانوا ينادونه الحركي. يتنادرون أمامه: *ها هو جاء الحركي؟ احذروا الحركي؟ يا الحركي راك مركي بلاكري*[1] حتى أبناؤهم السخيفون الفارغون، كانوا يجدون لذّة لذكر ذلك أمامي، بفرنسيّة مقعَّرة، لا يتقنونها، *Oh! regardez, le traitre de deux sous hahahaha*[2] ثم اضطرّوه إلى التقاعد في وقت مبكر انكفأ بعدها إلى قراءة القرآن

(١) الحركي هو الخائن. أيّها الخائن لقد كُتِبَ اسمك بالطباشير في الحيّ.

(٢) ههههه. انظروا الخائن الذي لا يساوي فلسين.

والعودة إلى الدين. يردّد دومًا، كلّما جلس على الكرسيّ وفتح القرآن الكريم: *ربِّ اشْرَحْ لِي صَدْري ويسِّر أمري*، لكي لا أنفجر، *فلا خير في هذه البلاد وهؤلاء البشر. الظلم عمّ حتى أصبحنا الأقلّيّة التي يجب أن تندثر.*

عندما هممتَ بالمغادرة، ركضتُ لآخذ البلغة من يديْ مسعود، الذي ظلّ ساكنًا أمام حركتي. انحنيت، ووضعتها في رجليك. مسّدتَ على رأسي كأنَّك كنتَ تباركني لابنك. أعرف أنَّ التقاليد لا تسمح لعليلو بالحضور، ولو أنّي أعرف أنَّنا تجاوزنا هذا من زمان، واختارت أغلب العائلات العلاقات الحديثة. في كلّ هذه الدوّامة التي مرّت أمامي بسرعة غريبة، شغلني والدي الذي كان وجهه أصفر، وصامتًا سألته بهدوء حتى لا تسمع صوتي أمّي التي كانت منهمكة في المطبخ. *بابا أحمد، خير إن شاء الله؟ واش؟ الرجل كان كريمًا بعض الأغنياء هكذا، هو لم يشترني لابنه يا بابا أحمد، هو يباركنا أنا وعليلو ابنه. لم أفهم صفرة وجهك. ألا تريدني أن أتزوّج يا بابا؟ ليس مهمًّا أنا متّفقة مع عليلو أن ندرس معًا، وأثق فيه بشكل أعمى، ويمكننا أن ننتظر قليلاً عليلو سيصبر عليّ، فهو ليس من النوع الذي يلعب.*

تمتم أبي، بالكاد سمعته.

ـ *ما عليهش. كلّ الخير يا ابنتي.*

شعرت بوالدي باردًا في كلّ شيء. أعرف طبائعه. يضخِّم الأشياء أحيانًا لدرجة الغرابة، وهي أبسط من ذلك. شعرت بشيء غريب يخترقني كالسهم. لا أدري لماذا صرخت في وجهه الذي ظلَّ صامتًا، كأنَّه كان ينصت لداخل جريح.

ـ *بابا؟ هل فيه شيء؟ أرحْني من هذا.*

صمتٌ قاتل زاد في قلقلي وخوفي من شيء غامض.

هززته بعنف. لكنَّه كأنَّه لم يحسّ بي، بل لم يرني.

ـ بابا طمّني على الأقلّ. ماذا حدث؟ أخبرني. لستَ بخير يا بابا

ـ اسمعيني جيّدًا. أنا كبرتُ، وعليلو ما يزال شابًّا، وسيغيّر رأيه بمجرَّد التحاقه بالجامعة. لا يستطيع أن يحميك من انقلابات هذه الدنيا القاسية. انظري كم سنة عملت في تسيير الشركة الوطنيَّة للجلود الصناعيَّة، واليوم أنا كالمتاع الزائد الذي رُمِيَ. كأنّي لم أعمل بهذه المؤسَّسة يومًا واحد. اقترح عليّ لوط أن يُعيدني إلى عملي نفسه الذي سُرق مني، بمرتَّب أفضل، لكنّي رفضت. لم أعد قادرًا على أيّ شيء.

ـ وأنا في كلّ هذا يا بابا؟

ـ طلب منّي في الأخير أن أساعده في مكتبه للمحاسبة، ويستفيد من خبرتي. لم أمانع.

ـ طيِّب يا بابا جيِّد، ويكثّر خيره. لكن أنا وعليلو في كلّ هذا؟

ـ رجل فاضل وكبير النفس.

صرخت مرَّة أخرى بأعلى صوتي لدرجة أن فتح بابا أحمد عينيه طويلاً فيّ، وهو يتساءل إذا كانت هذه هي ابنته التي ربَّاها وعرفها وظلَّت طيّعة، تسمع لكلّ كلامه.

ـ باباااااا أرجوووووك. قل لي ماذا فعلتما بي وبعليلو؟

ـ ستكبرين في العزّ والرفاه، وتكونين سيّدة من سيّدات المجتمع. لن تكوني تحت رحمة أحد، ولا حتى عليلو. لن تكوني بنت الرجل البائس الذي أراد أن يقحم أنفه فيما لا يعنيه، فوجد نفسه في الشارع يتنفَّس جهله.

شعرت بحريق مهول يشبّ في داخلي. رفعتُ صوتي أكثر كأنَّه لم يكن أبي. في لحظة من اللحظات، أحسست أنَّه لم يكن معي مطلقًا، ولا علاقة لي به، على الرَّغم من أنِّي كنتُ أهزّه بعنف، وأنتظر صفعته المدوِّية.

ـ *باااااااباااااااا وأنا في كلّ هذا البؤس؟*

وكأنَّه انتبه لي أخيرًا وخرج من سكرته.

ـ *أنت ستعيشين معزَّزة مكرَّمة مع زوجك. شدَّة وتزول، وسيفهم عليلو أنَّ والده يريد له كلّ الخير. مع لوط، لن ينقصك أيّ شيء. الرجل كان متفهِّمًا، وأعطاكِ مهلة للتفكير، بعدها يبحث عن غيرك. قصدنا، لأنَّه يقرأ فينا الخير. سأسأل الإمام ابن الزهراء، إذا لم يقبل، فأفصل في الأمر.*

الإمام ابن الزهراء لن يمنعه من تجديد فراشه.

في البداية لم أصدِّق. ظننته يمزح، أو يريد أن يسخر منِّي، كما تعوَّد أن يفعل معي أحيانًا، فقط ليسترضيني لاحقًا، ويعانقني ويقول لي توحَّشت بنيَّتي رقيَّة *فقط*؛ أو نكتة بائسة كثيرًا ما خبَّأ وراءها يأسه في عالم لم يعد يراه كما كان.

كنت أرتجف. نزل عليّ شيء يشبه الماء البارد. خفَّفت من صراخي.

ـ *بابا حبيبي، قل لي إنَّك لستَ جادًا؟*

ـ *لا يا ابنتي. لا نسخر بما هو مصيريّ. حقيقي عليلو ما يزال صغيرًا، ولا يقدر عليك.*

ـ *وهل وافقت على أن تزوِّجني من رجل هو بمثابة أبي؟*

هزرت رأسي يأسًا. حتى الدمعات تحجَّرت في عينيَّ، ولم تخرج

إلَّا في شكل زجاج مكسور. كلّ شيء فيّ كان يؤلمني.

ـ لا خيار يا رقيَّة. هذا مستقبلك. وعليلو ربّي يلاقيه بغيرك.

ـ يا بابا أنت تعرف أنَّ مستقبلي في دراستي مع عليلو وزواجي به.

ـ الدراسة اليوم لا تطعم من جوع ولا من فقر يا رقيَّة. كوني عاقلة وفكّري للبعيد.

ـ يا بابا العزيز، هل تدري ماذا فعلتَ؟ قتلتَني وقتلتَ عليلو، بسكّينة حادَّة. ستندم عمَّا اقترفته يداك وقلبك. سأرفض أو أقتل نفسي، وليذهب لوطك إلى الجحيم.

ثم هززت رأسي يأسًا منذ تلك اللحظة، بدأت أفكّر في الانتحار. قال وهو يحاول أن يلمس شعري، لكنّي نزعت يده، وانسحبت بعيدًا عنه، وبدأت أشعر كأنّي تحوَّلت فجأة إلى ذئبة هرمة.

ـ لا توجد في عائلتنا من تعصي والدها الانتحار جريمة قتل حرّمها الله.

ـ وجريمتك ضدّي؟ غير محسوبة؟

ـ الزواج حقّ أحلَّه الشرع، وما عداه عصيان.

ـ أيَّة معصية يا أبي وأنت بعتني؟ الأخطر من هذا، فقد سرقك منّي.

أظلمت الدنيا في عينيَّ، وتحوَّلت إلى شيء هلاميّ غطَّاني ومنعني حتى من التنفُّس. في الليلة نفسها، فكَّرت ليس فقط في الانتحار، ولكن أيضًا في الطريقة. حضَّرت نفسي لشرب محلول الجافيل. لم أخن عليلو بقراري، لأنّي اعتبرت نفسي لحظتها امرأة ميّتة. قلت: أخبره أوَّلاً قبل أن يفاجأ بموتي، ربَّما كان لديه حلّ آخر كالهرب بعيدًا. أستأنس بصوته الناعم. حسنًا فعلتُ. كان عليلو إيجابيًّا أكثر

منّي. بل بدا لي مجنونًا، لأنَّ ما قاله كان خطيرًا جدًّا. كنت أعرف جيِّدًا هبله عندما يركب رأسه، وإلَّا لقلت إنَّه غير معنيٍّ بمصيري. ورنّت جملته السحريَّة في رأسي بقوّة: *اسمعيني جيِّدًا، روكي حبيبتي، من الغباء أن نمنحهما حياتنا. حياتي وحياتك ملكنا الموت لن يحزنهما أبدًا سيجدان كلّ سبل النسيان، ونتحوّل إلى تراب. سنمّحي بسرعة أمام جشعهما وربّ هذه الدنيا لن يحرمنا من بعض، أيّ منهما في رأسي جنون، هو قوّتنا المضادَّة الوحيدة، إذا لم يضبط نهرب معًا، أرض الله واسعة.*

طمأنني أنَّنا سنجد حلًّا معًا. امتصّ كلّ خوفي. كلّ نقاشاتي لم تثنِ لا والدي ولا والده. بابا أحمد لم ينتظر نهاية الأسبوع، إذ بمجرَّد ما فتح أمامه ابن الزهراء الطريق الشرعيّ، وافق على الزواج.

من يومها، خرجنا أنا وعليلو من الدائرة العائليَّة، وبدأنا نخطِّط لشيء آخر، كنتُ متأكِّدة من أنَّه سيقتلك.

اسمعني يا كوُنْتْ، رجل المستحيل، كما يسمِّيك زبانيَّتك.

شهران قبل الزواج، أقنعت أمِّي بالذهاب عند صديقتي أحلام للراحة قليلاً لكنَّ أمِّي رفضت في البداية. قلت لأحلام *تعالي أنقذيني من مخالبهم قبل أن أموت*. كانت تعرف القصّة بكلِّ تفاصيلها لم تتردَّد أحلام ثانية واحدة في المجيء. جاءت من الجنوب حتى منارة سيتي، بعد أن قطعت مئات الكيلومترات. وطلبت من والدي أن يتركني أذهب عندها لأرتاح قليلاً قبل الزواج. كان أبي يعتبر أحلام نعم المتخلّقة، تتوفَّر فيها كلّ الصفات الجميلة. تسلِّم كلّ صباح على رأس ويد والدها. متحجِّبة ولا يُرى حتى كعبها. لسبب كنتُ أعرفه، لا تسافر وحدها قالت له إنَّ أخاها ينتظرها عند الأهل. يُضرب المثل بها دائمًا، ويدفعني للاقتداء بها في الحجاب على الأقلّ. بإلحاح من

أمّي، وافق بابا أحمد وهو يسخر مع أحلام، بطريقة بدت ثقيلة وكريهة: *لازم تحجّبيها مثلك وإلّا سأعتبر مهمّتك فاشلة*. ههههه. كانت أحلام أذكى ممّا تصوّرت. الذكاء الفطريّ الصادق في لحظة الدفاع الحيويّ. *كازانوفا سيقتلك لو استسلمت له بسهولة*. أضافت: *الرجال يحتاجون إلى الحيلة. نتحايل على والدك*. لا يوجد رجل يقبل *بالصراحة. كلّما صارحته ضيّعتِهِ إلى الأبد*. خرجنا من البيت، واتّجهنا لمكان الموعد مع عليلو. وأنا أفتح باب سيّارته، قالت له: *اسمع يا عليلو*، هذه حبيبتي وأختي. *أمانة، لو ما تسعدها، سأحاربك ما تبقّى من عمرك*. ضمّتني إلى صدرها بقوّة، وحاولت جاهدة أن تمنع دموعها من الانحدار. ثم غابت بسيّارتها بعيدًا، بينما ركبتُ مع عليلو الذي تحرّك بسيّارته في عمق الأدغال لمدّة ساعتين، قبل أن نصل إلى نزل بيت *السراب* الذي كان يشبه القلعة البيضاء. لا رائحة للبشر فيه، إلّا بعض السوّاح الآسيويّين والألمان، من أنصار الطبيعة.

جنون عليلو لا يمكن تخيّله. رتّب كلّ شيء.

تلك الليلة، ألبسني طرحة بيضاء، حواشيها من الحرير الأصيل، وخرجنا معًا نحو الحديقة العطرة. ومشينا بخطى وئيدة تحت تصفيق السوّاح الآسيويّين والألمان، وكأنّنا كنّا في استعراض خاصّ. لا أدري كم دفع عليلو لصاحب النزل لكي يتركنا نقضي الليلة معًا، بدون أن نظهر أوراقًا لم أسأله. هو من قرأ كلّ شيء في عينيَّ. *صديق الطفولة، ونعمتي عليه سابقة*.

مساء، جلسنا على حافّة وادي الكبريت الذي يمرّ مجراه الشماليّ بمحاذاة نزل بيت *السراب*. كنت كلّما بكيت، وضع رأسي على صدره، وتمتم في أذني: *ألسنا معًا؟ سنبقى معًا، ولن يفرّقنا إلّا الموت*.

ـ كيف حبيبي؟
ـ سنتزوَّج. نعم. *معنا إمام سيزوِّجنا شرعيًّا*
ـ *وأبوك؟*
ـ *أنا سيِّد نفسي*. وزواجه بك اغتصاب لا أكثر، يفترض أن يُسجن عليه.

في الغرفة، جاءنا شيخ شكله صينيّ. اسمه لم يكن بعيدًا عن شكله. الشيخ شنغهاي سيِّدي محمَّد.

وضع عليلو الخاتم في إصبعي، وقرأ الشيخ شنغهاي الفاتحة، وبارك لنا الزيجة. وقّع الشاهدان، صاحب النزل وأحد الموظَّفين. من تلك اللحظة، لم أعد أسأل عن أيّ شيء، استسلمت نهائيًّا لعليلو. كنت له بكلِّي. نسيت أنِّي سأكون زوجة لوالده بعد أيَّام. وقضينا أسبوعًا كاملاً كنت زوجته بشكل كامل. حبيبته. أمّه. وخادمته وروحه. لم يكن عليلو يبكي. كان سعيدًا بقوَّة. في تلك الليالي الجميلة، التي لن تزول من رأسي أبدًا، قام بشيئين خطيرين غيَّرا داخلي. عرّاني ونزع منِّي كلّ خجلي. لأوَّل مرَّة، أعرف في نفسي تلك الذئبة الشرسة التي تأسرها روائح الذكورة، وتلك الجرأة، وذلك الجنون المتخفِّي. لم أتفطَّن لألم بكارة كنتُ أكرهها، فقد كانت المتعة طاغية، إلَّا لاحقًا، حينما قلت له وأنا أمسح قطرات الدم التي ارتسمت على الإزار الأبيض، وأنا نائمة على صدره. كنت سعيدة، بل وجدت أيضًا وقتًا للسخرية: *يا نااااس الحقوني. حبيبي عليلو اغتصبني*، ضمَّني نحوه وهو يتمتم: سعيدة؟ أجبت بلا أدنى تردُّد: *أكثر من السعادة*. قال وهو يضمّني بقوَّة نحوه: *كان لا بدّ أن أشعر بك، وأحسّ أنَّك لي، ولي، ولن تكوني لغيري، ولن أكون إلَّا لك، مهما حدث ما حدث.*

أغمض كازانوڤا عينيه، ثم صرخ حتى انتفخ وجهه، واحمرّت عيناه، لكنَّ صوته لم يخرج.

ـ لا، حبيبي، هذه البداية فقط. ما زال ما وصلنا للصحّ. اسمع البقيَّة، وانفجر إذا أحببت.

قضينا أيَّامًا ساحرة في نزل بيت *السراب*. وكنّا نهرب كلَّما سمح لنا الوقت. أصبحت أفبرك الكذبات بسهولة. كلّ لحظة كانت أجمل من الأخرى. في الليلة الأخيرة، قبل الزواج بأيَّام، بكيت بمرارة كبيرة وأنا في حضن عليلو. كنت أنتظر الطبيب. عندما وصل، فحصني. أكد أنَّي كنت حاملاً ضحكت في أعماقي، غمزني عليلو من وراء الطبيب وعيناه تبرقان من السعادة. عندما غادر، انفجرت ضحكًا وعانقت عليلو طويلاً، وتساءلت وأنا أضحك: كيف لا يمكنني *أن لا أحمل يا عليلو، وأنا كلّ ليلة لا أنام لحظة واحدة خارجك، من شدَّة الرغبة في الشبع منك*؟ كان شهوتي وكنتُ شهوته. كنت أسابق الزمن، لأنَّ الموت كان يتربَّص بنا في كلّ ثانية، كما افترضه حبيبي.

هل تعرف يا كونْتي العزيز، أنَّه من فرط جنوني وهبل عليلو، كان علينا أن نختلق كلّ الوضعيَّات المجنونة، تحته، فوقه، تحت السرير، على الأرض، وقوفًا، في الزاوية المعتمة، في عرض الغرفة كلّه، في غرفة النوم، في المطبخ على إيقاع غليان الماء الساخن لتحضير الشاي، تحت شجرة البلّوط، في تيرَّاس النزل ليلاً، على خرير وادي الكبريت، وحفيف الشجر. في كلّ لحظة، كنّا نُبدع وضعًا جديدًا، وحدنا كنّا نعرف سرّه. كنّا نريد مولودًا يجمعنا أبدًا يكون سرّ العمر. كان ينام فوقي على الرَّغم من أنَّه لم يكن يحبّ هذه الوضعيَّة، فقط ليكون التدفُّق سهلاً، وأحمل. مارسنا كلّ جنون السيدهارتا الهنديَّة، فقط لكي لا نخطئ الحمل. لا يمكن أن أخرج بلا حمل من كلّ تلك

الوضعيّات التي زرعت في أحشائي حبيبي يونس.

كانت قهقهاتنا تصل حتى الوديان والغابة.

ـ *يا مهبول، وهل كنت تشكّ في أنّي لست حاملاً بعد كلّ الجنون الذي ابتدعناه؟*

ـ *أجمل ما يمكن أن يحصل لنا في هذه الدنيا، قد حصل. مرحبًا بالموت.*

ونمنا متعانقين الظهيرة كلّها وعندما عدت إلى البيت، نبّهني والدي إلى أنَّ الخروج انتهى، وآن الأوان لكي أبدأ في تحضير عرسي، لأنَّ الوقت يمرّ بسرعة. اشتهيت أن أقول له اترك الوقت يمضي، ليس وراءه إلَّا ظلال الموت، لكنِّي زممت فمي ودخلت إلى غرفتي، وتمدَّدت قليلاً مسترجعة كلّ اللحظات المدهشة والجميلة التي عشتها في الأيَّام الأخيرة في نزل بيت *السراب*، ولم أندم على أيٍّ منها من حين لآخر، كنت أضحك. عندما تدخل أمِّي، وتجدني نائمة، يصلني همسها لوالدي: *اتركها تنام، كانت سعيدة ومشرقة، تبتسم كأنَّ الملائكة على فمها*

انفتحتْ فجأة عينا كازانوڤا على آخرهما، كأنَّه قدَّر حجم الكارثة، متأخِّرًا اصفرَّ وجهه وزاد اصفرارًا، كأنَّ الموت نشب مخالبه فيه بقوَّة. شعر بالاختناق يسدّ تنفُّسه من جديد.

ـ ألم تطلب أن تسمعني؟ ها أنا ذي أقول لك موتي. أنت لم تسمع شيئًا بعد يا كونتي العزيز. ادَّخر بعض قوّتك الأخيرة لتسمع بقيَّة الحكاية. تعوَّدتَ أن يدهنك الناس وفق ما ترضى وتشتهي. اليوم، أنت لا تسمع فقط امرأة مجروحة، ولكن مقتولة في أدقّ خلاياها.

زاد اختناقه، وسكنه سعال استمرّ طويلاً لدرجة أنَّه كاد أن

يموت. وقبل أن تصرخ لمسعود أن يلحق سيِّده، كان هذا الأخير يضع كمَّامة الأوكسجين على فم كازانوفا، وعلى أنفه. ثم حمل رأسه قليلاً بين يديه، مثل طفل مريض، وشرَّبه بعض الماء. وهمهم: *هل* يشعر سيِّدي *أنَّه* بخير؟ فتح فمه قليلاً فهمت روكينا من حركة شفتيه، كلمة *اتركني*. كأنَّه كان يريد سماع نهاية القصَّة. تركه مسعود، ثم عاد إلى غرفته.

عادت روكينا إلى كرسيِّها من جديد، بعد أن مشت بعض الخطوات في الصالة.

ـ أنت لم تسمع شيئًا، وعليك أن تتحمَّل كلّ ما سيأتي، أنا لم أبدع شيئًا. أقول ما صنعته يداك وأنانيَّتك فيَّ. لو سرقتَ منِّي حياتي، كنتُ غفرت لك. لكنَّك أسكنتَ في أعماقي نصلاً صدئًا، سيسحبني نحو قبر بارد لا محالة دون أن يُنسيني ما فعلتَه فيّ. أقسمت أن أمحو كلّ شيء تحبّه ويسعدك. اسمعني يا قاتلي، وبعدها متّ إذا أحببتَ، إلى الجحيم. لن أبكي إلَّا على ما سرقته منِّي ومن عليلو.

أحيانًا، أتساءل أنَّي لو عشت حياة طبيعيَّة مع عليلو، هل كنتُ سأعيش بالجنون نفسه؟

تسافر عبر العالم كثيرًا. غياباتك لم تكن بياضات في حياتي. كنتُ أرفض أن أمارس غباء بينيلوب وهي تنتظر وهمًا فقد كانت أكثر لحظات العمر امتلاء. منحني عليلو ما لم يمنحه أيّ رجل لامرأة جُنَّ بها، وجُنَّت به. لا أدري إذا كنّا عاشقين فقط أم منتقمين أيضًا؟ لم يكن الأمر مهمًّا. كلَّما ذكرنا ما فعلتَه بنا، وضعنا يدينا على فمي بعضنا، فغيَّرنا الحديث. مضيعة للوقت. حتى زياراتي لأهلي، كان فيها دائمًا صبيحة أو ظهيرة في نزل بيت *السراب*. أصبح المكان مهربنا الجميل. ولم نزره إلَّا كزوجين. حياتي الغراميَّة عشتها كما اشتهيتها.

غرفتنا كانت محجوزة لنا على مدار السنة، فيها رائحتنا الأولى، ذاكرتنا المحرَّمة، حتى وثيقة الزواج التي وقَّعها لنا الشيخ شنغهاي والشهود ونحن، كانت هناك، في إطار زجاجيّ مورّد. منحني عليلو كلّ شيء. حبّه. لذَّته وشبابه الطريّ. رفض أن نضيّع حياتنا في حزن لا ينتهي.

قال لي بعد سنوات من أعراسنا في بيت *السراب*، وسنتين بعد ولادة يونس، ونحن نمشي على حافَّة وادي الكبريت، الذي يشقّ الغابة ويعبر بمحاذاة النزل، ويونس في يدينا ينطّ بفرح: *ماذا لو لم نفعل ذلك*؟ أجبت وأنا مسندة رأسي على كتفه. لا أدري حبيبي. *الذي أعرفه هو أنَّي أبيع حياتي مقابل أن أكون لك أبدًا* واصل عليلو *تعرفين يا روكي، أنَّي انطلقت يومها من فكرة بسيطة، هي أنَّي سأموت* بعد ٢٤ ساعة. *وآمنت بأنّي سأموت حقيقة وأمامي أمنية واحدة، عليّ أن أحقّقها، ماذا يجب عليّ أن أختار؟ شيئان لا ثالث لهما إمَّا البقاء في الزنزانة التي وُضِعنا فيها، إلى حين يأتي وقت تنفيذ الإعدام، أو عيش الساعات المتبقّية أمامي كما أشتهي، وأنسى أنَّ الموت ينتظرني، بعد ساعات. وسرت في هذا الطريق المجنون لأكسب الرهان،* وكسبته. *لأنّي وسط عفن الموت، ربحتك وربحت قلبي، الباقي* وضعته جانبًا *تلك مسألة بيني وبين ربّي، وسيمنحني فرصة أن أقول له كلّ ما ادَّخرته من ظلم ومن سرقة موصوفة.* كان *يمكن أن أكون مجرمًا، وأمنح حياتي لمن لا يستحقُّها، فاخترت أن أكون زوجك، وشهَّدت الأرض والخالق والملائكة على ظلم لم نكن سببه.* بعد *كلّ هذا الزمن، بإمكان الناس أن يحكموا علينا ويتَّهمونا بسوء الأخلاق، وزنا المحارم، وكلّ ما يدور في خلدهم. هذا ليس شأننا.*

ظلَّت هذه الصورة ماثلة بذهني، بكلِّ تفاصيلها وروائحها،

وجنونها، سنوات بعد هروبنا نحو مرتفعات منارة سيتي. كنَّا في السيَّارة في عمق الغابة، أيَّام قليلة قبل العرس، ونحن نودِّع المكان، عندما التفتُّ للمرَّة الأخيرة نحو فندق بيت *السراب*، وأنا أرفض أن أستسلم للحزن والفقدان. بدا لي مثل قبَّة وليٍّ صالح. فجأة، نفذت إلى أنفي رائحة الأشجار والنباتات المتوحِّشة ورائحة جسدينا في عزّ تجلِّيهما. وضعت رأسي على كتف عليلو، وتركني أنام وأهرب بعيدًا حيث لا أثر للبشر أبدًا عندما اقتربنا من بيتنا، سألني:

ـ سأكون معكِ وفيكِ.

ـ حبيبي، لو متّ الآن، فلن أندم على ما عشته معك.

ـ بقي تفصيل صغير. يجب أن نحمي أنفسنا به من غباوة المخلوقات التي صنعت الحياة على مزاجها، ونصنع دفاعنا أيضًا على مزاجنا خذي الأمر بجدِّيَّة على الرَّغم من قسوته. البكارة. ماذا ستقولين له؟

ـ فكّرت. ولكنْ وحياتك. ورأس كلّ عزيز عليك وعليّ، لن يخيفني لا الموت ولا الفضيحة التي يمكن أن يصنعها والدك ووالدي الذي لن يدَّخر جهدًا في قتلي عملاً بنصيحة ابن الزهرة السرِّيَّة.

ـ لا نريد أن نعيش حياتنا ألسنا زوجين. التخلُّف لا يحارَب إلَّا بسلاحه.

ضحكت كطفلة غير آبهة بالمخاطر التي كانت تنتظرها.

وضع بعدها عليلو غلافًا خشنًا قليلاً، بين يديّ. وقال *اقرئي الرسالة التي في الداخل، لن تأخذ من وقتك أكثر من خمس دقائق. اقرئيها واحرقيها* هي مجرَّد تذكير لشيء سبق أن مارسناه. كنت أعرف تقريبًا ما يحتويه الغلاف عندما تحسَّست محتوياته. كنَّا قد فكَّرنا في

موضوع ترقيع غشاوة البكارة. طبعًا، رفضتها جملة وتفصيلاً، شعرت أنَّ بها امتهانًا لجسدي، ورفضها عليلو وهو يعتذر. قلت له، *ماذا يساوي هذا كلّه أمام أوّل ليلة اغتصاب من رجل لا أحبّه، وعمره عمر والدي؟* أجاب بجملة كأنَّها نبتت فيه فجأة: ماذا يساوي عمر كلّه *مقابل ليلة واحدة في بيت السراب؟*

حلَّق بي عليلو بعيدًا، نحو عالم كنت أرفض أن يُلوَّث.

ثم بدأنا نتدرَّب على الحلّ الثاني الذي كان بين يدينا، أهون.

سعل كازانوڤا بشكل صفيري جافّ.

ـ يرحم والديك خلِّيك كما أنت، اسمع للآخر وبعدها، مت إذا شئت. كلَّما دخلت في موضوع مهمّ بدأت تسعل لدرجة الاختناق. اسمعني للآخر، واندثر إذا شئتَ.

هل تدري يا كازانوڤا أنَّها كانت أسوأ ليلة أقبل فيها أن أُغتصب برضاي، وكأنِّي كنت خارج النظام الأرضي كلِّيًا؟ شعرت بعطر شرقيّ مقزِّز ينبعث منك. قبل أن تقتحمني. تملَّصت منك العديد من المرَّات وأنا أتحسَّس بين أصابعي، الكرية، كيس الدم الرخو، في شكل بيضة أفعى. ضحكت كثيرًا وأنا أتدرَّب عليها في حضن عليلو. كان عليّ أن أضغط عليها بكلِّ قواي مع صرخة الفضّ المفترض، حتى لا يُسمع انفجارها لم أكن قادرة على فعل أيّ شيء معه. كان عليّ أن أستعير جسد عليلو حبيبي، وأستعيد كلّ تدريباتنا وضحكنا، وهروبنا إلى بيت *السراب*. بدأت أغيب في غفوتي اللذيذة مع عليلو، ولم أستيقظ من غفوتي إلَّا عندما دخلتَ فيّ بكلِّ شخيرك وعنفك، وصرختُ ألمًا شعرت بشيء تمزَّق فيّ حقيقة، وكأنَّني كنت عذراء. وواصلتَ الاندفاع ولم تكلِّف نفسك حتى التوقُّف قليلاً تأوّهت وصرخت، ليس للألم،

لأنَّه كان فوق ما يمكن أن نحسّه. عندما دخلت أحشائي شعرت بسهم من النار يحرقني. كانت بيضة الأفعى قد انفجرت بين فخذيَّ، والتصق البلاستيك الناعم برؤوس أصابعي. كنتَ مزهوًّا بالدم الذي نزف منّي. دخلت إلى الحمَّام أتفقد دمي من جرحي الحقيقيّ. صرخت وبكيت وتقيَّأت، لأنَّ رائحتك تلك الليلة التصقت بي. أينما ذهبت كانت تتبعني كلعنة. استحممت كثيرًا بلا جدوى. لا أدري ما الذي ذكَّرني لحظتها بكلمة دوني ديدرو عن النساء: *رأيت امرأة شريفة ترتعد ذعرًا كلَّما اقترب منها زوجها رأيتها تستحمّ العديد من المرَّات عبثًا، للتخلُّص من لطخة الواجب. هذا النوع من الرفض لا يمكن أن نحسّه نحن الرجال*. كان محقًّا. في لحظة من اللحظات، شعرت كأنَّه كتبه عنِّي. تذكَّرت يوم نصحني عليلو بغسل جسدي بقطن، بالكحول الأزرق، الطبّي! جرَّبت القنِّينة الصغيرة التي جئت بها معي، لكنَّ رائحتك التي تشبه الخمائر الفاسدة، أو رائحة ميِّت، ظلَّت فيّ. لست أدري إذا ما كان ذلك مفيدًا، أم أنِّي كنت في حاجة للتصديق فقط لكي أستمرّ في الحياة.

لا أدري إذا كنت قد كرهت شخصًا قبل هذا الزمن مثلما كرهتك. يمكنك الآن يا كونْتي العزيز، أن تقول عنِّي ما تشاء، قحبة مثلاً، عاهرة، وسخة، مدمِّرة السلف الصالح، فتاة الطرقات، مومس، ملعونة في الدنيا والآخرة، لك ما تشاء. يمكنك أيضًا أن تُطالبَ برجمي، لكنَّك لن تكون أفضل منِّي في حكمك عليّ.

طوال السنة التي مضت، كنتُ، كلَّما خرجت أنتَ فجرًا، أغلقت الأبواب كلّها، وركضت نحو غرفة عليلو، وأبقى معه طوال وقت غيابك. أترك كاميرات المدخل الرئيسيّ مفتوحة. مساحة الرؤية فيها واسعة، حتى لا تباغتني. تعلَّقت بعليلو لدرجة الجنون، هل كان ذلك

انتقامًا منك؟ كان في قلبي غلّ كبير. كلَّما نمت مع عليلو، أشعر بالرغبة في المزيد، وكأنّي لم أشف غليلي. ربَّما أصبحت مريضة بسببك؟ لم أكن هكذا يا سيّدي. كنت شابَّة بسيطة لا تملك إلَّا حواسَّها النقيَّة، وحلمها الصغير، وقلبها الطيِّب، مقبلة على الحياة بقوَّة. كنت مستعدَّة حتى لوضع الحجاب، الشرط الذي أصرّ عليه والدي لمواصلة دراسة الطبّ. لكنَّك ظهرت في حياتي، ظننتك في البداية مسيحًا طيِّبًا، خيِّرًا، جاء ليباركني. فجأة، رأيتني أمام شيطان رجيم، يريدني له. بمقاييسك ومقاييس مجتمع يشبهك في كلّ شيء، جعلتَ منّي قحبة ومجرمة، ومريضة أيضًا كلّ لذَّتها في أعالي سقفها، التي تجعلك صغيرًا أمامها حتى في الفراش. وكلَّما أخفقت في الوصول إلى الذروة مع عليلو، أحسست بأنَّك انتصرت عليّ، لأنَّك وقفتَ بيني وبين ما يمنحه لي حبيبي من فرح.

ما يزال في قلبي غلّ كبير، لا يشفيني منه شيء. رائحتك كانت قاتلة. اخترت لك مرَّة عطرًا لا حبًّا فيك، ولكن لأتحمَّلك. لكنَّ العطر بمجرَّد أن لبس جسدك، طغت عليه رائحتك. تأتي أحيانًا هائجًا من عملك، وكأنَّك لم تكن تعمل، ولكن تتدرَّب على كيفيَّة اغتصابي. فأنبِّهك إلى أنَّي في دورتي الشهريَّة. تصرّ. *استحمِّي وعودي. ربّ هذه الدورة لا تنتهي؟ اغسلي وتعالي.* وعندما أعود، أجدك تنتظرني بعينين غائرتين حاقدتين، أتمتم وأنا ألتصق بأيِّ قشَّة عابرة. أتذكَّر كلمات عليلو وهو ينبِّهني. *قوَّة حضورك في اللحظة الأولى، تحدِّد ما سيأتي. المرأة هي أيضًا تصنع الرجل الذي يشبهها* تصرخ في وجهي، فتنهار كلّ خططي تحت قوَّتك: *ماذا؟ أنت زوجتي أم جارتي؟ مغلقة من قدّام ومن وراء؟ أموت لأرضيك؟ أريد حقِّي الشرعيّ، وسأحصل عليه بالقوّة أم بالرضا* وتنتهي الحالة إلى اغتصاب وصراخ من شدَّة الألم. في

ليلة من الليالي، كنت حقيقة في حالة حيض. تسلَّلتَ وأنت تلهث داخل الفراش. أخافتني عيناك الحمراوان وأنت تصرخ مثل المسعور *الليلة لي، ولن تكوني إلَّا لي. لن تفلتي منِّي.* تعبت من المقاومة ومن الاغتصاب المتلاحق الذي كان يدميني وكأنِّي عذراء. استسلمت لخوفي وتركتك تفعل ما تريد. وفعلتَ ما اشتهيت. عندما رأيت الفرش وجزءًا من حجرك مليئًا بالدم، اعتذرتَ، وأعتقد أنِّي رأيتك وسمعتك تئنّ: *ماذا فعلت يا أمِّي. ماذا فعلت يا أمِّي*؟ لا أعرف لماذا، سوى أنِّي تذكَّرت أنَّك حكيت لي مشهدًا بقي عالقًا في ذاكرتك، عندما رأيتَ والدك وهو يخرج للحمَّام مسرعًا، شبه عار، وأمّك غارقة في دمها خفتَ عليها من الموت. صرختَ بكلِّ قواك: أمِّي ماتت. أمِّي ماتت. قبل أن تُفهمك أنَّ ما حصل هو مجرَّد خطأ صغير من والدك. وأنَّ الدم عاديّ وطبيعيّ بالنسبة للمرأة مرَّة في كلّ شهر تدحرجتُ بعدها إلى الحمَّام، كانت رائحتي مثل رائحة ذئبة بعد الولادة، أو في حالة رغبة مجنونة للجماع. غسلت جسدي خمس مرَّات متلاحقة، بدون جدوى، حتى اعتقدت في النهاية أنَّ الرائحة كانت في دماغي وليست في جسدك، تستيقظ فيّ كلَّما اقتربتَ منِّي. نمت حزينة، لأنِّي ليلتها عجزت عن استحضار حتى عليلو وقبَّة فندق بيت *السراب* العالية. قلتَ لي يا كازانوڤا، وأنت تعطيني بظهرك، وتحاول أن تعتذر، دون أن تعتذر: حوّلتني إلى حيوان، *لستُ هكذا لن ألمسك مستقبلاً إلَّا برضاكِ.*

رضاي لم يأتِ، فداومتَ على اغتصابي. وفي كلّ مرَّة، تلعن نفسك الأمَّارة بالسوء.

يوم جاء يونس إلى الحياة، أنت كنت غارقًا في شأنك، وكنت أنا في المستشفى، وأحلم أن يكون عليلو أوَّل من يرى يونس. وكأنَّ الله

سمع دعائي لحظتها حضر عليلو. قبلة طويلة أنستني كلّ آلامي. ثم ضمّ يونس إلى صدره طويلاً تأمَّل وجهه. ثم همس: كم *يشبهك يا قلبي في نعومتك، ودفء عينيك، وشعرك الناعم وطوله*. كان يونس ثمرة هبل لن يتكرَّر.

ـ هل فهمتَ القصَّة جيِّدًا، أيّها الكونت المخدوع؟ يونس ليس ابنك ولن يكون أبدًا هو ابن ابنك. حفيدك. بالعربي الفصيح، أنت جدّه فقط. مكتوب عليك، ولا يمتّ لك بصلة أبويَّة. ابن حبيبي عليلو وابني. طبعًا لن أهينك أمام الناس، فأنا أقول دائمًا للجميع الذين يرون شبهًا مجنونًا بينه وبين أخيه عليلو، *طبيعيّ العرق دسّاس*. الغاشي الذي يتصيَّد الكبيرة والصغيرة، يسعد بمثل هذا الكلام.

يوم *العقيقة* عندما رأيته في حجرك، سخرت كثيرًا من سخافة الأقدار التي يصنعها البشر لأنفسهم ويؤمنون بها، إلى أن ينتهوا بالدفاع عنها كحقيقة، يظنّونها تدوم وهي مجرَّد عبث لحماية حالة الضعف. العقيقة هو اليوم نفسه الذي مات فيه والدي بسكتة قلبيَّة. لم أمنع نفسي من الفرح بابني. ظلَّ والدي يحمل في قلبه طعنة كنتُ الوحيدة التي أحسَّت بها أوَّل مرَّة، عندما رأيته حينما جاء ليبارك لي عرسي، في جناحي. انتظرت حتى خرجت أمِّي، طلبتُ منها أن تأتيني بالماء قلت له كلمة واحدة انغرست في قلبه مسمارًا مسمومًا، قتله بهدوء مع الوقت: *شكرًا يا بابا أحمد أنَّك زوَّجتَني بك. وأنّكَ عرّيتني وقضيت لياليك معي. شكرًا يا أجمل قاتل في الدنيا* أحنى رأسه في الأرض شعرت بدموع باردة كقطعة ثلج، في عينيه، لم تتمكَّن من الخروج كنت أحبّه، لكنَّه مات. على الرَّغم من إلحاح عليلو، لم أحضر دفنه. انعزلتُ أسبوعًا كاملاً في جناحي. لم يكن لديّ ما أقوله له سوى البكاء عند رجليه الباردتين. لم أشعر به. كنت أعرف أنَّ الرجل الذي

كنت أعرفه، والذي كان يحضنني، مات يوم باعني، ولحظة صراخي في وجهه بيأس، وظلّ ينظر إلى وجهي مثل ميّت: *يا بابا العزيز، هل تدري ماذا فعلتَ؟ قتلتَني وقتلتَ عليلو، بسكّينة حادَّة. ستندم عمَّا اقترفته يداك وقلبك*. عرفت يومها كيف تفقد عزيزًا وأنت حاقد عليه.

يونس الأقرب إليك من أنفاسك، يعرف أنَّ أمّه سُرق منها حقّها في أن تكون. حكيت له قليلاً كيف سرقتَ منِّي حلم الطّب. وحلم عيش حياة أخرى. وأنّي رفضت الزواج منه، لأنِّي كنتُ أحبّ شخصًا آخر. سألني إذا قطعتُ مع من كنتُ أحبّه قبل زواجي، قلتُ له لا لم يضف شيئًا. صمت فقط، وضمّني إلى صدره. طبعًا لم أحك له أنَّ عليلو هو أبوه الحقيقيّ. لا أريده أن يكبر منكسرًا عرف يونس كيف قُتِلتُ في وقت مبكر.

وفَّرت ليونس كلّ الفرص ليكون الاستثناء العائليّ. وضعت كلّ شيء فيه، حتى أحلامي المسروقة. وكنتَ معي في ذلك. تذلَّلت لك كثيرًا، ونمت معك مثلما اشتهيت، فقط لتنصاع لرغباتي في منح يونس فرصته الكبيرة لتكون في الخارج. عرف كيف يكون فوق الجميع بطريقته الذكيَّة. لا يبدو أنَّه معنيٌّ بقضيَّة التوريث، ولا بإدارة ممتلكاتك الواسعة. فهو، في النهاية، المؤسَّسة نفسها هو عصبها الحيويّ. كلّ شيء، حاليًّا والمؤسَّسات كلّها، يمرّ عبره ماليًّا يعرف الصغيرة والكبيرة. يعرف حتى تحويلات أخيه بشير السرِّيَّة نحو سويسرا ولكسمبورغ وليشينشتاي، الذي يقاتل في هذه اللحظة من أجل الحصول على رئاسة مجلس الإدارة. يعرف أيضًا أنَّ أخاه بشير يملك أسهمًا سرِّيَّة في شركة الفنادق: الهربة Escapade التي عادت ملكيَّتها إلى رشيد الماريكان، على الرَّغم من رفض ابنه سامي دخول بشير في الرأسمال الأساسيّ. يونس يعرف أيضًا، وبشكل جيِّد، بأيِّ مال تعيش

المجموعة المتطرِّفة: *الغاضبون على الله*[1]، الذين قصُّوا سبَّاباتهم، لأنَّ الله لم ينصرهم على القوم الظالمين. هم من كان وراء العديد من الحرائق. أجمل ما في يونس أنَّه يسمع، ويفهم، ولا يتكلَّم إلَّا عندما يُطلب منه ذلك. مرجعه الأوحد أبوه، حبيبي عليلو وأنا.

هل تعرف أنِّي جعلت منه قنبلتك الموقوتة التي تفتك بك، وبعصابتك وقت نشاء؟ هو مزيج بيني وبين حبيبي عليلو، الطيِّب والمسالم أيضًا، وأكثر إخوته ذكاء. كانوا يضحكون عليه أحيانًا، بالخصوص بشير وعمر، لأنَّه مولع بالموسيقى مثله مثل يونس، ولكنَّهم اكتشفوا فجأة رجلاً قويًا وصلبًا في نقاشات الخلافة. علَّمت يونس وهو صغير، كيف يبدو دائمًا مستنكفًا عن كلّ شيء، إلى أن تمتلئ يداه خيرًا من تلقاء نفسها يحفظ جيِّدًا كلمتي التي يقول عنها إنَّها مقولة اقتصاديَّة شديدة الأهمِّيَّة: *مل حيث تميل الريح، ولا تركب رأسك، ركوب الرأس معناه النهاية المبكرة، ولا تسأل كثيرًا كن غبيًّا إذا استدعى الأمر، مع القوم الأغبياء، واترك اليقين لغيرك، وراقبه وراقب نقاط ضعفه، ليسهل عليك الانقضاض عليه وقت الحاجة، مثل النسر في مملكة الأغبياء، لا مهرب لك إلَّا الغباء. السؤال الكثير يجعلك مخيفًا، ومحلّ مراقبة ونظر.*

الكونْتْ كازانوفا

---

(١) فرقة إسلامويَّة متطرِّفة، ظهرت في الجزائر ببيانات غاضبة من كلّ شيء، بعد إزاحة الشاذلي بن جديد من الرئاسة، بسبب عجز الدولة أمام التطرُّف الإسلامويّ. احتجَّت حتى على الله، لأنَّه، كما تعتقد، لم يوصلها إلى سدّة الحكم. أعضاؤها نزعوا السبَّابة احتجاجًا، لأنَّ الله حرمهم من إعلاء كلمة الحقّ لا يُعرف لها وجود حقيقيّ وماديّ، ما عدا الحضور الإعلامي في عشريّة التسعينيّات السوداء، في الجزائر

لم أكن ظالمة ولا أشعر بأيّ ذنب. أقسمنا، أنا وعليلو، أن نجعل من يونس الأهمّ في هذا البيت، الذكاء والحيلة والقوّة. أدخلناه في أكبر المدارس والجامعات الأميركيَّة. وعندما عاد، بعد سنوات التكوين، كان مدركًا لما عليه فعله. اشتغل في المحاسبة البنكيَّة في شركة عالميَّة معروفة. قبل أن أقنعه أنا وعليلو باستلام الجانب الماليّ، في شركات والده. خلقَ مركزًا ماليًّا موحَّدًا، مستفيدًا من التجربة الأميركيَّة. في ظرف قصير، أصبح يونس هو المشرف على كلّ الشبكة الماليَّة التي تراقب، حتى عن بعد، الحركة الماليَّة للشركات التي يديرها والده وشركاؤه. حتى الصفقات الكبرى لا تمرّ إلَّا عبره. هو من يسيِّرها، ويعرف أسرارها. رفض أن يكون رئيسًا، لكنَّه قبل بإدارة المركز الماليّ. يونس مرتبط بعليلو بشكل حميميّ قويّ، وكأنَّه يشمّ رائحة الأبوَّة فيه، بينما أنت لا تعني له أيّ شيء.

أعتقد أنَّ مباركة كانت محقَّة عندما شعرت بأنَّ الأمومة سُرقت منها، وأنَّها تشمّها أينما وُجدت.

عليلو الآن في لاغراند تيرّاس، برفقة إخوته لفكّ مشكلة الميراث والشركات. يونس كبر، وأصبح قوّة ضاربة يحسب الكلّ حسابها ذهابه معناه انهيار المشروع كلِّيًا. أحلم كثيرًا بأن أخرج يومًا من هذه الدائرة الضيِّقة، وأسافر بعيدًا أنا وعليلو، ندرس الطبّ، ولو في هذا العمر! العمر قاسٍ. هل تدري أنَّ يونس اشترى فندق بيت *السراب*، ورمَّمه، وطلب منِّي التفكير جدِّيًا في إدارته. أعرف أنَّه في الجوهر اقتراح عليلو. قلنا له حوِّله إلى پالاس، واجعله لاستقبال العرسان فقط، الذين يريدون قضاء شهر عسل حقيقيّ خارج فوضى الحياة الحديثة. قال: موافق. وبدأ يفكِّر جدِّيًا في المشروع. كان الفندق في حالة إهمال كبيرة، فاشتراه من ماله الخاصّ. واتَّفق مع مكتب إيطاليّ،

وشركة صينيَّة، وبعد ١٨ شهرًا كان المشروع قد تحوَّل إلى حقيقة. حضرت أنا وعليلو حفل التدشين. شُيِّد في سفح الجبل، باركينغ لإيقاف السيَّارات فيه، ومحطَّة قطار صغيرة، وسكَّة حديد ثعبانيَّة تنطلق من تحت، حتى رأس الجبل حيث النُزُل. عندما انتهينا من زيارة التدشين، وحضور احتفالات الأعراس الأولى التي كانت على نفقة الفندق پالاس، قدَّم لي حبيبي يونس حقيبة من الأوراق، بها وثائق الحيازة والهبة التي منحها لي. سلَّم على رأسي وهو يقول: *هذا مكانك يا أمّي، كلَّما أُصبت بغبن تعالي إلى هنا وارتاحي*. بقيت فيه بعض الأشغال الخفيفة للتهيئة، بعدها أذهب لأُقيم فيه نهائيًّا أرأيت يا سيِّدي كم أنَّ العالم محدود، والعمر قصير؟ عندما يدقّ الموت على الباب، سأقول له مرحبًا جاهزة للوقوف أمام الله لأقول له حقيقتي. حقيقتنا التي يعرفها جيِّدًا لن أطلب منه لا انتقامًا من الظالمين، ولا شيئًا آخر، فالله لا يظلم ولا يمقت، وإلَّا لأصبح مثل بقيَّة البشر. الله يعرف رقيَّة ونواياها، ورقيَّة تعرف الله وسلطانه. سأمنح ابني، يومًا، كتاب حزني وجرحي الذي سجَّلنا فيه، أنا وعليلو، تفاصيل حياتنا كلّها، وخبَّأناه في البنك. الوحيد الذي سجَّلنا باسمه، الذي يحقّ له فتح خزانتنا بعد موتنا هو يونس. اليوم، كلَّما رأيته، بهيئته الفارعة مثل عليلو، بالكرافتة الحريريَّة التي أهديتها له، والطاقم الأزرق، الكحليّ الذي أهداه له عليلو في عيد ميلاده، شعرت بفخر كبير، وشعرت كم أنَّ ابني أصبح حقيقة لا تمتّ لك بصلة، ولم يعد مجرَّد حلم. منذ سقوطك بالسكتة الدماغيَّة، أصبحنا ملتصقين بقوَّة، لا نستشير أحدًا غيرنا. أنت نفسك، كان هو ثقتك الكبيرة، فهو الوحيد من كلّ أبنائك الذي لم يطالبك بأن تكتب باسمه شيئًا. كلَّما حدّثته في الموضوع، قال لك: *اسمع يا بابا، لست في حاجة إلَّا لراحتك*. لا يهمَّني *إلَّا أن*

تظلّ هذه الشركة الضخمة حيَّة وتتطوَّر بشكل مستمرّ، وتحمل اسم مؤسّسها الكبير، سيّدي لوط.

ـ هل عرفتَ ماذا يخبّئه هذا الجسد الذي استكان، بعد كلّ هذه العواصف النائمة التي أيقظتها؟

هو ذا يونس، يا قرَّة العين. هو من يأتي بعدك ولا أحد غيره. من يملك وظيفته وقدراته وذكاءه؟ سيرث كلّ هذا العالم الثقيل: البنايات والأبراج، والمارينا التي هي جزء كبير من ساحل منارة سيتي، والقصور الزجاجيَّة، والمباني الحكوميَّة، والمصالح الاقتصاديَّة الأكثر تعقيدًا، وبنوكًا ومصانع وأرصدة ماليَّة، والمنتجعات، والحمَّامات، السبا والصونا، وحتى الفرن الآليّ الحديث الذي يسير بالغاز الطبيعيّ، والفرن الفحميّ، أو الكوشا، التي يخرج منها خبز تمّ تجهيزه على الفحم ليذهب مباشرة إلى بعض الدوائر الحكوميَّة الرسميَّة العليا. كلّ ما يتبقَّى من خبز ضائع، يحوّل في يومه إلى الجمعيَّات الخيريَّة التي تستفيد منه، وتدين بالولاء كثيرًا لعليلو الذي يطوف عبرها لمساعدتها وتلبية حاجاتها.

كان في نيَّتي أن أحكي لك قليلاً عن مباركة التي حرمتها من ابنتها كما أوهمتها، وعن كابي، عكاشة، وجه الخير، الذي حرم من كلّ شيء، حتى من الحدّ الأدنى المعاشيّ، وهو على قاب قوسين أو أدنى من جنَّة عدن، لكنَّ ذلك قصَّة أخرى، أحتفظ بها حتى تهدأ مسألة التوريث. ورقة في يدي، أرميها على وجهك متى ما أحببت. أنت معلّمي في اللعب بالمصائر. لن أضرّ أحدًا غيرك أو من يعتدي على حقّي في الحياة. إذا خرجتَ سالمًا من هذا الموت، ينتظرك موت آخر. لا أريد أن أقتلك بسرعة، أريدك أن تتعذَّب أكثر، وأن تشعر ماذا يعني الموت البطيء الذي ما زلتُ إلى اليوم أعيشه.

أرى عينيك تدوران يا كونتي المخدوع. تتمنَّى في أعماقك لو فقط تتمكَّن من القيام ليوم واحد، تمزِّقني وعليلو، إربًا إربًا، ثم تمضي نحو مخابر النسل لتتأكَّد من فجيعة تنتظرك في الزاوية: هل يونس في النهاية ابنك، أم ابن غيرك؟ ثم تعود لمواصلة موتك، لكنَّ هذا الحظّ لن يُمنح لك ثانية، لأنَّك ستموت قبل ذلك بكثير. وإذا خرجت سالمًا، لي ما يُعيدك إلى كرسيِّك المتحرِّك، وإلى مستشفى المجانين.

بقي أن أخبرك، بأنَّك يوم سألتني لماذا نزعت كلّ الذهب الذي أغرقتني فيه وخاتم الألماس، وعوَّضته بخاتم فالصو، لا يصلح لشيء كما كنتَ تقول. لم يكن لجدَّتي. خاتم جدَّتي محفوظ. هو خاتم حبيبي عليلو. وشابكته مع خاتمه. أقسمنا أن لا ننزعهما إلّا مع الموت، وتركنا في الوصيَّة أن ندفن وخواتمنا في أصابعنا يجب أن تُدرك أنَّ امرأة تكره رجلاً، يغتصبها كلّ ليلة، لن تشفق على ذرَّة واحدة منه. الرجل يستطيع أن يلعب كما يريد إذا لم يكن صادقًا مع قلبه، لكنَّ المرأة عندما تكره رجلاً لأنَّه سرق منها طفولتها وشبابها، تنتقم منه في الوقت الذي تحدِّده هي، وبالشكل الأقلّ انتظارًا

هذا الكتاب جرح، سيظلّ مفتوحًا إلى أن أرحل.

كنتُ أتمنَّى أن أحكي طويلاً عن يوسف الذي حرَّك مجيئه وجعًا داخليًّا فيّ لا علاقة له بالغيرة. فقد أخلط حسابات كثيرة كانت في رأسي، لكنِّي لا أستطيع الآن. بدأت أشمّ شيئًا كريهًا ربَّما يصعد منك، أو من هذه الحكايات القاتلة. من اليوم الأوَّل، رأيتك مشدودًا إلى يوسف بشكل مرضيّ. كنتُ قد أقسمتُ بيني وبين نفسي، إذ لم أخبر حتى عليلو، أن أضربك في المكان الذي يؤذيك أكثر. في عمق جرحك. لا أريد أن أحكي الكثير عنه. كان يوسف وقتها وسيلتي الوحيدة للانتقام منك. كنتَ تستعدّ للسفر مع ساراي لحضور جنازة

والدها قلتَ لساراي المسافة طويلة، من الأفضل أن نترك الطفل لميمونة. قالت لالَّة كبيرة: لا يعقل أن يُترك يوسف لخادمة وأنا ورقيَّة هنا. ثم سافرتما مرتاحين. الفكرة نشأت وكبرت عندما غبتما عندما قام من نومه، بدأ يبكي. كنت جهَّزت له رضّاعة الحليب. تأمَّلته طويلاً، كان ملاكًا صغيرًا بلا جناحين، لكنْ بمجرَّد أن بدأ يرضع وينظر إلى وجهي من حين لآخر، حتى بدا لي مخيفًا وكأنَّه كان يقرأ ما بداخلي. على الرَّغم من جوعه، رمى الرضّاعة، وبدأ يتفرَّسني بعينين كانتا تتَّسعان وتضيقان. ثم فجأة صرخ بأعلى صوته. لملمته في غطائه، ونزلت نحو المطبخ كي لا أُثير انتباه أيٍّ كان. وضعت كفِّي على فمه، لكنَّ عينيه اللتين جحظتا لم تمنحاني أيّ فرصة للانتهاء بسرعة من العمليَّة. دخلت إلى المطبخ لأثبت لنفسي أنَّ ابن الطاغية يموت كما الآخرين، فلم أجد إلَّا طورشونًا باليًا تمسح به ميمونة عادة الأواني بعد غسلها، وضعتُه على فمه. لا أدري كيف تمّ كلّ شيء بسرعة. تحرَّك قليلاً قبل أن يستسلم بسرعة للموت. ثم وضعته في سريره، على فمه قليلاً، فبدا كأنَّه نائم. غطَّيت جزأه السفليّ. بعد أن عدتما من الرحلة، كنت قد ناديت لسيَّارة الإسعاف. كان يوسف قد مات قبل ساعتين. سألتني ساراي إذا كان يوسف قد بكى في غيابها قلت لها: لا شعر بالمساء ببعض الحرارة، فنادينا لسيَّارة الإسعاف من مستشفى ابن سينا لنستعملها في حالة الاضطرار. *رضع جيِّدًا ثم استراح. اتركيه نائمًا حتى الصباح*. شكرتني وهي تأخذ ابنها نحو جناحها، في الطابق الرابع، قبل أن أسمع صرختها الأخيرة التي اخترقت كلّ الحيطان السميكة والطوابق الأربعة، التي ما زالت تملأني إلى اليوم.

أنت القاتل يا كازانوڤا، أنا لم أكن إلَّا يدك الخفيَّة في النهاية.

عوى كازانوڤا مثل ذئب في قفر خال من أيَّة حياة. سُمِع صوت

بطنه وهو يفرغ كلّ أثقاله.

شمَّت روكينا بعدها رائحة كريهة جدًّا تقارب رائحة الجيفة. عرفت أنَّه كعادته، كلَّما اشتدَّت أزمته، وخرس لسانه، ارتخت عضلاته، غرق في فضلاته حتى العنق. تململ في مكانه دون أن يتمكَّن حتى من تحريك رأسه.

كان وجهه منهكًا، يثير الشفقة.

ـ أيُّها الكونْتْ العظيم، أَلم تتوقَّع كلّ هذا الامتحان العسير! تعوَّدت على الامتحانات التي تدخلها منتصرًا، وتخرج منها كبيرًا هذه المرَّة تغيَّر كلّ شيء. أين هو كازانوڤا المخيف؟ الرجل القويّ، الذي أرعب الكبار وفشل في مواجهة نسائه؟ أنت الآن لا شيء. لست قادرًا حتى على تنظيف نفسك. مسكين مسعود، سيتقيَّأ عشر مرَّات قبل أن ينظِّفك. زكيَّة، على الرَّغم من صبرها الكبير، تركت كلّ شيء، وخرجت من البيت ثم من هذه الدنيا تحمَّلت عفنك، لكنَّها لم تكن تريد أن تيتِّم ابنها كما فعلت مباركة وغيرها أيضًا ممَّن عرفتهنّ فانتحرت، أو نحرتَها أنت بواسطة زبانيَّتك حتى لا تفضحك. وحده الله يعلم بعدد جرائمك وما فعلتَه في غيرك.

هل تعرف ماذا سأفعل الآن؟

سأتحمَّلك لدقائق خمس. بعدها أصعد إلى جناحي، أتكحَّل، أتسوَّك وأتعطَّر بأشهى العطور التي يعشقها عليلو. ثم أركب سيَّارتي ماستنغ، وأهرب نحو فندق بيت *السراب*، بيتي وحصني. فور انتهائه من جلسات خلوة لاغراند تيرَّاس، يلتحق بي عليلو، ونمشي الليلة كلّها على حافَّة نهر الكبريت الزاهي. ثم أحضِّر له حمّام قشور البرتقال والليمون. وعندما يخرج، أكون قد هيَّأت لنا كأسيْ ويسكي كما هي

عادتنا كلَّما اشتدّ الحنين بنا هو من عوَّدني على ذلك. أشعل سيجارتين، نشرب بعدها معًا نحن لا نربح من الدنيا إلَّا هذه الفسحات الجميلة والمسروقة. نغرق في الموسيقى الناعمة والعطر الشرقيّ الذي يملأ الجناح. ندخِّن معًا، وبعدها أمنحه كلّي. أتركه يوقظ كلّ حواسّي كما تعوَّد أن يفعل، منذ يومنا الأوَّل. عندما ترحل أنت نحو غيب الفراغ، أكون فوقه، وعندما تتنصّل روحك الثقيلة لتصعد نحو الظلمة، أصرخ أنا صرخة الذروة، في شهقتي الكبيرة، من فرط اللذَّة والدوار الجميل.

هل هناك لحظة أجمل من هذه يا كونتي العزيز؟

ـ المشهد انتهى هنا حبيبي، حيث كان يجب أن ينتهي.

سمعتْ بعدها أصواتًا لأشياء كانت تتكسَّر على الحائط أو على الأرض، مرفقة بصراخ حادّ يأتي من لاغراند تيرَّاس. عرفت أنَّه صوت بشير عندما يفقد صوابه، ولا يتحكَّم في كلامه. بالخصوص، عندما لا يحصل على ما يريده. تذكَّرتْ روكينا الملفّ الذي أعَدّه يونس وعليلو والتحق بهما هارون، لوضع حدٍّ لجبروته. اتَّفقوا على تحجيمه، عندما ينغلق كلّ شيء، وإعطائه فرصة للتفكير ليلة كاملة قبل اتِّخاذ قرار توريطه في تحويل مال الشركة، وتمويل حركة إرهابيَّة خطيرة، *الغاضبون على الله*. وأنَّ ذراعه الأيمن في مختلف الجرائم هو الشيخ منصور، أبو ذات النطاقين، الذي يتلقَّى على كلّ عمليَّة انتحاريَّة آلاف الدولارات، يسلِّم جزءًا منها لوالد أو والدة أو زوجة المنتحر، والباقي يحتفظ به لنفسه، أو يبعث به إلى ابنته التي تضعه في أحد البنوك الإندونيسيَّة.

كما ترى حبيبي. الأمور ليست بسيطة، ولن تكون الكلمة الأخيرة لبشير الذي أعدّ نفسه للخلافة. الميزان بدأ يختلّ، لن يصبح قريبًا،

أبناء لالّة كبيرة هم الأغلبيّة التي تحدِّد، مدير مجلس التسيير تأمَّل معي. كانوا أربعة مقابل يونس، قبل أن ينضمَّ عليلو إلى أخيه الصغير لا يمكنه أن يترك ابنه وحيدًا في مواجهة الكواسر الذين اتَّفقوا على كلّ شيء. بعد محادثات طويلة مع يونس، ترك هارون جوهانسبورغ، وجاء ليحضر نقاشات الخلافة، وينضمّ إليهما، فأصبحوا ثلاثة. لكن يا كُونْتي العزيز، ما يزال خطر بشير قائمًا، ثلاثة مقابل ثلاثة، الأكبر عمرًا يتولّى الرئاسة. بقي أمامنا احتمالان قويّان، عندما فاجأني بهما حبيبي يونس، عرفت لحظتها أنَّه كبر وأصبح كما تمنَّيته.

تلوّى كازانوڤا في مكانه، اعوجّ فمه وسال ريقه من جديد. انفرجت عيناه حتى اتَّسع بياضهما، كأنَّه كان يريد أن يعرف البقيَّة. لكنَّ روكينا لم تضف شيئًا

صفّقت بيديها الباردتين. ثم قامت من مكانها.

ـ بااااححح. حبيبي. كلّ شيء انتهى. لن تسمع شيئًا آخر ربَّما تصلك الأصداء وأنت في قبرك.

عوى كازانوڤا بصوت حادّ. ارتجف في مكانه كأنَّ به مسًّا من الجنون أو حرقة في مكان ما من جسده. ابيضَّت عيناه. انقطعت أنفاسه فجأة، ثم نزل الريق الأصفر بكثافة، على طرفيْ شفتيه اليابستين، في شكل زبد خانق. ظلَّ النفس محصورًا، ولأوَّل مرَّة يتحرَّك جسده عاليًا على مستوى الصدر، وكأنَّ رصاصة أصابته في الأعماق. ثم بدأ يرتعش بتواتر كبير.

مشت روكينا بهدوء. التقت عيناها بعينيه الباردتين، وصدره الذي كان يصعد وينزل وهو في حالة شبيهة بالاختناق. لم تعره أيّ اهتمام واصلت سيرها باتِّجاه باب الخروج. كأنَّ ما كان يحدث أمامها لم

يكن يعنيها أبدًا نظرت إليه للمرَّة الأخيرة. كان كمن يستنجد بيد رحيمة تنقذه من موت اقترب بخطًى سريعة. سعل بصعوبة. تنفُّسه تحوَّل إلى شخير، مقطَّع، ممزَّق، وكأنَّ الهواء كان يتوقَّف عند الحنجرة التي امتلأت بالمخاط الخانق. ثم فجأة، هدأ كلّ شيء. توقَّف التنفُّس نهائيًّا، وخمد الجسد، واتَّسع محجر العينين اللتين ظلَّتا معلَّقتين في سقف الدار. تحوَّلت رغوة الفم من اللون الأصفر إلى اللون البنّيِّ القريب من السواد، إلى دم.

ـ *إلى الجحيم.*

تمتمت روكينا، وهي تلتفت نحو مسعود الذي كان يحاول جاهدا أن يفتح كمَّامة الأوكسجين أكثر.

ـ كأنَّه يحتضر يا مسعود؟

ـ لا أفهم، قال مسعود. سيِّدي لا يتنفَّس. الأوكسجين لا يصل إلى صدره.

ـ مات يا غبيّ.

ـ مستحيل يا سيِّدتي. لا أحد مثلي يفهم سيِّدي لوط.

خرجت روكينا، ثم أغلقت وراءها باب الصالة الأندلسيَّة، بعنف، حتى اهتزّ زجاج النوافذ.

كانت تلك آخر مرَّة تراه فيها حيًّا.

صعدت بسرعة نحو جناحها، لبست لباسها الأسود الجميل، المرصَّع بالنجوم الذي كان يحبّ عليلو أن يراه عليها في السهرات الساخنة. ثم نزلت بسرعة، ولم يُسمع إلَّا صوت سيَّارتها لبفورد ماستنغ[1]، التي سهّلت لها حرِّيَّتها كما تقول الدعاية: Ford

(١) Ford Mustang

Mustang est l'incarnation de la performance et la liberté[١].

غادرت المكان بسرعة، بدون أن يعرف أحد اتّجاهها، باستثناء كازانوڤا وعليلو.

بينما ظلَّ مسعود يكرّر:

ـ مستحيل يا سيّدتي. لا أحد مثلي يفهم سيّدي لوط.

لم تلتفت كأنَّها لم تسمع مسعود.

لكنَّ الموسيقى الحزينة المنبعثة من زاوية ما، من الصالة الأندلسيَّة، ظلَّت مستمرَّة في دماغها

(١) فورد ماستنغ هي التعبير الأمثل للكمال والحرّيَّة.

III كابي

الكبّول[1] يَسْتَيْقِظُ في رَمَادِه

١

ـ منوِّم يدوِّخ فيلاً

قال كابي وهو يغادر *صيدليَّة البحر*، الوحيدة، القريبة من جريدة الغاشي، التي تبيع الأدوية بدون وصفة طبِّيَّة، بعد أنَّ خلص الدواء من علبته، ووضعه في جيبه.

المكان شبه مقفر، خال من أيَّة حركة. أضواؤه قليلة، إلَّا النيون الذي يرسم بلمعانه اسم الجريدة، مرَّة بالفرنسيَّة ومرَّة بالعربيَّة: ***الغاشي La Populace***. سحب كابي درَّاجته الناريَّة، قبل أن يدفع بها راجلاً بسرعة في المنحدر الصغير، ويقفز عليها، ثم يضغط على مقودها ليزيد من قوَّة دفعها، وسرعتها، ويعلو صوتها المقلق، تسحب وراءها المقطورة التي وضع فيها كابي كمِّيَّات كبيرة من الصحف اليوميَّة باللغتين، وبعض المجلَّات التي تصدر في منارة سيتي. لم تستقم حركة الدرَّاجة الناريَّة إلَّا عندما دخلت إلى الشارع الرئيسيّ الذي يقود في خطٍّ مستقيم إلى *الدار الكبيرة*. بووووف، *بدأت هذه الدرَّاجة تتعب*،

تمتم كابي، وهو يزيد من سرعتها، ويخفي ابتسامة ملعونة ارتسمت بين شفتيه. *أخيرًا، أستطيع أن أقول لعمّي خلدون الذي كان يكرِّر دومًا، لا يبدو على كازانوڤا أنَّه سيموت، سنسبقه كلّنا قبل أن يسلِّم في هذه الدنيا* ها هو كازانوڤا يُخلي أخيرًا سبيل الحياة، ويخرج منها، بعد أن سجنها زمنًا طويلاً في كرسيٍّ متحرِّك.

الطريق خطّ مستقيم. لا صوت إلَّا ضجيج الدرَّاجة الناريَّة الذي كان يملأ الفراغ.

عندما وصل إلى *الدار الكبيرة*، بدا له كلّ شيء مقفرًا لولا العمود الكهربائيّ الموضوع في الزاوية، لتخيَّل أنَّ المكان مهجور منذ مدَّة طويلة. رفع كابي رأسه إلى الأعلى. لم يَرَ شيئًا هدوء ينافس الموت. حتى خُلْوَة لاغراند تيرَّاس تبدو مطفأة. لم يلمح وجه بشير الأصفر، الذي يظهر ويختفي مثل وجه ميِّت. يكرهه ويشعر به طاغية حقيقيًّا يصرخ بسبب وبلا سبب، بصوت ثقيل وآمر، لم يتغيَّر منذ أن ظهر لأوَّل مرَّة في شرفة لاغراند تيرَّاس. كلّ العائلة والمحيط المتعامل معه، يتمنُّون أن لا يكون هو من يخلف والده، سيكسر كلّ ما بناه كازانوڤا يجد متعة خاصَّة في الصراخ على مسعود.

ـ مسعود. مسعووووود.

ـ أسمعك يا سيِّدي.

ـ أوقف ربّ محرِّك الدرَّاجة. حسّها أكثر من نسّها

ـ ما سمعت والو يا سيِّدي بشير. لحظة.

يردّ مسعود بعد أن يهدأ محرِّك الدرَّاجة الناريَّة.

ـ قلت لك ثلاث خبزات لفريق العمل، وثلاثة عصير فواكه، في قناني زجاجيَّة.

ـ سمعتك يا سيِّدي. حالاً يروح كابي يأتي بها

ثم يرمي له النقود في كيس ورقيّ، من أعلى الخُلْوَة، فيصغر حينها مسعود كأنَّه شحَّاذ. وهو ما لم يفعله كازانوڤا منذ أن جاء به من الجنوب، من قاعدة الحياة، الأميركيَّة للنفط التي اشتغل نادلاً بها

ينظر إلى كابي كما هي عادته في مثل هذه المواقف:

ـ ما عليهش يا كابي. الحمد لله أنَّه جعل من الموت عدالة قصوى.

ـ لا يستحي يا عمّي مسعود. أنت في عمره. عيب.

ـ شاد السماء بيديه، يجيء وقت ويتعب.

أوقف كابي محرِّك درَّاجته الناريَّة بعيدًا قليلاً عن الدار الكبيرة، ثم سحبها في صمت، على الرَّغم من ثقل حركة عجلاتها شمّ رائحة الموت. فهو يخطئ في كلّ شيء، إلَّا فيها بالرائحة فقط، بإمكانه أن يحدِّد كم من يوم مرَّ على الجثَّة. ربَّما كانت موهبته التي اكتسبها من الروائح التي تأتي بها مباركة من المغسل، وهي تحكي عن أموات اليوم وسبب موتهم، وطبيعة الجثَّة، وكم مرّ عليها وهي في الثلَّاجة.

فتح البوَّابة الثقيلة بهدوء. تزحلق نحو الكراج. كان فارغًا. فتحه وأدخل درَّاجته البرتقاليَّة القديمة ـ زروديَّة، كما يسمِّيها سكَّان منارة سيتي، وفخورون بها لأنَّها صناعة وطنيَّة. رفع قطعة الحديد التي حرَّر بها المقطورة المليئة بالجرائد، عن الدرَّاجة الناريَّة. أغلق باب الكراج نهائيًّا.

فتح كابي الباب الداخليَّة الخفيفة التي تؤدِّي مباشرة إلى وسط الدار. غزغزت قليلاً ثم استقرَّت. وجد نفسه في الداخل، قريبًا من الدالية، المواجهة للنافورة، التي تصعد باستقامة كما شجيرات

اللبلاب. أشعل قنديله الصغير الذي كان في يديه. فجأة، طارت حمامة، ذكَّرته بشيء غامض. شعر ببعض الخوف. الحمامة لم تبتعد، ولكنَّها ظلَّت تنظر إليه من الأعلى حيث توقَّفت على حافَّة إحدى نوافذ الطابق الأخير، مباشرة تحت السقف الزجاجيّ. ثم انتقلت إلى الزاوية، بالقرب من برميل الماء الذي كثيرًا ما وقف كازانوڤا بجانبه، كفَّاه مليئتان بحبَّات القمح، فينادي نور. فتأتيه بسرعة وتنقر الحبّ من كفِّه. رأى كابي فانوسًا بضوء أخضر في الزاوية القريبة من الدشّ والتواليت، وتحته جثَّة كازانوڤا مسجَّاة بكلِّ طولها في سرير عال، كبير وواسع، ليس بعيدًا عن نافورة البيت. وقف قليلاً أمامها نزع قبَّعته، ثم قرأ الفاتحة في صمت. حاول أن يرى الوجه، لكنَّها كانت مكفَّنة ومنتهية. في حركة لاشعوريَّة، وضع يده على أنفه. خليط من العطر المتحلِّل، والخمائر الفاسدة. لكنَّ مسعود الذي خرج من وراء الظلِّ، نهره: عكاشة، *ولدي، تأخَّرت شويّ عليّ، كنت راح أنام. لا تكن هكذا للميِّت حرمته يا ابني. أعرف أنَّك لا تحبّه. لكنْ عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم. كلّ نَفْس ذائقة الموت. لا تتأفَّف، أمام ما أراده الله. تعرف أنَّه كان يومًا ما واقفًا على رجليه، وكلّ الناس يخافونه. وأنا متعب جدًّا الكثير من المتعاملين أوَّل ما سمعوا بخبر الوفاة ركضوا يتأكَّدون، لكنَّهم عندما عرفوا أنَّ الإخوة مجتمعون لحلّ* مشكلة *الخلافة، اطمأنُّوا عزُّوا ورجعوا*

ـ اجلس يا عكاشة وليدي، اشرب الشاي معي. أردتك في شيء مهمّ.

جلس كابي على السداري، ليس بعيدًا عن الجسد المسجَّى. شعر بالبرد.

ـ مرَّ الطبيب الشرعيّ، وسجَّل ثبوت الموت رسميًّا للمرَّة الثانية،

وسلَّمنا ملفّ الوفاة لتسهيل دفنه. في البداية، وقع إشكال بسيط حُلّ بسرعة. كان البشير يريد دفن والده مباشرة بين العصر والمغرب. قال القبر سترة. لكنْ أعجبني يونس، ابنه الأصغر الذي كان صارمًا *لسنا في غابة يا بشير، لوط ليس مقطوعًا من شجرة. هو والدنا جميعًا ندفنه عندما ننتهي من كلّ الإجراءات الطبّيّة القانونيّة، حتى لا نعذّبه أيضًا في قبره.* هو من طلب الطبيب الشرعيّ، حيث أخذوه إلى المستشفى في سيّارة إسعاف صغيرة، وأجروا كلّ التحاليل على الجثّة، وثبّتوا الموت الطبيعيّ، وأعادوها وفق وصيّة المرحوم، قبل موته، أن يخرج مباشرة من *الدار* الكبيرة نحو المقبرة حيث تتساوى كلّ الكائنات. وألحّ الإمام زكريًا على تنفيذ الوصيَّة. ويبدو أنَّ العائلة كلّها اتَّفقت على دفنه غدًا، بعد صلاة الجمعة المباركة. فقد تمّ تغسيله، ولم يبق إلَّا نقله إلى مثواه الأخير

ـ كان من الأفضل له أن يقضي ليلته في المستشفى، في مصلحة حفظ الجثث، حتى يتفادى التحلُّل السريع. هناك أدوية ومشرفون يسهرون على ذلك.

ـ من هذه الناحية، لا خوف. اليوم بارد وممطر. وسيبيت في الزاوية الأبرد في *الدار* الكبيرة التي تراه فيها، تحت المكيِّف الرئيسيّ الذي يضمن للجثَّة درجة من البرودة، تحميها من التحلُّل المبكِّر

حطّ مسعود الصينيَّة. ثم ذهب ليحضر الماء الساخن. ملأ كابي الكأسين بالشاي. وضع في أحدهما قليلاً من السكَّر، ووضع في الثاني كيسًا من الغبرة البيضاء التي كان قد أحضرها معه من الصيدليَّة. تذكَّر الصيدليّ الذي قال ساخرًا: *لا تكثر منها يا كابي. صحيح أنَّها مخفِّفة للآلام ومنوِّمة، لكن في الوقت نفسه رآها تدوِّخ بقرة هولَّنديَّة.* ثم أضاف: في الكأس حفنة من النعناع، طردت رائحة الدواء.

صعد البخار عاليًا من الكأسين الناعمتين.

بان وجهاهما تحت اللمبة الصفراء التي تصبغ على الجوِّ العامّ حالة من الخفوت الناعم.

تلذَّذ مسعود بكأس الشاي الأولى، بشفتين غليظتين كانتا تغطّيان الجزء العلويّ من الكأس.

ـ هذه كأس شاي يا عكاشة! النعناع نفتقده في الجنوب. الشاي عندنا قاس وثقيل مثل حياتنا شاي الشمال خفيف. لا شيء في الصحراء إلَّا إلنفط وبشرًا هائمين يسيرون عبثًا في كلّ الاتِّجاهات، مثل النمل الذي يحاول أن يتفادى خطر الموت، فيذهب نحوه من حيث لا يدري. يحلمون بجنَّة الشمال ليل نهار، لكنَّهم عندما يصلونها، بعد متاعب شاقَّة، يتحوَّلون إلى قطَّاع طرق، وقتلة ضائعين. القليل منهم ينزل صافيًا مثل الدقيق، بينما يبقى أغلبه كما النخالة في القاع، ولا ينفذ من عين الغربال. جزء آخر يسلك طريق البحر، لينتهي في القاع. هذه الدنيا غريبة يا عكاشة وليدي!

ـ يا عمِّي مسعود، كلّ شيء بحسب التربية.

ـ تعرف لماذا طلبتك؟ طبعًا أنت لا تعرف. أحتاجك غدًا للسخرة. سيكون يومًا صعبًا لا أقدر عليه وحدي، بالخصوص قبل الخروج نحو المقبرة. على كلّ، فور الانتهاء من عملك، تعال. هو سيخرج من هنا مباشرة إلى المقبرة والصلاة عليه هناك ودفنه. غسَّله الإمام زكريًا، جيِّدًا، وقرأ عليه القرآن، وكفَّنه بكفن الحرير الذي جهَّزه لهذا الغرض وأغلق عليه. سيؤخذ غدًا من هنا، كما هو كلّ وصاياه نُفِّذت على الآخر.

ـ وأنت، ما مصيرك عمِّي مسعود بعد هذا؟

ـ *اللي خلق ما يضيّع*. أتمنّى كما كلّ العمّال، أن لا يكون الخليفة بشير، فهو طاغية ولا يرضى على أيّ شيء.

سيدمِّر بعنجهيَّته كلّ ما خلَّفه كازانوڤا النار تجيب الرماد يا عكاشة وليدي. لا تنس أن تأخذ فخذيْ اللحم من البرَّاد، هما لك. خذهما الآن حتى لا تنساهما، واحد لك والثاني خذه للالَّة مباركة. صدقة عن روحه.

هرول نحو البرَّاد العملاق. فتحه. أخرج الفخذين. وضعهما داخل كيس بلاستيكيّ، ثم أدخلهما في جراب الدرَّاجة، قبل أن يعود بسرعة نحو مسعود.

ـ ربَّما نفعته في تلك الدار، صدقة جارية، من يدري؟

ـ يكثّر خيرك عمّي مسعود. سأكون معك غدًا، إن شاء الله. أنت في رتبة والدي الذي لم أعثر له على أثر، وربَّما كان على مسافة شبر من هذا المكان الذي أقف فيه، أو وراء المحيطات. لهذه الحياة أسرارها يا عمّي مسعود. قصَّة طويلة، لن تنتهي أبدًا. سأحاول أن أساعدك، ودرَّاجتي رهن إشارتك، للحاجات السريعة. عندي بعد قليل تسخين الكوشة، وبعدها أبيع الصحف فجرًا أتحرَّر نهائيًّا من عملي وأعود لك. أُلغي قهوتي الصباحيَّة مع عمّي خلدون. سأكون عندك قبل صلاة الصبح.

ـ مُرّ من هنا نشربها مع بعض.

هزّ مسعود رأسه لكي يتحاشى النوم السريع. بدأت الكلمات تتقطَّع في فمه، لكنَّه ظلَّ صاحيًا صمت قليلاً لاحظ كابي أنَّ مسعود كان يريد أن يقول شيئًا، لكنَّه سرعان ما نسيه. تأثير المنوِّم القويّ بدأ أنهى كابي كأس الشاي الثالثة. مسحوق الغبرة البيضاء بدأ يعطي

مفعوله. عندما سمع كابي حركة بالقرب من البيت، فتح الباب، ثم أغلقه من جديد، بعد أن رأى قطَّة تركض وراءها قطط كثيرة. كان يختبر نباهة مسعود. عاد نحوه وهو يردِّد: شفت *يا عمّي مسعود؟ حتى القطط أصبحت خطيرة وتشبه الإنسان في كلّ شيء. أربعة قطط تركض وراء أنثى واحدة تريد افتراسها والاعتداء عليها*

ـ زد ابق شوي يا عكاشة. قال مسعود وهو في حالة ارتخاء، بعينين ثقيلتين.

ـ لا، يا عمِّي مسعود المخبزة تنتظرني. هذا وقت تسخين الكوشة، الفرن التقليديّ يحتاج إلى وقت طويل، قبل أن يأتي الخبَّازون. طلبات الحكومة على الخبز التقليديّ زادت كثيرًا

ـ الكوشة الشعبيَّة. مليحة. تذكّرني. بناس بكري. أنت مثلي منزوع من جذع يابس. خدوم لكلِّ الناس. ولا أحد يتذكَّر خيرك. تبيت على الجوع، ولا تسرق وأنت تخدم في الخبز. المرَّة الوحيدة. التي سرقتَ فيها كانت بسبب الحاجة. ربِّي غفور رحيم، وهو أعرف بما تخفيه الصدور. سيِّدنا عمر وما أدراك، أوقف العمل بالحدّ في سنة المجاعة. كان يعرف جيِّدًا قسوة الوقت. أنت لم يرحموك. حبسوك ثلاثة أشهر ظلمًا وسَّخوا أوراقك بأن سجَّلوا عليك السرقة، كما قلتَ لي. أنذروك بعدها بأنَّك لو عاودت ستُرمى في الحبس.

ـ قصصنا ليست مهمَّة يا عمِّي مسعود. نأتي حيوانات صغيرة، نسرق قوتنا اليوميّ من الشارع، نفترش الأرض الباردة أحيانًا، ونلتحف السماء التي ليست رحيمة دائمًا، ونموت حيوانات تائهة في الخلاء، إمَّا برصاص صيَّاد طائش، أو عسكريّ شكّ في أنَّك تريد قتله أو سرقته. من يطالب بدمك في النهاية؟ لا أحد. الدنيا هانية أبدًا.

تثاءب مسعود طويلاً واصل كابي، مختبرًا ردود فعل مسعود.

ـ ماذا بقي من منارة سيتي، يا عمّي مسعود؟ لا شيء. أنت دخلتَها في وقت مبكر، بعد أن تركت جنوب الجوع وراءك. لا شيء، سوى عصابات السوء والقتل والمخدّرات، الذين سيتحوّلون إلى بارونات مخدِّرات ومهلوسات، وأسلحة وكحول وسجائر، قبل أن يطمعوا في الحكم. يدفعون بعدها بالبلاد إلى الهاوية. لا أنتظر الشيء الكثير يا عمِّي مسعود من هذه الحالة.

ـ لا شيء. أنظر سيِّدي لوط كم عاش، وشاف؟ أين هو الآن؟ في زاوية لا تختلف عن زاوية أيّ بيت آخر. ينتظر يدًا تأتي لتنتشله من مكانه نحو حفرة باردة. وإلَّا سيأكله الدود، ولن يبقي منه إلَّا هيكله العظميّ. سمعت من بعض الأطبَّاء والذين يقومون بتشريح الجثث أنَّ دود منارة سيتي، من الصلابة والجوع، أنَّه بعد مدَّة قصيرة لا يترك أيّ شيء. يأكل حتى العظام وخشب التابوت، وقطع الفولاذ التي تحوِّطه. والعياذ بالله. جيل جديد من الدود لا قوَّة تردعه إلَّا الموت نفسه، لأنَّه عندما لا يجد ما يأكله، يأكل بعضه بعضًا ياااه كم أشعر برغبة كبيرة في النوم يا عكاشة وليدي. يبدو أنَّ التعب أثقل جسدي.

تأمَّل مسعود للمرَّة الأخيرة فراغ المكان، وسطوة الموت، واللمبة الصفراء التي عمَّقت الخطوط والمكان، والتابوت الهادئ تحت المكيِّف المركزيّ. أغمض بهدوء عينيه. لم يستطع مقاومة الشلل اللذيذ الذي مسّ كلَّ أعضائه. قدَّم له كابي قليلاً من الماء البارد، وضع فيها المزيد من الغبرة البيضاء.

تمتم مسعود!

ـ نعم يا عكاشة وليدي. أنا كما قلتَ، دخلت إلى منارة سيتي صغيرًا نسبيًّا، أنا الذي لم يعرف مدينة أخرى غير مدن الصمت والرمال والفقر. وتحوَّلت بسرعة إلى قرد ماهر، يرقب حركة يديْ سيِّده بانتباه كبير كلَّما قام بحركة بهلوانيَّة. يقلِّد كلّ شيء يراه أمامه كما تعوَّد أن يفعل، علَّه يفوز برضا الناس. وربَّما بموزة أو برتقالة، من عابر معجب، أو حتى من كفّيْ سيِّده. الذي لا يدَّخر جهدًا لشكره على تعلُّمه السريع.

ثم غرق مسعود من جديد في غفوته التي لم يكن قادرًا على مقاومتها بدا كأنَّه كان يهذي:

ـ أنا مُؤَمَّن على سيِّدي لوط، ولا أستطيع أن أقول شيئًا أبدًا يسيء إلى ذاكرته. أعرف ما لا يعرفه الآخرون، وربَّما حتى زوجاته الكثيرات، أو النساء العابرات اللواتي كنّ يأتين نحوه، يبتن ليلة ثم يمضين باكرًا لا أحد يعرف خفايا هذه الدار. عندما يكون الوضع خاصًّا، يحرِّرني سيِّدي في وقت مبكر، على غير العادة، لأكون مع زوجتي وأبنائي. هذه عادته. الصدفة شاءت آخر مرَّة أن أعبر بالقرب من البيت ليلاً، إذ شككت في مجموعة من الشباب كانوا يدورون حول الدار. وكان المفتاح معي، قلت بيني وبين نفسي، لماذا لا أعود؟ ربَّما كانوا يحضِّرون لمحاولة اعتداء. فوجئت بامرأة ترتدي حائكًا، تفتح الباب، افترضت مباشرة أنَّها كانت على اتِّفاق مع الشباب الذين ظلُّوا واقفين كأنَّهم ينتظرونها انتظرت قليلاً، ثم دخلت إلى الدار من جهة الكراج، أسهل. صعدت بعدها مشت عبر الدروج، حتى خُلْوة لاغراند تيرَّاس. فجأة، سمعت شخيرًا. ظننت سيِّدي مريضًا أو في حالة اختناق. فخفت عليه حقيقةً. لا أدري لماذا لم يغلق الباب. كدت أصرخ ملء دماغي: لماذا يا سيِّدي لم تغلق الباب؟ تسلَّلت

بهدوء. رأيته واقفًا في الزاوية المنارة قليلاً والمطلّة على البحر، رافعًا ساقها اليسرى المصقولة، بذراعه اليمنى القويّة، رأسه في عمق صدرها، كأنَّه كان يرضع حليبها كان ملتصقًا بها ثم رأيت وجهها طاوس السكرتيرة الجديدة التي جاءت مباشرة بعد أن دخل سيِّدي في صراع مع زكيَّة. فجأة، رأتني. ثبّتت عينها في عينيَّ، ولم تتوقَّف عمَّا كانت تفعله معه، وتتنهَّد وهو مثل الغريق. فتحت عينيها باتِّجاهي وكأنَّ وقوفي لم يكن يعني لها شيئًا، حتى من باب الخجل. ثم بدأت تحدث صوتًا يشبه حفيف الأفعى وهي تستعدّ للقفز على ضحيَّتها وضعت يدها على شفتيها ححححححح. شششششت. ثم شدَّته أكثر نحوها شعرت كأنَّها تدعوني لمغادرة المكان. خرجت بهدوء وأنا أسير بالخلف حتى لا أُثير أيّ انتباه. عرفت أنَّها لم تقل له شيئًا عنِّي، لأنَّه في اليوم الموالي، نزلنا إلى الحمَّام، أنا وهو، بعد أن أعاد بناءه وترميمه وإلحاقه بمجمَّع حمَّامات الراحة، التي كانت تحوي أيضًا SPA. عندما غادرتُ المكان، كانت الشوارع مظلمة والشباب الواقفون انسحبوا نهائيًا سعدت أنَّها لم تقل شيئًا ماذا بإمكان رجل مثلي أن يقول؟ كان يمكن لطاوس أن تقول أيّ شيء عنِّي، وأُطرد شرّ طردة، لكنَّها لم تفعل. تبعت سيِّدي في حلّه وترحاله. لم أتدخَّل في أيّ شيء حتى الأشياء التي كان يرتكبها، ولا يريدها لا الله ولا العبد. شممت رائحة الصفقات الظالمة، والاستيلاء على العقارات الكثيرة قبل أن يشيِّد المارينا سيِّدي لوط كريم، لكنَّه يرفض أن يُستغبى. كان يعرف كلّ شيء عندما يحسّ بأنَّ الصفقة ستكون كبيرة. أحمل برنسه وبلغته وعصاه، وأنتظره في الغرفة المجاورة أحيانًا ساعات طويلة، إلى أن يناديني: مسعووووود. مسعووووود. اربح[1]، أحتاجك. تعالَ.

---

(١) معناها تعالَ.

ـ عمّي مسعود؟ كأنّك تهذي؟ واش راك تقول؟

يحاول مسعود أن يفتح عينيه بصعوبة.

ـ لا ربّما إنهاك اليوم كان شديد الثقل. لا تحاسبني إن أخطأت. أنت أيضًا لم تنج من بطشه وشراسته إلّا بصعوبة.

مش حقّ عليه يسجنك وأنت صغير

ـ يا عمّي مسعود، حكاية قديمة. خطأي أيضًا لا يُغتفر كنت غبيًّا حقيقيًّا لقد سرقت في وضح النهار، وأمام ربّي والناس. وبهدلت عمّي خلدون أمام كلّ الناس. السرقة سترة، لكنّي لم أستطع الصبر عندما شممت رائحة الخبز قلت للخبّاز *لميما مباركة تخلّصك*. تفحّصني بنظرة خبيثة، من فوق لتحت. *كيفاش تخلّصني مباركة؟ مبحرة وفقيرة؟* ثم نظر إلى عينيّ بحدّة وعمق: *هاااه؟* عرفت *الآن كيفاش تخلّصني. طيّب روح قل لها تجيني في الليل*. قالها وهو يقهقه عاليًا شعرت بالإهانة، يا عمّي مسعود. أجبته: *مارانيش بركسينيت*[1] لا أدري لماذا تذكّرت بطل إميل زولا في *جرمينال* الذي أعاره لي عمّي خلدون، وظلّ ورائي حتى أنهيته، وعرفت مآسي مناجم مونتسو[2] وكأنّ الزمن لم يتغيّر. ضحكت في المشهد الذي قطعت فيه النساء اللواتي اغتصبهنّ *ميغرا*[3] صاحب الدكان، زيزته[4]، ولعبن بها طويلاً لا أدري ماذا حدث. لكنّي أتذكّر كيف دفعتُه حتى سقط على قفاه، وكادت الضربة أَنْ تكون قاتلة. سرقتُ رغيف الخبز، كما فعل *جان فالجان*، وهربت، ولم ألتفت ورائي. أكلت قليلاً، والباقي قسّمته على

---

(١) لستُ قوّادًا

(٢) Les mines de Montsou

(٣) Maigrat, l'épicier.

(٤) نزعن ذكره.

زنقة الفقراء في حيّ الشِّيرَا، حيث تُقيم ميما مباركة. وسلَّمت الجزء الأخير إلى ميما مباركة. سألتني: منين جيبتو؟ قلت لها أعطاه لي الخبَّاز. قالت *هذاااااك المشحاح الطمّاع أعطاك الخبز، أستغرب جدًّا؟ هذاك قتّال وجوعان*. وقبل أن أخرج من بيتها، كانت الشرطة تحوِّط المكان، لتُلقي القبض على أخطر سارق في منارة سيتي. ضربوني حتى كادوا يقتلونني، والخبَّاز يتفرَّج على المشهد. لولا تدخُّل عمِّي خلدون، الذي حضر في آخر لحظة، لقتلوني حقيقة. ضمنني ماليًّا، والتزم بكلِّ التعويضات المادِّيَّة للضحيَّة، الخبَّاز. قال لي: *الآن اشتريت روحك أقسم أن لا تعيدها فأقسمت*. أخرجني. غضب منِّي كثيرًا، لأنَّه كان يحبّني جدًّا، وأوَّل من احتضنني بعد أن غادرت مجبرًا *لاداس*، ووجدتني في الشارع. معلِّمي في كلّ شيء جميل. لم يكلِّمني مدَّة شهرين، كانت قاسية عليّ. قال لي: *خدعتني يا عكاشة، لم تكن ملزمًا بهذا، ولو أنَّ ابن الكلب يستأهل أكثر*. في النهاية، سامحَني. كلَّما تذكَّر الحادثة، ضحك منِّي كثيرًا، وهو يردِّد: *جان فالجان تاع آخر زمان*. قلت له: *والله، يا عمِّي خلدون لولا قسمي لك لكنت وجدت حيلة وقلعت زيزته، كما فعلت النساء مع ميغرا* صرخ: *واش بك؟ هبلت؟ الناس يقرأون زولا للمزيد من العلم والنور والدفاع عن الحقّ، وأنت تتعلَّم باش تقلع الزّيزات تاع أعداءك؟* وينتهي الأمر بضحكة جماعيَّة.

ضحك مسعود بعياء، حتى لمعت أسنانه البيضاء التي يخترقها سواد خفيف، مثل أغلب سكَّان أهل الجنوب، ثم انغلقت شفتاه الغليظتان، وبدأ يشخر.

اقترب منه كابي. نادى عليه بصوت مسموع مرَّة، مرَّتين، ثم ثلاث مرَّات. عرف من شخيره أنَّه في عالم آخر. اقترب من أذنه

وتكلَّم معه: *عمِّي مسعود راني رايح للدار، في الصباح أكون عندك.*

واصل مسعود شخيره الذي كان يُسمع من بعيد.

حاول كابي أن يمدِّد رجليْ مسعود ليكون في وضع مريح قليلاً عدَّل وسادته. ثم غطَّاه بما وجده بالقرب منه. عندما اطمأنَّ عليه، نزع كابي معطفه الجلديّ، متحرِّرًا من أيّ ثقل، على الرَّغم من برودة الجوّ في الزاوية التي وُضِع فيها كازانوڤا اقترب من الجثَّة أكثر. شمّ رائحة ثقيلة، لم تكن رائحة الموت، ولكنْ بقايا الفضلات.

أحضر سطلاً من الماء، غسل يديه، ووجهه كأنَّه كان يتوضَّأ عندما رفع رأسه لاشعوريًّا، رأى نور، أو تخيَّلها كذلك، روح الحمامة المسحورة، وهي ترنو إليه بعينين مخيفتين، بالضبط في الوضع نفسه عندما دخل، لكنَّه لم يأبه بها هو يعرف أنَّ الحمامة الحقيقيَّة ماتت، ودُفنت في الحديقة القريبة من مقصورة VIP، كما روى له مسعود قبل أيَّام.

٢

أخرج كابي القفّازتين البلاستكيَّتين من جراب الدرَّاجة الناريَّة. ارتداهما بسرعة.

قال وهو ينظر عميقًا في عينيْ كازانوڤا، من تحت الكفن:

ـ والآن يا سيِّدي كازانوڤا؟ هل عرفتني؟ أنا كابي، أو كابي الذي يعجب الكثيرين بنغمة اسمه الأوروبيَّة، لكنَّهم لا يعرفون أنَّه مختصر *كَبُّول*، اللقيط بالعربيّ الفصيح. *اللقيط* الذي خُلق في الشارع ويظلّ فيه حتى الموت. *الفرخ*، بلغتنا القاسية. أصبحنا وحيدين الآن أنا وأنت، لا شيء يفصل بيننا إلَّا الموت الذي احتلّ جسدك، وأسكته أخيرًا، وذاكرة هربتَ منها، ولكنَّها أدركتك في نهاية المسافة، وأنت تستعدّ للرحيل. الفرق الكبير بيني وبينك بسيط، هو أنَّي أعرف كلّ شيء عنك، بينما أنت لا تعرف شيئًا عنِّي. أفهم طبعًا الفوارق الكبيرة والمسافات الثقيلة لا تسمح لك بالالتفات نحو اللاشيء. أنا لا شيء

بالنسبة لك. مع أنَّك أنت من جعلني شيئًا في هذه الدنيا. لستَ مجبرًا أن تعرف فرخًا ضائعًا في شوارع منارة سيتي. كابي لا شيء في النهاية. لا شيء تمامًا

لكنَّنا الآن شيئان منفصلان.

ماذا أفعل بك؟ أنت مجرَّد من كلِّ شيء، حتى من أنفاسك. حتى كرهك يحتاج إلى طاقة لا أملكها

مَنْ قَالَ لَكَ يَا مُدْمِنَ حُزنِ النساء، إنّ الإذْلالَ يُنْسى بِشَهْوَةٍ عَابِرَة؟ كلُّ شَيْءٍ تَغْفِرُهُ امْرأَةٌ عاشِقَةٌ بِكُلِّ حَواسِّها، إلَّا أَنْ يُسْرقَ مِنْ بيْنِ يَدَيْها كِتَابٌ غَفَتْ عَلَيْه في ليالي الشّتاءِ، وَأنْ يُباعَ جَسدُها لأوّلِ عَابِرٍ، وأَنْ يُسجَنَ حلمُها فِي ظُلْمةِ الغَباوَة. تُرِيدُ أنْ تَعْرِفَ كَمْ أكْرَهُكَ؟ لاَ أكْرَهُكَ، لأنِّي لا أستطيع. أسْتَكثِرُ فِيكَ كرهي. لَقَد انْطَفَأتَ حتى مِنْ ذاكِرتي، على الرَّغم من حضور جثَّتك.

لي الكثير ممَّا أقوله لك، حتى ولو توقَّفتَ عن السماع.

طبعًا، أنت لم تطلبني لتعتذر منِّي، لأنَّك في النهاية غير معترف بي، بل أنا بالنسبة لك، غير موجود أصلاً لكنّي من سوء حظِّك موجود! حقيقتك المخفيَّة. لم يكن لي حظّ الآخرين، أن أراك حيًّا، وأسألك، ربَّما تمكَّنت من الإجابة عن حرائقي الداخليَّة، وحدك تعرفها، لكنِّي أراك، وربَّما تراني. غير مطلوب منك أن تقول ما تفكِّر فيه، لم يعد مهمًّا. أن تسمعني فقط.

من ساعة موت كلبك بيرو ڤيردي، أو انتحاره تحت عجلات شاحنة الزبالة، وأنا أفكِّر إذا لم يكن ذلك نذير شرّ. موته كان علامة عن شيء أكثر سوءًا، قادم في الطريق. تعرف عناوين صحيفة *الغاشي* اليوم ما هي؟ أكيد سيسرَّك ذلك، لأنَّ موتك لم يكن حدثًا عاديًا

لحظة. ستتعرَّف عليها قبل كلّ أحياء منارة سيتي.

ثم مدّ يده إلى جيبه الخلفي. سحب جريدة *الغاشي*، في نسختيها العربيَّة والفرنسيَّة.

ـ في العنوان، شيء من الخبث، أقرّ بهذا **كازانوفا، أخيرًا تركته الحياة**. العنوان الصغير: **كازانوفا يلحق ببيرو فيردي الذي رمى بنفسه تحت عجلات شاحنة زبالة**. ربَّما كنتَ لا تسمعني جيِّدًا أمَّا الفرنسيَّة، فقد اختارت موضوع الخلافة ودخان خلوة لاغراند تيرَّاس: La fumée qui cache mal, la guerre de succession[1] خلِّيني أحرِّرك من هذا الظلام الذي فُرض عليك وأنت ما زلتَ في بيتك، في الدار الكبيرة. يكفي أنَّك ستعيش ظلامًا أبديًّا

تلمَّس الجثَّة. تحسَّس رأس كازانوفا فتح الخيط الذي يربط الكفن من الجهة العليا كشف عن وجهه. *أنتَ يا سيِّدي*. *لا شيء تغيَّر فيك، ما عدا لون وجهك الذي أصبح كابيًا*، يشبه *الحجر الأزرق*، *وخطوط ملامحك التي انتفت، ولم يعد بها شيء منك.*

ثم فحصه بنظره دون أن يمسّه. كانت عيناه نصف مفتوحتين. مش حقّ عليهم، تمتم في أعماقه. *كان من المفروض أن يُغلقوا عينيك. لكنْ يبدو أنَّهم كانوا متسرِّعين للتخلُّص منك نهائيًّا*

تراجع قليلاً إلى الوراء. شعر بألم في ظهره. سحب الكرسيّ الصغير الموضوع في الزاوية، ثم التفت ناحية مسعود. كان يغطّ في نوم عميق، كأنَّه غير معنيّ بعالم لم يكن له في أيِّ يوم من الأيَّام. جاءه صوت الورّام في شكل نشيد جنائز ظلَّ يتأمَّله هو أيضًا، من فوق بعينين مدوَّرتين، كلَّما قام من مكانه، فطفط بجناحيه استعدادًا

---

(١) الدخان الذي يغطّي بالكاد، حرب الخلافة.

للهرب، ثم استكان في مكانه.

جلس كابي.

ـ نسيت أن أقول لك، إنَّ كلّ ما حكته لك ميما مباركة صحيح عن قصَّة الأرنب والذئاب الليليَّة التي خافت منَّا، وعن الجثث المنتشرة التي أخرجتها الذئاب، ولم تأكلها، وظلَّت مصوِّبة عيونها نحونا، قبل أن تنسحب من تلقاء نفسها، صحيح مائة بالمائة. ميما مباركة كانت سعيدة أنَّها انتزعت منك فرصة أن تقول ما كان في قلبها، لأنَّها منذ زمن بعيد وهي تحمل كلّ تلك البراكين. لم يعد الموت يخيفها، لأنَّك في النهاية حوَّلتَها إلى غسّالة جثث، ومنحتني المسكينة من حيث لا تدري، رائحة الموت، التي أصبحت أعرفها جيِّدًا من خلالها كان يفترض أن أشتغل معها في الوظيفة نفسها أملك القدرة على تحديد وقت وفاة الجثَّة، فقط بحاسَّة الشمِّ. كانت تعود من المستشفى بتلك الروائح الثقيلة، فتقول: اليوم غسلت جثَّة ماتت منذ يومين. البارحة غسلت جثَّة شابَّة مرَّ أسبوع على موتها. كانت الروائح التي تلتصق بها تختلف جذريًّا قليلاً ما كنتُ أخطئ فيها *ميما مباركة غسّلت اليوم جثَّة مرَّ على وفاتها ثلاثة أيَّام. ميما الرائحة التي ما تزال فيكِ تدلّ على أنَّ زبونتك اليوم مرَّ على وفاتها زمن طويل.* كنتُ أشمّ رائحة الميت حتى وهي تلتصق بالحيّ. قد يبدو لك الأمر غريبًا. كنتُ أعرف يا سيِّد كازانوڤا، من رائحتك، أنَّك لن تتجاوز السبعة أيَّام. هذا ليس شِرْكًا في إرادة الله، فمن أكون في النهاية؟ لكن هذه الحاسَّة أنت من منحها لي، عن طريق ميما مباركة. حسنًا فعلتَ أنَّك بادرت بالتسامح مع زوجاتك. ميما مباركة أخطأت في تفصيل صغير ووحيد. هي لم تنجب زهرة التي حلمت بها، لكنْ عكاشة أو كابي، الذي احتفظ بكلّ شيء لنفسه، لأنَّه وعد المرأة التي جاءت بالحقيقة، وأفردتها أمامه،

بعد أن أجبرته على وضع يمينه على المصحف. فعلت ذلك معي، وهي تعرف سلفًا أنّي مجرَّد حيوان وسط أدغال بلا نهاية. قالت، *أقسم أنَّك لا تؤذي الميِّت ولا تضرّ بالحيِّ*. وما زلت على عهدي إلى اليوم، ولا أعرف إلى أيِّ مدى ستطول مقاومتي. لكنْ، أمامك أجد راحة كبيرة في الكلام، لأنَّ كلامي ستحمله معك إلى القبر. لأوَّل مرَّة، أصبحتَ تشبه كلّ الخلق. ولأنَّك هناك، على غير هذه الأرض، يمكنني أن أحكي معك عن كلّ ما حدث في ذلك الصباح القاسي والصعب. عليك أن تعرف الحقيقة، ولو أنّي لا أستطيع التخفيف من حملك الثقيل.

اجتاحه وجه مباركة بقوَّة، بحزنها الكبير، ونظرتها الزائغة، واستعدادها الدائم للدفاع عن نفسها بكلِّ الوسائل المتاحة، وعدم التسليم في حقِّها، في الحياة. الشخص الوحيد الذي تسمع مباركة إلى كلامه، ولا تخفي عنه أيّ شيء، هو كابي. تفضي له بكلِّ ما في قلبها، عندما يعتريها غضب ما، من كلّ ما يحيط بها تعرف أنَّه الشخص الوحيد الملعون في المدينة الذي لا يكذب ولا يسرق. حتى عندما سرق الخبز، لم يكن يريد أن يفعل ذلك، لكنَّ الإهانة جعلته يعتدي على الخبَّاز، والجوعَ قاده إلى اقتراف فعل كاد أن يُقتل بسببه ضربًا، على مرأى من كلّ الناس، بمن فيهم صاحب المخبزة.

رائحة ما كانت تتسرَّب دائمًا من الجثَّة. وضع كابي محرمة خفيفة على أنفه في شكل قناع واقٍ، ليخفِّف من ثقلها منذ أن دخل إلى وسط الدار وهو يشمّها، وكأنَّها، مع امتداد الليل، كانت تزيد ولا تنقص.

ـ اعذرني يا كازانوڤا، هناك بعض الروائح يصعب تحمُّلها، بالخصوص رائحة الإنسان في حالة تعفُّنه وتحلُّله.

تتذكَّر يا سيِّدي عندما اغتصبتَ ميما مباركة؟ هل تتذكَّر يوم حملتْ بزهرة، بعدها أخذتموها إلى مستشفى ابن سينا، في حالة طوارئ قصوى، ودمها يسيل، وأنت لا تصدِّق، عندما كلَّموك في التليفون، أنّ وقت الولادة قد حان حقيقة؟ ميما مباركة تقول إنَّ الزمن جعلها تتخلَّص من كلّ شيء إلَّا من رائحتك، فقد التصقت بجلدها، لتذكِّرها دومًا بحالة الاغتصاب.

في البداية، تركتها تنزف، وذهبتَ إلى شركتك. لولا تدخُّل لالَّة كبيرة، لغرقت وماتت. هي من طلب إسعافات مستشفى ابن سينا لالَّة كبيرة كانت تعرف الكثير من العاملين فيه، وأغلب أطبَّائه من شباب منارة سيتي، من خرِّيجي أميركا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا ثم إنَّه ملكيَّتك المطلقة. في وقت وجيز، أصبح ابن سينا قبلة الكثير من الوزراء ومدراء الشركات الكبرى في منارة سيتي. كلّ العمليّات التي تُجرى فيه كانت مضمونة النجاح. لم يكن ذلك حظّ لالَّة مباركة.

هل تعرف، يا كازانوڤا، أنَّ ميما مباركة لم تكن حاملاً بزهرة التي أحبَّتها من كلّ قلبها واشتهت مجيئها إلى الدنيا، ولكنْ بطفل صغير سيتشرَّد طويلاً، قبل أن يعود إلى حضنها دون أن تعرف؟ كنتَ تعرف أنَّ المولود ذكر، لكنَّك أخفيت كلّ شيء عنها هل سألت عن مصير ذلك الطفل الصغير وأينه؟ أليس ابنك؟ هو الآن أمامك. عكاشة، كبّول منارة سيتي.

في ابن سينا، ولِدتُ بقيصريَّة، في مصلحة الولادات الطارئة. لم تترك يد لالَّة كبيرة إلَّا وقت الوضع. بكلِّ محيطك الثقيل، لم تجد من يسير معك في جريمة قتل موصوفة، لا تترك وراءها أيّ أثر موتها ينهي مشكلتين، مباركة والاغتصاب، والكبّول الذي واجهتك به ذات صباح، وهو من صلبك. أحد الأطبَّاء قال سرِّيًا، بالحرف الواحد للالّة

كبيرة: *أخاف الله، وأخاف من نفسي. صحيح أنَّ سيِّدي لوط ساعدني على الوظيفة، لكنِّي لا أستطع أن أقتل مولودًا حيًّا* في الدنيا، يا كازانوڤا نفوس يصعب شراؤها وكان من الصعب عليك قتلها مباشرة، لكنَّك عرفتَ، ولو موقَّتًا، كيف تنهي علاقتها بالحياة.

كلّ شيء تمّ في قسم الولادات. معظم من كان فيها، كان متواطئًا معك. وُلدتُ بالقيصريَّة ثم أُخْفيْتُ من بين العشرات من المولودين الجدد. عندما استيقظت، أتيتموها بالمولودة زهرة، التي لم تكن زهرة. الغريب أنَّ ميما مباركة شعرت بنفور منها منذ اللحظة الأولى، والمولودة أيضًا. رفضت أن ترضع صدرها، وأن تشمّ رائحتها. كأنَّ حضور لالَّة كبيرة أفسد عليك وعلى أطبَّائك سهولة قتلها. على مدار ثلاثة أيَّام، وهما ترفضان بعضهما بعضًا، إلى أن صرخت ميما مباركة: لا يمكن *أن تكون ابنتي. هذه الصبيَّة ليست لي. ربِّي وكيلكم!* في اليوم الرابع، أُخبرت من أحد أطبَّاء التوليد الذي كان محاطًا بثلاث ممرِّضات، بأنَّ زهرة توفِّيت بسبب جفاف جسدها من الماء. ظلَّت تبكي إلى أن غادرت المستشفى بجرح أبديّ. من يفكِّر مثلك في لحظة الخوف؟ من يملك طاقة تخييلك وقت الحصلة[1]؟ تماديتَ في جنونك. صنعتَ لزهرة قبرًا كنتَ حريصًا على أن تزوره برفقتها في الأعياد الدينيَّة وأيَّام الجمعة. يقينها بأنَّ ابنتها لم تمت، دفع بها ذات يوم بأن تقنعني بحفر قبر زهرة. لم تبك يومها ولم تُفاجأ، عندما وجدتْ عظام أرنب كبير في القبر، بل زاد يقينها بأنَّ ابنتها لم تمت، وهي في مكان ما لم تستسلم أبدًا لما فعلتَه فيها ظلَّت تبحث عنها، لأنَّ الكذبة كانت مُحكمة، لدرجة لا أحد باستطاعته معرفة مصير

---

(١) لحظة المأزق.

زهرة. لكنَّ صاحب الجريمة يترك دائمًا أثرًا ولو صغيرًا لا يستطيع تفاديه، مهما كانت جهوده. سألتني ميما مباركة يومًا *هل أنا* سعيد بعملي؟ أكَّدت لها *أنِّي لست سعيدًا، وأنَّ جزءًا من حياتي في الشارع*. عرَّفتني بلالَّة رقيَّة، وابن عمِّها خلدون، الذي تقول عنه إنَّه في رتبة أخيها عمِّي خلدون كان يحبِّني ويرى فيَّ دائمًا شخصيَّة غافروش. وعندما سألته، *من هو هذا الغافروش يا عمِّي خلدون*؟ وضع في يدي كتاب ڤكتور هيغو: *إذا أردتَ أن تعرف صورتك، هي هنا* لأوَّل مرَّة، أُنهي قراءة كتاب في حياتي. ثم اجتهد وساعدني على إيجاد عمل في مخبزتك، بتوسُّط من لالَّة روكينا التي قرّبتني منها أكثر، وجعلتني أتسخَّر لها في كلّ حاجاتها البيتيَّة التي لا تريد أن يقوم بها خدم *الدار الكبيرة*.

أنت لا تعرف من أكون يا سيِّدي، وإلَّا لكنتَ قتلتني ومحوتَ أثري.

كنت أرى في عينيْ لالَّة روكينا جرأة كبيرة وغِيرة حارقة من أشياء كثيرة كانت تحيط بها وقرأت فيهما رغبة محمومة لفضحك والانتقام منك. كنتُ أداتها من حيث لا أدري. حتى عمِّي خلدون كان دائمًا يقول *أسوأ شيء في رقيَّة غيرتها من كلّ من يريد أن يسرق منها شيئًا حقودة مثل طفل كُسرَت لعبته أمام عينيه*. عندما بدأ كازانوڤا يسقط في الإغماءات المتكرِّرة، قالت يجب *أن تعرف ما غاب عنك حتى الآن*. في نهاية أحد الأسابيع الشتويَّة، رتَّبت كلّ شيء برفقة عمِّي خلدون الذي كان قلبه محروقًا عليّ. قالت *لن أحتفظ بالسرِّ أكثر من هذا آن الأوان لتلتحق بإخوتك وأن لا تظلّ مشرَّدًا*. لم أفهم ما كانت تقصده. كرَّرت عليّ تقريبًا الجملة نفسها. *سأقودك عند ناس آن الأوان أن تعرفهم*. في الفترة نفسها، كان عمِّي خلدون قد أخبرني عن سر،

واستحلفني أن أحتفظ به لي ولو موقّتًا. أقسمت. قال *إذن انتظر إشارة روكينا* لا أتذكَّر من ذلك اليوم سوى قسوته، وأنَّه كان ممطرًا، ومياه طوفانيَّة ملأت منارة سيتي وضواحيها كادت المياه أن تجرفنا نحو الوادي لولا مهارة السائق. أخذنا تاكسي درءًا لكلِّ الشبهات واحتمالات المتابعة. لم أجرؤ حتى على أن أسال لالَّة روكينا طوال الرحلة.

وصلنا إلى مكان يشبه الضيعة، واسعًا ومليئًا بالأبقار. عندما رأى صاحب الضيعة لالَّة روكينا، ركض نحونا. سلّم علينا وضعت لالَّة روكينا في كفِّه شيئًا، افترضت أوراقًا ماليَّة. أدخلنا إلى بيته المتواضع. استقبلتنا الطبيبة بفرح. بدا واضحًا أنَّها كانت تنتظرنا بلباسها الطبِّي.

رحَّبوا بنا كثيرًا ثم انفصلنا أنا ولالَّة روكينا والطبيبة، في غرفة في العمق.

بعد لحظات من الصمت، قالت روكينا:

ـ شافية، تعرفين جيِّدًا لماذا أنا هنا أنتِ اليوم دكتورة كبيرة مختصَّة في الشأن النسائيّ. ربِّي يزيد لك ويحفظك من العين. في ذلك الوقت، عندما وقعت الحادثة، كنتِ مجرَّد ممرِّضة صغيرة تجد صعوبات كبيرة في مواصلة دراستها في الطبِّ بسبب التكلفة الغالية. حتى جاء لوط وساعدك على كلّ شيء. لم يكن الأمر مجَّانيًّا سافرت إلى مرسيليا، وعدت بعد ثماني سنوات بشهادة التخصُّص. وأنتِ اليوم بين مستشفى ابن سينا، وعيادتك الخاصَّة. لا أريد منك شيئًا، كما قلتُ لك. كازانوفا على حوافّ الخطر. فقد تكرَّرت نوبات الغيبوبة. من يدري كيف سيكون الغد؟ أريد فقط لهذا الطفل الضائع، عكاشة، أن يعرف ما خُبِّئ عنه طوال السنوات الماضية التي حرمته من الأبوَّة، والأمومة.

ـ الجريمة كبيرة يا لالَّة رقيَّة، لكنِّي صمَّمت على أن أقول لك كلَّ شيء، كما وعدتك.

ـ لا نريد أكثر من ذلك. أريده أن يسمع منك مباشرة.

لم أصدِّق ما كنت أسمعه. وكنت مستغربًا أنَّ الأمر كان يعنيني إلى هذه الدرجة!

اندهشت ممَّا سمعته. بدأت أتحسَّس القنبلة الموقوتة التي كانت في جسدي النحيل الذي لم يشبع في أيِّ يوم من الأيَّام، حتى تعوَّد على الحدِّ الأدنى في كلّ شيء. طبعًا، أنت كنتَ تعيش سعاداتك، متنقِّلاً من جسد إلى آخر، بينما كنتُ أبحث فقط عمَّن يُعيد لي هويَّتي التي سُرقت منِّي. يُعيد لي أمِّي الطبيعيَّة. حتى أبوَّتك لم أكن في حاجة إليها

نظرت شافية إلى عينيْ روكينا. في البداية، تردَّدت قليلاً، وتحرَّجت بسبب وجودي. طبيعيّ، فهي لا تعرفني، ولم ترني في حياتها ولا مرَّة. لكنَّها سرعان ما أحسّت بأمان عندما طمأنتها روكينا قالت لها:

ـ لا مشكلة يا شافية. هو هنا أصلاً لسماع القصَّة، مهما كانت قاسية.

ـ أنا سأرويها كما حدثت منذ ستّ عشرة سنة، أو أكثر بقليل. اعذروني إذا نسيت بعض التفاصيل.

ـ يهمُّني يا شافية أن يسمع عكاشة قصَّته، وعليكِ الأمان كما قلتُ لك.

ـ مسرحيَّة شديدة الخطورة يا رقيَّة. مركَّبة تركيبًا جهنَّميًّا أخبرني السيِّد لوط عن حمل زوجته، وأنَّه غير راضٍ عن هذا الحمل، ويريد

أن يتخلّص منه. في البداية، حاولت أن أقنعه بالعدول عن ذلك، لكنّه أصرّ. هدّدني بالطرد من مستشفى ابن سينا إن لم أجد حلًّا مقنعًا ومخلصًا. كنت ممرِّضة مختصَّة في الولادات، والقابلة الأساسيَّة في المستشفى، على الرَّغم من حداثة سنِّي. وحدي كان بإمكاني إخفاء المولود. يوم ولادة عكاشة، ولّدنا امرأة تُسمّى حليمة. كانت حاملاً بجنين توقَّف عن النموِّ. فاخترناها وأنقذنا حياتها كانت تعرف تفاصيل وضعها، لهذا تقبّلت الأمر بقدريَّة وراحة. اخترنا طفلة وُلدت في اليوم نفسه. كنّا نرضعها عند أمِّها، ثم نخبرها بأنّنا نأخذها لترتاح في سريرها، لكنّنا كنّا نأخذها عند مباركة ونوهمها بأنَّها زهرة، ابنتها كنّا نريد أن نحسِّسها بأنَّ حملها كان حقيقيًّا الاسم الحقيقيّ للبنت هو آية، وليس زهرة. كنّا نأتي بها بعد أن تشبع من حليب أمِّها الأصليَّة. كانت البنت متعوِّدة على رائحة أمِّها، لهذا كانت تصرخ كلَّما وُضِعت على صدر مباركة. ومباركة أيضًا لم تشعر بها كانت دائمًا تسألني: هل أنت متأكِّدة من أنَّها ابنتي؟ هذه ليست زهرة. وكنت أقول لها إنَّها البدايات، وستتعوَّد عليها إلى يوم أخفيناها عنها نهائيًّا مرّ الطبيب وأنا، وممرِّضتان أخريان لم تكونا تعرفان أيَّ شيء عن الحقيقة المخفيَّة، وأخبرناها بأنَّ زهرة ماتت بسبب جفاف جسمها من الماء، لأنَّها لم تكن ترضع.

مدّت لالَّة روكينا يدها نحوي.

شدَّت على أصابعي بقوَّة، وكأنَّها رأت الكسر المعوجَّ الذي ارتسم في قلبي، مثل خطٍّ يخترق سطح قطعة زجاج، بعد أن ارتطمت بجسم صلب.

نظرت شافية نحو عينيَّ الداميتين. كنت أسمع بكلِّ حواسِّي المنهكة.

ـ لالَّة. هل أحكي عن كلّ شيء؟ أخاف أن أجرحه؟

ـ هل بقي جرح بعد كلِّ الذي حصل؟ احكِ.

ـ الابن الحقيقيّ، يعني عكاشة، سلَّمناه لحليمة الفقيرة، التي خلَّصناها من جنينها الميِّت. عندما استلمته، رضع منها بسرعة، كأنَّها أمّه الحقيقيَّة. كانت سعيدة بالمولود، وتعرف جيِّدًا أنَّه ليس لها أخذتُ معلوماتها وتليفونها كنتُ أنفِّذ أوامر كازانوڤا حرفيًّا كنتُ أزورها في البيت، حتى استقرّ أمرها رأيت كيف كان الطفل يكبر. ارتبطتُ به بقوَّة، لأنَّه كان وحيدها كلّ أجنَّتها يتوقَّفون قبل التسعة أشهر، عن النموّ. مع ذلك، من أجل المزيد من الحماية، جعلتها توقِّع على تقرير طبِّي، أنا من أنجزته برفقة أحد زملائي من أطبَّاء ابن سينا، والذي يقول بأنَّ الجنين وُلِد ميِّتًا بعد توقُّف نموِّه، لسبب غير معلوم. تقرير حقيقيّ لحماية أنفسنا من أيّ احتمال. كما أنجزنا تقريرًا آخر يؤكِّد على سرقة طفل من إحدى الحاضنات، في المستشفى. وجعلنا مباركة توقِّع عليه وهي في حالة بين الوعي والتخدير. احتفظنا بكلِّ شيء في ملفَّات المستشفى السرِّيَّة، لا نخرجها إلَّا في الحالات القصوى. كنّا نريد أن نحمي أنفسنا أيضًا

لا أدري لماذا شعرت فجأة برغبة في عضِّها، وضربها، وشدِّها من شعرها وجرجرتها في الشوارع، أمام الناس، حتى أصل بها إلى حيّ شِّيرَا، وأُدخلها على ميما مباركة، وأصرخ في وجهها تقيَّئي كلَّ ما في داخلك.

كأنَّها أحسَّت بالشيء المظلم الذي ملأ عينيَّ. أحنت عينيها، وواصلت قصَّتها

ـ زوج حليمة لم يعرف شيئًا عن القصَّة. كان تاجرًا صغيرًا، ولم

يكن دكّانه كافيًا لضمان حياة أفضل له ولعائلته. ملّ من ظلم التجّار الكبار، والمضاربين الذين سرقوا منه أيّة فاعليّة، إذ كان عليه المرور عبر سلسلة من الحيل ليستطيع أن يضمن جزءًا من قوته اليوميّ. قال لحليمة وهو ينظر لابنه نظرة اليائس من كلّ شيء، بعد أن تأكّد من إصابتها بسرطان الثدي: *لن نبقى على هذه الوضعيّة. لن أسلّمك للموت بهذه البساطة*. كانت حليمة تضطرّ للسفر مرّات عديدة في الشهر لإجراء العلاج الكيماويّ والعلاج الإشعاعيّ. كثيرًا ما كانت تنتظر أيّامًا عند أختها في منارة سيتي، قبل أن تعود خائبة بلا علاج، وهي تعرف أنّ نصيحة الأطبّاء كانت صارمة: *تضييع أيّة حصّة سيعرّضك لخطر الموت والانتشار*. كانت حرقة زوجها قد كبرت، ولم يعد قادرًا على الصمت: *حليمة لا أريد أن أراك كلّ يوم تموتين قليلاً وأنا أتفرّج. هذا الوضع يجب أن يتغيّر، إمّا الإرهاب والافتداء بحياتي وضمان مستقبل لابني بصورة ملطّخة عن أبيه، أو البحر والمغامرة باتّجاه أوروبا* اختار الحلّ الثاني. في ليلة شتويّة مظلمة، ركب سفينة متّجهة نحو لامپيدوزا منذ ذلك اليوم، لم يظهر عنه أيّ خبر قيل إنّه نجا وهو في إيطاليا، إلى يوم جاءها شخص من *الجمعيّة الوطنيّة للدفاع عن الحراگة* وممثّل عن *الهلال الأحمر*، لتتعرّف على جثّة شخص من بين الجثث التي وصلتهم من لامپيدوزا عادت به من المستشفى، ودُفن على حوافّ ساحل منارة سيتي، برفقة خمسة عشر شابًّا من المكان نفسه. *الهمّ إذا عمّ*، خفّ. حتى هي استسلمت لقدر الموت. لم تعد في حاجة إلى الركض بين المستشفيات. بسرعة انتشر السرطان في الرحم. وعلى الرّغم من جهودي لمساعدتها مع مختلف المستشفيات والعيادات، لم أفلح في شيء. استعملت كلّ علاقاتي الخاصّة لأجد لها مكانًا في جناح السرطان، هي وابنها، لكنّ الوضع

كان قد استفحل. ذات مساء، كنت قد ذهبت لزيارتها في المستشفى الحكوميّ، الذي كانت تُعالج فيه، قالت لي *لله ما أعطى وله ما أخذ. متأكّدة من أنّي سأموت قريبًا، حتى الأطبّاء لم يعودوا يخفون ذلك عنّي. عديني فقط بأن تُرجعي الطفل لأمّه، فهي أولى به منّي. شوفي أيَّة طريقة. أنت تعرفين المستشفى.* لم يكن بإمكاني أن أفعل ما أشاؤه دون توريط مستشفى ابن سينا، والسيِّد كازانوفا، في وضع لم يكن سهلاً فجر موتها، كنت بالقرب منها طوال الليل. في قلبي شبّ حريق غريب، وأنا أراها تغمض عينيها بهدوء واستكانة. بكيت طويلاً لكنَّ شعوري بالذنب كان يكبر ويتَّسع، وكأنَّ صدف الدنيا لا تأتي وحدها دخلت عليّ مباركة وأنا أرتِّب الغرفة، وأمدِّد رجليْ حليمة وأغمض عينيها. عرفتني من أوَّل نظرة. سألتْ بخجل: عذرًا *هل هذه هي السيِّدة حليمة التي ماتت فجر اليوم؟ أنا مكلَّفة بتغسيلها*

ثم نظرت إليَّ بعمق. لم يكن بإمكاني أن أكذب عليها

ـ ألستِ أنت الممرِّضة التي أشرفت على توليدي في مستشفى ابن سينا؟

ـ يعني؟ الدكتورة شافية. مرَّ زمن طويل على ذلك. كنت قابلة وممرِّضة، واليوم أنا طبيبة مختصَّة في الأمراض النسائيَّة. ذاكرتك حيَّة وقويَّة.

ـ الله يبارك دكتورة شافية. ولكنْ أيُّ قدر هذا؟ مستغربة لهذه الصدفة العجيبة.

ـ لا غرابة في الدنيا يا سيِّدة مباركة.

ـ ممكن أسألك عن شيء، ربَّما ما يزال في ذاكرتك؟

ـ تفضَّلي.

ـ هل حقيقة تلك البنيَّة التي قدَّمتموها لي، كانت زهرة؟

ارتبكت في أعماقي. شعرت بذلك على وجهي. لم تعد أمامي أيَّة لغة. أجبتها بعكس ما مرّ بذهني، إذ كدت أقول لها *لا ، لم تكن ابنتك. لم تكن زهرة. اسمها آية، وغادرت المستشفى مع والدتها* لا أعلم القوَّة التي منعتني من فعل ذلك حقيقيّ، تمنَّيت أن أقول لها كلّ ما كان يشتعل في قلبي. خرجت الكلمات لاإراديًّا منِّي.

ـ نعم. زهرة الله يرحمها

ـ لماذا لم ترضع صدري إذن؟ ثم كيف جفّت؟ كان يمكن أن تعيش بالماء والسكَّر، أو حليب الرضاعة، أو أيَّة وسيلة أخرى. لسنا في العصر الحجريّ.

ـ كلّ شيء مرّ بسرعة. لم تتح لنا فرصة تغذيتها بالماء والسكَّر.

ـ مضى زمن قاس، لكنْ في القلب شيء غريب. لا أعتقد أنَّها الحقيقة. بل متأكّدة من أنَّ الحقيقة مدفونة تحت أطنان القصص والحكايات الكاذبة. أعرف سلفًا أنَّ الحقيقة موجودة، ولكنَّها تحتاج لمن يرمي الخوف من كازانوڤا جانبًا، ويقف في صفّ نفسه. على كلّ. ربِّي يجيب الحقّ. هل حليمة قريبتك؟

ـ لا وحيدة، فقدت زوجها حاولت أن أساعدها لا أكثر، لكنِّي لم أفلح من درء الموت عنها أكل السرطان ثدييها ورحمها، ثم انتشر كليًّا.

ـ هذه حال الزوالي. الله يرحمها ويوسّع عليها، وعلينا جميعًا

أتذكَّر أنَّ مباركة التفتت نحوي بنظرة لا لون لها، مثقلة، مزيج من الحيرة والرغبة في اختراق ما كان يخفيه رأسي. فهمت منها أنَّها لم تصدِّقني مطلقًا. بل، تتَّهمني في ما حدث لها أمرتْ بعدها

الموظَّفيْن اللذين كانا يجرّان عربة نقل الأموات، بالدخول. قالت بصوت آمر

ـ *خذوها إلى المغسل، ربَّما كان الموت أرحم بحليمة من البشر.*

حملا بشكل آليّ وبارد جثمان حليمة، باتِّجاه المغسل وحفظ الجثث. غطُّوها ببطَّانيَّة سوداء، ثم خرجا. وقبل أن تتبعهما، نظرت مباركة إلى وجهي مرَّة أخرى، طويلاً لم أرَ في عينيها إلَّا الموت الذي لمع كحيوان مفترس لا أدري ماذا دار بذهنها في ذلك اليوم، وفي تلك اللحظة!

كانت روكينا صامتة، حتى ظننتها نامت. لكنِّي، عندما تأمَّلت وجهها، كانت عيناها متَّقدتين، تنتظر في بقيَّة الحكاية.

ـ وماذا حصل بعد ذلك؟ لاداس La DAAS؟

تساءلت روكينا وكانت تعرف الإجابة طبعًا

ـ لم يكن أمامنا بعدها إلَّا وضع عكاشة في مديريَّة الشؤون الصحِّيَّة والاجتماعيَّة ورعاية الطفولة، لاداس، بسبب صغر سنِّه، وحتى لا يضيع. كأنَّه كان مقدَّرًا عليه أن يظلَّ في تيه البحث عن أمِّه الحقيقيَّة. فكَّرت أن نخبره بالحقيقة ونُعيده إلى أمِّه، لكنِّي كنت أعرف أيضًا أنَّ كازانوفا، لو يعلم بوجوده في مكان ما، سيقتله. كبر عكاشة بسرعة، إلى يوم حصل على عمل صغير في المخبزة، بمساعدتك ومساعدة السيِّد خلدون. لم يكن بالإمكان إبقاؤه في مكان كبر عليه. أحيانًا، عندما أعود إلى نفسي، أجرِّمها لأنِّي دخلت في لعبة لم أكن مضطرَّة لها، لكنِّي كنت أعرف أيضًا، أنِّي كنت سأُرْمى في الطريق كأيَّة منشفة انتهى مفعولها أو ربَّما كنتُ أُقتَل لمحو أيّ أثر للجريمة. أو. ربَّما كان جبني هو السبب، وخوفي على عائلتي التي وضعت كلّ حملها على ظهري. مستشفى ابن سينا، كان فوق القانون. كان

محميًا من ناس السلطة أنفسهم. كانوا مثل الخاتم في إصبع كازانوفا الله وحده يعلم بما كان يدور في داخله. كلّ شيء فيه كان يسير بهذه الطريقة. لو يُفتح ملفّ المستشفى، سيتمّ تدمير كازانوفا نفسه. لكنّه قبل ذلك، سيُبيد كلّ ذوي الأجنحة المقصوصة والزواليّة، كما قالت مباركة. يُقال، والله أعلم، لا أحمل على ظهري وزر ما يُقال، إنَّ الكثير من العمليّات التي تُجرى في المستشفى ـ ابن سينا، لا علاقة لها بالممارسات الطبِّيَّة المشروعة. هناك جناح تحت أرضيّ خاصّ بعمليّات زرع الأعضاء. جزء يُستهلك محلِّيًا للمسؤولين الكبار وعائلاتهم، والجزء المتبقِّي، يُباع إلى مستشفيات أجنبيَّة، مرتبط معها بعقود لتلبية حاجتها بالأعضاء المطلوبة. الكثير من المختطفين الذين زاد عددهم في منارة سيتي، يُقادون إلى هناك. تُنزع أعضاؤهم. ولإخفاء الجريمة، يُطحن الجسد في مكان محصَّن بالسرِّيَّة والحماية. الله وحده يعلم بالتفاصيل. الذي حدث بعد ذلك، هو أنَّ كازانوفا مشى وراء منطقه حتى النهاية. اختلق موضوع الوفاة بالجفاف، والقبر، ولم يكن يعرف أنَّ المجرم يترك وراءه دائمًا أثرًا صغيرًا يقود نحوه.

ـ *لا تخافي. يجيء وقت ويُفضح كلّ شيء.*

كنت مفرغًا من كلّ شيء، حتى من نفسي. حزين جدًّا أنَّ والدي هو أنتَ، وليس شخصًا آخر، حتى لو كان شحَّاذًا، أو سارق خبز مثلي، الذي كلَّما قادوه إلى مركز الشرطة، ذكَّروه بالحادثة، بالخصوص عندما يكون الكوميسير[١] عمّي صالح غائبًا، أو مشروع مهرِّب مخدَّرات يقاوم يوميًا باستماتة، حتى لا يتحوَّل إلى مجرم أو قاطع طرق.

---

(١) من الفرنسيَّة commissaire، وتعني محافظ الشرطة.

مرَّة أخرى، نظرت لالَّة روكينا عميقًا في عينيَّ. لم تَرَ شيئًا مهمًّا هذه المرَّة، ولا حتى قليلاً من الدموع. كانتا باردتين كحجرتين بلا أيَّة قيمة. لا شيء فيهما، سوى خوف ينام تحت مئات الأسئلة التي لم أكن قادرًا على ثقلها ولا على تحمُّلها، ولا حتى على طرحها فقد كانت السنوات القاسية تمرّ أمامي بسرعة غريبة، في دوران عكسيّ، وأنا داخلها أدور بالسرعة نفسها، بحيث لا أتبيَّن إلَّا الأشكال المتحوِّلة، والوجوه غير المستقرَّة، والأجساد المتداخلة في بعضها بعضًا، كما قطع البلاستيك عندما تشبّ فيها نار حارقة.

كنتُ خارج المدار يا سيِّدي. وحدك تعرف مقدار الخراب والآلام التي تسبَّبتَ فيها ألم يكن من الأفضل أن تسحبني نحوك، وتدعوني كما دعوتَ نساءك، ربَّما وجدتَ في صراخي المكتوم ما يُريحك الآن. أسمعك الآن تقول *إنَّك لم تكن تعرف*. بل لم تفكِّر في ذلك أصلاً أنت سيِّد العارفين أنَّك رميتني بين ذراعيْ امرأة بائسة، كان عليها أن تثبت لزوجها الأكثر بؤسًا منها، أنَّها أنثى قادرة على الحبِّ وعلى إنجاب الحياة، وليس الموت فقط.

باقي الحكاية واضح يا كازانوفا، وإن كنتَ لا تعرفه.

أقسمت لعمِّي خلدون ولالَّة روكينا بأن أحتفظ بهذا السرّ حتى الموت، أو ربَّما حتى يأذنا لي. وطلب منِّي عمِّي خلدون، أن لا أُخفي عنه أيّ شيء. وحلفت أمامه أن أحكي له يومًا كيف انتهى مصير طفل لاداس، فهو برتبة أبي، والوحيد من الرجال الذي يسأل عنِّي. وهو من عثر لي على عمل في المخبزة، وهو من اكترى لي غرفة صغيرة مقابل ميما مباركة، التي كانت تجد سعادة غريبة في كلّ ما كنت أفعله من أجلها

نسيت أن أقول لك إنَّ الدكتورة شافية، زارتني قبل مدَّة قصيرة في

المخبزة، وانتظرتني حتى سخَّنت الكوشة. كنتُ أتمنّى أن تذهب ولا أراها، لأنِّي تأخَّرت عن الموعد متقصِّدًا. فوجئت أنَّها كانت برفقة لالَّة روكينا ركبنا في سيَّارتها، فورد ميستامغ، وأنا أعتذر أنَّي تركتهما تنتظران. ضحكت في أعماقي من العطر المدوِّخ، والنظافة الموجودة داخلها. ذهبنا إلى أحد مقاهي الحيّ الدبلوماسيّ الراقي.

قالت شافية، وهي تضحك بسعادة ارتسمت على وجهها كانت أكثر راحة من المرَّة الماضية.

ـ عذرًا أتمنَّى فقط أن يمنحك الله قلبًا بحجم الدنيا لتغفر لي. لكنْ، هذه المرَّة جئتك بشيء سيُعيد لك حقَّك المسروق.

ـ إن شاء الله خير.

ـ بفضل جهود روكينا، توصَّلنا إلى ما أردناه.

ـ يكثّر خيركم.

لم أعرف ماذا أقول. على الرَّغم من أنَّي لم أكن أشعر بأيَّة سعادة. ولا أتصوَّر سعادة مثل تلك التي أنام فيها في حجر ميما مباركة، وأنا أسرِّب لها حقيقتي الخفيَّة، حتى لا تُصاب بسكتة قلبيَّة من شدَّة الدهشة.

ثم بسطت أمامي وثيقة الإقرار الجينيّ بالأبوَّة، بأختام ثلاثة مخابر مُجازة، على رأسها مخبر الرجاء الكبير.

قرأتها بسرعة. ثم أعدت قراءتها عشرات المرَّات، حتى بردت القهوة. بقيت في رأسي هذه الجملة التي لا تُنسى: *بعد العديد من التحاليل المخبريَّة لإثبات الأبوَّة، تبيَّن لمخبر الرجاء أنَّ عكاشة هو الابن البيولوجيّ للوط ومباركة بلقاضي ٩٩،٩٩٪، وبعد تحليل عيِّنات من الأقارب، كازانوفا، مباركة، عليلو، كابي، تبيَّن أنَّ الأبوَّة مثبَّتة ١٠٠٪*

شدَّت لالَّة روكينا والدكتورة شافية على يدي.

ـ هل أنت سعيد؟

ـ لا أعرف بالضبط. وميما مباركة، أخبرتموها؟

ـ لا ليس الآن يا وجه الخير. حتى يحين الوقت. المهمّ أنت الآن أصبحتَ موجودًا، ويمكنك أن تنضمّ إلى إخوتك في خلوة لاغراند تيرَّاس فور أن تعلمك روكينا بذلك، وتقاتل معهم لمنع بشير من السيطرة على أملاك والديك.

ـ ستعود إلى بيتك وذويك أخيرًا ولن يصعد الدخان الأبيض على الخلوة إلَّا بحضورك. سأرتِّب كلّ شيء في الفترة القادمة، وأمرّ عليك لآخذك إلى بيت والدك.

أضافت لالَّة روكينا

كنت بعيدًا في عالم من ضباب، لا أرغب إلَّا في شيء واحد، النوم فوق الشجرة الضخمة، البطمة، التي كانت ملجأي الأوحد يوم قيل لي في لاداس: *أنت كبرت ولم يعد لك مكان هنا* تلك الشجرة كانت أمِّي. كنت، كلَّما جاء الليل، أصعد لأنام في أعاليها خوفًا من الاختطاف أو الاغتصاب أو حتى القتل.

لا أدري إذا كنَّا نحكي اللغة نفسها، وإذا كنتُ معنيًّا بما كانتا تقولانه.

ـ يبدو أنَّك في حالة دوار حقيقيَّة! أفهمك. من الصعب أن ينتقل الإنسان من العدم إلى النور القويّ.

ـ لحظة، ويعود كلّ شيء إلى وضعه الطبيعيّ.

لم أردّ عليهما لكنْ شافية ظلَّت تحكي:

ـ فعلت ما استطعته، ربَّما غفر لي الله جريمتي.

ـ وأنا في كلّ هذا. ماذا أفعل؟

عندما التفتّ نحوها، كانت قد غادرت المقهى. ولم تبق إلّا لالّة روكينا وهي تحاول أن تخترق الغلاف الذي نزل على عينيّ.

ـ وين تحبّ تروح.

ـ للمخبزة. درّاجتي هناك.

٣

كبر سكون الليل.

الورّام نام، لكنَّ عينيْ الحمامة المسحورة ظلَّتا مفتوحتين تتّبعان كلّ حركات كابي. استغرب من حساسيَّة الحيوانات التي لم تكن عاديَّة. تصمت قليلاً، وكلَّما حدث شيء غريب استيقظت من غفوتها. لم تكن مخيفة، لكنَّ حضورها لم يكن مريحًا اختارت أعلى الأمكنة. حتى عندما حاول نشّها، لم تعره أيّ اهتمام.

التفت كابي مرَّة أخرى نحو مسعود، الذي تقلّب في مكانه طويلاً، قبل أن يحرِّك جسده الثقيل نحو الجهة الثانية. ويعود إلى وتيرة تنفُّسه من جديد وشخيره. *يبدو أنَّ ما شربه مسعود لا ينوِّم فيلاً فقط، لكنَّه يسكِّن قبيلة بكاملها أفضل*. تمتم في خاطره وهو يحاول أن يرتِّب الوضع جيِّدًا حيث لا مكان للخطأ

التفت كابي مرَّة أخرى نحو جثَّة كازانوڤا:

ـ هل أدركتَ خرابك الآن يا سيِّدي؟

نظرتك باردة يا كازانوڤا لا شيء يهمُّك إلّا نفسك. لا تفكِّر في الموت كأنَّك إله.

تعرف؟ يوم توفِّي كلبك، حزنت عليه كثيرًا، واستخسرت أن يأكله الدود بدون عدل، لكنَّه قانون الحياة. فهو على الأقلّ ظلَّ وفيًّا لك حتى النهاية. ويوم شمّ رائحة الموت قد احتلَّت البيت ونامت فيك، ركض بلا هوادة في مواجهة شاحنة الزبالة الضخمة التي كانت قادمة في الاتِّجاه المعاكس. في المسألة معنى مهمّ، أنت لم تره أبدًا، ولا يمكنك أن تراه. انتابتني فكرة قد لا تروق لك، لكنَّها فكرة تبنَّيتها ألم تسمِّني وجه *الشرّ*؟ مثَّلتَ للقبح والشرّ بوجهي، مع أنَّ ميما مباركة ولالَّة روكينا تريان فيّ شيئًا آخر وجه *الخير*. كلَّما قالت لك لالَّة روكينا كابي اشترى لي أو تسخَّر لي، قلتَ لها *هذاك وجه الشرّ واش عاجبك فيه*؟ لا أعرف إذا كان يجوز الترحُّم على الأموات الذين يشبهونك، لكنَّ الفكرة جاءتني من انتحار بيرو ڤيردي الله يرحمه. أترحَّم عليه، لأنَّه تمادى في قيمه حتى النهاية. ربَّما كنت مرتاحًا، لكنَّ الذي في أعماقي لا أدري كيف أصفه؟ شيءٌ مثل النار وليس نارًا، عاصفةٌ وليس عاصفةً، حقد وليس حقدًا، رغبةٌ في القتل، وليس رغبةً في القتل. أكبر من هذه المواضعات البشريَّة التي تبدو لي تافهة. أنا الآن أملك كلّ السلطان عليك. لوط تحت رحمة وجه *الشرّ*، حتى لو مزّقتك إربًا إربًا، لن أُشفي غليلي. أريد شيئًا آخر لم يبتدعه أحد، شيئًا بلا اسم ولا مرجع.

فكَّرت طويلاً، ووجدتُ.

عندما قام كابي من على الكرسيِّ وهو متوجِّه نحو الدرَّاجة الناريَّة، تأمَّل مرَّة أخرى مسعود الذي عندما دار من الناحية الثانية، أسقط المعطف الذي كان يغطِّي رجليه، فأعاده كابي إلى مكانه. البرد

يوقظ النائم. هزَّه قليلاً من كتفه، وهمس في أذنه: عمِّي مسعود. عمِّي مسعود. يكفي من النوم. لازم نروح. *الكوشة تنتظرني*. لكنَّه لم يسمع إلَّا شخيره الذي علا أكثر فأكثر، حتى إنَّه أيقظ الورّام الذي بدا مذعورًا قليلاً بعينين مفتوحتين عن آخرهما

دخل كابي إلى الكراج. فصل المقطورة عن الدرَّاجة نهائيًّا سحبها وراءه. أوقفها بجانب جثمان كازانوڤا

أخرج أكداس الجرائد الصباحيَّة والمجلَّات. وضعها جانبًا ثم حمل جسمًا مكفَّنًا طويلاً وثقيلاً كان ممدَّدًا تحتها. أخرجه نهائيًّا ثم فكّ الخيط الذي كان يغلق الكفن عند الرأس والرجلين. بدا رأس بيرو ڤيردي واضحًا، ثم جسده المغطَّى بالسكوتش التجاريّ الذي يربط قوائمه الأماميَّة طوليًّا مع صدره وبقيَّة جسمه، لدرجة الالتصاق. وقوائمه الأماميَّة كانت ممدَّدة باستقامة ومربوطة بالسكوتش شديد المقاومة.

تبدو الجثَّة مستسلمة باستقامة، كأنَّها لآدميّ.

ـ عذرًا يا سيِّد كازانوڤا أنا لا أمارس حقدًا، سوى أنِّي وجدت وسيلة لإكرام وفاء كلبك. أن يُدفن كما يليق بكائن محترم. وسترى عن قرب، بأنَّ السيَّارات التي سترافقه، تتجاوز سيَّارات أيّ مسؤول في الدولة أو VIP

لا أدري ما بداخلي، لا أفهمه أنا نفسي! خليط من البرودة والصمت والرغبة في التقيُّؤ لا أشعر بأيِّ حزن ليس فقط نحوك، لكن أيضًا نحوي. في لحظات صفائي، أشعر بأنِّي فقدت العلاقة بالبشر والأرض أيضًا. لقد تربَّيت خارج كلّ شيء، باستثناء محاولات عمِّي خلدون، والشيخ منصور، «أبو ذات النطاقين» الذي لا يتوقَّف منذ أكثر

من سنة، عن القول بأنِّي شابّ كريم، ينقصه شويَّة *وفاء لدينه ونبيِّه وشيوخه*. ويُضيف: *هكذا كان خالد بن الوليد قبل أن يلتحق بصفوف الحقّ*. لا يتردَّد في منحي ومنح ميما مباركة بعض حاجاتنا البيتيَّة، من سكَّر وقهوة وشاي واللحم أحيانًا قفَّة مملوءة من الخضر والفواكه. ترفضها ميما في البداية، لكنْ عندما يقول *لها هذه لخالد بن الوليد*، تأخذها وتنسحب وهي تضحك في أعماقها أنا لا أحبّه، وأشعر أنَّ في عينيه شيئًا غريبًا يشبه الموت، لكنِّي لا أرفض خيره. أجدني أحيانًا بلا رغبة لقراءة كتب عمِّي خلدون، فأميل نحو ما يمنحني أبو ذات النطاقين من وثائق كلّها تلحّ على الرحمة والعمل الخيريّ. أخذني في مرَّة من المرَّات، للصلاة في المسجد الكبير، عانقني الكثيرون من أنصار أبو ذات النطاقين، وضحك منِّي الكثيرون أيضًا. سمعت بعض وشوشاتهم الكثيرة. *تعرف وعلاه سمّاوْه كابي؟* يعني *الكبّول*، يعني *الفرخ*. *واش جاب ربّ هذا السرّاق للجامع؟* *ههه يسمِّيه الشيخ منصور، أبو ذات النطاقين خالد بن الوليد*. *من اليوم، لن أصلّي في هذا الجامع*. حتى الذي ينوب عن الإمام في صلاته في أوقات مرضه أو غيابه، أمرني بعدم الرجوع للمسجد حتى لا أخلق فرقة بين المسلمين. أكَّد على ذلك أيضًا الشيخ منصور، أبو ذات النطاقين عندما نبَّهني: *ما عليهش يا عكاشة. صلّ في البيت أو في المساجد الصغيرة الموجودة في منارة سيتي، كما كان يفعل خالد بن الوليد، حيث لا يعرفك أحد، حتى يصفو الأمر*. تمنَّيت أن لا أكذب على عمِّي خلدون، عندما سألني لماذا لم أُنهِ رواية *البؤساء* التي ألحَّ عليَّ حتى أقرأها، لأنَّها كما قال رواية تُشبهني. قلت له المرض وقلّة الوقت هما السبب. لكنَّه بعينيه الحادَّتين، أحسّ بأنِّي لم أكن صادقًا معه. لم أستطع أن أقول له إنِّي وجدت وثائق الشيخ أبو ذات النطاقين

أقرب منّي بكثير من الروايات، لأنَّها تتحدَّث عن أشياء تهمّ وضعي، وكلّها في الخير والعلاقات الحميدة. قال عمّي خلدون جملة واحدة عرّتني كلّيًا، من رأسي حتى قدميَّ، لا أدري إذا كان يقصد معناها *أحرز روحك مليح. الكلام المرصَّع خطير. نهايته انتحار مجّانيّ.*

نظر كابي طويلاً إلى جثَّة بيرو ڤيردي. بدت له طويلة قليلاً

شعر بالبرد يدخل في مسامّات جلده.

تلمَّس جثَّة كازانوڤا المغطّاة. فتح الكفن الذي كان يغطّي وجهه. فجأة، ارتشقت عينا كازانوڤا في عينيْ كابي المتعبتين. كانتا مفتوحتين. *ألم يكن من واجب من غسّلك أن يغلق عينيك؟ العيون المفتوحة تشتاق إلى الحياة، لكنْ ساعتك توقّفت.*

ـ من الأفضل أن أقول لك قبل أن أُعيد غلق كفنك، لقد حضَّرت لك ما لم تره، لا في أحلامك ولا في كوابيسك. سأغلق عينيك كما رأيتهم يفعلون مع الأموات. من الأحسن يا سيّدي أن لا تعرف بقيَّة القصَّة. لن أفعل شيئًا كبيرًا سأبدّل المواقع فقط. الذي ينام في هذا الكفن على الأرض، هو بيرو ڤيردي، عليه الرحمة. طلب منّي الناس والإمام زكريًا، أن أرميه في الوادي لتحرير الطريق التي أُغلقت بسبب الحادث. صراحةً، قلبي ما خلّانيش. احتفظت به في الدار، لأنَّ فكرة مجنونة انتابتني، تعفيني من الانتقام منك. أن أبدّل مواقعكما فقط. أن يأخذ مكانك، وأن تأخذ مكانه تحت كومة الجرائد الصباحيَّة الزاخرة بعناوين انسحابك من هذه الدنيا

ننتهي من المرحلة الأولى، تبديل المواقع، وبعدها، المرحلة الثانية. كلّ شيء في وقته.

أفرغ كابي المقطورة من كلّ شيء. ثم فرشها ببقايا الصحف

المرتجعة. نزع الكفن الحريريّ الذي كان يغطّي جثّة كازانوڤا وترك الكفن العاديّ. ربطه من الجهة العلويّة والسفليّة. حمله بين ذراعيه. شعر بثقله أكثر ممّا توقّع. كان مثل كتلة رصاص. ثم وضعه بشكل معقوف قليلاً في الوسط، داخل العربة المقطورة. غطّاه بأكداس الصحف اليوميّة والمجلّات، ثم وضع عليه غطاء جليديًّا أزرق، عليه اسم وشعار الجريدة وصورتها *الغاشي. صحيفتك التي تدخل بيتك. نذهب نحو الخبر أينما كان*. يستعمله عادة لحماية الجرائد من الأمطار والرياح والغبار. ربط الكلّ بالمسّاكات لمنعها من الانفلات والتبعثر، في حالة هبوب ريح. ثم أعاد المقطورة إلى المرآب، وربطها بالدرّاجة الناريّة.

تفحّص من جديد عينيْ وشخير مسعود.

فتح الكفن الحريريّ على الطاولة التي كانت عليها جثّة كازانوڤا. وضع فيه جسم بيرو ڤيردي. لفّ رأسه بمنشفة أعطت شكلاً دائريًّا لرأسه، مثل إنسان. لم يكن جسم بيرو ڤيردي ليّنًا، بل كان مثل قطعة خشب داخل كفن. رفعه قليلاً على مستوى الخصر، ولفّ حوله المناشف، كصانع عرائس قصبيّة، حتى أحسّ أنّه أقرب إلى جسد إنسان، ثم لفّ عليه الكفن الحريريّ مرّتين. سدّ الكفن عند الرأس والرجليْن بشريطيْن صغيريْن، كان غسّال كازانوڤا قد استعملهما من قبل. ثم سجّاه بكلٍّ طوله على الطاولة.

مسح العرق الذي ساح بقوّة على وجهه.

تمتم، وهو يثبّت جيّدًا الطاولة التي كانت تقوم مقام التابوت:

ـ *بيرو ڤيردي، لا تخف حبيبي. ستتمتّع اليوم بجنازة منقطعة النظير*. ألم أقل لك إنّ السيّارات الرسميّة التي تسير وراءك، ستكون

بعدد النمل، بدون الحديث عن الشخصيّات المهمّة في البلاد التي لن تضيّع فرصة كهذه للمشي وراءك، وستذكر كلّ خصالك الحميدة. أنت على الأقلّ كنت وفيًا وبريئًا، وانتحرت، لأنَّك استبقت الموت.

من يدري يا بيرو ڤيردي؟ ربَّما جاورتك يومًا؟ لكنْ لا أظنّني سأحصل على هذا الشرف، لأنَّك ستدفن في مربَّع العظماء، وهو مكان لا يدخله البشر العاديُّون حتى أمواتًا ربَّما انتفى جسمي، ولن يكون له أيّ قبر على هذه الأرض. من أكون في النهاية؟ لا شيء. أضحك أحيانًا من أحلامي ومن كوابيسي، ومن جهود لالَّة روكينا لاسترجاع هويَّتي الضائعة وإثبات الأبوَّة! ماذا سيكتبون على شاهدة قبري؟ عكاشة؟ الكبّول؟ كابي؟ ابن من؟ ابن مباركة ولوط، هل سيسمح لهم بفعل ذلك؟ ثمرة اغتصاب موصوف؟

في البداية، كنت أعنِّف من يناديني كابي، لكنِّي مع الوقت تعوَّدت عليه، إذ إنَّ الكثير من أصدقائي في لاداس كانوا يحسدونني عليه، ويجدونه لطيفًا جدًّا، ربَّما لأنَّهم لا يعرفون سرَّه. يصرُّون على معرفة من سمَّاني، والدي أم والدتي؟ وحدي كنت أعرف سرّ الأسماء. الوحيد الذي أخبرته به هو عمِّي خلدون، لأنَّه شدَّد على سؤالي. *كيف عكاشة أصبحت كابي؟ عندما أخبرته، قال لا عليك، من منَّا متأكِّد من أنَّ أباه هو أبوه؟ أنت على الأقلّ تعرف الطاغية الذي كان وراءك. لستَ بلا أب. وأمّك، لالَّة مباركة، كانت قدِّيسة ولم تكن امرأة عاديَّة. لو كنتُ من سادة هذه البلاد، وأملك سلطة القرار، كنت قد رفعت لها تمثالاً في وسط منارة سيتي،* وكتبت تحته: *القدِّيسة لالَّة مباركة. مريم هذا الزمن الأسود. لقد سُرق منها كلّ شيء، لكنَّها استطاعت أن تقف على قدميها، وتظلّ معلَّقة بك وبكرامتها*

أعاد الوضع إلى ما كان عليه عند دخوله. تفحَّص الإغلاق

المحكم على جثَّة بيرو ڤيردي، في جهة الرأس والرجلين، حتى لا يُفتضح أمره، قبل دفنه. سيؤخذ من وسط الدار، مباشرة إلى المقبرة. ثم رمى عليه البطَّانيَّة الخفيفة، وغطّى جسده كلِّيًّا تمتم وهو يبتعد قليلاً ليرى وضعيَّة الجثَّة: *تمام. الله يرحمك يا بيرو ڤيردي، لقد كنتَ أكثر من كلب، وأكثر من إنسان. كنتَ قيمة فقط. القيمة لا تموت ولا تنتهي.*

رفع كابي رأسه بشكل شبه آليّ. برد جسمه، حتى شعر به قد تحوَّل فجأة إلى قطعة ثلج. هذه المرَّة، لم يَرَ لا الحمامة، ولا الورّام الذي ظلَّ يتابع كلّ حركاته، حتى الصغيرة منها، في يقظته وغفوته.

انطفآ فجأة، من دون أن ينتبه لخروجهما

غطَّى مرَّة أخرى جسم مسعود الذي كانت إحدى رجليه المفتوحتين، في الأرض. خفَّف قليلاً من ضوء النوَّاصة، حتى اختفى جسد بيرو ڤيردي داخل الظلِّ.

ثم خرج.

٤

حاول كابي أن يتفادى أيّ ضجيج.

سحب درَّاجته بدون تشغيل محرِّكها، على الرَّغم من ثقلها بالمقطورة، حتى وصل بها إلى الطريق الخلفيَّة حيث السكون الكلِّيّ. وقف تحت عمود النور قليلاً ضبط معطفه الجلديّ، وسوّى قطعة الكرتون على صدره جيِّدًا، لتفادي نفاذ البرد إلى جسمه. وضع قبَّعة غافروش على رأسه، ليقي رأسه بشكل كامل، ثم شغَّل محرِّكها الذي أحدث ضجيجًا جافًّا يصمّ الآذان.

هي مسألة وقت. يجب أن يتمّ كلّ شيء بسرعة.

نزع القفَّازين من يديه ووضعهما في جرابيْ الدرَّاجة الناريَّة. ثم شقَّ شارع المغيب Sunset، ثم أوتوستراد المطار بطريقه المزدوج الواسع. كان يمتدّ بلا توقُّف، فارغًا من أيَّة حركة. أنواره تعطي منارة سيتي ألقًا خاصًّا لم يتذكَّر قبَّعة الحماية على رأسه، إلَّا عندما تبعته سيَّارة الشرطة، وبدأت تسير بمحاذاة درَّاجته الناريَّة.

أشَّر له أحد الضبَّاط، بالاصطفاف على يمين الخطِّ الأصفر لم يبدُ على وجهه أيّ خوف أو ذعر.

ـ هههه. هذا أنت يا كابي، ما عرفتك بقبَّعة غافروش. وحدك في هذا الليل بالموبيلات؟

ـ أنا نعم. مَنْ غير الذئاب الجائعة، يا عمِّي صالح، تتحرَّك في هذا الوقت؟

ـ ما عليهش كابي وليدي. أعرف أنَّ عملك ليليّ شاقّ، بين الكوشة وبيع الجريدة. رحمة ربِّي واسعة. الأيَّام هذه صعبة على كلّ البلاد وعلينا جميعًا! احذر قليلاً لا توجد نفس أغلى من نفس. ضع فقط قبَّعة الحماية على رأسك. شابو غافروش لا يحميك من أيِّ شيء، في حالة حادث خطير لا قدَّر الله.

وضع كابي قبَّعة الحماية على رأسه، ثم رمى قبَّعة غافروش في الجراب. شعر برائحة كريهة خرجت من القفَّازين لتستقرّ في أنفه. سحب نسخة من يوميَّة *الغاشي*، من المقطورة. وزحلقها في يديْ صالح، من وراء زجاج السيَّارة الذي كان شبه مغلق بسبب البرد القارس.

ـ واش كاين في عدد اليوم يا ترى؟ كلّها فضائح، وسحر، وزنا المحارم، وجرائم؟

ـ شيء من هذا، لكنَّ العنوان الرئيسيّ خبر وفاة كازانوڤا

ـ الله يرحمه. طبعًا لن يضيِّعوا فرصة مثل هذه. ربَّما زرته غدًا. للميت حقٌّ علينا، الباقي نتركه لله، هو أعرف بدواخل الناس. احذر يا كابي، لقد كثرت الذئاب الليليَّة في منارة سيتي. واحذر أكثر من والد ذات النطاقين، راني نشوفك معه كثيرًا أنت رجل طيِّب، وهو ليس

من عالمك. يا ما كلام معسول قاد أصحابه على جهنَّم.

ـ يا عمِّي صالح، لا تخف عليّ، الذئب ما يأكل الذئب، حتى وهو جيفة. هناك شيء عادل في الطبيعة.

ـ لمَّا تعود للدار، اغسل نفسك مليح من عدوى رائحة الأموات، أشمّها فيك يا كابي. عدوى مباركة، مسكينة.

ـ هذاك هو العمل الذي وجدته في النهاية يا عمِّي صالح، لازم تحمد ربِّي.

ـ اغسل نفسك مليح بالجافيل.

قال أحد رجال الشرطة في آخر السيَّارة، فتجاوب معه أصدقاؤه في الخلف بالضحك.

نهرهم المحافظ صالح، بنظرته، فصمتوا

ـ لا دار، يا عمِّي صالح، لا دوار. اللِّي سمَّاني كابي لم يخطئ. لا شيء أقاوم به الموت والسقوط في الرذيلة إلَّا هذا البؤس الدائم والركض وراء خبرة، نهايتها دم أو موت. كلّ صباح، أرسم عشرات الخطط لمواجهة الموت وتفادي السقوط في حبائله بكلِّ ما أملك من قوَّة. أحيانًا أُصيب، وفي بعضها أفشل، ولا يبقى أمامي إلَّا الجريمة أو الانتحار. بدأت أتعب يا عمِّي صالح. معهم حقّ أن يضحكوا، لأنَّهم كلَّما عادوا إلى بيوتهم وجدوا من يفرح بهم ويُعيد لهم إنسانيَّتهم.

ـ لا عليك، الجماعة طيِّبون جدًّا ويحبُّونك. يمزحون معك فقط. رحمة ربِّي واسعة يا كابي.

ـ لا ألوم أحدًا يا عمِّي صالح. أنت تعرفني جيِّدًا منذ أيَّام لاداس، كم من مرَّة جاؤوا نحوك، وهم يجرجرونني وراءهم مثل

محكوم عليه بالإعدام. فتسألني ماذا سرقت؟ أجيبك بلا حرج: *الخبز والحليب*. تعذرني. وعندما يذهب المشتكي، تُطلق سراحي وتقول لي، *في المرَّة القادمة لن أحبسك، ولكنِّي سأسجنك*. إلى اليوم لا أعرف الفرق، ولكنِّي أظنّ أنَّ المسألة في الدرجة فقط.

ضحك المحافظ ومعه رجاله.

ـ ههههه. شيء مرَّة نخلِّيك تجرِّب واش هو السجن. أنت شفت الحجز فقط. المهمّ يا كابي وليدي. أحرز نفسك من أولاد الحرام فقط، الذين لا تعني لهم الروح أيّ شيء.

فكَّر كابي للحظات مرَّت بسرعة.

كانت الأمطار قد قويت قليلاً نزل من على الدرَّاجة الناريَّة. ثبّت الغطاء البلاستيكيّ بشكل جيِّد على الصحف، وشدَّه بمطَّاط أحاط به المقطورة كلّها. لم ينس أن يُظهر شعار الجريدة بوضوح، *صحيفتك التي تدخل بيتك. نذهب نحو الخبر أينما كان*، كما يوصي بذلك دومًا، المشرف على قسم التسويق:

ـ معك حقّ يا عمِّي صالح. ماذا تخسر البلاد بموت كابي؟ لا شيء. ستستمرّ وكأنَّ شيئًا لم يكن. شفت غار النمل عندما تطأه دابَّة بطريق الخطأ، أو حتى رِجل إنسان؟ من يسأل عن عدد النمل الذي مات أو التصق بحافرها أو بنعله؟ لا أحد. بالضبط هذه حالتي. أنا مختلط مع النمل. لا أدري! التفكير وحده بأنِّي لست الوحيد في حافر الدابَّة، يخفِّف عنِّي المأساة، ويمنحني بعض التفاؤل.

ـ نسيت أسالك. كيف حالة البنيَّة السوريَّة، ليان؟ أعجبها العمل في الميترو؟

ـ طايرة من الفرحة. كانت تحلم بذلك.

فجأة، تذكَّر كابي الحادثة التي ظلَّت عالقة في قلبه جرحًا عميقًا، لم يستطع تفاديه. يومها، تأكَّد له أنَّه بالفعل متوحِّش.

ـ قالت لي: فيك رائحة بابا، أبو ليان. يوم قُتل ورحت أشوفو في المستشفى العسكري بالشام. لا أعرف ما مصدر توحُّشي معها لكنِّي كنت أتمنَّاها أن تنسى والدها، هو مات وانتهى، وتهتمّ بحياتها كنت أخشى عليها من الجنون. صفعتها بشكل لاإراديّ. مع أنَّي كنت أعطف عليها مثل أختي الصغيرة. ثم بكيت طويلاً، بحرقة. أحسست بأنَّ هذه البنت ستشبهني في كلّ شيء. حتى في تيهي. لم أكن أريد لها تلك الحياة. بعدما حكيت لها عن سبب الصفعة، هدأت وباست جبهتي. هي نسيت الصفعة، لكنِّي كلَّما رأيتها من بعيد، سالت دموعي بغزارة، بدون إرادة منِّي. أستحضرها وهي في حضن والدها، تلعب بشعره الأبيض، أو تلعب بعوده وتكرِّر كلماته. في النهاية، لم أكن أكثر من ذئب، ولم تكن هي أكثر من نعجة في عالم قذر وقاتل. كلَّما قالت شيئًا عن والدها أو أمّها، وضعت يدها على خدِّها مخافة أن أصفعها، مع أنَّي من يومها لم أكرِّر ذلك، وتمنَّيت لو قُصَّت يدي.

ـ تفكِّر في ماذا يا كابي؟

ـ في ليان يا عمِّي صالح. مسكينة. ربِّي يعطيها الصبر.

ـ شفتها في الميترو، في محطَّة المعدومين. سعيد أنَّها تعمل. أوصيت بها بعض أفراد الشرطة.

ـ ربِّي يحفظك لنا يا عمِّي صالح.

ـ وأنت أيضًا. أحرز نفسك من الذئاب. ليلتك هانئة.

لا أدري كم طال الحديث، لكنَّه أراحني قليلاً، وأنساني ما كنتُ أحمله في العربة المقطورة.

انطلقت سيَّارة الشرطة، تخترق الشارع الرئيسيّ. تبعها كابي وهو يستمتع بأضوائها الزرقاء والصفراء والبيضاء، التي كانت تلمع وتنطفئ. المياه تبدو خلفها كأنَّها قطع زجاجيَّة ملوَّنة تتمزَّق تحت عجلاتها فجأة، مالت إلى اليمين باتِّجاه حيّ ميدلين، المحاذي لحيّ شيرا، المعروف بالمخدِّرات وبيع الأسلحة. بينما واصل كابي تزحلقه نحو المخبزة، من دون أن يشعر بأيّ خوف، كما لو أنَّه لم يكن يحمل معه جثَّة أهمّ شخصيَّة في منارة سيتي.

فتح باب الكوشة الخشنة. اندفعت رائحة الخبز التي يشتهيها بقوَّة نحو أنفه. الرائحة أقوى من أكل الخبز نفسه، لأنَّها توقظ جوعه وتجعل جنونه على الخبز أقوى. ربط الدرَّاجة عند الباب، ثم سحب المقطورة نحو الداخل.

أغلق الباب.

أيَّة لحظة تأخُّر ستدمِّره وتدمِّر مشروعه. عمّي بيانفو، مسيِّر المخبزة، يحبّ العمل، ولا يريد وجع الرأس: *تعلَّمت في معركة ديان بيان فو أنَّ أيّ خلل صغير، أو استهانة ثانويَّة بالآخر، تقود كلّ شيء إلى الهلاك. أنا لا أحبّ كازانوڤا، لكنّ حياتي مرهونة بعملي في مخابزه. لا أريد أن أخيِّب ظنّ لالَّة كبيرة فيّ. كان والدها السي إبراهيم رجلاً عظيمًا وشجاعًا هو من جرّني وراءه. هربنا معًا من القوَّات الفرنسيَّة والتحقنا بالڤيتناميِّين. كنّا نرى أنَّ الحقّ هناك. بعد الانتصار، عدت إلى أرضي، كنت شابًّا يافعًا، بينما واصل السي إبراهيم مغامراته، وتزوَّج هناك.*

شمّ كابي رائحة الموت مرَّة أخرى، والبرد، لكنَّه كان يُدرك أنَّه بمجرَّد إشعال فرن الحطب، سيتغيَّر كلّ شيء. نزع الغلاف الجلديّ. وضع رزم الجرائد قريبًا من الفرن. قرَّب قليلاً طاولة الخبز الطويلة

التي لمع لونها الفضّيّ تحت الضوء الكبير، الذي يظهر كلّ تفاصيل المكان.

ارتجفت يده لأوّل مرّة وهو يحاول أن يشعل النار. أهو البرد أم الخوف؟ الخوف ممن؟

رتّب الحطب من جديد، ثم وضع عليه قليلاً من البنزين. لكنّه لم يُفلح مرّة أخرى في إشعاله. فتح حنفيّة الغاز التي تستعمل فقط للإشعال حتى لا تؤثّر على طريقة طهي الخبز، على الخشب. فجأة، اشتعلت النار بقوّة. نشبت في البداية في الفحم الحجريّ، ثم امتدّت إلى قطع الخشب، التي بدأت تحدث صوتًا عنيفًا وفرقعات خفيفة. تعالت ألسنة النار داخل الجزء السفليّ من الفرن القديم. وبدأت الحياة تدبّ في المكان الذي يشبه قبرًا باردًا في اللحظة التي فكّر في إغلاق حنفيّة الغاز وترك الفحم والحطب يشتعلان بهدوء، نظر إلى الساعة. كان الوقت يمرّ بسرعة. ما يزال بينه وبين الخبّازين ثلاث ساعات وخمس وعشرين دقيقة، قبل أن يأتي المعلّم، الذي يصلّي الفجر في المسجد المقابل، ثم يتلفن: *كابي، الفرن جاهز.* يكون بعدها في المكان عينه، في أقلّ من عشر دقائق.

فتح الحنفيّة أكثر، فزادت النار قوّة. ثم زحلق غطاء خزّان الفرن الزجاجيّ. مدّ يده. بدأت الحرارة تزداد.

أنزل جثّة كازانوفا من المقطورة. مدّدها على صينيّة الخبز الفضّيّة. كانت على مقاسه، طولاً وعرضًا فتح الكفن من ناحية الرأس. ظهر وجهه المائل نحو الزرقة، وعيناه شبه المفتوحتين. تمتم: *أرأيت يا كازانوفا أيّ حظّ تملك؟* جسمك *مثل خبزة. الصينيّة على مقاسك تمامًا* شعر بأنّهما تنظران إليه باستعطاف. لا ، تمتم كابي: *يا عزيزي،* من *حقّك أن ترى كلّ المشهد وتعيشه،* حتى لا *يغيب عنك*

أيّ تفصيل. كانت عينا كازانوڤا مثبّتتين في السقف، تحاولان تفادي ألسنة النار التي كانت ترتفع أكثر فأكثر، كلّما امتدّت نحو جذوع الأشجار اليابسة.

في لحظة من اللحظات، أصابته رعشة فجائيّة، حينما تأكّد من أنّ الذي بين يديه هو كازانوڤا أكثر من ذلك. أحسّ كأنّ الجثّة كانت تتحرّك بعينيها، وتغيّر زوايا نظرها وهي تتفحّص المكان.

كانت رائحة الجثّة قويّة. هي التي يسمّيها الناس رائحة الموت.

لحظات، وستتبخّر هذه الرائحة الكريهة نهائيًّا

تمتم كابي، وهو يحاول جاهدًا رفع جثّة كازانوڤا إلى مستوى مدخل الفرن. ثبّتَ الجثّة على الصينيّة المعلّقة على الرافعة الصغيرة، التي تستعمل عادة لحمل رزم الحطب، وإدخالها في عمق الفرن عن طريق سحب الحبل الذي يدور حول بكرة تسهّل حركة الصينيّة الكبيرة التي يوضع بها الخبز حرّك السلسلة الثقيلة، ثم بدأ يسحبها نحو الأسفل، والصينيّة التي كانت مثبّتة في زواياها الأربع، تصعد بهدوء. لم يبد له وزن كازانوڤا أثقل من رزمة حطب، حتى وصل بالضبط إلى فوّهة الفرن الزجاجيّة. بقيت الصينيّة معلّقة. أدخل عروة السلسلة في قضيب حديديّ لتوقيف صعودها أو نزولها صعد على أكياس الدقيق. فتح البابين الزجاجيّيْن، ثم دفع بعمودٍ خشبيّ الصينيّة جيّدًا، حتى وصلت إلى عمق الفرن، حيث تتمركز الحرارة. فكّ عروتَيْ السلسلة الثقيلة، ثم أغلق البوّابتين الزجاجيّتين الخشنتين، وشدّهما بإحكام.

زاد من تدفُّق الغاز في الفرن. اشتعلت النار أكثر بينما جلس مقابل الفرن، على أكياس الدقيق يتأمّل المشهد. لم يحدث ما يرعبه كما سبق أن تخيّل. كانت الجثّة في عمق الفرن. لم يسمع أيّ صراخ،

كما خُيِّل له في البداية. كانت تذوب بهدوء، حتى نشبت فيها نار، وغطّت على كلّ شيء، فسهّلت عمليّة الحرق. لم يلحظ أيّ شيء غريب، لم يتوقّعه، باستثناء انفجار الدماغ الذي اشتعلت أجزاؤه الصغيرة. مدّ يده نحو حنفيّة الغاز الذي يستعمل عادة للحرق، ولكنّ الخشب فتحها أكثر زادت قوّة النار، بدأت الجثّة تتفحّم، وتتحوّل إلى رماد.

أخرج المقطورة. ربطها إلى درّاجته بإحكام. في الخارج، كان الهواء باردًا ومنعشًا وارب الباب قليلاً، فدخل خيط خفيف إلى الفرن. حركة الناس تكاد تكون معدومة. أعاد غلق الفرن. ثم صعد من جديد على السلّم الصغير، الذي لم ينتبه لوجوده في البداية. كان وراء البوّابة الداخليّة. تأمّل صينيّة الخبز جيّدًا

كان جسد كازانوفا قد تحوّل إلى كومة رماد.

أغلق حنفيّة الغاز. أوقف النار. انتظر قليلاً، ثم فتح بحذر فلقتيْ زجاج الفرن. خرجت رائحة اللحم ممزوجة برائحة قويّة من الرماد. ألصق العروة بالسلسلة الحديديّة الثقيلة، ثم بدأ ينزل الصينيّة من الأعلى، حتى وصلت إلى الأرض. قرّبها أكثر من حوض غسل الصواني بعد استعمالها

لم يبق من كازانوفا الشيء الكثير لملم البقايا عزل الرماد عن العظام التي قاومت الحرق، لكنّها بمجرّد لمسها، تفتّتت. وضعها في كيس خيش، ووضع الرماد في إناء خلطه بالماء، ثم فتح البالوعة الكبيرة، وتركه يتسرّب شيئًا فشيئًا صعد على السلّم الفولاذيّ من جديد، ونظّف الفرن بالمكنسة الحديديّة، من كلّ ما علق بالفرن الداخليّ، بسبب انفجار الرأس. أزال كلّ البقايا الملتصقة التي أذابها في الماء من جديد، قبل أن يلحقها بالرماد في البالوعة. ثم وقف

يُصغي إلى قرقرتها وصوتها، وهي تسحب الرماد نحوها لينزل عميقًا في الحفر والبالوعات الأوسع، في باطن الأرض، والأنهار، والوادي الكبير، ووادي الكبريت، الذي يخترق منارة سيتي ويكاد يقسمها إلى نصفين، الضفَّة اليمنى واليسرى، ثم البحر الذي يغيِّب كلّ شيء.

غسل الصينيَّة. حكَّها جيِّدًا، بعد أن وضع البقايا في كيس الخيش. رشّ المكان بالمازوت ليزيل رائحة اللحم المشويّ. لكنَّ الرائحة الطاغية ظلَّت هي، هي. رائحة المشويّ. تذكَّر فجأة الفخذين اللذين سلَّمهما له مسعود. أدخل قليلاً الخشب والفحم في عمق الفرن، وفتح من جديد حنفيَّة الغاز. وضع الفخذين في صينيَّة صغيرة ثم أدخلها في الفرن الصغير لم تمرّ إلَّا دقائق معدودات، حتى كان الشواء قد استوى. نزع الصينيَّة. وضع اللحم على الطاولة. أكل قليلاً منه، وترك الباقي للعمَّال. غطّاه بقطعة من القماش. أخرج كيس البقايا نحو درَّاجته الناريَّة، ووضعها تحت الصحف لرميها وبعثرتها في مصبَّات وادي الكبريت الشماليَّة، على الضفَّة اليمنى.

عاد إلى الفرن. شعر بصفاء كبير هذه المرَّة، لم يبذل جهدًا كبيرًا. كان مرتاحًا داخليًّا استعمل الغاز القليل لإشعال رزمتي الخشب. بدأت النار تتَّقد، والفحم الحجريّ والخشب يتحوَّلان إلى كتل من الجمر الملتهب.

أذَّن الفجر. بعده بربع ساعة، رنّ التليفون.

ـ كلّ شيء تمام عكاشة؟

ـ كلّ شيء جاهز عمِّي بيانفو. الفرن سخن كما العادة. أبقى قليلاً أنتظر رامي وسامي وحميد، وأنسحب نحو توزيع الصحف.

ـ لم يصلوا بعد.

ـ لن يتأخَّروا. أسمع في الخارج ضجيج درَّاجاتهم. أعتقد أنَّهم وصلوا

ـ يا الله نشوفك عل خير يا وليدي.

ـ شكرًا عمّي بيانفو.

عندما دخل الخبَّازون، كان كابي قد انتهى من كلّ شيء. كان الفرن جاهزًا بحرارته القصوى. تبدو النار، من وراء الزجاج السميك، كأشباح تتراقص بسرعة وبأشكال صافية متحوّلة.

ـ صباح الخير كابي. عمّي بيانفو تلفن؟

ـ تلفن قبل قليل. هو في الطريق. الفرن جاهز وسخن.

ـ ممتاز. ريحة المشوي، كاش ما شويت خروفْ يا كابي. ههههه؟

ـ شويت كلبًا ههههه.

ضحك الثلاثة.

ـ كابي واش صار؟ أثّر فيك الشناوة[1] ههههه.

علّق رامي ضاحكًا

ردّ كابي متَّخذًا وضعًا جادًّا

ـ لا أمزح طبعًا شويت فخذيْ الخروف، اللتين تصدَّق بهما عليّ عمّي مسعود. يكثّر خيره. واحدة تركتها لكم على الطاولة مع الشاي، والثانية أخذتها لميما مباركة، ما عندهاش مسكينة.

ـ لحم العزاء دائمًا بنين وطيّب. اقعد كلّ معنا

(١) الصينيُّون.

ـ هذا هو وقت توزيع وبيع الجرائد. ربِّي يكون معكم يا جماعة.

ـ شكرًا على اللحم يا كابي.

أردف رامي، قبل أن يلتحق بالبقيَّة، ويتجمّعوا حول الطاولة.

خرج كابي بصمت على غير عادته. بدا له مخّه مغسولاً من كلّ شيء، حتى من ذاكرته.

على الرَّغم من برودته، كان الفجر صافيًا، مثل قطعة قماش شديدة النصاعة.

لم يلتفت.

لأوَّل مرَّة، يشعر بأنَّ الحياة بالضبط كما وصفها له ريزو، وهو في أقاصي تجلِّيه: *مجرَّد حفنة فراغ، عبث ينتهي يومًا داخل بالوعة.*

IV

لَيْلُ الضِّباع

الدخَانُ الأبْيَضُ... أخيرًا

١

الأشعَّة الحمراء خرجت أخيرًا من الغيوم الثقيلة التي كانت تكتم أنفاسها، فأضاءت مساحة لاغراند تيرَّاس، ومنحت أشجارها ونباتاتها وزهورها لونًا نحاسيًّا جميلاً، تدرّج من الحمرة والصفرة حتى البياض. وبدا سقفها القرميديّ الذي صُمّم في شكل شبه دائريّ، مفتوحًا عل الفجر من كلّ جوانبه. هندسة امتزجت فيها العبقريَّة الصينيَّة التي تعانق الشمس والهواء وامتداد المدينة، والأندلسيَّة، حيث كلّ ما يبدو ظاهرًا، تخفيه الظلال والأبواب الخلفيَّة، والمشرّبيَّات الصغيرة.

لم يكن المهندس الصينيّ رين يوتشانغ[١] (النجاح) Ren Youcheng مخطئًا عندما قال لكازانوفا وزينا *هذا المكان عندما يُنجز، سيصبح مدهشًا ولن تغادراه أبدًا من شدَّة الالتصاق به. الموقع الذي تحتلّه الدار الكبيرة، على المرتفع، يجعلها مشرفة على كلِّ شيء*. وعندما جاءهما بالنموذج الجاهز افتراضيًّا، أظهر لهما ما

(١) الكلمة تعني في اللغة الصينيَّة النجاح.

أدهشهما النور يمرّ من كلّ الجهات. لم يتساءل كازانوڤا يومها كثيرًا إذ كان يكفيه حماس زينا، فوافق على المشروع بكلّ تفاصيله.

كان الجوّ هادئًا إلّا من بعض الذين يعبرون ليعزّوا أهل كازانوڤا، ثم يغادرون.

بدأت الحياة تدبّ في *الدار الكبيرة* بتثاقل، لولا الفوضى التي أحدثتها سيّارة الأمن التي نزل منها خمسة من رجال الشرطة بقيادة شرطيّة، وأحاطوا بالمدخل كلّيًّا ثم تبعتهم سيّارة *فورد فييستا* زرقاء، توقّفت بالضبط عند مدخل *الدار الكبيرة*. شبيهة بتلك التي يبيعها كازانوڤا، مع مجموعة فورد الأخرى: *فورد مونديو*، *فورد إيس ماكس*، *فورد فوكوس*، *فورد سييرا وإيسكورت*[1]، *فورد ميستانغ وفورد كوغا* نزلت منها امرأة طويلة، وأنيقة برفقتها صبيّ صغير، أشقر، بوجه مدوّر مثل تفّاحة، عمره حوالى عشر سنوات. يرافقهما محامي الشركة، وممثّل القنصليّة الأميركيّة، ومدير شركة فورد في المنطقة الأفريقيّة. الكثير من ناس منارة سيتي يعرفونه جيّدًا، فهو يحضر كلّ معارض السيّارات التي يقوم بها موكّلهم، كازانوڤا

استقبلهم يونس عند الباب.

كان ينتظرهم.

ـ هاي جوناس، هاو آر يو ماي دير؟ كيفك يا عزيزي؟ أتمنّى أنّنا في الموعد؟

ـ هاي جوليا في الوقت بالضبط. لم تتأخّري ولا ثانية واحدة. أشكرك على مجيئك. كنت أخشى أن لا تتمكّني من المجيء.

---

(١) Ford Mondeo, Ford Fiesta, Ford S-Max, Ford Focus, Ford Sierra, Ford Escort.

قالها يونس وهو ينظر مليًّا إلى ساعته.

ـ غيبة يا يونس. افتقدناك من آخر زيارة لك قبل سنتين، مع والدك مستر لوط. قال لي إنَّك ستكون معه، عندما جاء إلى ديترويت آخر مرَّة لمناقشة فكرة المصنع وحضور معرض السيَّارات. أنت لستَ غريبًا عن البلد. درستَ في أميركا وتعرفها جيِّدًا

ـ للأسف. الأزمة الاقتصاديَّة غيَّرت الكثير من عاداتنا وتصرُّفاتنا، وحياتنا. كنت مشغولاً بتسيير حسابات الشركة، ونعمل جاهدين على التقليل من مضارّ الأزمة، والحفاظ على العمَّال. تلك السنة، كدنا نستسلم للخسارات المتلاحقة، لكنْ الحمد لله، كانت حساباتنا وتوقُّعاتنا سليمة. استطعنا أن نتسلَّق العقبة، ونغيِّر حالة المؤشِّر من الانهيار، إلى التوازن على الأقلّ.

ترك الصبيّ أمّه، وركض نحو يونس، والتصق بصدره بقوَّة.

ـ هل تتذكَّر آدم؟ قالت جوليا.

ـ طبعًا. جدًّا آدم حبيبي لم تتغيَّر كثيرًا الابتسامة نفسها، الرشاقة نفسها. هو أيضًا تذكَّرني، وإلَّا ما ركض نحوي بكلِّ هذه السرعة، وهذا الحبّ.

ـ لم ينسك. كم إنَّ ذاكرة الأطفال حيَّة! يستحضر دائمًا صورك معه في سنترال بارك، إبَّان الرحلة التي قمنا بها جميعًا إلى نيويورك. عنده ألبوم جمَّع فيه كلّ الصور التي يراها مهمَّة، حتى تلك التي كنت أرافق فيها والدك وأنا مجرَّد ستاجيير[1]، متدرِّبة، في مصانع فورد، بمدينة ديربورن، في التسويق والمركتينغ. يومها، لم يكن في حاجة إلى مترجم، كانت لغاتي العربيَّة، والفرنسيَّة، والإنجليزيَّة، تساعدني على

---

(١) Stagiaire

التواصل معه. أظهرت له يومها، كيف استطاع رجل بسيط مثل هنري فورد، أن ينطلق من العدم، لينشئ أمبراطوريَّته التي أصبحت اليوم عالميَّة.

أخذها الحديث بعيدًا، انتبهت فجأة، لبقيَّة الحضور. قالت وهي تقدّم له مرافقيها

ـ ميستر فريدي، ممثِّل فورد في أفريقيا، تعرفه جيِّدًا خوليو ممثِّل من القنصليَّة، في سفارة الولايات المتَّحدة، في منارة سيتي، تعرفه أيضًا وماكس دياز، محامي الشركة في أميركا رافقني في الرحلة، هو أيضًا تعرفه. جاؤوا يعزُّون في صديق تعاونوا معه طويلاً، بالخصوص المشروع القديم الجديد الذي سخَّر له لوط كلّ جهوده. بناء مصنع السيَّارات العسكريَّة مع الدولة كشريك، كان هذا آخر رهاناته. وكنّا متحمِّسين له، وما زلنا

توغَّل الجميع في عمق الدار الكبيرة.

أدار يونس مفتاح المصعد. انطلق بسرعة نحو لاغراند تيرَّاس.

تبدو مدينة منارة سيتي من الأعالي، ممتدَّة على مرمى البصر، بأبراجها العالية، والمارينا التي شيَّدها كازانوفا مع شركاء في الدولة، وحدائقها الكثيرة التي تتنفَّس منها، وطرقاتها الواسعة التي يمتدّ النخيل على أطرافها، وفي وسطها عشرات الكيلومترات. يُقال إنَّ مسؤولاً كبيرًا كان من وراء ذلك، إذ رفع شعار المليون نخلة في منارة سيتي. كان مشروعًا كبيرًا لتغيير وجه المدينة، وتقريبها من طبيعتها الأصليَّة التي تشبه كاليفورنيا لكنْ يبدو أنَّ ثلث النخيل مات بسبب حشَرة الأرَضَة التي علقت في سعفه.

وقف الجميع يتأمَّلون امتداد المدينة، وكأنَّهم يكتشفون شوارعها ومساحاتها للمرَّة الأولى.

هزّ خوليو رأسه بإعجاب.

ـ منذ أربع سنوات وأنا هنا في القنصليَّة، أرى عن قرب تحوُّلات منارة سيتي القويَّة. ما يحدث فيها مهمٌّ جدًّا. تملك كلّ المؤهّلات السياحيَّة التي تسمح لها بأن تحتلّ مكان الصدارة في المنطقة.

ـ لنقل أيضًا إنَّ مستثمر اليوم، قال يونس، ليس هو مستثمر البارحة، الذي يغامر وينشئ عالمًا ضخمًا من الفراغ تقريبًا، وبلا أيَّة ضمانات. أن تستثمر معناه أن تغامر. وربَّما في هذا اختلف والدي عن غيره، فقد كان ناجحًا قبل الأزمة القاسية، وبعدها.

ظلّ آدم مستكينًا لذراعيْ يونس. واضعًا رأسه على صدره. تآلف بسرعة مع الجوّ العامّ. يتأمَّل امتداد المدينة والنهر الذي يخترقها بضفَّتيه، اليمنى واليسرى. طلب منه ماء. قال له يونس ضاحكًا، آتيك بما هو أفضل. انتظر لحظة. عصير تفّاح. بينما جاء الخادم بقهوة تركيَّة، كما أرادوا

ـ كان مستر لوط، رجلاً شجاعًا، لا يتوقَّف أمام المصاعب. لا يحسب حساب المخاوف.

قال فريدي وهو ينظر إلى بقيَّة الوجوه التي كانت على ملامحها غلالة من الحزن. انتهز يونس الفرصة ليُجيب على التساؤلات التي طرحها مستر فريدي.

ـ حقيقةً كان والدي لوط، شجاعًا. كان مؤمنًا بقوَّة فورد أمام المنافس الفرنسيّ. نقل تكنولوجيا الشركة إلى منارة سيتي، كان من أهمِّ رهاناته. هنا يد عاملة مهمَّة، لها خبرة، ورخيصة. تحتاج فقط إلى حدٍّ أدنى من التكوين كي تكون في مستوى التكنولوجيَّات الجديدة. شجَّعت والدي للذهاب بعيدًا في خياراته. كان يعرف جيِّدًا أنَّ سياسة

أريد ولا *أريد* لن توصله إلى أيٍّ شيء. المشكلة الأمنيَّة للأسف، كانت دائمًا معطِّلة لكلِّ المشاريع، لكنَّ الأمر كان يتطلَّب بعض الشجاعة. تُحِدُّ دومًا من طموحاتنا. ما نريده يجب أن يعود بالربح والخير على منارة سيتي، وشركة فورد أيضًا

ـ لا مشكلة. سنبحث في كلّ هذا لاحقًا، قال مستر فريدي. نحن هنا لهذا الغرض أيضًا تنتهي مراسم الدفن ونعود للعمل، لأنَّ الحياة مستمرَّة. لوط وقَّع عقودًا مبدئيَّة كثيرة لبناء مصنع فورد للسيَّارات العسكريَّة. انتظرنا معه موافقة الدولة على المشروع بوصفها شريكًا طبيعيًّا لكنَّ تأخّر قراراتها للأسف، ومرض لوط في الآونة الأخيرة، لم يسهِّل لا مهمَّته ولا مهمَّتنا، فتمَّ توقيف المشروع موقَّتًا، ونقله إلى بلد مجاور لمنارة سيتي، لكنَّنا مستعدُّون لمواصلة المفاوضات فور اتِّضاح الرؤية لديكم.

كان يونس مطَّلعًا بشكل جيِّد على كلِّ تفاصيل المشروع. يعرفه بدقَّة، وسبق أن ناقش في كلّ حيثيَّاته مع والده. من الملفَّات الأكثر حساسيَّة. كان يمكن أن يفصِّل أكثر مع ميستر فريدي، لكنَّ الوقت غير مناسب. وبشير لا يسهِّل مهمَّة انتقال التسيير في مجلس الإدارة، إلى غيره. بدأ يكتشف أنَّ الأغلبيَّة لم تعد مسلّمة، كما كان يظنُّ في البداية، بعد انضمام عليلو إلى يونس وهارون. الأميركان براغماتيُّون، ما يهمُّهم هو ضمان مصالحهم. وهكذا تستطيع شركة فورد كازا ـ نوفا أن تضمنه بسهولة. الوضع الجنائزيّ لا يسمح بالذهاب إلى أبعد ممَّا هو متاح.

لم يستطع يونس أن يُخفي سعادته الكبيرة، بمجيء جوليا واستجابتها لمقترحه. يُدرك جيِّدًا أنَّها اللحظة الحاسمة التي يتحدَّد فيها كلُّ شيء، لهذا فضَّل أن يأتي بها فهي تملك ورقة كبيرة ومهمَّة قادرة

على تغيير ميزان القوى. التفت يونس من جديد نحو مِستَر فريدي، ممثِّل فورد في أفريقيا.

ـ يجب أن يجد هذا المشروع الضخم، والمهمّ للطرفين، طريقه. جوليا تعرف جيِّدًا أنَّي كنت مشرفًا عليه، وقد جهَّزناه بشكل دقيق، وظللنا ننتظر موافقة الدولة عليه، لأنَّه يخصّ جانبًا عسكريًّا وافقت الدولة مبدئيًّا، لكنَّ الانقلابات الداخليَّة، والتغييرات العسكريَّة، غيَّرت كلَّ شيء. فمالت الدولة نحو فولكس ڤاغن، كشريك، ربَّما لأنَّها وجدت فيها عرضًا أفضل. منافسة أحيانًا غير مشروعة، لكنَّها للأسف موجودة، وأحيانًا مدمِّرة. بدأنا نفكِّر في فصل العسكريّ عن المدنيّ. نهتمّ بالجزء الثاني في انتظار الموافقة العسكريَّة، لإنتاج السيَّارات والشاحنات العسكريَّة. بدون هذه الإمكانيَّة، سنظلّ في دائرة الانتظار، ودون تغييرات كبيرة في المصنع. نحتاج فقط أن نُنهي إشكال الخلافة، لكي نستطيع أن نتقدَّم قليلاً وهذا، في طريقه إلى الحلّ النهائيّ. لم يبقَ الشيء الكثير مع مجيء جوليا وآدم، ستُفتح أبواب أخرى.

ـ حكت لي جوليا، لهذا نحن بالانتظار.

تدخَّلت جولي.

غيَّرتْ الحديث قليلاً، وهي تمسح فم ابنها من بقايا عصير التفاح، والگاتو. ثم حملته بين ذراعيها.

ـ أرأيت يا يونس، كم كبر آدم منذ زيارتك الأخيرة لنا؟ قرابة الثلاث سنوات غيابًا، جعلت منه رجلاً منذ أن رآك، وهو لا يتحدَّث إلَّا عنك. عندما كنتُ حاملاً به، كان لوط يتمنَّى أن يكون آدم شبيهًا لك، في كلّ شيء. صورة طبق الأصل منك، في ذكائك، وجانبك الإنسانيّ في المعاملات، وفي معرفتك وثقافتك وجرأتك المحسوبة

بدقَّة. كان يقول لي عندما نصفو قليلاً: *تعرفين يا جوليا، في كلِّ أولادي، لم أرَ مثالاً للطاقة الخلّاقة ليونس. له حنكة المسيِّر الحقيقيّ. اقترحتُ عليه التفكير في الإدارة، لكنَّه في كلّ مرَّة يرفض، لسبب بسيط، لأنَّه لو يخرج ستنهار الشركة. هو الحامي الحقيقيّ الذي يعرف كلَّ شيء، حتى تحوُّلات البورصة.* على كلٍّ، نحن هنا للعزاء، هذه الأمور لها وقتها.

ـ بابا يبالغ. كما قلتِ، نحن في حداد، وأنتِ عضو لك مكانك في العائلة، لستِ غريبة.

ـ أبلغكم تعازيّ، وتعازي عائلتي في ديترويت[1] كانوا يحبُّون لوط جدًّا، ويعتبرونه واحدًا من العائلة. كان ينوي أن يقضي بقيَّة سنوات تقاعده معي ومع آدم، الذي منذ جاء إلى هذه الدنيا، غيَّر كلَّ شيء في حياتنا

ـ هو أيضًا كان يحبُّكما يا جولي. كنتُما تعنيان له الكثير.

صمتت قليلاً، قبل أن تردف بهدوء، بعد أن سحبته قليلاً نحو الزاوية اليمنى من خلوة لاغراند تيرّاس، التي تطلُّ مباشرة على الحيِّ الدبلوماسيّ والمارينا

ـ أنت تفهمني جيِّدًا يا يونس. أتيت بآدم، كما قلتَ لي، ليتعرَّف على أهله وإخوته في منارة سيتي التي لا نعرفها إلَّا من خلال لوط. هذه أوَّل مرَّة أزور منارة سيتي. طلبتُ مرافقة السيِّد القنصل والمحامي إلى الكثير من الأماكن، وخرجنا بأفكار سياحيَّة ستعجبك. رأينا كلَّ ما شيَّده في منارة سيتي. لا يفعل هذا إلَّا شخص يحبّ وطنه وأرضه. لكن هذا يحتاج إلى وقت آخر. المهمّ أن تكون راضيًا عمَّن يخلف

---

(١) Detroit

والدك. على هذه المؤسَّسة الضخمة أن تستمرُّ في الحياة. فهمت منك أنَّ بشير حسم الأمر لصالحه.

ـ لا الكثير من الأشياء تغيَّرت الآن. تعبنا كثيرًا في الأيَّام الماضية، لهذا استنجدت بك وبآدم.

ـ وأنا حضرت لهذا الغرض.

ـ أحسن ما كان يمكن أن تفعليه في هذه الظروف الصعبة.

ـ قد أعود إلى أميركا، بعد يومين أو ثلاثة على أقصى تقدير، لكنِّي جهَّزت لك وكالة رسميَّة عند موثِّق، وملحقة بوثيقة من السفارة الجزائريَّة.

رنّ التليفون فجأة.

ـ نعم ميما روكي. لا لا شربوا قهوة تركيَّة، وننتظر الفطور. نعم سيبقون قليلاً أوكي.

ثم التفت إلى المجموعة التي كانت منهمكة في اكتشاف منارة سيتي بالمنظار:

ـ أمِّي تريد أن تهديكم قهوتها من يدها هذه عادتنا

رنّ المصعد بجرسه الناعم. خرجت منه روكينا تتبعها ميمونة، حاملة صينيَّة القهوة.

تردَّدت روكينا قليلاً قبل أن تقتحم لاغراند تيرَّاس، فهي لا تعرف الضيوف إلَّا قليلاً الكثير من التفاصيل كانت تغيب عنها. تسمع بجوليا، وتعرف قصَّتها مع كازانوڤا، وآدم. روكينا هي صاحبة فكرة إحضار جوليا، عندما تعقَّد وضع التوريث.

عندما سألتها لالَّة كبيرة عن الضيوف الذين رمقتهم من شرفة جناحها، تظاهرت روكينا بأنَّها لا تعرف شيئًا عنهم. يونس وعليلو

حدَّثاها عن كلّ التفاصيل. عند الباب، من شرفة جناحها

ـ لا أعرف يا لالَّة كبيرة.

ـ السيِّدة شابَّة وفارعة كنخلة. من تكون يا ترى؟ زوجة القنصل، أم زوجة مدير شركة فورد؟

ـ بحسب الهزَّة هي ما تكون إلَّا زوجة القنصل. باين عليها الخير، على الرَّغم من بساطتها

ـ لكن ما مبرِّر وجود ابنها معها؟

ـ لا أدري. ربَّما ليكون العزاء عائليًّا! تعرفين يا لالَّة كبيرة أنَّ كلّ شيء عندهم يسير بدقَّة كما الساعة، ولا يترك أيّ شيء للصدفة. وجود طفل يمكنه أن يغيِّر الأشياء ويعطي للعزاء طابعًا عائليًّا

مشت روكينا قليلاً، تبحث بعينيها عن يونس. عندما رآها، انفصل عن المجموعة التي كانت تُحيط به، وركض نحوها عانقها طويلاً، ثم التفت نحو المجموعة الأميركيَّة.

ـ ماي موذر أمِّي الحبيبة. روخا، أو روكي، وتعني ذات الشعر الأحمر بالإسبانيَّة.

ـ يو أر ڤري بريتي، روكينا حدَّثني مستر لوط عنك كثيرًا، وكان يحبّك ويحترمك.

ـ هاي. ثانك يو أشكرك يا سيِّدتي، سعيدة بحضوركم، لن آخذ من وقتكم.

ـ لا يوجد أيّ شيء خاصّ، جئنا فقط لتعزية عائلة لوط. نحن نعاني من الألم نفسه. فقدنا عزيزًا، وقريبًا، ورجل أعمال من الطراز العالي، وزوجًا غاليًا، كانت عينه على الصغيرة والكبيرة.

جاب بها يونس كلّ لاغراند تيرَّاس. عرَّفها بجميع الحاضرين.

كانت السعادة تلمح في عينيها

انتبهت روكينا من جديد إلى آدم الذي عاد إلى حضن يونس!

شعرت جوليا بتساؤلاتها

ـ تعرفين يا سيِّدة روكي. له علاقة خاصَّة بيونس، منذ صغره عندما زارنا يونس هناك. صداقة يُحسدان عليها ههههه. كنت أتصوَّر أنَّ آدم قد نسي يونس، لكن يبدو أنَّ الخيمياء التي بينهما قويَّة. منارة سيتي مدينة رائقة وجميلة. ستكون بيننا مشاريع كبيرة. أنا متأكِّدة من ذلك، ننتظر فقط أن تتَّضح وضعيَّة الشركة، والتسيير

ـ من المؤكَّد، ستُحلّ قريبًا أحببت أن أحييكم فقط. أعرف أنَّ وراء كلٍّ واحد منكم أشغالاً كثيرة. أترككم تنهون عملكم. أنزل عند لالَّة كبيرة. كانت تريد أن تأتي معي، لكنَّها خجولة جدًّا وهي ترحِّب بكم جميعًا، من كلِّ قلبها. سأوصل تعازيكم لبقيَّة أفراد العائلة، واحدًا، واحدًا

ـ سعدنا بالتعرُّف عليك سيِّدة روكي.

قالت جوليا مع انحناءة تقدير من مِسْتَر فريدي، وخُولْيو، ومَاكسْ دِيَاز.

انسحبت روكينا باتِّجاه المصعد.

كان فضاء لاغراند تيرَّاس واسعًا وجميلاً ظلَّ آدم يركض على أرضيَّته الخضراء، وكأنَّه في حديقة حقيقيَّة، يتسلَّق النخلات التي كانت تتسامق عاليًا في عناد غير محدود مع السماء. كان كازانوفا يفاخر دائمًا أنَّها من كاليفورنيا. عندما رآها في سانتا مونيكا في لوس أنجلس، و*شارع المحيط*، جُنّ بها كانت أشجارها وورودها الصغيرة كثيفة وجميلة. ثم بدأ آدم يتخفَّى من وراء أشجار الصنوبر التي كانت

تحيط بلاغراند تيرّاس كلِّها، قبل أن يفاجئه يونس باكتشاف مخبئه. ثم يأتي دور يونس، فيتخفّى هو الآخر، ويحاول أن يُظهر جزءًا منه عمدًا، حتى يراه آدم بسهولة، ويفرح بانتصاره عليه.

قبل أن يعود نحو الجماعة التي كان أفرادها يتأمَّلون المدينة من مختلف زواياها، من الأعالي من خلال المنظار المقرَّب الذي وضعه هناك كازانوڤا خصِّيصًا لساراي، التي كانت لا تخرج إلَّا قليلاً، تأكَّد من أنَّ الفطور جاهز.

ـ الفطور جاهز.

بينما ظلَّ ممثِّل القنصل مندهشًا ممَّا كان يراه.

ـ أدّعي أنَّني أعرف جيِّدًا منارة سيتي جيِّدًا، لكنْ من هذه الشرفة العالية، كلّ شيء يكتسب صبغة خاصَّة. بعض المدن تصبح أبهى في الليل أو فجرًا على كلّ حال، يجب أن نلتقي، وربَّما أيضًا مع مجلس الإدارة الجديد، لنرى ما يمكن فعله. هذه الشراكة رابط قويّ ليس فقط بين مؤسَّستين كبيرتين، ولكن أيضًا بين شعبين وبلدين. ثقتنا فيك كبيرة جدًّا، يا يونس، ليستمرَّ هذا الجهد وهذا التعاون الكبير الذي شرعنا فيه معًا

ـ كلّ شيء يتمّ ترتيبه وفق مصلحتنا المشتركة. نسعى لتعيين من يقوم بشؤون مؤسَّسة Casa-Nova & Co. بعدها تسير الأمور وفق ما نرتضيه جميعًا.

أخذت جوليا يونس من يده برفقة المحامي، وسحبته نحو الكرسيّ الدائريِّ، ليس بعيدًا عن المدفأة التي كانت ما تزال تبثّ دخَّانًا أسود، ممَّا يدلّ بالنسبة للعامَّة، أنَّ الاتّفاق لم يتمّ بعد. طلبت من المحامي ماكس دياز، أن يُخرج من حقيبته الجلديَّة، الملفَّ الذي كان يحمله

معه. وضعه بين يديْ يونس. كان ملفًّا ثقيلاً فتحه. من النظرة الأولى، أخذ فكرة عنه. طلبت منه جوليا أن يعرض الموضوع على مجلس الإدارة المكوَّن من إخوته.

ـ طبعًا يا جوليا كما تحدَّثنا في التليفون، قبل مجيئك، طلبتك من أجل هذا لآدم الحقّ، كما لأيٍّ واحد فينا في ممتلكات والده، في تشريعاتنا في الملفّ، عقد الزواج، وتسجيل آدم في السفارة الجزائريَّة.

ـ نعم. كلّ شيء كما طلبتَه. على كلّ حال، كازانوڤا كان قد قام بكلِّ إجراءات التسجيل من قبل.

ـ ممتاز. بعد انتهاء مراسم الحداد، سنعقد لقاء بين محامينا، ومحامي السفارة الأميركيَّة، ومجلس إدارة الشركة، وسيكون على مستوى كبير من الوضوح، ونصل إلى ما فيه مصلحة الطرفين، ونضمن الشراكة العادلة بين فورد وشركة كازا ـ نوڤا أند كو Casa-Nova & Co.

ـ أنا متأكِّدة من ذلك يا يونس.

ـ أنتِ زوجة أبي وشريكه الأميركيّ، وآدم أخي، ويجب أن يحتلّ مكانه كاملاً في شركة والده. ولا يمكن أن نقفز فوق هذا كلّه بسهولة. على كلِّ إخوتي الذين لا يعرفون هذا، أن يعرفوه.

أحسّ يونس براحة داخليَّة كبيرة، لم يشعر بها طوال الأيَّام الماضية، منذ دخول والده في سلسلة الغيبوبات المتكرِّرة.

نظر ممثِّل القنصل إلى الساعة. هزّ رأسه قليلاً

ـ المكان ساحر. لكن، يجب أن نعود. للأسف، مرتبطون بسلسلة مواعيد.

ـ الفطور جاهز. في المرَّة القادمة، لن نكتفي بالفطور الصباحيّ، قال يونس، ولكن سنتغدَّى أو نتعشَّى معًا

اتَّصل يونس هاتفيًّا بإخوته الذين كانوا ما يزالون داخل المكتب، في دورة مغلقة.

ـ ضيوفنا هنا. ننتظركم. نفطر، ونعود بعدها إلى العمل.

بعد أقلّ من دقيقة، خرج الأخوة من قاعة الاجتماعات. كانوا يلبسون الأسود بشكل موحَّد. بربطات عنق حمراء جعلتهم قريبين من بعض. عادة كازانوفا، كلَّما حضر حفلاً تأبينيًّا، لبس هيوغو بوس الأسود، وربطة عنق حمراء. ربطة العنق بهذا اللون تجعلك مرئيًّا، كما كان يقول دائمًا

وقف الجميع باستقامة، كأنَّهم دُرِّبوا على ذلك، رؤوسهم عالية، وأيديهم مجموعة على مستوى البطن. كانوا متشابهين، بالقامات نفسها تقريبًا، باستثناء أكبرهم بشير، الذي كان بطنه يتقدّمه بقليل، محدثًا ظلًّا منكسرًا على أرضيَّة الخُلْوَة. بدوا كفرقة موسيقيَّة كلاسيكيَّة تنتظر أمر المايسترو.

التفتت جوليا إلى يونس مبتسمة:

ـ فهمت الآن لماذا قلتَ لي ألبسي آدم، طاقمًا أسود، وحذاء أسود، وربطة عنق حمراء.

ـ هو جزء لا يتجزّأ منّا.

ثم وشوشت في أذن آدم، فاستقام جيِّدًا، ثم ذهب ليقف بجانب بقيَّة إخوته، تحت ابتسامة أمِّه ويونس، الذي خرج من صفّ الضيوف، متقدِّمًا ببعض الخطوات عن أخوته.

قدَّمهم واحدًا واحدًا، وبلغة عربيَّة وإنجليزيَّة، بلا أيَّة لكنة.

ـ ضيوفنا الكرام، شكرًا على تعازيكم لنا، هذا يمسّنا عميقًا هؤلاء إخوتي، وهم من شكّل دائمًا الجزء الأهمّ من مجلس إدارة كازا ـ نوفا التي فرضت نفسها في قطاعات اقتصاديَّة متعدِّدة، في صناعة وتسويق السيَّارات أوّلاً، في الخرسانة والعمران، والأدوية والزراعات التحويليَّة في الفندقة، والتبريد، والطيران وغيرها أكبرنا أخي بشير وهو مختصّ في مشروع الأدوية، بحكم تكوينه وتخصُّصه في الصيدلة، أصبح مدير مستشفى ابن سينا بعد مرض والدي. يُدير كلَّ جلساتنا، فهو أكثرنا خبرة، وهو من يساعدنا بحكمته على تجاوز هذا المصاب، وهذا الماراتون العائليّ. بعده عمر، وهو مقرِّر الجلسات. هو المدوِّن لكلِّ تفاصيلها ونقاشاتنا يُدير مع أخي مهدي الخرسانة وشركات التشييد العمرانيّ والفنِّيّ. مسؤول عن المشاريع السياحيَّة الكبرى، من بينها سلسلة الفنادق التي أشرف عليها مع الوالد نفسه؛ كانت تجربة ناجحة. ومدير مكتب محاميِّي كازا ـ نوفا: أخي وحبيبي، وأبي الثاني، علي أو عليلو الذي أخذ على عاتقه، تصريف شؤون البيت في هذه اللحظات الصعبة والقاسية، بما في ذلك التكفُّل بمراسيم جنازة الوالد واستقبال المعزِّين، وهو المكلَّف حاليًّا ببناء أسطول كازانوفا للطيران Casa-Nova airlines التي تشتغل حاليًّا بالليزينغ، لكنْ ستصبح قريبًا شركة منافسة. أغلب طائراتها من نوع بوينغ وإيرباس. أنا يونس، مكلَّف من والدي والعائلة بإدارة حسابات المؤسَّسة، وحركة البورصة، ومراقبة حركة الأموال في الشركة الأمّ، والشركات التابعة لها أخي هارون، آخر عناقيد بابا لوط، الذي التحق مؤخَّرًا بمجلس تسيير الشركة، ومكلَّف بالزراعات التحويليَّة، وله مشاريع ضخمة بعد نجاح التجربة الزراعيَّة في الجنوب التي كان قد بدأها والدي، وكان بعض الصناعيِّين يضحكون منه، لتصبح المنطقة بفضله من أكبر مصدِّري

التمور ومعجون الطماطم، والصناعات التجميليَّة. إضافة إلى كونه يشتغل في التنقيب على الذهب مع فرقة من أفريقيا الجنوبيَّة حيث يُقيم.

ثم التفت نحو آدم، الذي ظلَّ ينظر إليه بعينيْ عصفور ينتظر يدًا تخرجه من حيرته، فحمله بين ذراعيه. ومشى به قليلاً أمام إخوته خطوات، ثم توقَّف ليتوجَّه نحو الضيوف.

ـ كنت أقول إنَّ هارون هو آخر العنقود. لا أخطأت. هذا الشابّ الجميل، هو أخي وحبيبي آدم. هو ابن لوط وجوليا. بدءًا من اليوم هو صوت كامل في إدارة تسيير شركة Casa-Nova & Co. سيوكِّل طبعًا من ينوب عنه في مجلس الإدارة، حتى سنَّ البلوغ. يوم أقمت عند الوالد في ديترويت، بدعوة من مصانع فورد، تعرَّفت عن قرب على زوجة أبي السيِّدة المحترمة جوليا، ممثِّلة شركتنا للسيَّارات في أميركا، وعلى حبيبي آدم. على أيِّ حال، هم هنا للتعزية، ولكنْ أيضًا للمساهمة في الخروج بمجلس إدارة متماسك، يحفظ شركات الوالد من التفتت. جولي جاءت برفقة محامي الشركة، السيِّد ماكس دياز، ومستر فريدي، ممثِّل فورد في أفريقيا، وخوليو، ممثِّل من القنصليَّة، في سفارة الولايات المتَّحدة في منارة سيتي، للتعزية. لكنَّها ستكون معنا لاحقًا للحديث عن الشراكة. جاؤوا يعزُّون في صديق تعاونوا معه طويلاً بإخلاص، ورغبتهم كبيرة في مواصلة سياسة الأب على أسس جديدة، وحداثة أعمق وتصحيح لكلِّ الأخطاء السابقة. ونحن، لسنا فقط مستعدِّين للتعاون، ولكنَّنا نريد أكثر. أطلت عليكم. أترككم مع فطور حضَرته لالَّة كبيرة وروكي وميمونة وكلّ سكَّان الدار الكبيرة، إكرامًا لضيوفنا الأعزَّاء. مرَّة أخرى مرحبًا بالجميع.

صفَّق الجميع، وتجلَّت سعادة كبيرة في عينيْ عليلو وجوليا وآدم، وكلّ الحاضرين، باستثناء بشير الذي تمتم في أذن أخيه القريب منه،

عمر، بشيء من العصبيَّة. علت عيناه حمرة ظاهرة.

ـ جديدة هذه. يونس يلعب لعبة شديدة الخطورة. يريد أن يفرض علينا كبُولاً جديدًا، بعد تلميحات كابي الذي لولا رفض الجماعة، لأصبح شريكًا في أملاك الوالد.

ـ كابي لا يمكن، إلَّا إذا أثبت أنَّه من صلب بابا لوط، وهذا صعب جدًّا، بل مستحيل. المشكلة مع الفرخ الأميركانيّ الذي كنَّا نسمع به فقط، ليصبح الآن حقيقة مرئيَّة. لازم له حلّ.

ـ والله مع هذا اليونس المريكانيّ كلّ شيء ممكن. يجب أن نستعدّ لكلِّ شيء. وما الذي يمنع كابي من أن يكون أخانا؟ وعضوًا في مجلس تسيير كازا ـ نوفا وشركاءه Casa-Nova & Co؟ هل يعقل؟ سنتحوّل إلى مطنزة لكلّ من لا يحبُّنا منذ أيَّام، هو والطحَّان تاع خوك علي، يلمِّحون إلى ذلك. مع أنَّ مباركة أنجبت بنتًا ماتت في المستشفى وخلاص؟ مخِّي حبس حقيقة.

ـ سمعت بأنَّ هناك من ساعدهم على الحصول على وثائق تثبيت الأبوَّة، من أحد مخابر التحليل الجينيّ، التي تؤكِّد إداريًّا وطبِّيًّا، وتثبت العلاقة الأبويَّة.

ـ هل يُعقل؟ لن يكون يا عمر، ولو اضطررت للحلول الجذريَّة. *اضربه*، يعرف مضربه. مجموعة *الغاضبون من الله*، لا ينتظرون إلَّا هذا. قادرون على محوه ومحو السيِّدة التي ساعدته. لن نكون أبناء لوط الفحل، الذي بنى من العدم شركة كبيرة، ولا أبناء لالَّة كبيرة أميرة الكلّ، إذا ما أنهيتهم قبل أن يتخطُّوا عتبة الدار الكبيرة. على كلٍّ، الطبيبة ستسمع أخبارها قريبًا.

ـ لم نصل إلى هذا الحدِّ يا بشير قد تكون مجرَّد دعاية. كابي

المسكين ما على باله بوالو، ما زال يبيع الجرائد ويسخِّن الكوشا هذا مجرَّد كلام. إلى اللحظة، لا يوجد ما يثبت أنَّه من صلب الوالد. نروح نفطر مع المجموعة. هم جاؤوا اليوم كمعزِّين وليس أكثر. ونحن نستقبلهم كذلك. أنت تعرف في النهاية الأمر يحسمه أبناء لالَّة كبيرة، وهم الغالبيَّة.

ـ ما يجري في الخفاء شديد الخطورة.

ثم أدخل يده في جيبه. أخرج ورقة مزدوجة. ثم سلَّمها لأخيه.

ـ اقرأها واسكت.

فتحها قرأها بعينين مفتوحتين بكلِّ اتِّساعهما. تمتم. كانت الحروف تتسابق تحت نظره: *تؤكِّد التحاليل المخبريَّة التي أُجريت على عيِّنات تعود للسيِّد لوط وابنه عليلو، والسيِّدة مباركة وابنها عكاشة، ثبوت أبوَّة لوط، وأمومة مباركة، وأنَّ عكاشة ابنهما مائة بالمائة.*

ـ هل يمكن؟ وماذا ستفعل؟

ـ تصرَّفت.

التفت يونس نحو آدم الذي التصق به، ولم يغادر ذراعيْه.

ـ آدم. نحن جوعانين وهؤلاء الناس لا يريدون أن يفطروا معنا أذهب أنا وأنت ونتركهم يشبعون كلامًا

ثم التفت نحو الجميع الذين ضحكوا لخفَّة روح يونس.

ـ تفضَّلوا البيفيه مفتوح. شاركونا فطور هذا الصباح الجميل. متواضع، لكنَّه من القلب.

توجَّه الجميع نحو الطاولة الكبيرة التي كان قد هيَّأها خدم الدار الكبيرة. بينما بقي عليلو منهمكًا في حديثه مع جوليا وممثِّل القنصل الأميركيّ خوليو. دخل ماكس دياز في حديث حميميّ في الزاوية، مع

هارون. توزَّع الضيوف هنا وهناك في شكل مجموعات صغيرة، على مساحة لاغراند تيرَّاس كلِّها بعضهم كوَّن دائرة صغيرة حول مستر فريدي، بينما كان يتأمَّل المدينة من فوق ويكتشف معالمها التي لم يكن يعرفها.

ـ من هنا تظهر كلّ المدينة بسحرها الأخّاذ.

ـ منارة سيتي عروس المتوسِّط، هكذا كانت تُسمَّى في العصر القديم. اختزلت كلّ الحضارات، من القديم حتى اللحظة: النوميديَّة، الرومانيَّة، الإسلاميَّة، العثمانيَّة والفرنسيَّة. تعال، وسيتكفَّل مهدي وعليلو بمفاجأتك بأجمل بيت على البحر ونزوِّجك هنا ههههه! نساؤنا لسن ذكيَّات فحسب، ولكنْ فاكهة نادرة جعلتها شمس الجنوب وبحر المتوسِّط، حفنة من النور والحياة. وإلَّا لماذا تزوَّج كازانوڤا كلّ هذا العدد من النساء؟

ـ واااااوووو أوكي. أوكي.

ضحك الجميع قبل أن يتوجَّهوا بدورهم نحو طاولة الأكل.

توجَّه بشير نحو أحد الخدم. مسَّد على لحيته الكثيفة الشديدة السواد. أخذ منه كأس ماء. ثم توجَّه نحو طاولة السيلف سيرڤيس المفتوحة. لم يأكل شيئًا كان مهدي وعمر يقفان وراءه. طلبا منه أن يأخذ شيئًا آخر

ـ أنت تبذل جهودًا مضاعفة للسهر على شركة الوالد حتى تبقى قائمة وقويَّة. عليك أن تأكل أكثر أمامنا يوم ثقيل جدًّا ومشاكل ثقيلة.

ـ تعرف، كنت أنوي الصيام اليوم.

ـ وعلاه، بابانا لم يكن إمامًا كان رجلاً حيًّا ومحبًّا للحياة. لا يفكِّر بالموت مطلقًا. زهواني. لا تحزن. عاش حياته كما اشتهاها،

واستمتع بها حتى النهاية.

ـ الصيام يبعدنا عن وجوه الشرّ. أنا لست مرتاحًا لوط الله يرحمه، كان متنبِّهًا لكلِّ شيء. يدقِّق في الصغيرة والكبيرة. يحضِّر دائمًا له ثلاث خطط، يبدأ بالأولى A، وعندما يفشل فيها، يُخرج الخطَّة B، في الأخير يقترح الخطَّة C التي هي التأجيل الذي يمنحه فرصة للتفكير من جديد. يحتاج أبناؤه إلى أن ينسوا كلّ خلافاتهم، ويلتقوا في اجتماع مصغَّر. Casa-Nova & Co معرَّضة للتفتُّت والتمزُّق.

هزّ عمر ومهدي رأسيهما بالموافقة.

ـ فرخ المزابل محيّرني أكثر من ولد الماريكانيَّة. لم أكن أعرف أنَّ الأمر بهذه الجدِّيَّة. لازم نفكِّر في حلٍّ، لأنَّ كل ما شيَّدناه يمكن أن ينهار في ثانية.

ـ في النهاية، نحن أربعة، مهما كانت العواصف التي تفرِّقنا لن يخون عليلو حليب أمّه، لالَّة كبيرة. ترجَّته البارحة أن يقف مع إخوته، وإلَّا فلن ينفذ من تبرئتها منه.

قال عمر براحة كبيرة ارتسمت في عينيه أخيرًا

ـ لالّة كبيرة، تعرف كيف تتصرَّف مع عليلو.

أخذ بشير كأس ماء ثانية، وتوجَّه نحو الزاوية، بالقرب من النخلة التي في الجهة اليمنى من لاغراند تيرَّاس. من هناك، كان يرى مستشفى ابن سينا الذي يشبه، من الأعالي، ثكنة عسكريَّة بأسلاكه الشائكة المحيطة به. ثم امتدّ بصره باتِّجاه مقبرة منارة سيتي الكبيرة، ليس بعيدًا عن البحر. وأخيرًا حيّ الشِّيرَا، خزّان الشرّ كما يسمّيه بشير، ومسجد الرحمة الملتصق به، حيث تتداخل النبتات الصالحة بالنبتات المسمومة.

هزّ رأسه بهدوء، وبعينين نصف مفتوحتين، كمن يريد رؤية دقائق الأشياء. رأى بشير الخطّ الفاصل الذي ارتسم بشكل دمويّ، بينه وبين بعض إخوته. وضع كأس الماء الثانية عند جذع النخلة، وانسحب نحو مكتب الاجتماعات، من دون النظر إلى الضيوف الذين كانوا يستعدُّون للمغادرة برفقة يونس، وعليلو وهارون.

٢

على طول الرصيف، اصطفَّت السيَّارات الفارهة، منها سيَّارات الشرطة وسيَّارات الإسعاف المليئة بصور كازانوڤا وهو في ريعان شبابه ببزَّته العسكريَّة. ثم صورته وهو يضمّ جدّه إلى صدره، على قمَّة جبليَّة عالية. صورة ثالثة وهو يقبِّل رأس والدته. ثم وهو في لباس الإحرام، في مكَّة المكرمة. وهو يمنح الهدايا لليتامى والمسنِّين، في بيوت العجزة التي تحمل اسم والدته ***بيوت الرحمة لالَّة الضاوية***، ويظهر شعارها واضحًا: ***كما ربَّياني صغيرًا***. ثم وهو يحضر حفلات تخرُّج مجموعة من الطلبة بأميركا وفرنسا وألمانيا، الذين أشرف على تكوينهم، وموَّل دراساتهم التخصُّصيَّة، ووظَّف الكثير منهم في مختلف شركاته وفروعها، ومستشفى ابن سينا

كلُّ من يمرُّ قريبًا من الدار الكبيرة، يرفع رأسه قليلاً، يقرأ اللافتة التي تحتلّ الشارع الرئيسيّ: ***انتقل إلى جوار الله، عبد ربِّه شهيد الحقّ والخير لوط بن عبد ربّه، بن عبد القادر الجلالي ولد شايب الذراع، ولد قليس، ولد ماسينيسا، ولد ياسين، ولد سيدي أحمد الخلويّ***

العلويّ ولد المنوّر. ثم يمدُّ بصره نحو لاغراند تيرَّاس، ليلمح الدخان الأسود الذي لا يتوقَّف أبدًا يمضي بعدها نحو انشغاله اليوميّ، بينما يبصق آخرون على الأرض بلا أيَّة كلمة. البعض الآخر من سكَّان منارة سيتي، يقرأون اللافتات، وهم يتساءلون فيما بينهم، كيف لمن امتلك منارة سيتي كلّها، وأحلامَ العباد، أن يموت بهذه السهولة؟

أوقف كابي درَّاجته الناريَّة، ثم ركنها في الزاوية التي تعوَّد عليها، بعد أن انتهى من البيع السريع لجريدتي *الغاشي* و*La Populace*. لا يوجد منها أيُّ مرتجع. رفع رأسه نحو الخُلْوَة. لم يَرَ شيئًا ما عدا المعزِّين الذين يدخلون ويخرجون مجموعات مجموعات، على وجوههم كآبات بمختلف الأشكال التي يشمّ فيها كابي رائحتيْ الصدق والكذب.

فكَّر أن يدخل إلى عمق الدار الكبيرة كما اتَّفق مع مسعود، لكنَّه خاف من أن يرجع من عند الباب إذا لم يجد من يعرفه. بدا له فجأة كأنَّه لا يعرف أحدًا ممَّن تعوَّد على وجوههم.

كأنَّ كازانوڤا أخذ معه كلَّ شيء.

شعر بشيء غريب وبرغبة كبيرة في التقيُّؤ.

نظر إلى يديه. كان بهما شيء من بقايا الرماد الذي لم يذهب، على الرَّغم من غسلهما بالماء والصابون، في المخبزة.

وقف كابي للحظات مع الناس الواقفين عند الباب في انتظار إطلالة مسعود.

في لحظة من اللحظات، فكَّر في الدخول إلى عمق الدار عندما رأى عمِّي صالح، محافظ الشرطة، الذي وقف عند الباب، برفقة فيلق من الشرطة الذين حوَّطوا في دقائق معدودات *الدار الكبيرة*.

هزَّ كابي رأسه وهو لا يعرف بالضبط لماذا هو هنا أصلاً

انتهى كلّ شيء، وكأنَّ المدينة نفسها لفظت آخر أنفاسها، في غفلة كلِّ مَنْ فيها

في اللحظة التي هَمَّ فيها بالتقدُّم نحو عمِّي صالح، تحرَّكت سيَّارة الإسعاف لتقف بالضبط عند مدخل الدار. سمع فجأة صوتًا يأتي من الداخل، عرف أنَّه للإمام زكريَّا

ـ قلِّلوا من البكاء. السيِّد لوط الآن في جنَّات نعيم، تجري من تحتها الأنهار. أفسحوا الطريق من فضلكم، لإخراج المرحوم ليلقى ربَّه في راحة وطمأنينة.

ساعده عمِّي صالح على تنظيم الحركة. عندما أُخرج التابوت محمولاً على ظهر عليلو، ويونس وعمر، ووالي الولاية، ورئيس البلديَّة، ومدير أمن المدينة، وقائد المنطقة العسكريَّة، ورئيس مكتب مكافحة التهريب والإرهاب، والحاج زكريَّا، إمام مسجد منارة سيتي الأعظم، الذي موَّله كازانوڤا من ماله الخاصّ، واختار له حافَّة البحر وشعار: ***وكان عرشه على الماء.***

من بين كلّ الذين كانوا يتداولون على التابوت، شدَّ انتباه كابي، الشيخ منصور، أبو ذات النطاقين الذي يعرف مدى كرهه لكازانوڤا فهو صاحب الرقية الأوَّل في منارة سيتي. حتى إنَّه افتتح مكتبًا كبيرًا للرقية الشرعيَّة في الحيِّ الدبلوماسيّ، يزوره أحيانًا بعض الوزراء برفقة زوجاتهم. وكلُّ من يخرج من عنده، يكون منتشيًا بما رآه وبما حصل له من غرائب وهو الذي كان على حافَّة الجنون أو الانتحار. افتتح قناة لا يوجد بها إلَّا الإعلانات عن الأدوية الشعبيَّة التي يقترحها، الخاصَّة بطرد الشياطين والجنون، مهما كانت جنسيَّاتهم وأعراقهم، العجز

الجنسيّ، الشفاء من أمراض السحر والقنطة، فوائد قرصات ملكات النحل وامتصاصها للسحر.

في لمح البصر، التقت عيناه بعينيْ كابي، كقطعتيْ معدنٍ شفَّاف، حادٍّ وساخن.

قال ريزو الذي كان يقف وراء كابي وهو يمسح عينيه ليتأكَّد ممَّا كان يراه.

ـ شفت خويا كابي؟ ولد الحرام. على كلّ الموائد الكبيرة؟

ـ الشيخ منصور؟

ـ الفيستي والبهتان. يأكل من غباء الناس، ومال الأغنياء. ما يضيّع والو.

ـ ألا تعرف يا ريزو المثل الذي يقول: *الله يكثِّر الأغبياء باش يعيش القافزين*[1]

ـ أعرفه. المصيبة كلّ منارة سيتي أصبحت غبيَّة.

ـ إذن منارة سيتي تستأهل شخصًا مثل هذا، يقودها من أنفها

زغردت النساء كثيرًا في كلّ طوابق البيت. وقف الحاضرون مشدوهين من عدد السيَّارات والموكب المهيب الذي لم يخصَّص لأيّ شخص قبله. الشارع الرئيسيُّ امتلأ عن آخره في محيط *الدار الكبيرة* ممَّا اضطرَّ الشرطة إلى تغيير الكثير من المسارات للتخفيف من الزحمة.

وتوجَّه الموكب نحو مسجد منارة ـ سيتي الأعظم وراء سيَّارة الإسعاف. مات كازانوفا قبل أن يرى إتمام جناحه البحريّ الأخير، إذ

---

(١) الشاطرون والأذكياء.

تمنَّى أن يصلِّي فيه أيَّام الأعياد، ويُقال إنَّه ترك في وصيَّته أن يُدفن في ساحته العامَّة.

تمتم ريزو الذي ينقل الأخبار، الكاذب منها والصحيح، ويبثّها في عمق المدينة، في أذن كابي.

ـ أنت متأكِّد من أنَّ كازانوڤا مات؟

كان محشِّشًا، في عزّ خدره. عرفه كابي من عينيه الحمراوين.

ـ راك تشوف اللافتة. اقرأ يا ريزو. أقرأ لك: ***انتقل إلى جوار الله، عبدُ ربِّه شهيدُ الحقِّ والخير لوط بن عبد ربّه، بن عبد القادر الجلاليّ ولد شايب الذراع ولد قليس ولد ماسينيسا وُلد ياسين ولد سيدي أحمد الخلويّ العلويّ ولد المنوّر.***

ـ وعلاه؟ هو ولد ماسينيسا؟ كيف عرفوا؟

ـ الله أعلم. يا ريزو، كازانوڤا يموت أيضًا، كان من أهل ماسينيسا أو من جدٍّ آخر

ـ طيِّب. هذه القلعة وكلُّ أمواله وشركاته، لمن تركها يا ترى؟ لو كنت في مكانه، والله ما نقبل نموت يا كابي خويا، وأُصرّ على الحياة كيفما كان الحال.

كتم كابي ضحكته بصعوبة.

ـ طبعًا، لو جاءت عليه، كان عمل بنصيحتك. لكنَّه أمر الله. كلّ نفس ذائقة الموت.

ـ ههههه. صرت تشبه عمِّي منصور النجّار، والد ذات. والله راحت الكلمة.

ـ ذات النطاقين.

ـ هاذيك هي، بالضبط.

انطلقت الزغاريد من جديد. هذه المرَّة لم تكن تأتي فقط من الدار الكبيرة، ولكنْ أيضًا من أمكنة كثيرة من البنايات التي تصطفّ على الشارع، وربَّما من منارة سيتي كلِّها. حكّ ريزو رأسه.

ـ يا درى، لمَّا يموت ريزو وكابي، واش من جماهير ستتبعنا؟ أحبابُنا فقط، القططُ الخلويَّة، الذبابُ، الفئرانُ، التيفوسُ، الكلابُ الضالَّة التي تنسى فجأة الموكب الجنائزيّ، وتتقاتل على ما تصادفه في طريقها، الدوابُّ المهملة في الطرقات، التي أرهقها سنُّها، وحفنةٌ من قطّاع الطرق، والسارقون، وتجّار الشيرة والمحابسيَّة من أصحاب التأبيدات، وبعضُ المجرمين الصغار الذين يحضرون فقط للتنكيت على سذاجتنا، ربَّما أشركونا في بعض حماقاتهم الكثيرة. هههههه. أفضل من هذه الأثقال وهذه السيَّارات التي تنتهي يومًا ما في لافيراي.

ـ أششششت. اسكت شوي يا ريزو، إنَّهم يودِّعون الميِّت.

شعر لأوَّل مرَّة بأنَّ ريزو لم يكن مخطئًا، على الرَّغم من أنَّه كان محشِّشًا

من أعالي لاغراند تيرَّاس، أمر بشير بحركة يده، أصغر إخوته هارون، بإسدال ستائر كلِّ جهات خلوة لاغراند تيرَّاس، لأنَّ عويل النساء وزغاريدهنَّ، كانت تحرمه من التفكير، والتركيز حول ما يجب فعله. والقرارات التي يجب أن تُتَّخذ في أسرع وقت ممكن، في وضع كان يتعقَّد في كلّ لحظة، حتى تعود الحياة إلى مجراها الطبيعيّ.

أُغلقت ستائر الشرفة، وجُلِّلت بالسواد. ممَّا يدلّ على أنَّ الاتِّفاق لم يتمّ بعد. لم يتوصَّلوا إلى أيِّ حلٍّ حول تعيين خليفة لكازانوفا الرهانات كبيرة وليست سهلة. والتركة لا حصر لها، من سيَّاراتٍ،

وفيلاتٍ، وأبراجٍ مؤجَّرة لمختلف وزارات الدولة، وأسواق، وأسهم في البنوك وأراضٍ غير محدودة جاهزة للاستثمار. كازانوڤا أنشأ بنكًا بفرعين CNB كازانوڤا بنك، والبنك الإسلامي CNBI، Casa-Nova Banque Islamique الذي يتعامل بلا فائدة مع المستثمرين. يتعامل بالمرابحة وليس الربا، وهو ما جعل المنتسبين له يرتفعون بشكل ملحوظ في منارة سيتي وخارجها شارك من خلال هذا البنك في تنفيذ الكثير من المشاريع الإنمائيَّة في بعض الدول الإسلاميَّة. طيران كازا ـ نوڤا إيرلاينز أصبحت الشركة تضمّ في أسطولها الوطنيّ والدوليّ أكثرَ من عشر طائرات، خمس صغيرة آتير ATR، تربط بين منارة سيتي وأربع مدن وطنيَّة كبيرة، ودول الجوار. وخمس تُعار للدولة، لنقل الوفود التي تزور منارة سيتي، فتوضع تحت تصرُّف الوالي، أو القيادة العسكريَّة، وطائرة هيليكوبتر تؤجَّر للصحفيِّين أو زوَّار منارة سيتي لاكتشافها من فوق. وبوينغ ٧٧٧ التي تؤجّر لرئاسة الجمهوريَّة كلَّما نوى الرئيس أن يسافر إلى أميركا، الصين، كندا، الهند، بلدان الخليج، وكندا وأفريقيا الجنوبيَّة ودول الخليج. و٢ إيرباص ٣٣٠، للخطوط المتوسِّطة، بالخصوص فرنسا وبقيَّة أوروبا.

فتح السائق الباب الخلفيَّة لسيَّارة الإسعاف. فرش الإمام زكريًا سجَّادًا من حرير، ثم بمساعدة بعض المسؤولين والأهل، وضع التابوت المغلق في عمق سيَّارة الإسعاف، وعليه العلم الوطنيّ. ثبَّته جيِّدًا حتى لا يتحرَّك. انطلقت بعدها السيَّارة بسرعة بصوتها الذي كان يصل إلى أطراف المدينة، تسبقها وتفتح أمامها المسالكَ، شرطةُ الطرقات التي جاءت لهذا الغرض.

بعد لحظات، انعطفت السيَّارة نحو طريق الساحل، باتِّجاه جامع منارة سيتي الأعظم.

ـ تعرف الأغنية اللي تقول إذا طاح الليل وين نباتو؟

تساءل ريزو، وهو يركِّب جملته بصعوبة.

ـ فراش حرير ومخدَّاته. هذا ما تقوله الأغنية.

ـ راحوا يدفنون كازانوڤا في فراش حرير؟

ـ اسأل الإمام زكريًا، والشيخ منصور، يا ريزو، هما أعرف الناس بما يجب فعله وتدبيره. أنا، كما أنت. حشيشة *طالبة معيشة، إذا وجدت فطورها، غاب عليها العشاء.*

لم يردّ عليه.

نسي ريزو نفسه، وركض متدحرجًا، مع الراكضين وراء سيَّارة الإسعاف.

فجأة أطلّ مسعود برأسه.

ـ صباح الخير عكاشة وليدي كيف أحوالك؟ لماذا لم تدخل؟

ـ صباح الخير عمِّي مسعود. كنت أنوي مساعدتك، لكنْ يبدو أنَّ الحاضرين كثر. أحضرت الصحف والمجلَّات لجماعة لاغراند تيرَّاس، جريدة ***الغاشي ولا بوبيلاس*** اليوميَّتين، والمجلَّات الأسبوعيَّة ***الجسم السليم*** الرياضيَّة، ***والفتاوى*** المجلَّة الدينيَّة، ***بليزير Plaisirs*** بالفرنسيَّة والخاصَّة بالموضة، ***وأخبار الجريمة*** المهتمَّة بشكل فاضح بالجرائم اليوميَّة، وبزنا المحارم وجرائم الشرف ورحلة التائبين من المهرِّبين، والمغنِّيات، والفنَّانين، والكتَّاب والعلماء. يبدو أنَّهم منشغلون جدًّا، بالمستجدّات التي قلبت كلّ الحسابات والتوازنات. هم لا يقرأون باستثناء عليلو ويونس وهارون، إلَّا مجلَّة الفتاوى، يطالعونها، من حين لآخر، أو بليزير لزوجاتهم أو بناتهم. بشير متابع مداوم ***لأخبار الجريمة***. هل من جديد عمِّي مسعود حول التوريث؟

ـ حالة معقَّدة. لكنْ لا أعتقد أنَّ النهاية اقتربت.

ـ لم يتَّفقوا حتى الآن. السواد والدخان الأسود. العلم الأخضر لم يُرفع بعد على الخُلْوَة. يقولون إنَّ سيِّدي لوط ترك وصيَّة لدى إحدى زوجاته، فأحرقتها، لأنَّها لم تجد ابنها في القائمة!

ـ كازانوڤا ليس غبيًّا يكون سجَّل كلّ شيء عند الموثِّق. ستظهر إذا كان هذا الكلام صحيحًا

ـ كأنَّهم خائفون من عليلو، يبعثونه لكلِّ المهام الخارجيَّة. يجري ويطلع وينزل مثل الآلة. قبل شوي كان في المقبرة ليعاين قبر سيِّدي لوط الذي جهَّزه هو بنفسه في حياته. قبر مليء بالنوَّار، كأنَّه حديقة. فقد اشترى قطعة أرض داخل المقبرة، له ولنسائه فقط، ما عدا مباركة. حتى ساراي لها قبر هناك على الرَّغم من أنَّها متزوِّجة في الجنوب.

فجأة، سمعا صوتًا خشنًا وجافًّا شبيهًا بالصراخ، مزمجرًا، يأتي من أعالي لاغراند تيرَّاس. رفعا رأسيهما. رأيا بشير ينظر إليهما بجمود. كان وجهه محمرًّا وثقيلاً، وبه أسئلة غامضة.

ـ شكون هذا الرناكة اللي معك. واش جاب ربّه هنا؟

ـ عذرًا يا سيِّدي بشير، هذا عكاشة. كان يسخِّر لسيِّدي لوط كلَّما أحتاجه. هو اللي يجيب لكم الجرائد والمجلَّات، ويقوم بالمرافقات والمشتريات العاجلة. هو ابن الدار.

ـ كابي؟

ـ نعم. عكاشة. أبوه من أولاد جلال يا سيِّدي. أخيار الناس. أمَّه تعمل فرمليَّة[١] في مستشفى منارة سيتي الكبير.

---

(١) من الفرنسيَّة infirmière، أي ممرِّضة.

ـ طلّع الجرائد والمجلّات. وما نحبّش نشوف هذا الفرخ يزيد يدور هنا. وإلّا ستطرد أنت أيضًا

ـ حاضر يا مولاي.

ـ وطلع معك الكثير من الفحم الحجريّ. الموجود نفذ من الصباح.

ثم اندفن في أعماق الخُلْوَة من جديد.

التفت مسعود نحو كابي من جديد.

ـ وليدي عكاشة عذرًا. ما تزعفش. يبدو أنَّهم متعبون. ما وجدت في فمي حتى شيء أقوله له إلّا أولاد جلال. أنا لا أعرف والدك. أبناء الحرام يقولون إنَّ أمّك راحت مع سائح فرنسيّ، وتركتك عند جدَّتك.

ـ ههههه. عرفني يا عمّي مسعود. هو نفسه قال الفرخ. بالعربي الفصيح اللقيط. أتمنَّى أن أصل يومًا هذه الخلوة فقط، لأنتقم منه وأمضي بعيدًا ولا ألتفت ورائي.

ـ من يصل إلى هذه الخلوة التي أقفلت كلِّ أبوابها؟

ـ سأصلها لو تعرف الحقيقة يا عمّي مسعود تندب خدودك. والدي تعرفه جيِّدًا وسأقول لك عنه. بشير يعرفني، وكأنَّه يخاف منِّي، مع أنِّي لا شيء أمامه. نسيت كلّ شيء، يا عمّي مسعود، حتى ما معنى أن يكون لك أب، أو أم، أو أن تكون ابنًا لقيطًا، أو لأسد، أو حتى لحمار. ذئب البراري أنا، يا عمّي مسعود. ولدت من تزاوج غريب بين ذئب وقردة. من لولو وتشيطا ههههه.

ـ خفت فقط يطردك من عملك في الحمَّام، أو يسمعك كلامًا خشنًا بشير عنيف جدًّا يُقال إنَّه ضرب زوجته الأولى حتى دماها،

وسُجِّل في محضر الوفاة أنَّها سقطت في الحمَّام، فارتطم رأسها بحافَّة البانيو. سيِّدي لوط هو من عتقه من السجن، وإلَّا لكانت كارثة عليه وعلى أهله. كلمة سيِّدي كانت مسموعة قدَّام مدير أمن منارة سيتي، ورئيس قضائها، والمسؤول العسكريّ. كلّ القماقم كانوا في يديه، فهل يستطيع أبناؤه فعل ذلك؟

ـ تحضر الدفن عمِّي مسعود؟

ـ لا أستقبل الزوَّار. ربَّما احتاجوني أيضًا لنقل ضيف ما

ـ ربِّي يعينك عمِّي مسعود، ربَّما كنت أجمل وأصدق من في *الدار الكبيرة*.

نظر كابي إلى الساعة.

ـ حان موعدي.

لم يستمع حتى لردّ مسعود. حرَّر درَّاجته الناريَّة. سار باتِّجاه موعده.

فتح كابي سياج المقبرة. دخل بهدوء. دار طويلاً حول القبر قبل أن يجده. كان قلبه مليئًا بالرماد. ثم نظر إلى القبور المتداخلة، لناس بلا شواهد. المقامات تتحدَّد من الشواهد. هناك أحجار كُتب عليها بالطباشير الاسم: *أحمد ولد ابن أحمد*، *ولد خضرة بنت الجيلالي*. وهناك أسماء على شواهد رخاميَّة كتبت بماء الذهب، في مربَّع المدينة، لأعيانها وكبارها ومسؤوليها

كان القبر واضحًا استغرب كيف لم يره! مع أنَّ المربَّع الواسع يظهر جليًّا معزول ومحاط بأربعة قبور.

وقف عند قبر كازانوڤا

فجأة، حاذاه شخص لم يره أبدًا شابّ أكبر منه بقليل. على

رأسه كاسكيت لفريق البيزبول الأميركيّ. ينتعل باسكيت بيضاء، وعلى أذنيه سمَّاعتان. قبل أن يصل إليه، أشَّر بعيدًا نحو الطريق العالي. ثم قال بصوت خافت:

ـ هذا طريق سيَّارة الشرطة الأوحد التي تقلّ رئيس المحكمة العليا، وقائد الناحية العسكريَّة ومدير الدائرة الأمنيَّة ومدير البنك الوطنيّ، ورئيس الغرفة التجاريَّة، ورئيس مكتب التحرِّيات السرِّيَّة ومكافحة الإرهاب والجريمة. بعد صلاة الظهر بنصف ساعة لا أكثر يمكنك أن لا تصلِّي اليوم، فقد صلَّت الملائكة في مكانك. يقول سيِّدي منصور أبو ذات النطاقين إنَّ الملائكة تنوب عن الشهيد في صلاته.

هزّ كابي رأسه أن نعم. ثم واصل المجهول كلامه.

ـ لكن، انتظر بالقرب من الهوَّة، هناك من يعطيك تعليمات التنفيذ الأخيرة.

ثم غادر الشابّ المكان، وبدأ يركض بخطى رياضيَّة متوازنة، ويستمع إلى الموسيقى. غاب بين الأشجار حتى اختفى نهائيًّا واصل كابي اكتشافه للمساحة الخضراء التي اشتراها كازانوڤا له ولزوجاته، ليُدفنوا فيها جميعًا

سمع صوتًا يأتي من بعيد. رفع رأسه. رأى ريزو يقف بالقرب من أحد القبور:

ـ اسمع يا كابي. صحّ أنا حشَّاش وسكِّير وعربيد وفاسد، لكنْ أخلاقي أفضل من أيّ منهم، بالخصوص وجوه الشرِّ الذين تصاحبهم هذه الأيَّام. هذا الذي كنت معه حسين كامورا، يُقال إنَّه يتعاون مع مجموعة *الغاضبون على الله*. يستعملونه. لكنَّه يحتفظ بشاهده. يسهّلون

له الحركة في سوق المخدِّرات. جزء كبير من تسويقها في ثانويَّات منارة سيتي، يمرّ عبر قنواته. يغطِّيه الحاجّ منصور تاع الفيستي. احذر يا كابي. هؤلاء قتلة، لن يرحموك. أعرف أنَّك لستَ منهم، ولن يقبلوا بك هم أيضًا

ـ لا عليك يا ريزو خويا أعرف أنَّ قلبك أبيض.

ـ شفتك لمّا دخلت لگاراج عيسى لعور.

ـ هاه. كنت أبحث عن قطعة غيار للموبيلات.

ـ لا يهمّ. أعرف جيِّدًا مهنة عيسى لعور. أنت خويا، وما نحبّش يلعبون بحياتك. ملائكتهم كاذبة كلّها خذ. هذا معك، ربَّما احتجته.

ـ ماذا تفعل يا ريزو.

ـ اشتريته للحاجة. من يدري. زماننا زمن الذئاب، إمَّا أن تأكل أو تؤكل، لا خيار ثالث. خبَّأته في المقبرة. في كلّ مرَّة يهجمون على البيت. أنت أرزن. ربَّما احتجته أكثر منِّي.

ثم رفع معطف كابي، وثبَّت مسدَّس بيريتا تحت الحزام.

ـ احذر، هو جاهز للاستعمال. حبِّيت نخبّرك بشيء ثاني، متأكِّد من أنَّك لا تعرفه. وجدوا البارحة الطبيبة شافية مذبوحة، ومرميَّة في حيّ شِّيرَا القتلة لا يلعبون يا كابي. ربَّما شافوها معك؟ لهذا قلت لك احذر. يد الشيخ منصور، أبو ذات. واضحة.

اهتزّ كابي في مكانه، كأنَّ تيَّارًا كهربائيًّا اخترقه من الداخل.

ـ من أين استقيت خبرًا خطيرًا كهذا؟

ـ هو في شريط أخبار كلّ القنوات الوطنيَّة، الخاصَّة والعامَّة. لم يعد سرًّا

مشى ريزو مترنِّحًا بين القبور. بينما كان كابي يحاول أن يشدَّ رأسه بين يديه لكي لا ينفجر

التفت كابي نحو قبر كازانوڤا الجاهز، والمساحات الخضراء من حوله والأشجار. قرأ ما كُتب عليه بماء أصفر يُقال إنَّه ماء الذهب:
هنا ينام عبد ربّه الشهيد لوط بن عبد ربّه بن عبد القادر الجلاليّ ولد شايب الذراع ولد قليس ولد ماسينيسا ولد ياسين ولد سيدي أحمد الخلويّ الهاشميّ العلويّ ولد المنوّر.

تذكَّر فجأة ميما مباركة وليان.

وعد ليان من يومين أن يلعب معها بالطائرات الورقيَّة. كان يشتهي أن يمدّ رأسه على صدر ميما مباركة، وينام خمس دقائق، ليعرف ماذا يعني أن تكون لك أمّ حقيقيَّة، وأن يسمع ليان تعزف بالسانتور الذي هرَّبته من موت والدها

الصدفة هي التي جعلته يلتفت صوب الجهة اليمنى حيث *الدار الكبيرة*. رأى من المرتفع، دخانًا أسود كثيفًا، كان يصعد عاليًا بلا توقُّف، من على رأس لاغراند تيرَّاس.

تحسَّس كتلة المعدن التي كانت تغطِّي بطنه وجزءًا من صدره، والخيط الرفيع الذي ينزل من جانبها السفليّ، الذي حوَّله في ثانية واحدة إلى إلٰه صغير متحكِّم في الكثير من الأرواح، يمحو من يشاء من هذه الدنيا، ويترك من يريد. استمرّ عيسى لعور في تركيبها على جسمه، أكثر من نصف ساعة. كان مثل طبيب جرَّاح وهو يربط أسلاكها الكهربائيَّة الرقيقة، أيّ خطأ صغير يمكن أن يؤدِّي بحياة الجميع في ثانية.

في البداية، شعر كابي ببرودتها وثقلها، لكنّه سرعان ما تعوّد عليها

تراءى له وجه شافية آخر مرَّة ناصعًا، وهي تضع في كفِّه وثيقة الأُبوَّة، على الرَّغم من حزنه العميق، وغضبه الدفين منها.

أغمض عينيه لينسى كلَّ شيء دفعة واحدة، ويحوِّل ذاكرته إلى بياض يشبه اللاشيء، يشبه الموت فقط.

٣

يا دري؟ لمَّا يموت الريزو وكابي واش من جماهير ستتبعهما؟ أحبابُنا فقط، القططُ الخلويَّة، الذبابُ والفئرانُ والتيفوسُ والكلابُ الجرباء التي تنسى الموكب الجنائزيّ، وتتقاتل على ما تصادفه في طريقها، الدوابُ المهملة في الطرقات، التي أرهقها سنّها، وحفنةٌ من قطّاع الطرق والسارقون، وتجّارُ الشيرة والمحابسيَّة من أصحاب التأبيدات، وبعضُ المجرمين الصغار الذين يحضرون فقط للتنكيت على سذاجتنا، ربَّما أشركونا في بعض حماقاتهم الكثيرة هههه.
أفضل من هذه الأثقال وهذه السيَّارات التي تنتهي ذات يوم في لا فيراي[1]

لم يعرف كابي لماذا قال ريزو هذه الجملة، ولا لماذا تذكَّر هذا الشابّ الذي لا يصحو من الحشيش؟ ريزو لا وجود له، إلَّا داخل الحشيش. ينام فيه ويستيقظ فيه. حتى الشرطة ملّت من سجنه. الكثير

(١) من الفرنسيَّة La ferraille أي قطع حديديَّة مهملة.

من المداهمات لم تُظهر أيّ شيء، سوى قليل من الحشيش للاستهلاك الفرديّ. يصادرون ما عثروا عليه، وفي اليوم الموالي، يطلقون سراحه. يهذي عندما يصل إلى سقف *المحنة* كما يسمِّيها، حيث يُصاب الإنسان بالعمى الكلّي، لكنَّه لا يعتدي على أحد. كلَّما نزل إلى وسط منارة سيتي، وضع كلّ ما في جيبه في أيدي الشحَّاذين. يقول إنَّه يعرف من العينين الشحَّاذ الأصيل والشحَّاذ الكاذب. لم يبع قطعة واحدة في الأماكن العامَّة، ولا في الثانويَّات التي استولى عليها حسين كامورا، ولكن للمستهلكين مثله الذين، عندما تشتدّ بهم الحاجة، يعرفون أيَّ باب يدقُّون عليه. يرى يوميًّا كيف أصبحت المؤسَّسات التعليميَّة، وحتى الجامعات، مكانًا مربحًا لبيع الشيرة والحشيش. يعرف بالأسماء، أغلب الذين يتحكَّمون في سوق المخدِّرات في هذه الأمكنة.

لم يوقف كابي سيره باتِّجاه أعالي المدينة. كان يمشي بخطًى حثيثة، مغمض العينين، باتِّجاه درب الفقراء، في حيِّ الشِّيرَة، على الطرف الآخر من المدينة حيث يتجمَّع الحشَّاشون، والمجرمون الصغار، والذين يبيتون في العراء، والكثير من الفقراء القادمين من مدن أخرى وقرى متعدِّدة بسبب الفقر والخوف.

قضى كابي يومه كلّه في الركض، على العكس ممَّا اقترحه عليه الشيخ منصور، أبو ذات النطاقين، الذي نصحه بالبقاء في المسجد الصغير القريب من محافظة الشرطة، هناك يقبلون بكلِّ المصلّين، حتى بيَّاعي المخدِّرات. والصلاة ثم الصلاة، حتى يحين موعده مع عيسى لعور، والصعود بعدها نحو المرتفع للِّقاء بأبي هريرة.

حتى ليان لم يردّ على تليفونها إلَّا في المرَّة الثالثة، عندما أصرَّت وذكَّرته بموعدها، بالقرب من الهوَّة حيث التيَّارات الهوائيَّة القويَّة التي

تسمح للطائرات الورقيَّة بأن تطير بعلوٍّ أكثر، كما تعوَّدا أن يفعلا دائمًا، مع آخرين.

جاءته كلماتها واحدة، واحدة، بأناقتها الشاميَّة الجميلة التي حفظها عن ظهر قلب.

ـ لا تنس، أرجوك، هاذي عاشر مرَّة بتوعدني. راح أكون هناك حتى ولو لم تأت.

ـ ولو يا قلبي. راح أكون معك. ونركض معًا وبعدها توعديني تدخلي للبيت فور الانتهاء من اللعب.

ـ أوكي. وعد. يمكن أنا كمان أنزل شوَيْ برفقة ماما مباركة، هي تقضي حاجاتها من منارة سيتي، وأنا أغنِّي شوَيْ بالميترو. عمّو صالح بيدافع عنيّ كثير. عارفة إنَّك أنت اللي وصّيت عليّ.

ـ اتّفقنا بوسي لي حبيبتي ليان ومامتها الطيِّبة.

ـ ماما مباركة، أحلى ماما في الدنيا

سمع فرقعة صوتها الطفوليَّة، من وراء التليفون.

تمنَّى كابي، دائمًا، أن تتحسَّن أوضاعه وينقل ميما مباركة نحو مكان أجمل، ويدخل ليان في مدرسة موسيقى كبيرة، كما وعدها والدها يومها قبل أن يسرقه الموت. أصبح يخاف عليهما، ويغار من العيون الكثيرة التي تترصَّدها كلَّما خرجت تلعب، أو وقفت تعزف على حوافّ الميترو.

قبل ستَّة أشهر، كتب عنها هاكر معروف، يلقِّبه أصدقاؤه، كوتر، أي السكِّينة الحادَّة. فقد جعل من اقتحام حسابات الآخرين للفيسبوك مهنته الأثيرة. يتصيَّد ويرصد العشَّاق، ثم يدخل إلى حساباتهم ويستولي عليها ويبدأ في المساومة. يسجِّل المحاورات العشقيَّة، وكلّ

الحميميَّات، حتى محاورات الجنس الافتراضيّ، ويبعثها في شكل مقتطفات للأصدقاء، ثم يبدأ في عمليَّة الابتزاز. إمَّا الدفع أو الفضح. وصل إلى درجة تحرير ما يريده على صفحات من يقرصنهم.

في حيِّ الشِّيرَا، كلّ شيء ممكن. حتى الابتزاز هو وسيلة عيش، مثله مثل بقيَّة الأعمال.

آخر مرَّة، نشر صورة تظهر فيها ليان بلباسها الجميل الذي اشتراه لها كابي بمناسبة عيد ميلادها وكتب تحتها *أنا ليان. شاميَّة أصيلة. أرغب في الزواج مع من يسترني. سارعوا* ثم كتب تعليقًا آخر: *انظروا ما أحلاها من يظفر بهذه الصبيَّة، له بيت في الجنَّتين، في الأرض والسماء. سوريَّة، مشرَّدة، لا تطلب إلَّا أن يسترها زوج مسلم وخلوق.* لم يكن كابي يعرف بالقصَّة إلَّا عندما أخبرته مباركة، وحذّرته من الإقدام على أيَّة حماقة، لن تغفرها له.

في الصباح الباكر، تأمَّل آخر بوست وضعه كوتر. صعدت النار إلى رأسه وهو يقرأ التعليق الذي دوَّنه: *شابَّة سوريَّة، لمن أراد أن يتبنَّاها وينقذها ويتزوَّجها، تُقيم عنده سنة، وبعدها تحلّ له. سارعوا، وسنفصل في الأمر بالقرعة. لاحظ كابي أنَّه تقدَّم لها في اليوم الأوَّل فقط أكثر من ألفيْ خطيب، بصورهم ومناصبهم. في اليوم الثاني، تقدَّم ثلاثون ألف، وفي اليوم الثالث، أكثر من مائتيْ ألف مترشِّح للزواج بها بعدها لم يعد يفتح الحاسوب.*

ظلَّت مباركة تصدّ جيرانها الراكضين نحوها لخطبة ليان، بأنَّها مثل ابنتها، وأنَّ عكاشة عينه عليها. هو مظلوم مثلها، وهي يتيمة. مقطوعين من شجرة. فقط لكي يبتعد عنها الشباب، أو من يريد أن يعاكسها فكَّرت أن تقول إنَّها مسيحيَّة، لتبعد أكبر عدد من الناس عنها، لكنَّها خافت عليها

لم يتمالك كابي وهو يقرأ البوست الأخير. كان يعرف جيِّدًا أين يعثر عليه مع قافلة الكلاب، كما يسمِّيها، التي تتبعه. ذهب نحوه مباشرة. وجده منهمكًا في تليفونه الذكيّ. يتضاحك عاليًا مع أصدقائه، وهم يسخرون من شابَّة كانت تحكي لصديقها لذَّة الليلة التي قضياها معًا واستولى على كلّ رسائلها

اقترب منه. ضربه بقوَّة على يده. سقط التليفون. ثم رفسه بحذائه، فتكسَّر زجاجه إلى آلاف القطع.

صرخ كوتر وهو في قمَّة غضبه:

ـ يا الكبّول ابن الكبّول، هل تعرف ماذا فعلت؟ سامسونغ يا يماك، سامسووونغ، آخر موديل. ستدفع ثمنه دمًا اليوم أذبحك، وأحوّل رأسك إلى كرة يتسلَّى بها العابرون.

ـ الكبّول جاي اليوم ينحّي لك يمّاك يا فرخ العسكر. انتهى اللعب. كلّ ناس شِّيرَا يعرفون علاقة أمِّك بضابط الربط العسكريّ، يأكل عندها وينام عندها

ـ أنت تبحث إذن عن الموت. أنت لا تعرف من هو كوتر؟

ـ من يكون؟ شكارة خراء فايحة.

أخرج كوتر سكِّينته الحادَّة. ضغط على الشفرة. أخرج رأسها الحادَّة، حتى لا تكون قاتلة، ولكن ممزِّقة للوجه أو الذراع. وما كاد كوتر يرفعها، حتى تلقَّى ضربة قويَّة في حجره جعلته يندفع على إثرها إلى الأمام. ثم قبض كابي على يده التي تحمل السكِّينة، فعوجها حتى أحسّ أنَّه كسرها، ووجّهها نحو وجهه. غرس الشفرة الحادَّة على خدِّه الأيسر، ثم سحبها بسرعة برقيَّة، من فوق لتحت، فانبعث الدم في شكل خطٍّ مستقيم. ثم دفن رأس السكِّينة في عنقه حتى دخل رأس

الشفرة، ففار الدم بكثافة. اضطرّ كوتر إلى أن يتخلَّص من السكِّينة، ويتركها تسقط أرضًا

ـ هل تريد أن أذبحك يا فرخ العسكر؟ طحَّان؟ ماذا أخسر على دين أمِّك في النهاية؟ عشر سنوات سجنًا ليسمِّهما من حياة زبالة تشبه ناس هذا الحيّ العفن. وينتهي بعدها نهائيًّا، حيّ الشِّيرَا من أذاك.

ثم شدّ على رأسه، وألصقه على الحائط. رفعه عاليًا بقوَّة لم يعهدها في نفسه. أخرج كابي سكِّينة كرون داري، من جيبه. ضغط على زرِّها فانفتحت شفرتها بسرعة وعنف. شعر كوتر بأنَّ كابي سيقتله، لأنَّه رأى دمًا ملأ عينيه. بدأ يرتعش، قبل أن يشمّ المحيطون به رائحة البول التي تصاعدت من سرواله الذي رسم بقعة واسعة تشبه إحدى خرائط البلدان المنسيَّة.

ـ وين جرأتك يا صاحب الشفرة القاتلة؟

قبض كابي على حجر كوتر بحفنة يده، وضغط بقوَّة.

تأوَّه كوتر بألم ارتسم على ملامح وجهه الذي ازرورق واسودَّ من شدَّة الألم. ضغط على خصيتيه أكثر، حتى جحظت عينا كوتر، والدم يفور من عنقه، تحت دهشة أصدقائه.

ـ المرَّة الجاية نقطع لك قلاويك ونوكل لهم لك[1] بلا شفقة ولا رحمة. كلَّما أهنت ليان، تذكرت قسوة ما حدث لك. والله لن أرحمك.

ـ يا كابي. خويا كنت أمزح معها فقط.

ـ العب مع يمّاك يا الفرخ. قوَّد لأسيادك، ولكنْ ابعد من طريقي

(١) في المرَّة القادمة سأقطع لك خصيتيك وأجبرك على أكلهما.

وإلّا والله نباصي على ربّك. ليان بعيدة عليك.

تعاود تدور بها، أقطع لك راسك بلا رحمة. آخر مرَّة نشوفك في طريقي، أدمِّرك.

ـ أبدًا عوووو. كلبك أنا. آخر مرَّة.

ـ اترك هذا المكان نهائيًّا، روح العب بعيدْ. عمرك من الآن أصبح بين يديَّ.

وضغط عليه بعنف حتى جحظت عيناه.

ـ هذه المرَّة عندك شويَّة حظّ. راني مليح. في المرَّة القادمة، سأذبحك بلا ندم.

منذ ذلك اليوم، لم يظهر كوتر. اندثر فجأة من حيّ الشِّيرَا

لم يحضر حتى جنازة أمِّه التي وُجدت مقتولة في الشارع الخلفيّ للحيّ. عُثر على جثّتها في حالة تحلُّل متقدِّم.

قيل بعدها عن كوتر الكثير، إنّه امتطى زورقًا برفقة ٧٧ مهاجرًا سرِّيًا، من الساحل الخلفيّ والمعزول لمنارة سيتي، ومات في البحر. وإنَّه تزوَّج من امرأة كان يقوِّد بها مع مهرِّبي المخدّرات. لكنَّ بعضهم يقسم برأس سيدي منير، حامي المدينة والناس الطيِّبين، أنَّه رأى كوتر في جبال منارة سيتي، يُدير حواجز مزيَّفة، بلباس أفغانيّ، بلا سبَّابته، بعد أن انضمّ إلى مجموعة *الغاضبون على الله*. كلَّما أوقف سيَّارة، مدَّ رأسه إلى داخلها، يبحث بعينيه عن أحد ساكني الشِّيرَا ممَّن يعرفهم، ويحقد عليهم، لينزله إلى الوادي، تاركًا السيَّارة تمضي في سبيلها

وصل كابي إلى المرتفع، بان حيّ شِّيرَا تحته بكلِّ ضيقه وفوضاه، وبؤسه، وكأنَّه مدينة داخل مدينة. بدأ يتسلَّق الجبل بهدوء ماسحًا في طريقه الأشجار ومعالم المدينة القديمة.

رأى من بعيد الدخان الأسود يتعالى في شكل ثعبانيٍّ على رأس *الدار الكبيرة*. شعر كأنَّ لونه تعمَّق أكثر فقد أصبح أشدّ سوادًا ممَّا كان عليه. ممَّا يعني أنَّ معركة الخلافة زادت عنفًا وشراسة.

تساءل كابي، هل يرمي كلّ شيء، ويذهب نحو مباركة، فقط ليقبِّل يديها وينام على صدرها، ولا يسألها عن أيّ شيء؟ أم يركض نحو *الدار الكبيرة* ويحرقها بكلٍّ ناسها وعصاباتها المتسلِّلة، التي تُمارَس فيها كلّ أساليب القهر السرِّيَّة؟ ويطالب آل كازانوفا بحقِّه الذي سُرق منه. فهو في النهاية ابن لوط، شاء أم لم يشأ، من حقِّه أن يكون إنسانًا كما جميع البشر، قبل أن يحوَّل إلى قطعة حديد صدئة، أم يبحث عن كوتر ويمحوه من على وجه الكرة الأرضيَّة، بعد أن أصبح يشيع خبرًا مفاده بأنَّه سيختطف ليان، ويغتصبها، ويبعث الشريط لكابي الذي أصبحت أيَّامه معدودة، وأنَّه آن الأوان لكي يردّ كابي ما عليه من ديون، وذلك قبل شفاء الجرح الذي خطَّه بالشفرة على عنقه وخدِّه الأيسر.

قولوا له إذا كنت فحلاً ورجلاً، تعالَ واجهني على جبل الكبريت.

تحسَّس القطعة المعدنيَّة الباردة التي كانت تحوِّط بجسده، في شكل أسطوانات دائريَّة، مليئة بالبارود والمتفجِّرات، والمسامير وقطع الفولاذ المسنَّنة.

ما يخيف في المعدن القاتل، برودته.

من أعالي المرتفع، تأمَّل كابي مسلك الموكب الجنائزيّ الرسميّ الخالي من كلّ حركة، بعد قرار الولاية والناحية العسكريَّة بتوقيف حركة المرور حتى عبور الموكب.

تأمَّل الساعة للمرَّة العاشرة أو أكثر تمتم.

ـ أراها على الأقلّ كما وعدتها ليان تنتظرني هناك عند الهوَّة السحيقة، حيث كثافة التيَّارات الهوائيَّة. لا أريد أن أخيِّب ظنَّها. ما يزال لديّ متَّسع من الوقت لإسعادها قليلاً، للمرَّة الأخيرة. أركض معها حتى أتعبها، قبل أن أتلقَّى آخر تعليمات الشيخ منصور، أبو ذات النطاقين. لم يكن شيء في ذهنه إلَّا المشي أكثر، وإسراع الخطى، حتى يصل إلى مباركة، ويسألها هذه المرَّة عن كلّ ما يخطر بباله. ويقول لها عن كلّ شيء، أنَّ الشخص الذي تقف أمامه بأمومة هو ابنها حقيقة، وأنَّه تعذَّب كثيرًا، لأنَّه كان يعرف من هي، ولكنَّه كان مكبَّلاً بقَسَم ثقيل بينما ظلَّت هي رهينة حواسِّها العميقة التي تشبه حواسّ حيوانٍ، يشمّ الأشياء من بعيد، فيحدِّد كلّ طبائعها ويستعدّ إمَّا لحبّها أو لمواجهتها ثم، في النهاية، يُظهر أمامها وثيقة الأبوَّة والأمومة أيضًا، لتعرف أنَّه ليس زهرة، لكنَّه ابنها عكاشة، وابن لوط، ولا مانع بعدها إن تخلَّص من اسم لوط، وحمل اسم أمِّه.

غيَّر مساره نحو الهوَّة. ليان ملأت قلبه فجأة، ولا يمكنه أن يتركها وحيدة بالقرب من الهوَّة التي كانت تفصل منارة سيتي عن بقيَّة الأحياء الشعبيَّة التي نبتت مثل الفطر في محيط المدينة، وتسلَّقت الجبل وبدأت تزحف نحو الطريق السريع، على الرَّغم من أنَّ الدولة تمنع في كلّ مرَّة البناء هناك، وتهدم كلّ ما ليس قانونيًّا المشكلة هي أنَّه كلَّما جاء رئيس بلديَّة، غيَّر النظام، وباع قطعًا جديدة من الأرض، بشكل سرِّيٍّ وغير شرعيٍّ، وسمح بالبناء في مكان زراعيّ في الأصل. وعندما يُكتشف فساده، يلصق التهمة في رئيس البلديَّة السابق. وهكذا حرب خاسرة.

عندما وقف كابي على الهوَّة ينتظر ليان، رأى روحه المتعبة تصعد

عاليًا في الفراغ، قبل أن ترتطم بالسماء وتعود إلى الأرض من جديد، كأنَّه لا مكان لها، لا هنا، ولا هناك.

لم ينتبه له إلَّا عندما خرج من الصخرة الكبيرة المطلَّة على الهوَّة وكأنَّه عاد من جهنَّم. كان يحمل قنبلة يدويَّة وكلاشينكوف.

ـ لا تحاسبني يا ابني. الحذر من حبّ الله. هل قال لك عيسى لعور أنَّ اسمك من هذه اللحظة أصبح أبو حمزة؟

ـ مرحبًا يا شيخنا الجليل، قال كابي بنبرة فيها الكثير من الراحة، لا تُظهر أيّ خوف في ملامحه وفي عينيه. نعم أخبرني بأنَّ اسمي الذي سأقابل به ربِّي ليس كابي، ولكن أبو حمزة.

ـ سعيد أنَّك جاهز. أرى ذلك في وجهك. الملامح والعيون هي مرايا القلب. موعدك مع الجنَّة، اقترب. *فقد اصطفاك الله لهذه المهمَّة الكبيرة التي لم تُمنح لغيرك، فلا تخيِّب ظنّ المولى فيك وملايين المسلمين الذين يحسدونك على فرصة الجنَّة. يمكنك أن تتراجع من الآن، لأنَّ العدّ العكسيّ بدأ*

ـ قلت لك من الأوَّل يا شيخنا الجليل، لقد خسرت الدنيا، لا أريد أن أخسر الآخرة. ألم تقل لي في إحدى محاوراتنا، إنَّه يجب أن لا أخاف من موت يقرِّبني من الله؟ وأنا موافق. طلب واحد ووحيد، أن أودِّع ليان باللعب معها قليلاً بالطائرات الورقيَّة. أبعثها بعدها لبيت ميما مباركة، وأنا أصل معكم تنفيذ المهمَّة.

ـ صعب. صعب جدًّا أن تذهب يا أبو حمزة، حتى البيت لتوديع ليان، والعودة.

ـ قلت لك ألعب معها هنا في الهوَّة، قليلاً هي من يأتي نحوي وليس أنا.

ـ في هذه الحالة ممكن.

تأمَّل كابي الهوَّة الفاصلة. كم كانت عميقة! حبّ أصحاب الطائرات الورقيَّة المجيء إلى الهوَّة، متأتٍّ من طبيعة المكان، ودوران الهواء فيه بسرعة، ممَّا يساعد على رفع الطائرات الورقيَّة، على أقاصي السماء.

عندما رفع كابي رأسه، رأى ليان وهي تركض باتِّجاهه. بينما اختفى الشيخ منصور نهائيًّا، وكأنَّ الأرض انفتحت، فابتلعته. عرفها من بعيد. أغمض عينيه طويلاً تمتم. *الحمد لله وصلت في الوقت المناسب*. رآها تطير. رجع قليلاً إلى الوراء، ثم فتحهما من جديد. هي. تأكَّد بسهولة من شعرها الأحمر الذي ارتفع عاليًا، تعبث به الرياح الغباريَّة. خاف أن تكون تحمل معها خبرًا سيِّئًا عن مباركة التي بدا الوهن عليها واضحًا، بعد اللقاء الأخير مع كازانوڤا ليان، تحمل قلبًا صغيرًا هشًّا، ومجروحًا كما في اليوم الأوَّل عندما نزلت من الفراغ، على هذه الأرض.

جرت نحو كابي. عانقته. بقيت لحظات متتالية ملتصقة به.

ـ اشتقت لك كابي حبيبي. ما شفتك من يومين، ليش بتعمل فيني هيك؟ مش قلت لي إنَّك راح تكون مكان بابا؟

وأخويا وحبيبي؟ بدِّي اليوم ألعب معك. ما بدِّي ألعب مع حدا غيرك. لا، لازم تلعب معي، وإلَّا راح زت حالي من أعلى الحافَّة، نحو الحفرة العميقة، وأموت وتبقى بدون حبيبتك ليان.

ـ وأنا ليش طلبت أشوفك؟ مش اتّفقنا؟

ـ آه. خفت تتراجع مثل ما بتعمل معي دومًا بعرف أنَّك تحبّني وتخاف عليّ، وما بدَّك تزعلني، بس عمّ بتغيب عنِّي كثير يا قلبي. ما

شفتك من فترة. كلّ ما أدقّ على باب دارك أنا وماما مباركة، ما فيه حدا بالبيت، إلَّا قطّك وحيد، اللي بيحرس باب البيت. وحيد مثل أفلام زمان اللي كان بابا بيحبّها كان فريد الأطرش فيها، اسمه وحيد.

ثم قهقه كابي عاليًا.

ـ لا تخافي. مو قلت لك إنَّه قط لطيف ما بيخرمش.

ـ أعرف. خلاص نلعب لعبتنا المفضَّلة؟ أنت تكون بابا وأنا ابنتك، وتبحث عنِّي ولا دليل لك إلَّا الطيَّارة الورقيَّة. مثلما كنت أفعل مع بابا حبيبي يا اللي سرقوه منِّي، ونحن على مرتفعات قاسيون العالية التي نرى من خلالها الشام اللي بحبّها كثير. أنت من زمان ما لعبت معي. هلَّأ بدّك بس تتفرَّج فيني ما بتلعب حتى أقول لك. أحضرت طيَّارتين. خذ هذه لك، والثانية لي. لمَّا أجري أنا على اليمين، اركض أنت على الشمال، ولا تتوقَّف حتى ما بتنزل الطيَّارة. المهمّ ما بيسقط مطر كثير، بس تعالت الطيَّارتان الورقيَّتان بسرعة. ساعدتهما الرياح القويَّة على الارتفاع.

ركض كابي مثل ذئب صغير، بعد أن لاحظ أنَّ طائرته لم تنزلها الرياح. كانت ليان قد اختفت وراء الهضبة العالية، ولم يعد يرى إلَّا طيَّارتها وهي تتعالى وتخترق أكداس الغبار. كان صوت ليان يأتي صافيًا ومشرقًا *طيري يا طيَّارة طيري، يا ورق وخيطان، بدِّي أرجع بنت صغيرة، على بيت الجيران*.

لمع البرق فجأة. نظر نحو السماء. غابت فجأة. انتبه للأدخنة الرماديَّة التي كانت تتصاعد بتثاقل أكثر، على لاغراند تيرَّاس، والتي تؤشِّر بأنَّ حلًّا قريبًا في الأفق. أدرك لحظتها أنَّ آل كازانوفا لم

يتوصَّلوا بعد إلى الحلّ المرجوّ تحسَّس تلقائيًّا الورقة التي كانت في جيبه. تمتم: *هذا يعني أنَّ هناك مفاوضات تجري على قدم وساق، وتنازلات كثيرة من هنا وهناك. الذئاب، في النهاية، تتَفق دومًا على شيء واحد، مصلحتها وضحيَّتها* لم يعر ذلك أهمِّيَّة كبيرة.

واصل جريه. الطيّارتان الورقيَّتان تصعدان أكثر نحو فراغ السماء. التيَّارات الهوائيَّة الباردة تعلِّيها بسرعة وتلعب بها مثل ريشة في مهبِّ الريح. مهارة ليان جعلت طيَّارتها تعلو أكثر. فجأة بدا كأنَّ سرعتها خفَّت. النداءات التي كانت تصله من ليان لم يعد بها فرح، كانت تخترقها بحَّة خوف. كثيرًا ما انتهت بينهما لعبة الطيَّارات الورقيَّة ببكاء وعويل. وعندما يقول لها بلهجتها التي أصبح يتقنها *هاذي حبيبتي ليان لعبة مو أكثر. مجرَّد طائرات ورقيَّة.* تُجيبه وهي لا تستطيع أن تسيطر على رجفتها: *لا يا كابي، يا اللي شفتها أنا بالأوَّل ما كانت طيَّارة ورقيَّة، طائرات حربيَّة*، وحياة بابا وماما وميما مباركة، *أنا لا أبكي إلَّا عندما تتحوَّل طيَّارتي الزغيرة، إلى طائرة حربيَّة مثقلة بالقنابل الضخمة.*

تعالت الطائرتان، أكثر فأكثر، حتى التصقتا ببعضها بعضًا هذا يعني أنَّ إحداهما ستسقط ويخسر المنافس حربه.

حاول أن يفكّ طائرته، وهو مستغرب، لأنَّ ليان لها طريقة عجيبة في عمليَّة الانفصال بتحريك خيوط الطيَّارة. كان يراقب الخيط وهو يهتزّ، من وراء التلّة الصغيرة. ضحك. هههه. *ليان تورَّطت*، وستكون خسارتها التاريخيَّة الأولى معي. *تمنّيت أن أنغِّص عليها قليلاً، وأقول لها: أنا أقوى منك يا ليان، تتذكَّري هذاك اليوم لمَّا أسقطت فيه طيَّارتك؟*

فجأة، رأى طائرة ليان تعلو في عمق السماء بعد أن انفصلت عن

طيّارته للمرَّة الأخيرة. تمتم، خلاص، *بدأت تفكّ هذا الالتصاق*. لكنَّ الطيَّارة استمرَّت في صعودها، ورأى خيطها الذي انفصل من يدها يسبح في الهواء، مصحوبًا بصرخة قويَّة سرعان ما بدأت تتلاشى وتخفت حتى غابت: *كاااااااااااابي*. *كاااااااااااابي*. صرخ كابي *ليااااااان* صرخ، وهو يركض باتِّجاه الهضبة التي كانت تخفيها *كاااااابي اااااااا انقذني. طيّارتي راحت من إيدي*. ترك طائرته الورقيَّة هو أيضًا نزل باتِّجاه الهوَّة. فجأة رأى رجلاً، في يده كاميرا، يقف على حافّتها وينظر إلى تحت. عندما التفت نحو كابي، عرفه من عينيه اللتين لم يغيِّرهما الكحل، على الرَّغم من اللحية الكثَّة.

ـ كوتر يا ابن الكلب، قتلتها؟

ـ لم أقتل أحدًا. كانت تلعب، فسقطت في الهاوية. لم تنتبه، رأسها كان في السماء. أنت من قتلها

عندما أراد أن يدفع به إلى الهاوية، اصطدم بجسد صلب وبارد كحائط من خوف. الشيخ منصور، أبو ذات النطاقين. عرفه من رائحته، التي تشبه رائحة الجثث المعطَّرة بالعود ونبتات برِّيَّة أخرى.

هزّ الشيخ منصور كابي من كتفيه، وهو يلتقط سلاح كوتر:

ـ لا تتركوا أعداء دينكم يفرِّقون بينكم.

لكنَّ كابي دفعه بعنف. ضربه الشيخ منصور بصعقة كهربائيَّة بالتايزر، الذي تستعمله الشرطة أحيانًا لتفريق المتظاهرين، فشلّ يديه، وسقط أرضًا زحف على الأرض حتى أصبح قريبًا من الهوَّة. شعر برغبة في العواء. عوى مثل ذئب في قفر موحش، وهو يتأمَّل بقايا جسد ليان الممزَّق على الصخور السوداء.

التفت نحو كوتر بعينين محروقتين:

ـ ماذا فعلتَ يا كوتر في حقِّ ملاك مجروح؟

ـ ألم أقل لك إنَّنا سنلتقي؟ وإنّي سأحوِّل هذه اللقيطة المسيحيَّة إلى رماد؟ كوتر لا يلعب.

تدخَّل الشيخ منصور بينهما

ـ تمالك يا رجل. لا تقل شيئًا حوقل وبسمل. الذي أمامك لم يعد كوتر، هو أبو قتادة التميميّ، الآن. سيمنحك المولى القدير، غيرها، مسلمة قنوعًا. تشبعك وتشبعها اسمع من أخيك وحبيبك الذي أنقذك في الأيَّام الصعبة. ليست أكثر من مسيحيَّة وكافرة دخلت إلى أرض الإسلام في مهمَّة تخريب عقائدنا وديننا وأخلاقنا لا تليق بك. فعلنا ما أمرنا الله به وسيِّدنا الخضر أمامك مهمَّة أنبل ستقودك نحو الجنَّة. ألم يقل شيخنا الخضر، الحذر من الأطفال واجب. والحذر من الحبّ، من الإيمان. كره الأعداء فرض عين. الحبّ يلطِّخ الروح. برهن أنَّك تريد الجنَّة، كما سيفعل أبو قتادة التميميّ، الذي أمامك.

تقدَّم كوتر بخطى باردة، بعد أن استعاد سلاحه. على حزامه ثلاث قنابل يدويَّة.

ـ بعد استشهادك يا أبو حمزة، سيختلط أبو قتادة التميميّ بالمجموعة، وهي في حالة ذعر وفوضى، يطوفون حول الضحايا، ينهي عملك الذي بدأته، بمزيد من الاستماتة. ونكون بذلك قد أبلينا البلاء الحسن في الطاغوت وصنائعه.

حاول كابي أن يحرِّك يده، بدت له ثقيلة. ظلَّ مشدوهًا في وجه كوتر، وهو لا يكاد يصدِّق أنَّه تحت رحمته. كان مثل الآلة. حركات جسده باردة مثل قطعة ثلج. في يده الآيفون وهو يقهقه بأعلى صوته،

وكأنَّه غير منشغل بأيّ شيء.

ـ الشهيد أبو قتادة التميميّ. مثلك. خرج من هذا المجتمع العميق لينتقم من كلّ الذين سرقوا حياته وحقّه الذي أعطاه له الله. لم يعد اسمه كوتر كما قلت لك، وأريدك أيضًا أن تناديه، أبو قتادة التميميّ، وأبو قتادة فقط عند رفاق الجهاد. سيدرك الظالمون أيّ منقلب ينقلبون.

ـ سيَّارة الموكب الجنائزيّ أقلعت من جامع منارة سيتي الكبير، قال الشيخ منصور. ستصل هنا، بالضبط بعد نصف ساعة، بحركتها البطيئة. أبو حمزة، اترك الأولى تمرّ لأنَّها سيَّارة تمويه، لا تحمل شيئًا مهمًّا، إلَّا الحمار الذي يسوقها ارم بنفسك على الثانية التي سيكون بها غالبيَّة المسؤولين. زبدة الطاغوت. تفادَ الثالثة والرابعة لأنَّهما مصفَّحتان. لكنْ يجب أن تنسى وتخلي ذهنك من ليان. وإلَّا ستتردَّد، والله لا يحبّ القوم المتردِّدين، وتذهب عنك الشهادة.

شعر كابي بأنَّ يديه ورجليه أصبحتا تسعفانه قليلاً مرَّت بذهنه أفكار كثيرة. يجب أن لا أرتكب خطأ الحافَّة نفسها. كان عليّ أن ألعب لعبة الصمت وأسبّق، ولو ظاهريًّا، التضحية على ليان.

نظر كابي إلى وجه كوتر الذي كان يستنشق الكوكايين التي وضعها على ظاهر يده. بدا وجهه الثقيل كأنَّه وجه عتروس مريض، بلحيته المخيفة. ثم التفت نحو الشيخ منصور.

ـ يا شيخ منصور، أبو ذات النطاقين. أعرف أنَّ ذات النطاقين تعيش في لندن، لكن هل تقبل يا شيخ منصور، أن تُقتل ابنتك بهذه البرودة، أو تُغتصب أمام عينيك.

ـ ذات النطاقين من ذرِّيَّة الإسلام، على العكس من ليان، فهي

مسيحيَّة كافرة.

ـ كيف تزوَّجت إذن من شابّ إندونيسيّ بوذيّ؟

ـ بوذيّ مسلم.

ـ كيف؟

ـ يجب الحذر من دعاية الطاغوت. ثم. هل نسيت أنَّ السؤال قبل العمليَّة يفسد الطباع، ويقلِّل من الهمَّة. النظام مثل السمك، يفسد أوَّلاً من رأسه، لذلك يجب ضربه هناك، حتى لا تقوم له قائمة، وبعدها يستوي كلّ شيء.

أراد كابي أن يفرغ كلّ ما في قلبه، لكنَّ السؤال بدا له غبيًّا الطاحونة كانت قد بدأت عملها

عندما رفع رأسه قليلاً نحو السماء، رأى الطيَّارتين الورقيَّتين تلتصقان للمرَّة الأخيرة، ببعضهما بعضًا، وتعلو بهما الرياح بعيدًا داخل عاصفة من الغبار والأوراق، حتى غابتا

حاول أن يقوم، كأنَّ شيئًا لم يكن.

هزّ رأسه قليلاً حاول محو كلّ الصور التي برأسه.

عندما التفت نحو المدينة ليودِّعها للمرَّة الأخيرة، رأى الدخان الأبيض يصعد عاليًا في شكل متعرِّج، تحت وقع الزغاريد، التي كانت تأتي من بعيد لا يعلم إذا كانت حقيقيَّة، أم أنَّها كانت في دماغه المتعب فقط. تذكَّر فجأة كلمة خلدون وهو ينظر إلى عينيه عميقًا، كأنَّه كان يحاول اختراق غلاف أسراره: *لا تُخطئ يا كابي. سيُعترف لك بحقِّك في أبوَّة كازانوڤا على الورق، لكن لا توهم نفسك. الضباع تتَّفق دائمًا على رأس ضحيَّتها، لن تجد لك مكانًا بينهم. أنت ابن الخادمة*. رأى العلم الأخضر يرفرف. تخيَّل الفرحة الكبيرة في خُلوة

لاغراند تيرّاس. تمتم مرّة أخرى وهو يردّ على خلدون: *من أنا يا عمّي خلدون؟ نبتة جاءت خطأ إلى هذه الأرض، وعليها أن تعود إلى الغبار الذي خرجت منه ونبتت فيه. الشيطان أفضل منّي بكثير، نحن من نار ورماد، وسلسلة من الخطايا تحملها معك حتى النهاية، وأبونا الأوّل أيضًا، آدم، لم يكن أفضل منك ومنّي، وجد نفسه بين امرأة وتفّاحة وشجرة يانعة من المعرفة، أراد أن يفهم زيادة، فوجد نفسه في صحراء الربع الخالي. وحدها الصدفة كانت عادلة معي يا عمّي خلدون.*

وضع رأسه بين يديه، فقط لينسى ما حدث. سمع من جديد صوت ليان في شكل صرخة لم تتوقّف، كأنّها كانت تأتي من أعماقه الممزّقة. أغمض عينيه، وصمّ أذنيه، لكي لا يرى ولا يسمع شيئًا

لم يستطع تفادي وجه ليان الممزّق، والطائرات العمياء التي كانت تقصف، في عمق الأناشيد الوطنيّة، والأدخنة السوداء. ثم رأى نفسه يتطاير إلى آلاف القطع والأشلاء، مثل زجاج مكسور تشتّتَ في كلّ الاتّجاهات.

لم تكن وهمًا. فقد رأى الشيخ منصور وهو يتحسَّس شيئًا باردًا تحت لباسه الفضفاض. سمع كابي أيضًا صوت سلاح أوتوماتيكيّ وهو يُجهَّز للاستعمال.

قرأ الشيخ منصور شيئًا غامضًا في عينيْ كابي:

ـ من يدري يا أبو حمزة، الخَوَنة في هذه الدنيا كثر. المؤمن الذكيّ هو من يستعدّ لكلِّ الاحتمالات.

ـ ممكن سؤال أخير يا أبو منصور؟

ـ أنت تنقص من حسناتك.

ـ لماذا قتلتم الدكتورة النسائيَّة شافية؟ كانت تعيل عائلة من سبعة أفراد.

ـ كانت تتعامل سرِّيًا مع الطاغوت.

فجأة، شعر بالوقت يضيق. والأجسام تصبح هلاميَّة. سمع صوت ليان يخترق قلبه *كاااااابي ااااااا أنقذني. طيَّارتي راحت من إيدي. كأنَّه ليذكِّره أنَّ ليان راحت.* عرف أنَّ لحظاته أصبحت محدودة. لم يفكِّر ولا ثانية. ارتمى كابي على الشيخ منصور بكلِّ قواه. أراد أن ينزع منه سلاحه، لكن هذا الأخير رماه باتِّجاه كوتر الذي التقطه بسرعة. مسدّس .P.A.

ألصق كابي جسده بجسد الشيخ منصور ومنعه من أيَّة حركة.

ـ راح تشوف يا كوتر الكلب يا فرخ ضابط الارتباط، كيف يتمزَّق جسدك في الفراغ أنت وكلبك الآمر ربَّما كنت لا أصلح لهذه الدنيا، لكنِّي لست غبيًّا لأقتل بشرًا أبرياء. عمِّي صالح كان محقًّا في كلّ ما قاله لي عنكم. عصابة من قطَّاع الطرق والقتلة.

ـ كن عاقلاً يا أبو حمزة.

ـ سنرى شجاعتكما، أنت والكلب تاعك.

ثم شدّ كابي على الخيط الناسف بكلِّ قواه.

استغرب كابي من أنَّ لا كوتر هرب، ولا الشيخ منصور الذي ظلَّ يقهقه، شعر بخوف. شدّ كابي على خيط الحزام الناسف مرَّة أخرى، ثم مرَّتين بلا جدوى.

ـ تظنّني حمارًا يا فرخ المزابل. أنت تحمل كتلة معدنيَّة لا معنى لها. قطعة حديد فارغة، لا تصلح لشيء، سوى لإظهارك في التلفزيون الوطنيّ، والشاشات العالميَّة بوصفك الإرهابيّ الذي نفَّذ عمليَّة الحافَّة، ضدّ الموكب الجنائزيّ، لأسباب انتقاميَّة. شهيد العمليَّة الحقيقيّ، أبو قتادة التميميّ. بسرعة يا أبو قتادة التميميّ. لنُنْهِ عملنا اقتله. الشهادة تنتظرك.

التصق كابي بمنصور. لم يترك عنقه. استعمله كواق لصدره. في اللحظة التي مال الشيخ منصور جهة اليمين وهو يصرخ: *اقض على فرخ لوط*، أطلق كوتر عيارًا ناريًا، أصابه في ذراعه. ارتمى كابي إلى الوراء، مغطّى بجسد الشيخ منصور. سحب بسرعة بيريطا ريزو من حزامه. ثم أطلق الرصاصة الأولى التي اخترقت ظهر كوتر، ثم رصاصة ثانية اخترقت الحزام الناسف، لا يدري كابي من أين جاءت، لأنَّه شعر بأنَّ البيريتا توقَّفت فجأة، فانفجر كوتر كقنبلة موقوتة دوَّت بقوَّة، فنسفت كلّ ما كان يحيط بها

توقَّف الرتل الجنائزيّ من بعيد، وهو يراقب الأدخنة المتصاعدة.

عندما فتح كابي عينيه، وجد نفسه مكسوًّا بالأشلاء والرماد. في رأسه طنين ثقيل، كأنَّه خرج من حرب ضروس. الكثير من المسامير ارتشقت على سطح الكتلة الحديديَّة التي كانت تغطِّي بطنه، لكنَّ الكثير منها اخترق جسده. لم يكن قادرًا على المشي، تخلَّص بصعوبة من بقايا الجزء التحتيّ من جثَّة الشيخ منصور التي طار جزؤها العلويّ. ظلَّت أشلاؤها تنزف على وجهه وصدره. بعد جهد كبير، فكّ نفسه من ثقل الكتلة الحديديَّة، وتخلَّص من كلّ أجهزتها المتناسقة بانتظام.

رنّ التليفون. عرفها من صوتها الناعم. روكينا سمعها بصعوبة كبيرة بسبب طنين أذنيه.

ـ كابي حبيبي. أنت عرفت من هو أبوك. مزِّق وثيقة مخبر الرجاء. ضروريّ. أو أعدها لي شخصيًّا قل لي أينك، سأبعث مسعود لاستلامها منك. لا أريد من أحد أن يعرف شيئًا عنها كلِّمني على خطِّي هذا، المرتسم عندك في جهازك. مدّ كابي يده إلى جيبه، وهو ما يزال في بركة من الدماء. أخرج الوثيقة التي أوصته روكينا بالحفاظ عليها حتى تأذن له متى يجب عليه استعمالها. قرأها على

الرَّغم من خطوطها التي بدأت تغيب وتتداخل، إذ تلطَّخت بالدماء: *بعد العديد من التحاليل المخبريَّة لإثبات الأبوَّة، تبيَّن لمخبر الرجاء أنَّ عكاشة هو الابن البيولوجيّ للوط ومباركة بلقاضي ٩٩،٩٩٪، وبعد تحليل عيِّنات من الأقارب، كازانوڤا، مباركة، عليلو، كابي، تبيَّن أنَّ الأبوَّة مثبَّتة ١٠٠٪.*

رأى وجهها الطفوليّ المرتبك، الطبيبة شافية، وهي تعتذر: *لقد كنت سببًا في سرقة حياتك وحياة مباركة، هذا واش قدرت ندير للتخفيف عن ذنوبي. هذه نسخة لك، والثانية سألتقي بمباركة وأسلِّمها لها بعد أن تصفو القلوب، وتأمرني بذلك سيِّدتي روكينا*

تأمَّل الورقة. وضع طرفها العلويّ بين أسنانه ثم بدأ يقضمها بدمها الملتصق بها ملأ فمه بها. شعر كأنَّه كان يأكل لحمًا نيئًا تقيَّأ دمًا

طيَّرت الرياح كومات كثيفة من الغبار الأحمر، غيَّبت السماء، والمدينة والأدخنة البيضاء، وخلوة لاغراند تيرَّاس، والدار الكبيرة، وروكينا حاول أن يجمع كلّ قواه، ويقوم، لكن أطرافه السفلى لم تسعفه. كأنَّها كانت ميِّتة.

عندما رفع رأسه قليلاً، لم ير شيئًا

شعر بجسده يبرد ويبرد، حتى أصبح جافًّا وهشًّا وحادًّا مثل قطعة زجاج، أو رأس مسمار.

نزل مطر أسود، شعر به يسقط في داخله ويخترق كلّ خلاياه الممزَّقة. أحسّ بدوار كبير رأى، أو خُيِّل له أنَّه رأى. الطيَّارتين وهما تصعدان عاليًا، وتبسطان جناحيهما بكلِّ اتِّساعهما، فبرزت ألوانهما الزاهية، قبل أن تلتهمها العاصفة التي كانت تكبر بهدوء.

قاوم بشدَّة، لكي تظلّ عيناه مفتوحتين، لكنَّه سرعان ما أغلقهما على سماء بلا قرار.

دمعتان سوداوان ظلَّتا تنحدران بهدوء على خدِّيه، في شكل مستقيم، بينما امتدَّت يده اليمنى تتحسَّس جسده الذي كان يستجيب له بصعوبة.

ـ *ألم أقل لك إنَّهم قتلة يا كابي؟*

جاءه صوت غامض من أعماقه. عرف بالكاد نبرته المتثاقلة، قبل أن يغرق في بياض الفراغ:

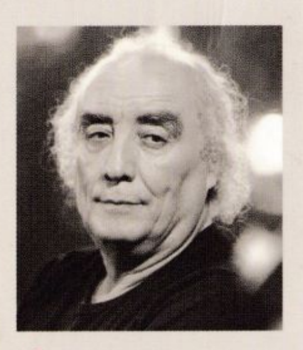
ـ ألم أقل لك إنَّ القتلة لا يلعبون، يا كابي؟

ـ ريزوووووووو؟

منارة سيتي/ خريف ٢٠١٦

CAZANOVA'S WOMEN

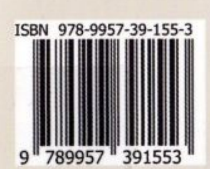
روايات



نساء كازانوڤا

رواية **نساء كازانوڤا** باروديا parodie تهكّميّة مضادّة لألف ليلة وليلة، تتحوّل إلى تراجيديا بكلّ تفاصيلها. سيّدات المجتمع، نساء كازانوڤا، الشهرزادات الأربع والخادمة: **لالّة كبيرة، لالّة زينا، لالّة روكينا، لالّةساراي، ومباركة**، يواجهن شهريارًا بلا أنياب ولا سلطة فعليّة أو رمزيّة، بعد أن سرقت الجلطة الدماغيّة كلّ قوّته الجسديّة وسلطانه، ولم يبق أمامه إلّا انتظارُ الموت، وبعضُ الأنفاس الأخيرة الّتي يحاول خلالها أن يجد مدخلًا للمسامحة مع نسائه، علّهنّ يغفرن له ما ارتكبه ضدّهنّ من قسوة. لا يريد أن يموت قبل أن ينجز هذه المهمّة. لكنّ ما كان اعتذارًا تقليديًا عاديًا تحوّل إلى محاكمةٍ حقيقيّة رأى فيها كازانوفا المآسي الّتي كان من ورائها، من خلال مرايا الحكايات. العلاقة، الّتي تأسّست مع شهريار على الهيمنة والجريمة، ستستمرّ مع كازانوڤا من خلال انقلاب جوهريّ في الأدوار. تصبح النساء في موقع القرار والمحاكمة، إذ تتقمّص كلّ واحدة دور شهرزاد في الحكي لتقول أسرارها الدفينة بلا خوف على حياتها، فقوّة الشرّ أصبحت في حالة احتضار، وكازانوڤا أصبح نمرًا من ورق. لكنّ كابي، الّذي لم يحسب أحد حسابه، يملك أوراقًا أخرى أكثر خطورةً على مصير كازانوڤا الّذي رفض الاعتراف به ابنًا له، وضحيّةً من ضحاياه. يتحوّل نصّ **نساء كازانوڤا**، في الأخير، إلى استعارة قاسية عن السلطة المتهالكة، وباروديا فاضحة عن عالم ينهار بعنف، وبلا رحمة، وحالةٌ لقيطةٌ وبلا توصيفٍ تنشأ، داخل رمادها، كل عناصر الفتنة والفرقة وبذور الموت والخسارات القادمة.

ISBN 978-9957-39-155-3



الأهلية
الأردن، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2017
الغلاف: ® ☎ 95297109 7 00962